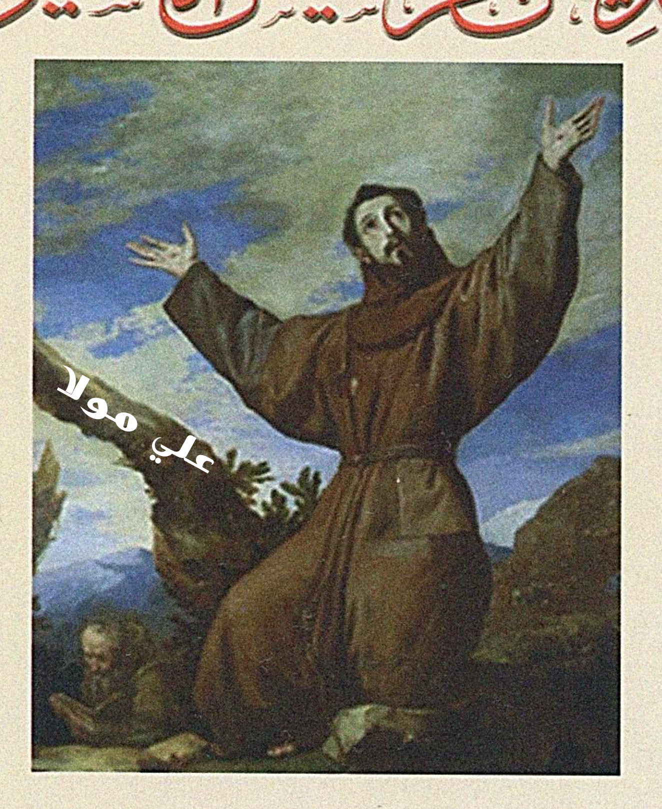
نيكوس كازنتزاكيس

فقير الله

القديس فرانسيس الأسيزي



ترجمة: سهيل نجم





فقير الله
القديس فرنسيس الأسيزي

روايات | التكوين

- الكتاب: (فقير الله) القديس فرانسيس الأسيزي
- الكاتب: نيكوس كازنتزاكيس
- ترجمة: سهيل نجم

هاتف: 00963 112236468
فاكس:00963112457677
ص . ب: 11418، دمشق. سوريا

www.attakwin.com
info@attakwin.com
taakwen@yahoo. com

نيكوس كازنتزاكيس

فقير الله
القديس فرنسيس الأسيزي

رواية

ترجمة: سهيل نجم

دار التكوين

Nikos Kazantzakis

God's Pauper St. Francis of Assisi

A Novel by
Translated by
Soheil Najm
(Second Edition)

تمهيد

لو حدث أنني قد أسقطت الكثير من أقوال وأفعال فرانسيس، ولو حدث أنني قد غيّرت غيرها وأضفت غيرها أيضاً مما لم يحدث، ولكن كان من الممكن أن يحدث، فأنني لم استمد ذلك من فراغ أو من شيء "هامشي" أو طائش، لأباري بذلك القديس مع أسطورته، مسجلاً تلك الحياة، على قدر الإمكان، محافظاً على جوهرها.

إن الفن يملك هذا الحق، وليس الحق فحسب، لا بل أن من واجبه أن يعيد كل شيء إلى جوهره. إنه يغذي القصة، ثم يختزلها ببطء، وبتألق، ويحيلها إلى أسطورة.

حين كنت أكتب هذه الأسطورة، التي هي أصدق من الحقيقة نفسها، كنت مغموراً بالحب والتبجيل لفرانسيس، البطل والشهيد العظيم. كثيراً ما كانت الدموع تبلل المخطوطة، وغالباً ما كانت ثمة يد ترفرف فوق رأسي في الهواء، يد ذات جرح أبدي، كان يبدو أن شخصاً ما قد سمرها بمسمار وإلى الأبد.

في أي مكان حولي، وحيثما كنت أكتب، كنت أحس بحضور

القديس اللامرئي، لان القديس فرانسيس بالنسبة لي هو أنموذج الإنسان المطيع، الإنسان الذي ينجح، من خلال النضال الذي لا يعرف الكلل والقاسي الذي لا يمكن وصفه، في تحقيق واجبنا السامي الأعلى من الأخلاقية أو الحقيقة أو الجمال: واجب تحويل المادة. التي وثق اللّه بنا وسلمنا إياها إلى روح.

نيكوس كازنتزاكيس

أيها الأب فرانسيس، أنا من أمسك بقلمي اليوم كي أكتب عن حياتك وعصرك، أنا الرجل العادي حين قابلتني أول مرة، أتذكر، كنت شحاذاً متواضعاً وقبيحاً، وجهي ورأسي مغطيان بالشعر. من حاجبي وحتى مؤخرة العنق ليس ثمة سوى الشعر. عيناي كانتا مرعوبتين وساذجتين، تمتمت وثغوت مثل حمل. وأنت، كي تهزأ من دمامتي وذلتي فسميتني بالأخ ليو، الأسد لكني حين قصصت عليك سيرة حياتي رحت تبكي، عانقتني بذراعيك وقبلتني قائلاً: "سامحني يا أخي ليو. دعوتك بالأسد لأسخر منك، لكنني الآن أرى أنك أسد حقيقي، لأن الأسد وحده له الشجاعة في أن يسير نحو ما تسير إليه."

كنت أتنقل من دير إلى دير ومن قرية إلى أخرى، من برية إلى برية، بحثاً عن الله. لم أتزوج فلم يكن لي أطفال لأنني كنت أبحث عن الله كنت أحصل على شريحة خبز بيد وقبضة زيتون في اليد الأخرى. ورغم أنني أتضور جوعاً، لكنني أنسى أن آكل، لأنني كنت أبحث عن الله.

سرت كثيراً حتى انتفخت قدماي، سألت ذات السؤال مرة وأخرى حتى بزغ الشعر من لساني! وتعبت أخيراً من طرق الأبواب ومن مد يدي، أولا لاستجداء الخبز، ثم من أجل كلمة رحمة وبعد ذلك من أجل الخلاص.

كل من لاقيته ضحك مني، يدعونني بالحالم أو يطرمن دونني ويدفعونني بعيداً حتى وصلت أخيراً إلى حافة الهلاك. كنت مرهقاً ورحت أجدف. فأنا بشر بعد كل هذا، قلت، أنا مرهق من السير

جائعاً ـ شاعراً بالبرد ومن طرق بوابات السماء وأراها تبقى مغلقة ـ بعد ذلك. وبينما كنت على حافة إلياس، أخذني اللّه من يدي، وأخذك من يدك أيضاً، أيها الأب فرانسيس وجمعنا معاً.

أجلس الآن في صومعتي وأراقب غيوم الربيع عبر نافذتي الصغيرة. هناك في فناء الدير نزلت السماوات: ثمة رذاذ جميل والتراب يعبق بالرائحة. أزهرت أشجار الليمون في البساتين، وفي البعيد ثمة نداءات للديكة. كل الأوراق كانت تضحك: أصبح الرب مطراً ينهمر على العالم. يا إلهي أي سعادة! وأي فرح! أنظر كيف أن للأرض وللمطر روائح السماد، وأشجار الليمون كلها تجتمع وتتحد مع قلب الإنسان لتراب. ولهذا يشبه التراب، يتمتع بشدة بأمطار الربيع الهادئة المعانقة. إن قلبي يرتوي. إنه يطقطق منتفخاً، مطلقاً شعاعاً وظهرت أنت، أيها الأب فرانسيس.

أزهر كل التراب الذي في داخلي يا أبي فرانسيس. طفحت الذكريات، وتراجع الزمن بعجلته. وعادت إلى الحياة، الساعات المقدسة التي قضيناها في الترحال معا على وجه الأرض، أنت في المقدمة وأنا أتتبع خطاك بهيبة. هل تتذكر أين التقينا لأول مرة؟ كنت جائعاً جداً في تلك الليلة، ترنحت وأنا أدخل صقلية المحتفية. كان ذلك في آب وكان القمر هائلاً. كنت قد تمتعت قبل ذلك في هذه المدينة النبيلة لمرات عدة، الحمد لله، لكن في تلك الليلة كانت صقلية شيئاً آخر تماماً، كان من الصعب التعرف عليها. أي أعجوبة كانت؟ أين كنت؟ البيوت، القلاع، الكنائس، الأبراج، كلها كانت ترفرف في الهواء، طافية في بحر نقي البياض، تحت سماء أرجوانية. كان الوقت وقت عشاء حين دخلت المدينة عبر بوابة

القديس بيتر الجديدة. كان القمر قد ارتفع لتوّه بدراً احمر لامعاً. وكان رقيقاً مثل شمس عطوف، ومن الأعالي من قلعة الروكا، يصب شلال هادىء على أبراج وقمم البيوت، مالئاً البرك بالحليب حتى تطفح وتفيض الأزقة الضيقة التي تجري مثل الجداول وتجعل وجوه الناس مشعة حتى أن كل واحد منهم راح يفكر في الله. توقفت مأخوذاً بالذي أمامي. هل هذه هي صقلية؟ رحت أسأل نفسي وأنا أرسم شارة الصليب. هل يمكن أن تكون هذه منازل وناس وأبراج أجراس، أم أنها، يمكن أن تكون، الفردوس الذي أدخله وأنا حي؟ مددت يدّي، وملأ القمر كفي. قمر حلو وجيلاتيني مثل العسل. شعرت بنعمة اللّه تجري على شفتي وفهمت عند ذلك، فنطقت بصرخة: شيء مقدس، أجل من دون ريب شيء مقدس لف المكان ورائحته في الهواء! صعدت إلى الأزقة المنعطفة وأنا أخوض في ضوء القمر حتى وصلت بايزاسان جيورجيو. كانت ليلة السبت وثمة جمع غفير من الناس قد احتشدوا. سمعت غناءً وصياحاً أجش، امتزج مع صوت الماندولين والرائحة المسكرة للسمك المشوي والياسمين والورد والكباب وهو يئز على الفحم. كان جوعي قد ازداد ضراوة. ناديت إحدى الجماعات المحتفلة وأنا اقتراب منها: " أيها المسيحيون الطيبون، من في هذه المدينة الأسيزية المشهورة يمكن ان يمنحني صدقة؟ أريد فقط أن آكل وأنام ثم أغادر في الصباح. "نظروا إليّ من الرأس إلى أخمص القدم وضحكوا. وأجابوني بفظاظة: "ومن تحسب نفسك يا جميل؟ اقترب، دعنا نعجب بك." فقلت لهم كي أخيفهم: "ربما كنتُ المسيح، يظهر على الأرض أحياناً هكذا، بهيئة متسول" فقال أحدهم ساخراً: هلاّ أعدت ذلك؟ افهم ما هو في صالحك أيها الفقير،

لا نريد لأحد أن يفسد علينا احتفالنا، هيا أسرع وابتعد! أو ننهض جميعاً ونصلبك." وضحكوا ثانية، غير أن أحدهم هو أصغرهم سنا شعر بالعطف عليّ وقال لي: "فرانسيس ابن بيترو بيرنارمن دون الشيخ ذو الأكف السخية هو من يعطيك الصدقات. وأنت محظوظ فلقد عاد أمس من سبوليتو وذيله بين ساقيه. اذهب واعثر عليه."

في تلك اللحظة تقدم عملاق قبيح، أخرق قافزاً. كان له وجه فأر وسحنته سحنة من هو مصاب باليرقان وكان يدعى ساباتيانو. كنا التقينا ثانية بعد عدة سنين عندما أصبح هو أيضاً أحد مريدي فرانسيس وارتحلنا حفاة، معاً عبر طرق العالم. في تلك الليلة، على أية حال، جعله اسم فرانسيس يقرق بخبث: " لماذا ذهب كي يقاتل في سبوليتو والجميع مبهورون بذهبه وريشه حسب اعتقادك؟ يبدو انه كان يريد أن يقوم بأعمال عظيمة، ليجعل من نفسه فارساً ولكنه بعد حين عاد إلى هنا كي يلعب دور ديك المسرّة. لكن اللّه تعالى يعلم ما يفعل. فقد صعقه على رأسه وعاد ديكنا منتوف الريش."

قفز في الهواء صافقاً يديه، وقال ضاحكاً: " لقد ألفّنا أغنية عنه، مستعمن دون يا شباب، هيا معنا الآن. وفجأة بدأوا جميعاً يصفقون ويغنون بأعلى ما يستطيعون:

لقد غادر إلى سبوليتو، لا لا، لا ـ لا

لقد غادر إلى سبوليتو لجز الصوف

لقد غادر إلى سبوليتو، تارا ، تارا

فجزوا له صوفه!

كانت رؤية النبيذ والأطعمة الشهية قد جعلتني أشعر بالوهن. فاتكأتُ على دعامة الباب لاهثاً.

"وأين أجد هذا" الأكف السخية، "هذا فرانسيس، فليحمه اللّه!
أين أجده كي أرمي نفسي على قدميه؟"
وتوجه إليّ الشاب: "إذهب إلى الجانب الأعلى من المدينة سوف تراه هناك تحت نافذة يغني لحبيبته"

فانطلقت وأنا أكاد أهلك من الجوع. ورحت أصعد وأهبط الشوارع الضيقة. كنت ألاحظ دخاناً يصعد من المداخن. كان الناس يطبخون - كل الناس العقلاءلا - وشممت الروائح، وراحت أمعائي تتدلى مثل أغصان عنب عارية نهبت من قبل الطيور والفئران، لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر، فرحت أجدف: " لو لم أكن أبحث عن اللّه"، تمتمت في غضب، "لو لم أكن ابحث عن اللّه، كيف كنت سأتراخى في حضن الكسل! أية متعة ستكون تلك! كنت لا أفعل شيئاً سوى أن آكل شرائح كبيرة من الخبز الأبيض، ولحم الخنزير المشوي الذي أحبه كثيراً، أو أرنباً ملطخاً بالزيت وموشى بالكراث وأوراق الغار والكمون، وكي أبرّد جوفي سأرتشف جرعة كبيرة من النبيذ الأحمر الأميري. ثم أعكف على أرملة وأدعوها كي تدفئني. يقول الناس أن دفء الأرملة هو أحلى شيء في العالم. بالتأكيد فإن المجمرة شيء لا يقارن... ولكن ماذا سأفعل بكل هذا إن كنت أبحث عن اللّه!

كنت أسير بأسرع ما يمكنني لأدفئ نفسي. وبقوة دافعة مفاجئة هرعت أجري لأتنفس هواءً نقياً مرة أخرى، كي أحمي نفسي من الإغراءات ومن الروائح والأرامل. وأخيراً وصلت مرتفعات حصن روكا الشهير. كانت الجدران العالية المتفاخرة قد تهاوت، وتحولت إلى فحم، لم يبق شيء سوى برجين في كل منهما صدع عميق،

كانت النباتات البرية قد تسلقت البرجين من قبل ونتأت من الفراغات الموجودة بين الصخور. كان الناس قد ثاروا قبل سنين، غير قادرين على تحمل أسيادهم وهاجموا برج الصقر هذا ودمروه. شعرت وكأني أدور في الخرائب كي أتمتع بهزيمة أولئك الحكام الذين حشوا أنفسهم بالطعام والنبيذ (حتى جاء دورنا). لكن ريحاً مريرة ومؤلمة كانت تهب، وشعرت بالبرد. فهبطت راكضاً. كانت مصابيح البيوت قد أطفئت وغط الناس في نوم عميق. فبعد أن أكلوا جيداً وشربوا، رقدوا في سبات. أصحاب المنازل المحترمون هؤلاء كانوا قد وجدوا اللّه الذي يبحثون عنه، وجدوه على الأرض كما أرادوه: بحجمهم، مكتملاً مع الأطفال، والزوجات وكل الأشياء الجميلة التي في الحياة. بينما أنا الحالم، جبت شوارع صقلية حافياً، جائعاً، مرتعشاً، أطرق أبواب السماء، لاعنا في لحظة، ومصليا بتكرار (يا رب أرحمنا) في اللحظة الثانية من أجل أن أشعر بالدفء.

عند منتصف الليل سمعت القيثارات والعيدان بالقرب من كنيسة الأسقف. ربما كان بعض الشباب يغنون لحبيباتهم. اقتربت من أحدهم وأنا أمشي على نهايات أطرافي حتى اختفيت في الداخل، ملتصقاً بالجدار. كان ثمة خمسة أو ستة من الشباب خارج بيت الكونت سيفي. كان أحدهم أقصر من الآخرين، وثمة ريشة طويلة في قبعته، كان يقف معقود الذراعين، رأسه مرمي إلى الوراء، عيناه مشدودتان إلى النافذة ذات القضبان. كان يغني، بينما الآخرون يلتفون حوله، مأخوذين بصوته ويرافقونه بقيثاراتهم وعيدانهم. أي صوت كان ذلك يا إلهي، كم هو جميل، كم هو مؤثر، كم كان منشداً وساحراً! لا أتذكر الأغنية ولا أستطيع تسجيلها هنا كي

أحتفظ بها للأجيال القادمة، لكنني أتذكر جيداً أنها كانت عن يمامة هاجمها صقر، وكان الشاب ينادي اليمامة كي تلتجىء إلى صدره.... كان يغني بعذوبة وبهدوء خشية أن يوقظ فتاته، التي ربما كانت نائمة خلف النافذة. أنت لا تستطيع سوى ان تشعر بأنه لم يكن يغني لجسد الفتاة النائمّ بل إلى روحها المتيقظة. امتلأت عيناي بالدموع واضطربتُ، أين سمعت هذا الصوت من قبل بهذه العذوبة والاستعطاف والرجاء؟ أين ومتى سمعت تلك الدعوة: الصقر في صراخه عند الهجوم، إرتعاش اليمامة وهي مرعوبة، وبعيداً بعيداً، الصوت العذب الجذاب للخلاص؟

استعد الشبان للمغادرة بعد أن علقوا قيثاراتهم وعيدانهم على أكتافهم. قالوا للمغني ضاحكين: " دعنا نذهب يا فرانسيس. لماذا تنتظر؟ تعتقد أن كونتيستك الصغيرة سوف تقذفك بوردة، أليس كذلك؟ لم تفتح نافذتها من قبل، ولن تفتحها الليلة أيضاً.

لكن المغني، ومن دون أن يجيبهم، انطلق قبل الآخرين ليستدير من الزاوية ويهبط نحو الساحة، حيث يمكن سماع الأغاني من الحانات المفتوحة. في تلك اللحظة اندفعت أمامه. كنت مرعوباً من فكرة أن أضيعه، لأنني شعرت فجأة أن روحي كانت حمامة، وأن الصقر هو الشيطان، وأن ذلك الشاب هو الصدر الذي يمكن أن التجىء إليه. فأزحت عني ردائي الرث والبالي وفرشته تحت قدميه كي يمشي عليه. كان جسده كله يضوع بعطر وشذى مثل العسل، مثل الشمع ومثل الورود. شممته وفهمت: كان عطر القداسة. كأنك تفتح مذخراً فضياً، هكذا هي رائحة عظام القديسين.

التفت ونظر إليّ، مبتسماً.

سألني في صوت منخفض: لماذا فعلت ذلك؟

"لا أعلم يا سيدي. كيف تتوقعني أن أعرف؟ لقد ترك ردائي كتفي طواعية وأمتد على الأرض من أجلك كي تمشي عليه."

بقي واقفاً في مكانه وغادرت الابتسامة وجهه.

سألني، بعد أن انحنى إلى الأمام مرتبكاً: "هل لاحظت رمز ما في الهواء؟"

"لا أعرف يا سيدي. كل شيء هو رمز: جوعي والقمر ووجهك. من الأفضل أن لا تسألني: سأشرع بالبكاء. وتمتم ناظراً إلى نفسه بعد ارتياح: "كل شيء هو رمز." ومد يده. تحركت شفتاه الغليظتان، كأنه أراد أن يستجوبني ولكنه لم يقرر ذلك. كان وجهه قد ذاب تحت أشعة القمر القوية، وأضحت يداه شفافتين. تقدم خطوة، مقترباً مني. انحنيت إلى الأمام كي اسمع ما يريد قوله وشممت رائحة الكحول من نَفَسَه.

همس بغضب: "لا تنظر إليّ هكذا. لا شيء عندي أقوله لك. لا شيء!؟"

وعاد يمشي مرة أخرى مسرع الخطى. وحركني لأتبعه.

هرولت خلفه تحت ضوء القمر وأنا أنظر إليه. كان يرتدي الحرير وثمة ريشة حمراء كبيرة في قبعته المخملية وقرنفلة في أذنه. إن هذا الإنسان لا يبحث عن اللّه، قلت لنفسي، فروحه تتمرغ في الجسد.

وعلى حين غرة شعرت بالشفقة عليه. مددت يدي ولمست مرفقه. قلت:"عفواً يا سيدي أريد أن أعرف شيئاً واحداً وهو: أنك تأكل وتشرب وتلبس الحرير، وتغني تحت النوافذ.حياتك حفلة مستمرة. هل يعني هذا ان لا شيء ينقصك؟"

التفت الشاب نحوي فجأة وسحب ذراعه بعنف كي يمنعني من أن ألمسه.

وأجاب ساخطاً: "هذا صحيح لا ينقصني شيء، لماذا تسأل؟ لا أحب أن يستجوبني الآخرون".

فقلت مجيباً وأنا أسند قلبي: "لأنني قلق عليك يا سيدي."

حين سمع الشاب هذا شمخ برأسه باستعلاء:

" أنت، أنت تشفق عليّ "!

ضحك ولكنه بعد لحظة، قال بصوت خفيض لاهث: " لماذا تشفق علي، لماذا؟"

لم أجب. سألني ثانية، منحنياً إلى الأمام وحدق في عيني:

"لماذا؟ من أنت - ترتدي هكذا - مثل شحاذ؟ ومن بعثك لكي تجدني هنا على شوارع صقلية في منتصف الليل؟"

وبدأ بالهيجان: " أعترف بالحقيقة ! شخص ما بعثك، فمن هو؟"

وحينما لم أجبه دق قدمه بالأرض:

"لا ينقصني شيء! ولا أريد أن يشفق أحد علي، أريد أن أُحسد. لا ينقصني شيء أقول لك! " فسألته: " لا شيء؟ ولا حتى السماء؟"

فاخفض رأسه وصمت، ولكنه بعد ذلك قال:

"السماء بعيدة جداً بالنسبة لي. والأرض طيبة بشكل لا حد لها وقريبة مني"!

"لا شيء أقرب من السماء. الأرض تحت أقدامنا ونحن ندوس عليها، لكن السماء في داخلنا."

راح القمر يختفي وليس ثمة سوى بضع نجوم متعلقات في السماء. وكان صوت أغاني الحب في هذه الليلة المشحونة العاطفة يأتي خفيفاً

من الجوار البعيدة، تحت في الساحة كان ثمة صخب. كان هواء تلك الليلة الصيفية ممتلئا بالروائح العطرة والحب.

وكررت: "السماء في داخلنا، يا سيدي الشاب"

فسألني وهو يرمقني بنظرة فزعة: "كيف تعرف؟"

"عانيت، جعت، ظمئت وتعلمت."

أخذني من ذراعي: "تعال معي، سوف أطعمك وآويك كي تنام. ولكن لا تكلمني عن السماء ربما تكون في داخلك أنت ولكنها ليست في داخلي."

أبرقت عيناه بألم مبرح وأضحى صوته أجش.

هبط نحو السوق حيث مازالت الحانات تصخب. كان الشباب المخمورون يدخلون ويخرجون زرافات من أحدى المواخير التي كان أمامها قنديل أحمر صغير.

وبدأت ترد الحمير المحملة بالخضار والفواكه من القرى. كان الرجال يهيئون طاولاتهم ويرتبون زجاجات الخمر من البراندي والروم. وكان إثنان من البهلوانات قد بدآ في شد حبلهما. كانت الاستعدادات لسوق يوم الأحد قد بدأت.

كان اثنان من المخمورين قد راقبا فرانسيس في ضوء القمر وبدآ يضحكان في السر. أزاح أحدهما قيثارة من كتفه. وراح يغني وهو يحدق في فرانسيس ساخراً:

لقد بنيت عشك عالياً من دون جدوى:

سينكسر الغصن،

ستخسر الطير،

وستقبض الآلام لا غير.

أصغى فرانسيس من دون حراك منخفض الرأس.

وتمتم: "أنه محق. أنه محق"

كانت الدماثة تستدعي أن أبقى هادئاً، ولكن، لأنني ريفي، فتحت فمي وسألته: "أي طير؟"

التفت فرانسيس ونظر إليّ. كان ثمة ألم كبير في نظرته تلك، فلم أستطع أن امنع نفسي من التشبث بيده وتقبيلها. قلت له: "إصفح عني."

فتكشفت أساريره: "أي طير؟ هل لي أن أعرف؟"

فتنهد بعمق.

وقال متأوهاً: كلا لا أعرف. توقف عن التساؤل!... تعال"!

أمسك بذراعي بقوة، وكأنه كان يخشى أن أتركه.

ولكن، كيف لي أن أتركه، أين سأذهب؟ منذ تلك اللحظة، بقيت إلى جانبه. أيها الأب فرانسيس، أهو أنت الذي كنت أبحث عنه سنة بعد سنة؟ أمن أجل هذا ولدت: كي أتبعك وأصغي إليك؟ لديّ أذنان ولكن لا لسان لي. لذلك أصغيت. لقد أخبرتني. بما لم تخبر به أحداً. أخذت بيدي، وذهبنا إلى الغابات، تسلقنا الجبال، وكنت تتكلم.

كنت قد أعتدت أن تقول لي: " يا أخي ليو، لو لم تكن أنت معي، كنت سأكلم الحجر بكل شيء، أو أكلم نملة أو ورقة زيتون رقيقة، لأن قلبي يفيض، ولو لم ينفتح ويطفح ما فيه، فلربما كان سينفجر إلى ألف قطعة."

أعرف عنك أشياء لا يعرفها أحد غيري. لقد ارتكبت ذنوباً كثيرة أخرى أكثر مما يتخيل الناس وعملت الكثير من المعجزات

التي لا يصدقها الناس. من أجل أن تصعد إلى السماء أستخدمت أرضية الجحيم كي تمنحك القوة الدافعة. كنت عادة ما تقول لي: "كلما هبطت إلى الأسفل وحصلت على قوتك الدافعة كلما علوت أكثر. أن القيمة العظيمة للمجاهد المسيحي ليست فضيلته، بل جهاده كي يحول الصفاقة وعدم النزاهة والخداع والحقد إلى فضيلة في داخل نفسه. في يوم ما سيكون إبليس هو الأكثر مجداً بين الملائكة، هو وليس ميكائيل ولا جبرائيل ولا رافائيل، بل إبليس بعد أن يحول في الأخير ظلامه إلى ضياء."

أصغيت إليك، فاغر الفم، وأفكر أي كلمات جميلة كانت تلك وأسأل نفسي أن كانت ذنباً، ولكن حتى الذنب يمكن أن يكون سبيلاً يقودنا إلى الله، وحتى المذنب يمكن أن تكون له آمال في الخلاص.

أنا الوحيد، أيضاً، الذي يعرف عن حبك الجسدي لكلارا ابنة الكونت فافوريني سيفي. الآخرون كلهم، بسبب خوفهم من ضلالهم، يعتقمن دون أنك أحببت روحها فقط. لكنك قد أحببت جسدها أول الأمر، لقد أنطلقت من هنا وبدأت. ثم، وبعد عناء ونضال ضد شرك الشيطان، صرت قادرا بمساعدة الرب كي تصل إلى روحها. لقد أحببت تلك الروح، من دون أن تنكر جسدها، ومن دون أن تمسه في الوقت نفسه.

ولم يعقك هذا الحب الجسدي لكلارا من الوصول إلى الله. لا بل أنه في حقيقة الأمر ساعدك بشكل كبير، لأنه كان الحب الذي كشف لك عن السر العظيم، عن أي سبيل وأي نوع للزوجة أو الأبن أو الأم أو الوطن، أو حتى الفكرة أو الله. إن نصرا، حتى وإن كان

في أوطأ درجات الحب، يدعمنا في صياغة الطريق الذي يقودنا إلى الله. لذلك صارعت الجسد وهزمته من دون رحمة، ثم جبلته مع دمك ودموعك وبعد صراع مرعب دام لسنوات طويلة، حولته إلى روح: ألم تفعل الشيء نفسه مع كل حسناتك وسيئاتك؟ كانت كلارا، هي أيضاً، جسداً. بكاء وضحك وشطر القلب إلى اثنين، لقد حولت كل هذه الأشياء إلى روح. هذا هو الطريق، وليس من طريق غيره. لقد كنت أنت المرشد وأنا اتبعك لاهثاً.

في يوم ما رأيتك تنهض من بين صخور ملطخة بالدم، تئن. كان جسدك جرحاً كبيراً فأشفقتُ عليك. عدوت نحوك وتشبث بركبتيك صارخاً: " يا أخي فرانسيس، لماذا تعذب جسدك هكذا؟ إنه أحد مخلوقات الله ولا بد له أن يبجل. إلا تشعر بالحزن لدمك المسفوك، دمك المفقود؟"

ولكنك هززت رأسك وأجبتني: "يا أخي ليو ما دام العالم هكذا، فلا مفر اليوم، من هو طيب يجب أن يفعل هكذا كي يصل إلى القداسة وما هو أبعد منها، ومن هو مخطىء لا بد له أن يصل إلى البهيمية وما هو ابعد منها. لم يعد ثمة من طريق وسط هذا اليوم."

وفي مناسبة أخرى حين نظرت بيأس إلى الأرض وأرادت الأرض أن تلتهمك لتأخذك إلى السماء ورفضت أن تساعدك مرة أخرى التفت نحوي، وارتجفت حين سمعت كلماتك:

"أسمع يا أخي ليو، سأقول لك شيئاً محزناً جداً. أن لم تحتمل، يا حمل الله، إنسه. هل أنت مصغ؟"

أجبت: "انني مصغ أيها الأب فرانسيس."كنت قد بدأت ارتعش.

فوضعت يدك على كتفي وكأنك تحاول أن تشد من عزمي وتمنعني من السقوط.

"يا أخي ليو، كي تكون قديساً يعني أن تتنكر ليس فقط لكل شيء أرضي، بل أيضاً لكل شيء سماوي."

ولكنك حالما نطقت بكلمات التجديف تلك، شعرت بالرعب. فانحنيت وملأت يدك بالقذارة وأقحمتها في فمك. ثم، وأنت تضع أصبعك على شفتيك، بحلقت نحوي مذعوراً. وصرخت بعد لحظات:

"ماذا قلت؟ هل تكلمت؟ .. صمتاً!"

ثم انفجرت بالبكاء.

* * *

كل مساء أفتح ضوء المصباح أتأمل في كل كلمة قلتها، وكل فعل قمت به، وأثبتها بأمان الواحدة جنب الأخرى كي لا تموت. مجرد كلمة من شفتيك، هكذا قلت لنفسي، قد تنقذ روحاً. إذا لم أفلح في تسجيلها، ولم أفلح في نقلها إلى الناس، فمعنى هذا أن تلك الروح لن تنقذ، وسوف ألام.

كنت قد أمسكت بريشتي عدة مرات قبل الآن كي أبدأ الكتابة، لكنني كنت أتخلى عن الفكرة دائماً وبشكل سريع، في كل مرة كان يهزمني فيها الخوف، أجل، فليسامحني الله، ذلك لأن الحروف كانت ترعبني. أنها فكرة شياطين داعرة وخطرة! فأنت حين تفتح المحبرة وتحل الحروف تراها تجري وأنىّ لك أن تسيطر عليها ثانية! إنها تعود إلى الحياة، تلتئم، تنفصل، تتمرد، وتصفُّ نفسها حسبما تريد على الورقة سوداء، ذات ذيول وقرون. تصرخ بها وتناشدها من دون جدوى، فهي تفعل كما يحلو لها. إنها

تتبختر، تجتمع أزواجاً أمامك بشكل مشين، وتعرض بشكل مخادع ما لم ترغب أنت في كشفه، وترفض أن تمنح فرصة لما يصطرع عميقاً في داخل أدواتك كي يظهر ويتكلم إلى الناس.

على أية حال، وأنا عائد من الكنيسة يوم الأحد الماضي، تجرأت. ألم يضغط اللّه على تلك الشياطين في مكان ما على الرغم منها كي تكتب الأناجيل؟ حسناً، قلت في نفسي، تشجعي يا روحي! لا تخافي منها! خذي ريشتك واكتبي!.. لكن عزيمتي سرعان ما خارت قواها مرة أخرى. من المؤكد، أن الأناجيل، قد كتبت من قبل الحواريين المقدسين. أحدهم له ملكه والآخر له أسده، والآخر ثوره والذي بعده نسره. هؤلاء يملون والحواريون يكتبون. لكنني..؟

وعلى هذا المنوال بقيت متردداً لعدة سنوات حاملاً أقوالك محفورة بإخلاص على الجلود وقصاصات الورق ولحاء الأشجار. وطفقت أكرر لنفسي، آه، متى أشيخ، متى أمكث، حين لا أقوى على السير أبداً، في دير وفي سكون صومعتي سأستلهم القوة من اللّه، يا أبي فرانسيس: كي أرتب كلماتك وأفعالك على الورق كأسطورة لقديس، عمل من أجل خلاص هذا العالم!

كنت عجولاً لأنني شعرت أن الكلمات تعود إلى الحياة وتحتك ببعضها البعض على قطع الجلد وقصاصات الورق ولحاء الأشجار. لقد بدأت تختنق وراحت تثور في محاولة للانطلاق. وشعرت بفرانسيس أيضاً، شعرت به يطوف خلسة الدير، مشرداً منهكاً، يده ممدودة كالشحاذ، شعرت به يتسلل إلى الدير المنعزل ولم يره أحد سواي، ثم دخل إلى صومعتي. في الليلة التالية، وبينما كنت منحنياً فوق رق قديم أقرأ فيه عن حياة القديسين شعرت بشخص ما

خلفي. كانت ريح الشمال تهب، والطقس بارد وكنت قد أشعلت آنية النحاس، كان الحبر الأعظم قد سمح لي أن أشعل بعض النار في صومعتي لأنني قد شخت ولم أعد أحتمل. لقد طوقتني معجزات القديسين، كانت تلعقني مثل اللهب. لم أعد ألامس الأرض، كنت معلقاً في الهواء. في تلك اللحظة شعرت بشخص ما خلفي. والتفت فرأيت فرانسيس يجثم فوق النار.

صرخت قافزاً على قدمي: "أيها الأب فرانسيس، هل تخليت عن الفردوس؟"

فأجابني "أنني أشعر بالبرد والجوع، ولا مكان لي لأريح رأسي."

كان ثمة خبز وعسل في صومعتي. هرعت كي أعطيه البعض منها لأهدىء من جوعه. لكني حين التفتُ لم أر أحداً.

لقد كانت تلك علامة من الرب، رسالة مرئية بأن فرانسيس يطوف متشرداً فوق الأرض، يبني لنفسه بيتاً! لكن الخوف قد جرفني مرة أخرى وجاهدت مع نفسي لوقت طويل. ثم وبعد أن شعرت بالضجر، إتكأت على الرق. نمت وحلمت. بدا لي أنني كنت اضطجع تحت شجرة مزهرة وينفخ الرب فوقي ريحاً عبقة. كانت الشجرة شجرة الفردوس وقد أزهرت! وحالما حدقت في السماء عبر الأغصان المزهرة جاء على حين غرة سرب طيور صغيرة تماماً مثل الحروف الألفبائية، وحطت على الشجرة. كل طير حط على غصن. وبدأت الطيور تزقزق. بانفراد أول الأمر، ثم على شكل أزواج وبعدها ثلاثة ثلاثة. وبعد ذلك راحت تقفز من غصن لغصن وشكلت مجموعات من أزواج وثلاثات وخمسات ترفرف باستمتاع. كانت الشجرة بأكملها قد أضحت أغنية رقيقة وعذبة مليئة بالعاطفة

والرغبة والألم العظيم. كان يبدو كأنني كنت مدفوناً من قبل بعمق تحت تربة الربيع، ذراعاي معقودتان على صدري وكأن الشجرة المزهرة كانت تظهر من أحشائي والجذور تخترق جسدي وتمتصه. وأن كل المتع والأحزان التي في حياتي قد أصبحت طيوراً تغني.

استيقظت، وأنا مازلت أشعر بالرغبة في الزقزقة في أحشائي وكان الرب لا يزال ينفخ من فوقي.

كان الوقت فجراً وكنت قد نمت الليل بطوله على الرق، فنهضت واغتسلت وغيرت ثيابي كي أغسلها، كان الجرس يدق لصلاة الصبح. فرسمت رمز الصليب وذهب إلى المصلى، حيث ألصقت جبهتي وفمي وصدري إلى الأرض واستقبلت السر المقدس. حين انتهى الجمع هرعت إلى صومعتي، لم أكن أتكلم مع أحد كي لا ألوث نفسي. حلقت كأن الملائكة قد رفعوني، لأم أكن أراهم، لكنني كنت أسمع رفرفة أجنحتهم على يميني ويساري، فأخذت ريشتي، ورسمت رمز الصليب.

ثم بدأت، يا أبي فرانسيس، أسجل أحداث حياتك وعصرك، وليساعدني الله وليكن دليلي.

أقسم أنني سأقول الحقيقة. وأرجو أن يساعدني الرب على ذاكرتي، وليوقد ذهني، وأن لا يسمح لي بنطق كلمة واحدة قد أندم عليها فيما بعد. إنهضي وكوني شاهدة يا جبال وسهول أومبريا، إنهضي أيتها الصخور التي التمعت بدم الشهيد، يا دروب إيطاليا المغبرة والموحلة، أيتها الكهوف السوداء، أيتها القمم المغطاة بالثلوج، إنهضي، أيتها السفينة التي أخذته إلى الشرق، انهضوا أيها البرص والذئاب والدببة، وأنت أيتها الطيور التي سمعت وعظه انهضوا جميعاً. فالأخ ليو بحاجة إليكم، تعالوا، قفوا إلى يميني وإلى يساري، أعينوني كي أقول الحقيقة بأكملها. فبهذا يتعلق خلاص روحي.

إنني أرتعد لأنني أجد نفسي غير قادر ولعدة مرات على أن أميز بين ما هو صحيح وما هو زائف. إن فرانسيس يجري في ذهني مثل الماء. أنه يغير وجوهه، وأنا غير قادر على أن أثبت هل كان قصيراً، هل كان طويلاً عملاقاً؟ لا أستطيع أن أضع يدي على قلبي وأقول ذلك يقيناً كاملاً. كان غالباً ما يبدو لي مقرفصاً، ليس سوى جلد وعظام، وجهه يحمل الدليل القاطع على فقره المدقع. لحية كستنائية اللون ضيئلة، شفتان سميكتان بارزتان، أذنان كبيرتان ناتئتان مثل أذني أرنب وتصغيان بانتباه للعوالم المرئية واللامرئية. يداه رقيقتان وأصابعه ناحلة، دلالة على انحداره النبيل... ولكنه حين كان يصلي أو يظن بأنه وحيد فإن جسده الجاثم يطلق لهبا يصل السماء. إنه يغدو ملاكاً كبيراً بأجنحة حمراء تضرب الهواء، وأن حدث ذلك في الليل ساعة تكون النار مرئية فأنت تقعي مرعوباً متقياً الاحتراق.

لقد إعتدت أن اصرخ: "أبعد نفسك يا أخي فرانسيس، أبعد نفسك

قبل أن تحرق العالم" ثم، وأنا أرفع عيني، كنت أراقبه حين توجه مباشرة نحوي هادئاً ومبتسماً، وجهه مرفل مرة أخرى بالمرح البشري والعناء والفقر المدقع...

أتذكر مرة أنني سألته: "كيف يكشف لك الرب عن نفسه يا أخي فرانسيس عندما تكون وحيداً في الظلام؟"

وأجابني: "مثل قدح ماء بارد يا أخي ليو، مثل قدح ماء من ينبوع شباب أبدي. أنا ظامئ أشربه وينطفئ ظمأي إلى الأبد."

صرخت مندهشاً: "هل يشبه الرب قدح ماء بارد؟"

"وماذا كنت تعتقد يا أخي ليو؟ ما الذي يدهشك؟ ليس ثمة من شيء أبسط من الرب، ولا شيء أكثر أنعاشاً، ولا أكثر حلاوة على شفاه الإنسان."

لكن بعد سنين قليلة حينما أصبح فرانسيس كتلة شعر وعظام، لحم ذائب، ويتنفس أنفاسه الأخيرة، انحنى إلى الأمام كي لا يسمعه الأخوة، وقال لي مرتعشاً: "إن الرب حريق هائل يا أخي ليو. إنه يحترق، ونحن نحترق معه."

على قدر استطاعتي في قياس ارتفاعه في ذهني، يمكنني أن أقول بيقين: من الأرض التي يدوس عليها من هنا وحتى رأسه، فأن قوامه كان قصيراً ولكنه كان عملاقاً من رأسه فما فوق.

ثمة جزءان في جسده، على أية حال، أتذكرهما بوضوح تام: قدماه وعيناه. كنت شحاذاً، وقضيت كل حياتي مع الشحاذين، ورأيت الآلاف من الأقدام التي تمر أمامي كل يوم تسير حافية فوق الصخور، والتراب والطين والثلج. لكنني لم أر أبدا في حياتي أقداماً مثل أقدامه، حزينة وكئيبة وواهنة، نخرها التجوال، لذلك فهي مليئة بالجراح

المفتوحة. أحياناً، وبينما كان الأب فرانسيس يضطجع نائماً كنت أنحني عليها خلسة وأقبلها، وكنت أشعر وكأنني أقبل عناء البشرية بأكمله.

وكيف يمكن لأي شخص أن ينسى عينيه بعد أن يراهما لمرة واحدة؟ أنهما كبيرتان، بشكل ليمونتين، سوداوتان مثل القار، تجعلك تتعجب لأنك لم تر عينين كهاتين، أليفتين وناعمتين، ويندر أن تكمل فكرتك حين تصبح العينان فجأة اثنتين من الأبواب السحرية المفتوحة التي تمكنك من أن تنظر في حيويته، في قلبه، في كليتيه وفي رئتيه، حيث تكتشف أنهما لهب. كان غالباً ما يحدق فيك من دون أن ينظر إليك. ماذا كان يرى؟ لا جلدك ولا لحمك ولا رأسك ولكن جمجمتك. في احد الأيام كان يربت على وجهي برفق بباطن كفه. كانت عيناه مليئتين بالعاطفة والعذوبة، وقال: "أحبك يا أخ ليو أحبك لأنك تركت الحشرات تسير حرة على شفتيك وأذنيك من دون أن تطردها".

"أية حشرات يا أخي فرانسيس؟ لا أرى أية حشرات؟"

"من المؤكد أنك تراها حين تصلي، أو تنام وتحلم بالفردوس. أنت تراها لكنك لا تطردها لأنك طيب جداً يا أخي ليو، أنهم مبعوثو الرب، أعظم الملوك، إن الرب يقيم عرساً في السماء، ويبعثهم بالدعوات إلينا: "تحايا من الملك العظيم، الذي ينتظركم. فتعالوا"!

حين كان فرانسيس بين الناس كان يضحك ويمرح، ويقف على حين غرة في الهواء ويبدأ بالرقص، أو يمسك بعصاتين كأنه يعزف الكمان بينما يغني أغاني قدسية ألفها بنفسه. من المؤكد أنه كان يفعل ذلك كي يشجع أصدقاءه ليدركوا تماماً أن الروح تعاني وأن

الجسد يجوع، وان تحمل الإنسان يساوي صفراً. عندما يكون وحيداً كانت دموعه تجري وتتساب وكان يلطم صدره، ويتدحرج على الأشواك والقرّاص، يرفع يديه إلى السماء ويبكي " طوال النهار وأنا أبحث عنك يا إلهي، متى، متى، حين يلتقي الليل بالنهار نلتقي؟"

وفي وقت آخر سمعته يصرخ، وعيناه مشدودتان إلى السماء: "لا أريد أن أعيش أبداً. جردني يا إلهي. أنقذني من جسدي. وخذني"!

في كل فجر، حين تبدأ الطيور بالغناء مرة أخرى، أو عند منتصف النهار، حين ينغمس في الظل البارد للغاية أو عند منتصف الليل، بينما يجلس في ضوء القمر تحت النجوم كان يرتجف من فرح لا يعبر عنه وينظر إلي عيناه مغروقتان بالدموع. كان يقول: "أية معجزات هذه، يا أخي ليو؟ وهذا الذي خلق مثل هذا الجمال أي شيء لا بد أن يكون؟ ماذا يمكن أن نسميه؟"

فأجبته: "إنه للّه يا أخي فرانسيس."

فيصرخ: "كلا أنه ليس اللّه، ثقيل هذا الأسم، إنه يسحق العظام... ليس اللّه بل الأب!"

في إحدى الليالي كان فرانسيس يطوف أزقة صقلية. كان القمر قد علا بدراً مستديراً وتدلى في وسط السماء، والأرض بأكملها كانت طافية في الهواء. نظر فرانسيس ولم يشاهد أحداً يقف عند مداخل البيوت ليستمتع بهذه الأعجوبة. اندفع نحو الكنيسة وصعد إلى برج الجرس وراح يطرقه وكأن كارثة قد حصلت، فاستيقظ الناس مذعورين وهم يظنون أن لابد هناك من حريق ، فهرعوا أنصاف عراة إلى فناء سان روفينو حيث شاهدوا فرانسيس يطرق الجرس بهيجان.

وصاحوا به: "لماذا تطرق الجرس؟ ماذا حدث؟"

وأجابهم فرانسيس من قمة برج الجرس: "ارفعوا أنظاركم وانظروا إلى القمر"!

هكذا كان نوع فرانسيس الموقر، أو على الأقل هكذا بدا لي. أنني أقول هذا، لكنني في حقيقة الأمر لست متأكداً. كيف يمكنني أن أعرف كنهه، ومن هو؟ هل يكون من الممكن أن لا يعرف نفسه هو أيضاً؟ أتذكر أنه في أحد الأيام الشتائية عندما كان في بورتنكيولا، جالساً على العتبة كي يتشمس وصل شاب يلهث حتى وقف أمامه. وسأله، ولسانه معلق خارج فمه: "أين فرانسيس ابن بيرنارمن دون؟ أين يمكنني أن أرى القديس الجديد كي أجثو على قدميه لشهور وأنا أطوف الشوارع بحثاً عنه. بحق المسيح يا أخي دلني عليه."

فأجابه فرانسيس هازاً رأسه " أين فرانسيس بن بيرنارمن دون؟ أين فرانسيس بن بيرنارمن دون؟ ما هذا الفرانسيس؟ من هو؟ أنا أبحث عنه أيضاً يا أخي. لسنوات طوال وأنا ابحث عنه، اعطني يدك ودعنا نجده"!

ونهض، أخذ بيد الشاب، وغابا.

* * *

في تلك الليلة أتينا لأول مرة معاً في صقلية. كيف كان من الممكن لي ان أعرف ما هو قدر هذا الشاب الذي وجدته يغني تحت نافذة حبيبته، وريشة حمراء طويلة في قبعته؟ أمسك بي بقوة من يدي وهرعنا عبر المدينة حتى وصلنا منزل بيرنارمن دون.

دخلنا كاتمين لهاثنا كي لا يسمعنا الغول. قدم لي فرانسيس طعاماً فأكلت، وجهز لي فراشاً فنمت. وحين استيقظت عند الفجر،

فتحت الباب من دون ضوضاء وتسللت إلى الخارج. كان يوم أحد. وكان من المؤمل أن يجتمع الناس ويحلون أكياسهم كي يتصدقوا على الفقراء.

كنت قد خلعت قبعتي. وبين الحين والآخر كانت العملات المعدنيةتسقط وهي ترن. وانحنت فوقي سيدة عجوز ارستقراطية نصف مجنونة وسألتني من أكون ومن أين أتيت وفيما إذا كنت قد رأيت ولدها. كان الفرسان السينيون - عليهم اللعنة! - قد اعتقلوه في الحرب.

وبينما كنت أزمع أن أفتح فمي لأجيبها، ظهر أمامي السيد بيرنارمن دون. والد فرانسيس. كنت أعرفه منذ سنوات، لكنه لم يمنحني قرشاً أبداً. كان يصرخ بي: "ها أنت تملك ذراعين ورجلين فاعمل!"

أجبته في أحد الأيام: "أنني أبحث عن اللّه."

فجاءني صوته راعداً: " فليأخذك الشيطان " وانفجر موظفوه بالضحك.

كان يأتي إلى الكنيسة بصحبة زوجته السيدة بيكا ويسير بخطى بطيئة ومهيبة كي يحضر الصلاة. يا اللّه كم كان حيواناً ضاراً! كان يرتدي رداءً حريرياً طويلاً قرمزياً ذا حواش فضيةٍ وقبعة سوداء من المخمل، وحذاء أسود ذا بوز طويل مدبب. كانت يده اليسرى مرفوعة إلى صدره، حيث تلعب بصليب معلق بسلسلة ذهبية رقيقة. كان حسن المنظر، نشطاً، ضخم الهيئة، طويلاً حتى ينطح السقف، وله فك وذقنان ضخمان، وأنف كبير معقوف وعينان رماديتان وباردتان كأنهما لصقر.

حالما رأيته تكورت حتى لا يراني. كانت تجري في أثره خمسة بغال محملة حد الهلاك بالسلع الغالية من الحرير والمخمل وحبيبات الذهب، ومزركشات مدهشة. كان الرجال الذين يقومن دون البغال مسلحين لأن الطرق أمست مزدحمة بقطاع الطرق. بكلمات أخرى، كان بيرنارمن دون يأتي إلى الكنيسة بصحبة سلعة ليحضر الصلاة الجماعية، ويُري نفسه وسلعه لنصب القديس روفينو وبهذا تكون معرفة للقديس ليرى إن كانت ستقع في خطر لاحقاً. وكانت عادته - قبل أن يسجد أمام القديس يقول له مساوماً: أنت أعطيتني كذا وكذا وسوف أعطيك بالمقابل كذا وكذا، أنت قمت بحماية تجارتي، وأنا سوف أجلب لك مصباحاً من فلورنسا، مصباحاً ثقيلاً ومليئاً بالنقوش ليجعلك محسوداً من القديسين الآخرين الذين لا يملكون غير مصابيح صغيرة مصنوعة من الزجاج.

إلى جانبه كانت تسير زوجته بمشيتها المتباهية ويديها المعقودتين على بطنها منخفضة العينين، شعرها مغطى بخمار من الحرير بلون البحر. كانت جميلة وودودة، إنها الحلاوة نفسها. كان وجهها من النوع الذي يمنح الصدقات. مددت يدي فلم تلاحظني، أو ربما كانت خائفة من الغول الذي بجانبها حتى إنها لم تجرؤ على أن تمنحني أي شيء. عبر الزوج والزوجة العتبة ودخلا الكنيسة عبر الباب الرئيسي، واختفيا.

بعد سنوات، وبينما كنا ننطلق في إحدى الصباحات لرحلة حول القرى كي نعظ بالحب، تذكر فرانسيس والديه وتنهد: "واحسرتاه، لم أفلح في أن أصلح بينهما."

"من هما؟ عمن تتكلم يا أخي فرانسيس؟"

"عن أمي وأبي، يا أخي ليو. كلاهما يتصارعان في داخلي منذ

وقت طويل، واستمر هذا الصراع طوال حياتي. أريدك أن تعرف هذا. ربما يتخذان أسماء أخرى: اللّه والشيطان، الروح والجسد، الطيب والشرير، الضوء والظلام. لكنهما يبقيان أمي وأبي. أبي يصرخ في داخلي: "أكسب المال، كن غنياً، إستخدم ذهبك كي تشتري معطفاً، إصبح رجلاً من النبلاء، ليس سوى الغنى والنبل يستحقان أن نعيش من أجلهما في هذا العالم. لا تكن طيباً، فمرة واحدة من الطيبة تحولك إلى لا شيء. إن كسر أحد ما ضرساً لك إكسر له فكه. لا تحاول أن تجعل الناس يحبونك، حاول أن تجعلهم يخشوك، لا تسامح. اضرب!... وأمي صوتها يرتعش في داخلي، يقول لي بعذوبة، وخشية، كي لا يسمعها والدي: "كن طيباً يا عزيزي فرانسيس وستحل عليك بركاتي. يجب أن تحب الفقراء، المتواضعين والمسحوقين. إن جَرحَك أحدُ، سامحه!" إن أبي وأمي يتصارعان في داخلي وأفنيت حياتي وأنا أحاول الإصلاح بينهما لكنهما يرفضان المصالحة، إنهما يرفضان المصالحة يا أخي ليو، ومن أجل هذا أعاني."

وحقاً فإن السيد بيرنارمن دون والسيدة بيكا قد اجتمعا معاً في صدر فرانسيس ويعذبانه. ولكنهما خارج صدر ابنهما لكل منهما جسده المنعزل وفي ذلك الأحد دخل الواحد منهما جنب الأخر إلى الكنيسة للصلاة أغمضت عيني. إنني أسمع من داخل البناية الأصوات العذبة لجوقة الأطفال المنشدين مع صوت الأرغن تنساب بعيداً من أعلى الشرفة وتهز الهواء. كنت أفكر: هذا هو صوت الرب، صوت الرب وصوت الناس القوي والقاسي وبقيت مصغياً سعيداً، مغمض العينين. لذلك أعتليت الأسد الرخامي، وبدا لي أنني كنت فارساً أدخل الفردوس. أي شيء يمكن أن تكون عليه

الفردوس غير ترتيل المزامير وشم البخور العبق وجرابك مليء بالخبز والزيتون والنبيذ أي شيء آخر؟ إنني، وليسامحني الله في قولي هذا، لا أفهم شيئاً في ما يقول اللاهوتيون الحكماء عن الجن والأشباح والأرواح التي بمن دون أجساد. أن سقطت حتى نتفة خبز على الأرض أنحني عليها والتقطها ثم أقبلها لأني اعرف تماماً أن تلك النتفة هي جزء صغير من الفردوس. لكن الشحاذين وحدهم يمكن أن يفهموا هذا، ولا أوجه خطابي إلا إليهم.

* * *

بينما كنت أحب الفردوس راكباً الأسد الرخامي سقط عليّ ظل. فتحت عيني ورأيت فرانسيس واقفاً أمامي. كان جمع المصلين قد انفض. لا بد أنني كنت نائماً، فقد غابت البغال بتجارتها الثمينة من الساحة التي أمام الكنيسة.

وقف فرانسيس نافد الصبر، مذعوراً مصعوقاً، شفتاه ترتعشان وعيناه مليئتان بالرؤى. سمعت صوته الأجش:

"تعال، أنا بحاجة إليك".

وقادني، سانداً نفسه بعصا خيزران ذات مقبض عاجي. من وقت لآخر كانت ركبتاه لا تقويان على حمله وعليه أن يستند إلى الجدار.

قال لي ملتفتاً: "أنا مريض. ساعدني كي أصل البيت وأرقد. وكن بالقرب مني، لديّ شيء لأخبرك به."

كان البهلوانات قد انتهوا من تثبيت الأعمدة وشد الحبال وكانوا يرتمن دون ثياباً متنافرة الألوان بالقبعات الحمر والأجراس. اليوم يوم الأحد وهم يستعمن دون لعرض مهاراتهم ثم يمررون قبعاتهم. وقريباً منهم جلس الشيوخ والفلاحات، وسلالهن في أحضانهن، متصالبات

السيقان على الأرض ويبعن الدجاج والبيض والجبن والأعشاب الطبية وبلسم الجروح وتعاويذ للعيون الشريرة. وعراف العرافين ذو الحية الرمادية يعرض عليك قراءة الحظ من خلال فأر أبيض يضعه في قفص."

قلت: "توقف ودعه يقرأ طالعك يا سيد فرانسيس. سمعت أن هذا الفأر قد جاء من الفردوس فحتى الفردوس فيه فئران كما تعرف، ولهذا هو أبيض إنه يعرف الكثير من الأسرار."

لكن فرانسيس كان يتشبث بأحد الأعمدة ويتنفس بصعوبة واتكأ على ذراعي حتى وصلنا إلى منزل السيد بيرنارمن دون.

يا إلهي كيف يتحمل الأغنياء الموت! أية سلالم رخامية، وأية غرف ذوات سقوف مطلية بالذهب وأي فراشٍ من الحرير والكتان. ساعدته على أن يرقد على فراشه وأغمض عينيه في الحال، منهكاً.

وبينما انحنيت عليه رأيت بريقاً متناوباً من الضوء والظل على وجهه الشاحب، وظلت عيناه ترقان وكأنهما جُرحا بشعاع مكثف. وتنبأت ان طالعاً مرعباً يحوم حوله.

ونطق أخيراً بصرخة ثم فتح عينيه وجلس على الفراش، يتملكه الهلع. جئته مسرعاً بوسادة ريش وضعتها خلفه كي يتكئ عليها. أفرجت شفتي لأسأله عما به وما الذي أخافه هكذا، لكنه وضع يده على فمي، وهو يختض وهمس: "هدوءاً ورمى نفسه على وسادة الريش! واختفى بؤبؤا عينيه، وهبطت الحدقتان وراح يحدق بخوف في أمعائه الدقيقة. فكه كان يرتجف.

عند تلك اللحظة فهمت في الحال، صرخت: "لقد رأيت الرب، لقد رأيت الرب"

أمسك بذراعي ولهث بألم: "كيف عرفت؟ من قال لك؟"

"لا أحد. لكنني أرى كيف ترتجف وأنا أعرف. عندما يهتز إنسان بتلك الطريقة فذلك يعني أنه رأى أسداً أمامه أو رأى الرب".

سحب رأسه بقوة من الوسادة. وتمتم: "كلا، أم أره لقد سمعته."

نظر حوله بعيون مرعوبة وقال لي: "إجلس لا تضع يديك عليّ، لا تلمسني."

"أنني لا ألمسك. أنا أخشى الإمساك بك. لو أمسكت بك في تلك اللحظة لتحولتُ إلى رماد."

فهز رأسه وابتسم. وظهر بؤبؤا عينيه من جديد. قال: "أريد أن أسالك هل عادت أمي من الصلاة؟"

"ليس بعد. لابد أنها تتحدث مع أصدقائها."

"كلما تأخرت كان ذلك أفضل. أغلق الباب." وبقي ساكناً لدقيقة ثم عاد إلى القول: "أريد أن أسألك."

"أنا طوع أمرك يا سيدي. تفضل."

"لقد أخبرتني أنك تبحث عن اللّه طوال حياتك. كيف تفعل ذلك؟ بالنداء أم بالبكاء أم بالغناء أم بالصيام؟ لكل إنسان طريقه الخاص الذي يقوده إلى اللّه.. أي طريق اتخذت؟.. هذا هو السؤال."

أحنيت رأسي مفكراً. هل لي أن أخبره أم لا؟ تأملت ذلك لوقت طويل وعرفت ماهية طريقي، لكنني خجل من كشفه. ومن المؤكد، أنني مازلت أشعر بالخجل أمام الناس في تلك الفترة، لأنني لحد الآن لم أشعر بالخجل أمام اللّه.

تذمر فرانسيس: "لماذا لا تجيبني؟ إنني أمر بوقت عصيب وأرجو مساعدتك، فساعدني."شعرت بالأسى عليه. وقررت أن أخبره بكل شيء وقلبي في هياج.

"طريقي، يا سيد فرانسيس ـ ولا تندهش حين تسمعه ـ طريقي حين انطلقت للبحث عن اللّه... كان... الكسل. لو لم أكن كسولاً لكنت قد سرت في طريق الناس المحترمين الأثرياء. مثل أي شخص آخر. لو كنت قد درست التجارة ـ أو صناعة الخزانات أوالنسيج أوالبناء ـ لوفتحت دكاناً وعملت طوال اليوم، فكيف لي بعد ذلك أن أجد الوقت للبحث عن اللّه؟" كأنني بعد ذلك أبحث عن أبرة في كومة تبن: هكذا كنت أقول لنفسي. سيكون عقلي منهمكاً بالتفكير في: كيف أكسب عيشي وكيف أطعم أطفالي، وكيف تبقى لي اليد العليا على زوجتي. بمقلقاتٍ ملعونةٍ كهذه كيف يكون لي الوقت، أو الميل، أو القلب النقي الذي أحتاجه كي أفكر فيه تعالى؟

لقد ولدت بحمد اللّه كسولاً. فالعمل والزواج والأطفال وعمل المشاكل لنفسي كلها أشياء مربكة لي. لذلك جلست تحت الشمس خلال الشتاء وفي الظل خلال الصيف وفي المساء تمددت على ظهري على سطح بيتي، راقبت النجوم والقمر. وحين تراقب النجوم والقمر كيف يمكن أن تتوقع أن لا يسكن اللّه عقلك؟... من صنعني ولماذا؟.. من صنعني ولماذا؟ أين يمكنني أن أجد اللّه لأسأله؟... إن التقوى تتطلب الكسل، كما تعرف. لأنها تتطلب الفراغ، وان لا تصغي لما يقوله الآخرون.. إن العامل الذي يعيش من اليد إلى الفم يعود إلى بيته كل يوم مرهقاً وجائعاً. يلتهم عشاءه ويزدرده على عجل، ثم يتنازع مع زوجته، ويضرب أطفاله من دونما سبب أو حجة فقط لأنه متعب وساخط، وبعد ذلك يطبق قبضتيه وينام. وحين يستيقظ للحظة يجد زوجته إلى جانبه، يضاجعها وينام. ويطبق قبضتيه مرة ثانية ويعود ليغط في النوم...

من أين سيجد الوقت لله؟ غير ان الإنسان العاطل والذي لا زوجة له ولا أطفال، يفكر في الله، في البداية لمجرد التعرف وفيما بعد تأتي المعاناة. لا تهز رأسك، يا سيد فرانسيس. أنت سألتني وها أنا أجيبك:

"إستمر في الكلام يا أخي ليو، لا تتوقف لقد قلت الحق، اليس كذلك؟ إن الشيطان يغش الرب، وان الكسل يغش الرب، كلامك مشجع يا أخي ليو فاستمر."

"ماذا أقول لك أكثر من هذا يا سيد فرانسيس؟ أنت تعرف البقية. لقد ترك لي والدي الشيء القليل، فاستهلكته. ثم نزلت إلى الطريق وجرابي معي، أطرق الباب بعد الباب، والدير بعد الدير، والقرية بعد القرية، بحثاً عن الله، أسأل أين هو؟ ... من رآه؟ .. أين يمكنني أن أجده؟ وكأنه حيوان بري وأنا ذاهب لصيده. ضحك البعض مني، ورماني البعض الآخر بالحجر، وطرحني غيرهم أرضاً وضربوني. لكنني كنت دائماً ما انهض على قدمي ثانية وانطلق مرة اخرى في متابعة البحث عن الله."

"وهل وجدته، هل وجدته؟"

تساءل فرانسيس لاهثاً وشعرت بنفسه الدافىء على جلدي.

انىّ لي أن أجده، يا سيدي؟ سألتُ كل أنواع البشر، من عقلاء وقديسين ومجانين وأساقفه ومغنيين وشيوخ معمرين. كل منهم كان يقدم لي نصيحة، ويريني سبيلاً ويقول لي: "اتخذه وسوف تجده." لكن منهم كان يدلني على طريق مختلف. فأيهم أختار؟ كنت قد أشرفت على الجنون. قال حكيم من بولونا: "إن الطريق الذي يقودك إلى الرب هو طريق الزوجة والأطفال فتزوج." رجل آخر، مجنون وقديس من غوبيو قال:

"إن أردت أن تجد الله فلا تبحث عنه. إن أردت أن تراه أغمض عينيك، ولكي تسمعه سد أذنيك. هذا ما افعله." وبعد أن قال لي ذلك أغمض عينيه وسد أذنيه، وعقد يديه وراح يبكي.. أما المرأة التي كانت تعيش ناسكة في الغابة فقد ركضت عارية تماما تحت أشجار الصنوبر وراحت تضرب صدرها صارخة: "الحب. الحب. الحب." وكان ذلك هو الجواب الوحيد الذي تستطيعه.

وفي يوم آخر صادفت قديساً في كهف، كان قد أعماه البكاء المفرط، جلده كان مليئاً بالقشور، نتيجة القداسة واللا نظافة. قدم لي نصيحة كانت صحيحة ومرعبة في الوقت نفسه. وحين أزنها في عقلي يقف شعري.

قال فرانسيس وهو يمسك بيدي مرتعداً: "أية نصيحة، أريد سماعها."

إنحنيت وطرحت نفسي أمامه وقلت: "أيها الزاهد المقدس، لقد خرجت كي أبحث عن الله. فسألته والهلع يتملكني: "ماذا هناك إذن؟.

"ليس غير جهنم. فاقفز أليها."

وصرخت: " جهنم؟ أهي الطريق؟"

"أجل جهنم. كل الطرق تؤدي إلى الأرض، أما جهنم فهي التي تقودك إلى الرب. فاقفز."

"لا أستطيع يا أبي."

"تزوج أذن وانس أعباءك هذه".

قال لي ذلك ومد ذراعه الذي يشبه هيكلاً عظمياً ليدفعني كي ابتعد عنه.

وحالما ابتعدت طفقت أسمع إيلامه لي عن بعد."

فتمتم فرانسيس مرعوباً: " هل جميعهم يبكون؟ جميعهم؟ من وجد الله ومن لم يجده؟"

"أجل جميعهم."

"لماذا يا أخي ليو؟"

"لا أعرف. لكنهم كانوا جميعاً يبكون."

وبقينا صامتين. دفن فرانسيس وجهه في الوسادة وكان يتنفس بصعوبة.

وقلت له لأريحه: "أسمع يا سيد فرانسيس، يبدو لي أنني رأيت خطوة له مرة أو مرتين. مرة، حين كنت مخموراً، لمحت قفاه للحظة. كنت في حالة أمضي وقتاً سعيداً مع أصدقائي وكان قد فتح الباب لتوه كي يخرج، وفي وقت آخر وبينما كنت أسير عبر الغابات، كان المطر ينهمر وثمة برق، واستطعت أن ألمح حافة ردائه بينما كان مضاءً بشعاع البرق. لكن الشعاع أنطفأ سريعاً واختفى الرداء. لربما كان البرق نفسه رداء له؟.. ومع ذلك في وقت آخر، في آخر شتاء في حقيقة الأمر، رأيت أثار خطواته في الثلج على قمة الجبل. ومر أحد الرعاة. فقلت له: "أنظر، خطوات الرب". لكنه أجاب ضاحكاً: " لقد فقدت عقلك أيها الصديق. هذه آثار ذئب، لقد مر ذئب من هنا." فمكثت هادئاً. ماذا كنت سأقول لهذا الريفي البليد الذي امتلأ عقله بالأغنام والذئاب؟ كيف يمكنه أن يفهم شيئاً أسمى من ذلك. بالنسبة لي، كنت متيقناً أنها كانت آثار الرب على الثلج... كنت أتتبع أثاره لأثني عشر عاماً، يا سيد فرانسيس، لكنني لم أعثر إلا على هذه العلامات."

غط فرانسيس في تفكير عميق حانياً رأسه وقال بعد هنيهة: "لا تتنهد يا أخي ليو، من يدري، ربما يكون الرب يبحث ببساطة عن الرب."

أرعبتني هذه الكلمات. وأرعبت فرانسيس أيضاً فأخفى رأسه بين يديه. وتذمر يائساً : "أي شيطان يتكلم في داخلي؟"

ولم أنطق أنا بشيء، بل وقفت بعيداً أرتعش. إن تبحث عن الرب، فهل هذا هو الرب؟ إن كان كذلك، فالويل لنا.

ولم يتكلم أحد منا. كانت عينا فرانسيس قد دارتا في محجريهما مرة أخرى، ولم أعد أرى سوى البياض. كانت خدوده قد إلتمعت وراحت أسنانه تصطك، فلففته ببطانية من الصوف، لكنه قذفها بعيداً وقال: أريد أن تتركني، لا تحدق بي، حدق في مكان آخر!"

نهضت لأغادر، لكن ملامحه بدت أكثر شراسة وقال لي: " أين ستذهب؟ إجلس! لا تفكر بالتخلي عني وتبقيني وحيداً هكذا حين أكون في خطر؟ لقد تكلمت أنت واسترحت. وأريد أن أتكلم أنا الآن، أريد أن أجد الراحة. أين عقلك؟ في الطعام؟ تناول الطعام أذن. إذهب إلى خزانة الطعام، وكل وأشرب بعض النبيذ. ما سأقوله لك سيء جداً. أدعم نفسك كي تستطيع أن تنصت. لا تخذلني"

فأجبت متألماً : "لست بحاجة إلى أكل أو شرب. ما تظنني؟ مجرد معدة؟ لقد ولدت كي أنصت. أريدك أن تعرف هذا. من أجل ذلك فقط: أن أنصت. فانطلق في الكلام. لا يهم ماذا ستقول، فلسوف أتحمل."

"اسقني كأساً من الماء، فأنا ظامىء."

شرب ثم اتكأ على وسادته منتصب الأذنين وأصغى بانتباه فاغر الفم. كان المنزل صامتاً وفارغاً. وصاح ديك في الفناء.

"أظن أن لا أحد سوانا قد بقي في العالم يا أخي ليو. هل تسمع أي

أحد في داخل البيت أو خارجه؟ لابد أن العالم قد تلاشى ولم يبق سوانا."

ظل ساكناً لدقيقة لكنه قال بعد ذلك: "المجد لله" ورسم شارة الصليب ثم نظر إليّ. شعرت بنظرته الحادة عميقاً في روحي. بعد صمت آخر نظر إلى الخارج ثم أمسك بركبتي. وقال باركني أيها الأب ليو. أنت من سأعترف له، إنني أنوي الاعتراف."

قال، وهو يراني متردداً، في لهجة آمرة: "ضع يدك على رأسي يا أبي ليو وقل "فرانسيس يا ابن بيرنارمن دون لقد أذنبت: إعترف، باسم الله. إن قلبك مليء بالذنوب. أفرغه لتجد الراحة."

لكنني ظللت صامتاً.

قال بغضب هذه المرة: "أفعل ما أقوله لك." وضعت يدي على رأسه. كان مشتعلاً، جمراً يتصاعد منه الدخان.

تمتمت: " فرانسيس يا إبن بيرنارمن دون، لقد أذنبت: إعترف باسم الله. إن قلبك مليء بالذنوب أفرغه لتجد الراحة"!

ثم بقي هادئاً في البداية لكنه وهو يشرع في الكلام إزدادت إنفعالاته حتى صار يلهث في الأخير وبدأ اعترافه:

"ليست حياتي حتى الآن سوى ولائم وقصف وعزف على العود وريش حمراء وثياب حريرية. عمل طوال النهار. أعطي مقاييس ناقصة، أخدع الناس، اجمع المال ثم أبذره بيدي من أجل ذلك سموني "الأيدي السخية" عمل في النهار، خمر وغناء في الليل، تلك كانت حياتي.

ولكن يوم أمس، بعد أن عدنا إلى البيت في منتصف الليل وبينما كنت نائماً، طفق ثقل كبير يضغط على قلبي. وبدأ المنزل يضيق. وشعرت بالاختناق، لذلك هبطت السلم بهدوء، وتسللت إلى الفناء،

فتحت البوابة الخارجية مثل لص، وخرجت إلى الطريق. كان القمر مشرفاً على الغياب. فتضاءل نوره من قبل. لم يكن ثمة من صوت. كل المصابيح كانت مطفأة، والمدينة نائمة في حضن الرب.

نشرت ذراعي كي أتنفس بعمق. وهذا ما جعلني أشعر بتحسن. بعد ذلك رحت أصعد، وأسير من شارع لشارع. وحين وصلت إلى سان روفينو كنت متعباً، لذلك جلست على الأسد الرخامي الذي يحرس مدخل الكنيسة، تماماً في المكان الذي كنت تجلس فيه حين أتيت إليك هذا الصباح. ضربت الأسد بخفة براحة يدي وعثرت، حين وصلت إلى فمه، على الرجل الصغير الذي يأكله.

لقد أرعبني هذا. ما هذا الأسد؟ سألت نفسي. لماذا وضع هنا كي يحرس باب الكنيسة؟ يأكل رجلاً بأكمله، من يكون: الله؟ الشيطان؟.. كيف لي أن أعرف؟ من يمكنه أن يخبرني فيما إذا كان الله أو الشيطان؟... وفجأة شعرت بصداع في يميني وصداع في يساري، وأنا واقف بين جهنم المزدوجة على جزء من الأرض ليست أوسع من قدم. وأحسست بالدوار. كان العالم يلتف حولي، حياتي كانت تلتف. فنطقت بصرخة. "هل ثمة من أحد يسمعني هل أنا وحيد في العالم؟ أين الله؟ ألا يسمعني، أليست له يد كي تمسك برأسي؟ إنني أشعر بالدوار. سوف أسقط."

نشر فرانسيس ذراعيه أوسع وأوسع بينما كان يتكلم. كان يختنق، غير قادر على التنفس. رفع عيني أيضاً وحدق عبر النافذة إلى السماء. وأمسكت بيده كي أهدئ من روعه، لكنه إرتد بقوة وتذمر بصوت مهتاج: "إليك عني، لا أريد أن أهدأ!" ثم تكور في زاوية الفراش لاهثاً وصار صوته أجش:

"ناديت أولاً الله، ثم الشيطان غير عابيء أي من الأثنين سيظهر، من أجل ذلك قد أشعر أنني لم أعد وحيداً. لماذا غمرني ذلك الخوف من العزل فجأة." كنت جاهزاً في تلك اللحظة لأسلم روحي لأي منهما. لم أعد مهتماً، كل ما كنت أريده هو أن يكون لي رفيق، ولا أكون وحيداً! وبينما كنت أنتظر محدقاً في السماء سمعت صوتاً.."

وتوقف وهو يتنفس بصعوبة، وكرر "سمعت صوتاً، وبدأ العرق يتساقط فجأة بقطرات كثيفة على وجهه.

سألته: "صوت؟ أي صوت يا فرانسيس؟ ماذا كان يقول؟

لا أستطيع أن أميز الكلمات. كلا لم يكن صوتاً، بل كان خواراً لوحش بري، لأسد. أيمكن أن يكون للأسد الرخامي آكل البشر الذي كنت أجلس عليه؟ .. قفزت على قدمي. كان خيط النور الجميل للفجر قد بدأ بالبزوغ. كان الصوت لا يزال في داخلي، يرتد مثل دوي الرعد. من القلب إلى الكليتين، من أحد كهوف أحشائي إلى الآخر. وراحت الأجراس تدق لصلاة الصبح. واستمريت، متوجهاً نحو أعالي الحصن. وأسرعت في العدو، وبينما كنت أعدو وجدت نفسي أسبح فجأة في عرق بارد. سمعت شخصاً ما يناديني من الخلف: "إلى أين تعدو يا فرانسيس؟ إلى أين تعدو يا فرانسيس؟ إلى أين تعدو يا فرانسيس؟ لن تستطيع الهرب!" واستدرت فلم أر أحداً. وعدت أركض. بعد دقيقة سمعت الصوت مرة أخرى "فرانسيس يا فرانسيس أمن أجل هذا ولدت؟ كي تغني وتمرح وتغوي البنات؟"

"في هذه المرة شعرت بالخوف ولم أجرؤ على النظر إلى الخلف فواصلت الركض محاولاً أن أهرب من الصوت. ولكن بعد ذلك

صرخ حجر أمامي: "فرانسيس، يا فرانسيس أمن أجل هذا ولدت؟ كي تغني، تمرح وتغوي البنات؟"

انتصب شعري إلى أقصاه فعدوت وعدوت. لكن الصوت كان يعدو معي. وفهمت بعد ذلك بوضوح: لم يكن الصوت خارج جسدي.إذ مهما عدوت فلن أستطيع الهروب منه لأنه كان يجيء من داخلي. شخص ما في داخلي كان يصرخ. ليس أبن بيرنارمن دون، الخليع، كلا، ليس أنا، بل شخص آخر. شخص في داخلي، أفضل مني. من هو؟ لا أعرف. كيف لي أن أعرف؟ ليس سوى شخص ما...

وصلت الحصن، أخيراً، منقطع الآنفاس. في تلك اللحظة بزغت الشمس من خلف الجبل ودفأتني. وازدان العالم الذي حولي بالضوء وتدفأ أيضاً. وبدأ شخص في داخلي يتكلم مرة أخرى، لكنه هذه المرة برقة شديدة، وفي همس، كأنه يطلعني على سر. أحنيت رأسي فوق صدري وأصغيت. أيها الأب ليو، أقسم لك أنني أقول الحقيقة بأكلمها. فأستمعت إلى: " فرانسيس يا فرانسيس ان روحك حمامة، والصقر الذي يلاحقك هو شيطان. فتعال إلى صدري."تلك هي الكلمات بحذافيرها التي ألفتها نفسي ولحنتها على موسيقى العود. في منتصف كل ليلة كنت أقف تحت النافذة وأغنيها. أما الآن، الآن ولأول مرة، يا أخي ليو فهمت لماذا ألفت تلك الكلمات وأي معنى كان متخفياً فيها".

بقي صامتاً لدقيقة وابتسامة على شفتيه. ثم، وكأنه في نشوة، أحنى رأسه وكرر في همس: " فرانسيس يا فرانسيس إن روحك هي في الحمامة، والصقر الذي يلاحقك هو الشيطان فتعال إلى صدري."

وعاد إلى الاستغراق في الصمت مرة أخرى. وهدأت نفسه، وشعرت

أن بإمكاني لمسه من من دون أن احترق فملت إلى الأمام، أخذت يده وقبلتها. قلت: "أخي فرانسيس، كل إنسان حتى الوثني، له رب يسكن عميقاً في قلبه، ملفوفاً بطبقات من اللحم والشحم. لقد كان ذلك هو الرب الذي في داخلك والذي أزاح اللحم والشحم وناداك.

أغلق فرانسيس عينيه وظل ممدداً على فراشه متيقظاً ويتثاءب.

قلت له بلطف: " نم يا فرانسيس. النوم هو أحد ملائكة الله، يمكنك أن تستسلم له بكل ثقة."

لكنه نهض بغتة.:" ماذا سأفعل الآن؟ " سألني بصوت مكبوت وعيناه جاحظتان من محجريهما.

"انصحني"

شعرت بالآسى عليه. ألم أكن أحوم لسنوات على نفس المنوال، واطلب النصيحة؟

أجبته:" دع رأسك أزاء صدرك وانصت إلى قلبك. إن هذا الشخص الذي في داخلك سوف يتكلم مرة أخرى حتماً. وحين يتكلم أفعل ما سيطلبه منك."

سمعت البوابة وهي تفتح بهدوء، ثم سمعت صدى خطوات ثابتة في الفناء. لقد عادت السيدة بيكا من الصلاة وحدها. تنهدت مستريحاً. لا بد أن السيد بيرنارمن دون قد أمتطى جواده وربما كان في طريقه إلى فلورنسا قلت، لقد عادت والدتك، فنم، أما أنا فسوف أغادر."

"لا تذهب. لقد ذهب العجوز. سوف تنام هنا. لا تتركني وحدي أقول لك."

أمسك بيدي وصاح. "لا تتخلَّ عني وأنا في خطر."

"لم تعد وحدك يا فرانسيس. أنت تعلم ذلك. إن الرفيق الأعلى في

داخلك، لقد سمعت صوته. فمم تخاف؟"

" ولكن ألا تفهم يا أخي ليو، أنني أخشاه هو بالذات. فلا تذهب."

وضعت يدي على رأسه. كان مشتعلاً. ودخلت أمه مبتسمة.

" لقد جئتك بتحيات من نصب السيدة العذراء يا بني. فلتكن سلاماً وطمأنينة لروحك."

وبعد أن قالت ذلك، وضعت في كفه غصن ريحان.

كم مضت من الليالي والنهارات على مرض فرانسيس؟ أستطيع أن أحسب كل شيء إلا الزمن. كل ما أتذكره أن القمر راح يصغر وراح يكبر ثم عاد ليصغر ثانية. وما زال فرانسيس راقداً. إنك تحس وكأنه يتصارع في نومه. يصرخ في لحظة ويقفز، وفي اللحظة التالية ينكمش في إحدى زوايا الفراش، مرتجفاً. فيما بعد، حين أستعاد صحته، أنبأنا أنه خلال مرضه كله كان يتقاتل، أول الأمر مع العرب. لقد رأى نفسه يدخل القدس، متشبثاً بالصليب المقدس على كتفه. ثم مع الشياطين التي ظهرت من الأرض، والتي هبطت من الأشجار، طافت أحشاء الليل وهي تلاحقه.

لم يبق إلى جانبه سوى أمه وأنا. بين الفينة والأخرى كانت السيدة بيكا تنهض. تعزل نفسها في زاوية وتبكي. ثم تمسح عيونها بمنديلها الصغير الأبيض، وتعود لتجلس، وتلتقط مروحة ريش الطاووس وتبرد إبنها الذي كان مشتعلاً بالحمى.

في إحدى الليالي حلم المريض. وروى حلمه لنا في اليوم، ليس في الصباح، لأن الاضطراب كان لا يزال يتملك عقله، بل عند المساء، بعد أن هبط الظلام واستضاءت الأرض بمصابيح البرونز وأمسي العالم من حولنا عذباً. كان قد حلم بأنه كان يموت وكان يتيماً مضطجعاً يعاني من سكرات الموت. فتح الباب ودخل الموت. ولم يكن يحمل معه منجلاً، هكذا كان فرانسيس قد رآه مرسوماً في اللوحات، بل كان يحمل كماشة طويلة كالتي يستعملها الحراس الذين يقضون على الكلاب الضالة. صرخ بي وهو يقترب من الفراش: "أنهض يا ابن بيرنارمن دون، دعنا نذهب"!

"أين ؟"

"أين؟ هل أنت بحاجة إلى السؤال! لقد كان لديك الوقت ولكنك بددته الحفلات والملابس الباهظة وإنشاد الأغاني. لقد جاءت ساعة الحساب.

رفع الكماشة. ربض فرانسيس إزاء الوسائد مرتعداً. قال وكأنه يعوي دعني أعيش سنة أخرى. سنة أخرى فقط، أمنحني وقتاً للندم."

ضحك الموت وسقطت أسنانه على أقمشة الكتان والحرير: " فات الأوان. لقد عشت حياتك الوحيدة. لقد غامرت وفقدتها. فتعال الآن!"

ثلاثة شهور فقط... شهر .. ثلاثة أيام.. يوم واحد!"

لكن الموت لم يجب، هذه المرة. رفع الكماشة وأمسك برقبة فرانسيس وفي تلك اللحظة أطلق الحالم صرخة عنيفة من القلب واستيقظ بعدها.

نظر حوله كان الكناري الذي جلبته السيدة بيكا من أجل مؤانسة المريض يغني من مكانه قرب النافذة، رافعاً منقاره إلى السماء.

صاح فرانسيس بسعادة: "الحمد لله!" كان العرق يتصبب من جبهته أمسك بالشراشف وحديد السرير وراح يتلمس ركبتي والدته.

تمتم مستديراً نحوي مشرق العينين: "أهذا صحيح؟" هل أنا ما زلت حياً؟"

وأجبته: "لا تخف يا سيدي الشاب. أنت حي وتزدهر."

فصفق يديه. كان وجهه متألقاً

"هذا معناه أن لدي وقتاً. حمداً لله." وضحك وراح يقبل يدي أمه.

سألته أمه:" هل حلمت يا ولدي؟ ليته فألاً حسناً.

وتمتم ثانية مأخوذاً بالانفعال: "لديّ وقت، الحمد لله، لدي وقت."

ولم يعد إلى الكلام طوال ذلك اليوم حتى المساء. أطبق جفنيه وغطّ في نوم عميق. وغمر الضياء رقبته وكل وجهه.

واستمرت السيدة بيكا في تهويته بريش الطاووس. وأفرجت شفتيها شاعرة بالغصة متذكرة كيف كانت تتيم ولدها حين كان رضيعاً، وبدأت تغني له بلغتها الأم، بعذوبة... وحلاوة...

نم، يا من تأخذ كل رضيع،

أهبط وخذ طفلي.

أعطيكه صغيراً صغيراً،

فأعده إليّ يافعاً.

غنت برقة بهذه الطريقة لوقت طويل وهي تهوّي طفلها، في حين انحنيت أنا على فرانسيس وحدقت في وجهه: كان يلمع وتلاشت التجاعيد التي حول فمه وبين حاجبيه، وأضحى جلده لدنا وكأنه رضيع. وأبرقت سيماؤه مثل حجر غسله البحر البارد الرائق.

فتح عينيه عند المساء. كان قد استراح وهدأ جالساً في فراشه، ونظر حوله وكأنه يرى العالم لأول مرة. حين سقط نظره على كل واحد منا ابتسم وطفق يخبرنا عن حلمه. ولكنه بينما كان يسرده بدأ الخوف القديم يعود إليه وامتلأت عيناه بالعتمة. أخذت أمه يده ولثمتها فسكن.

قال: "أماه يا عزيزتي ماما، إحكِ لنا قصة."

وبدأ يلثغ وصار فجأة يشبه وجه رضيع. فأحست السيدة بيكا بالرعب. كان أحد أخوتها، مغنياً من التربادور في أفينون وهو مبذر مثل فرانسيس تماماً، وفقد عقله من أثر الشرب المفرط والغناء.

وسيطر عليه الوهم ليتخيل انه حمل، فزحف على أربع وثغى وذهب إلى الحقول ليرعى... وها هو الآن إبنها الذي بدا وكأنه عاد رضيعاً يطلب منها أن تقص له قصة. هل هذا ممكن؟ تساءلت مع نفسها، طالبة من الله المغفرة على جرأتها، هل كان من الممكن أن يكون دمها قد تلوث بالخبل؟

تساءلت وهي تلمس جبهته كي تهدئه: " أية قصة يا ولدي؟"

"أية قصة تريدين. قصة من بلادك عن بيتر، الراهب الحافي المتوحش."

"أي بيتر؟"

"بيتر الهرطقي من ليون."

"لكن هذه ليست قصة، بل حقيقة."

"كنت قد عودتني حين كنت صبياً أن تحكيها لي، وكنت أعتقد أنها قصة. كل ما هنالك أنني كنت خائفاً من ذلك المسخ المقدس مثلما كنت خائفاً من البعبع. وحين كنت أخطئ، ألا تتذكرين؟ كنت تهدديني بالقول: "سيأتيك الراهب حالاً ويأخذك. "وكنت أربض تحت الكرسي الكبير ولا أنبس بكلمة خائفاً من أن تجديني وتأخذيني."

فقاطعتهما في تلك اللحظة: "كنت تحكين القصص عن بيتر من ليون، الراهب الشهير؟ هل كنت تعرفينه يا سيدة بيكا؟ رويت عنه أشياء كثيرة لا تصدق، أشياء مدهشة. سيدتي، أتوسل إليك، أنا الشحاذ المتواضع، أخبرينا إن كنت قد رأيته؟ ماذا كان يشبه؟ أنا نفسي انطلقت كي أبحث عنه مرة، لكنني وصلت متأخراً. فقد توفي."

أبتسم فرانسيس وقال كي يغيظ والدته "لقد رمت نعليها، ومن

الواضح أنها أرادت أن تتبعه حافية، ولكنهم لم يسمحوا لها. بل بدلاً من ذلك وضعوها في منزل مقفل وزوجوها وصار لها طفل ونسيت كل شيء كما ترى، لقد كانت تبحث عن ولد وليس عن الله."

ضحك. لكن السيدة بيكا انزعجت.

قالت بتنهد " لن أنساه أبداً: ولكن ثمة أشياء إزاء الوسائد: "أخبرينا كيف قابلتيه أول مرة يا أمي". لقد نام طول النهار وهو يشعر الآن بلذة الراحة فأغمض عينيه وقال: أنا مصغ.

وتحول لون السيدة بيكا إلى احمر كالنار. بقيت صامتة لبعض الوقت ورأسها متدل على صدرها، جفناها يرمشان مثل أجنحة طائر جريح. كان من الواضح: أن ذلك الراهب يقطن عميقاً في داخلها، مدفوناً في عتمة قلبها، ولم تكن تجرؤ ولم ترغب حتى في أن تخرجه إلى الضياء. وأخيراً توسلت إلى ولدها: "هل تود أن أقص عليك الحكاية الحقيقية يا ولدي؟

فتح فرانسيس عينيه.

قال لها مقطب الجبين: "كلا. اخبرينا عن بيتر. لا أريد شيئاً آخر. كيف قابلتيه أول مرة، متى وأين وماذا قال لك، وكيف هربت. لقد سمعت أشياء كثيرة وعظيمة عنه، لكنني لا أصدقها. وقد حان الوقت، أريد أن اسمع الحقيقة."

والتفت إليّ.

قال:"كل إنسان لديه فترة مخيفة من حياته. وهذه هي الفترة المخيفة من حياة أمي.

فقالت السيدة بيكا بصوت خان انفعالها: "حسن يا ولدي، سأخبرك بكل شيء فاهدأ الآن."

وضعت يديها في حضنها. أصابعها النحيلة والرقيقة التي تشبه أصابع ولدها بدأت بالتململ بعصبية وهي تعبث بالمنديل الأبيض الذي كانت تحمله في كفيها.

وبدأت تتكلم ببطء وكأنها تجاهد كي تتذكر: "لقد كان الوقت مساء السبت كنت أتمشى في فناء منزلنا أسقي النباتات: الريحان والمارجو والقطيفة. كان الجيرانيوم الأحمر قد أزهر في عصر ذلك اليوم وكنت أقف أمامه متمتعة حين قام شخص ما باقتحام الباب الخارجي للبيت فجأة ودخل. ألتفت نحوه مرتعبة، ورأيت الراهب المذعور يقف أمامي. كان رداؤه مرقعاً ومهلهلاً وثمة حبل سميك استخدمه على أنه حزام وكان حافياً.

فتحت فمي لأصرخ، لكنه وضع يده على فمي. قال وهو يرفع يده ويبارك المنزل: "السلام على هذا المنزل." كان صوته ثقيلاً ومتوحشاً، ولكن في مكان منه في المركز بالضبط شعرت برقة لا توصف. حاولت أن أسأله من هو وماذا يريد ولماذا يلهث ومن يتبعه، لكن حنجرتي قد شدت بقوة ولم يخرج منها صوت.

قال وقد حدس سؤالي من حركة شفاهي: "أجل أنا مطارد. أنا مطارد من قبل أعداء المسيح. ألم تسمعي بي؟ أنا بيتر الراهب، ذلك الذي يرفع الراية الممزقة ذات الزنابق البيضاء، راية المسيح، أنا الذي جاب المدن والقرى، حافياً وجائعاً، والذي أخذ السوط من يدي المسيح وأستخدمه الآن كي اطرد كل الزناة والكذابين والخداعين من معبد الله.

كان لا يزال يتكلم حين سمعت ضجة هائلة في الشارع. ثمة حشد كبير كان يمر، يطرق الأبواب مستهجناً ومهدداً. وبدأ جرس كنيستنا الأبرشية يدق باهتياج.

"التفت الراهب إلى الباب شاداً قبضته وزاماً شفتيه باستهزاء. وقال مزمجراً: "لقد شموه في الهواء لقد شموا رائحة المسيح عدوهم اللدود، والآن يركضون مثل المجانين كي يشنقوه ثانية. أنت يا بيلانس، وأنت يا كايافاسيس، إنه آت، إنه آت، وإن يوم الحساب لقريب"!

مر الغوغاء، غير أنهم لم يجرؤوا على طرق بابنا، ثم اتجهوا نحو الجسر حتى اختفوا. بقيت وحيدة مع الراهب في باحتنا كان يحدق فيّ وثمة غضب غريب ورقة في نظراته. أما أنا فإن الذعر جعلني أشخص ببصري نحو الجيرانيوم الأحمر. لقد جرفت قوة هائلة هذا الراهب المتوحش وأنا غير قادر على تحمل ذلك. وعلى حين غرة أمسك بالجرانيوم وكسره حتى سقطت كل براعمه على الأرض.

فصرخت واغرورقت عيناي بالدموع، أما هو فقد قطب حاجبيه الكثيفين:

"ألا تخجلين من نفسك وأنت تمنحين روحك للمخلوقات وتنسين الخالق؟كل الأشياء الجميلة في الأرض تمنعنا من رؤية الذي هو لا مرئي ولذلك لا بد لها من أن تهلك."

كان فرانسيس يصغي وهو مطرق الرأس حتى هذه اللحظة، ثم نظر إلى الأعلى بشكل مفاجئ. كانت وجنتاه مشتعلتين.

وصاح: "كلا، كلا، كلا."

والتفت نحوي: "ماذا تعتقد يا أخي ليو؟"

ما عساي أن أقول يا سيدي؟ لست إلا شخصاً أبله ولكنني أومن بأي شيء. لا بد من أن أرى أو أسمع أو ألمس. فليس لي إلا أن أرى المرئي حتى يمكنني تخيل ما هو لا مرئي. إن لم يكن ثمة شيء ملموس، فلن أستطيع الحكم."

قال فرانسيس، بينما كان يحدق عبر النافذة في الفناء حيث عريشة العنب، والغيوم البيضاء المتناثرة التي تطوف السماء: "الجمال ابن الله. الجمال ابن الله: ذلك شيء مؤكد. الشيء الوحيد الذي يمكننا التنبؤ به هو سيماء وجه الله من خلال النظر إلى الأشياء الجميلة. أماه إن الجيرانيوم الذي قتل راهبك براعمه سوف تقذفه في الجحيم."

فاعترضت السيدة بيكا: لكنه فعل ذلك لينقذ روحي فماذا يكون الجيرانيوم مقابل الروح البشرية؟ إن راهبي، كما تسميه، سوف يدخل الفردوس وفي يده زهرة الجيرانيوم تلك، لأنه وبساطة قد أنقذ روحي".

فقال فرانسيس محدقاً في أمه بدهشة: " ماذا؟ أنقذ روحك؟ ولكن ألم يحضر والدك ويرميه إلى الخارج، منهياً أمر كل شيء؟ هذا ما أخبرتني به من قبل، والآن لماذا لم تخبريني بالحقيقة؟"

"لأنك لم تكن لتفهمني حين كنت طفلاً ولو أني قد أخبرتك حين كبرت لكنت قد ضحكت مني. أما الآن ها أنت طريح الفراش والحرارة الملتهبة لجسدك قد انخفضت قليلاً يا بني، وعليه فبإمكانك سماع رسائل الرب السرية من دون أن تضحك. من أجل هذا قررت أن أخبرك الآن."

قال فرانسيس بصوت مستثار: "تكلمي يا أمي، تكلمي. لن أضحك. وقد أبدأ بالبكاء. لقد حانت الساعة. نعم، أنت محقة يا أمي. لقد حانت الساعة كي أسمع.

وما كاد ينتهي من كلماته هذه حتى انفجر بالبكاء. فتساءلت أمه المذعورة وهي تعانقه "لماذا تبكي يا ولدي، لماذا ترتعش هكذا؟".

"لأنني أشعر أن دمك يجري في داخلي يا أماه دمك..."

تناولت السيدة بيكا منديلها ومسحت العرق من صدغيها ورقبتها. حدجتني مترددة للحظة وكأنها لم ترغب في الكلام أمامي. فنهضت.

"هل تفضلين أن أغادر يا سيدتي؟ سأذهب."

ومد فرانسيس يده آمراً: "أبق. لن تذهب إلى أي مكان... إن أمي لا تشعر بالحرج. تكلمي."

نظرت إلى السيدة بيكا. إرتجف حاجباها. رمتني بنظرة حادة وكأنها كانت تزنني في ذهنها.

وقالت أخيراً: "إبق ليس لدي شيء أخجل منه. إن قلبي نقي سأتكلم."

فقال فرانسيس وهو ينظر إلى أمه بنفاد صبر: "حسن هيا.."

"وضع الراهب يده على رأسي وشعرت أن ناراً تهبط إلى دماغي، وتقتحم حنجرتي لتحرق أحشائي. أي شيء كانت تلك النار؟ لقد جعلني انفجر بالبكاء، مثل البدء بالرقص في وسط الساحة، أو الاندفاع في الشارع، أرمي نعلي وأسير في الطريق بلا عودة إلى منزل أبي. لقد كنت أشتعل. ما كانت تلك النار؟ لابد أنه الرب، قلت لنفسي. هكذا يدخل الرب في الناس."

كانت وجنتا السيدة بيكا وحنجرتها في توهج. فنهضت نحو الجرة التي كانت على حافة النافذة، ملأت قدحاً وشربت. ثم ملأته ثانية وشربت وكأنها كانت تريد إطفاء اللهب الذي في داخلها.

وتساءل فرانسيس غير قادر على أن يمنع نفسه أكثر:

"ثم ماذا؟"

أحنت السيدة بيكا رأسها.

"ثم يا بني، طار بي. لم يعد منزل أبي كافياً لي. حين فتح الراهب الباب ودعاني للذهاب معه، رميت نعلي وسط الفناء وركضت خلفه.

حدق فيها فرانسيس بعينين جاحظتين. حاول أن يتكلم ولكنه لم يستطع. راقبته بقلق محاولاً عبثاً أن اعرف سبب ما يثير ويعكر صفوه هكذا. هل كان ذلك هو الخوف أو الفرح أو الاحتقار. أم هذه الأشياء معاً؟ أو كانت هذه الثلاثة متبادلة مما جعل وجهه يتحول إلى الشحوب في لحظة، انطفأت النيران، وعادت نيران أخرى بالاشتعال ويتصاعد دخانها مرة أخرى، حمراء ملتهبة؟

وأخيراً استطاع أن يفتح شفتيه ويتكلم: " لقد غادرت؟ ذهبت معه، وهجرت بيتك؟"

"نعم" أجابت السيدة بيكا بصوت هادئ ومطمئن. "كنت في السادسة عشرة من عمري في ذلك الوقت. كان قلبي مفتوحاً ومستعداً لتقبل كل المعجزات، وفي ذلك المساء ظهر لي الرب في الشكل الذي رغب فيه. إنه يظهر لبعض الفتيات في هيئة شاب نبيل ووسيم، أما بالنسبة لي فقد ظهر لي في هيئة راهب متسول، متوحشٍ وحافٍ. ركضت خلفه، وأخذنا جولة في القرى. حدثني عن الفاقة والعفة، عن الفردوس والجحيم، كانت الأرض تهرب من تحت أخمص قدمي: أركلها فتصعد إلى السماء مع الراهب.

"تسلقنا الجبال، وهبطنا منها، دخلنا القرى كلانا، مثل فاتحين عظماء. كان يقف في ساحة القرية، يعتلي صخرة، يرفع ذراعه ويكيل اللعنات على رؤوس كل الوثنيين والمخادعين والحكام في العالم. وحين يأتي الليل، كنت أقف أمامه وأضيء وجهه المرتاب

بضوء مشتعل كي يراه القرويون ويتملكهم الخوف.

"في ذلك الوقت كان والدي قد أرسل الفرسان الذين مشطوا القرى في كل الاتجاهات حتى وجمن دوني. وكان أخي بينهم. أمسك بي ورفعني فوق أرداف حصانه وعاد بي إلى البيت."

توقفت السيدة بيكا لدقيقة، نظرت إلى ولدها وابتسمت له.

"بعد أيام قليلة كنت قد تزوجت."

أغمض فرانسيس عينيه. ولم يفتح أي منا فمه للكلام، ثم وبصمت مهيب سمعنا الكناري يغني بانتشاء رامياً رأسه إلى الوراء باتجاه السماء. لابد أنه كان يزقزق طوال الوقت الذي تكلمت فيه سيدته، لكننا لم نسمعه، كانت عقولنا قد امتلأت بفتاة حافية لاهثة تركض خلف راهبها المتمرد.

وفجأة فتح فرانسيس عينيه.

فقال وقد أضحى صوته أجش مستثاراً: " اذهبا كليكما أريد أن أبقى وحيداً."

ومن دون أن ننبس بكلمة، نهضنا أنا وأمه، فتحنا الباب وخرجنا.

* * *

وطوال تلك الليلة لم يسمح فرانسيس لأحد للدخول إلى غرفته. كنا نسمعه يتنهد ومن وقت لآخر ينهض كي يفتح النافذة ويتنفس بعض الهواء النقي.

عند الصباح سمعته يناديني: "يا أخي ليو"!

هرعت إليه ووجدته مستلقياً على ظهره على الشراشف، وقلبه يدق بعنف. وجهه كان شمعياً شاحباً.

قال من دون أن يلتفت إلي: "لقد حُكم عليّ يا أخي ليو، على يميني جهنم الله وعلى يساري جهنم الشيطان. وما لم تكن لي أجنحة فقد حكم علي وسوف أسقط."

فسألته وأنا أمسك به من ذراعه: "ماذا بك يا فرانسيس؟ لماذا ترتجف؟"

فتمتم: "دم أمي، دم أمي.. ألم تسمع؟ أنه الجنون."

"لم يكن الجنون الذي نخسها يا فرانسيس. لقد كان ذلك هو الله."

"الجنون! الليل بطوله وأنا أحلم بأنني أيضاً رميت نعلي في باحة بيت والدي وأنني كنت اهبط عمودياً إلى الدرك الأسفل. رفعت يدي لأمسك بشيء ما، ولكن كل ما لمسته هو الهواء"!

لمست جبهته، ومسحتها بتؤدة. هدأ تدريجياً وأحنى رأسه فوق صدره مثل طائر جريح. وسرعان ما غط في نوم عميق.

* * *

راقبته محاولاً التكهن بما يظهر قلبه أو ما يخرج منه الآن إذ يفتح النوم كل الأبواب. لماذا يتغير وجهه من لحظة لأخرى. أحياناً يرتفع حاجباه باستغراب، وفي أحيان أخرى تتدلى شفتاه في تعبير حزين لا يوصف، وفي أحيان أخرى يسقط سطوح على كامل وجهه وترفرف رموشه وكأنها غير قادرة على تحمل هكذا إشعاع.

مد يديه فجأة وتشبث بذراعي مرعوباً.

"أخي ليو أهذا أنت؟ هل رأيته؟"

"من ؟"

"لقد ذاب لتوه في الهواء. أنه لا يزال في الغرفة"!

"ولكن من هو يا سيدي ؟؟ لابد أنه حلم."

"كلا، كلا، لم يكن حلماً يا أخي، هل يوجد ثمة شيء أكثر حقيقة من الحقيقة نفسها؟ هكذا هو"!

جلس على فراشه يفكر ويفرك عينيه.

"كنت تظن أنني كنت نائماً أليس كذلك؟ كلا لم أكن نائماً. كانت الأبواب مغلقة ولكنه دخل يتلمس مثل كفيف يداه ممدودتان أمامه. كانت ثيابه مرقعة بآلاف الرقع والأوصال، ورائحته عطنة. وصل فراشي بحث عني وعثر علي: هل أنت الابن المدلل للسيد بيرنارمن دون؟ فأجبته مرتعشاً: "أجل"!

"تعال أذن إنهض وأخلع ثيابي وحممني، واعطني شيئاً لآكل." لم يكن يتوسل، بل كان يأمر.

"من أنت ؟"

أخلع ثيابي أولاً وحممني وقدم لي الطعام"

نهضت ورحت أخلع ثيابه. أي رقع وأية أسمال، وأية عفونة! جسده الآن عارٍ يمكنني أن أراه، لكن كان محطماً! والأقدام منتفخة بمئات الجروح! كان رأسه مفحماً في قلنسوة أزحتها لأكشف عن صدغيه الذين كانا قد تجعدا في غضون عميقة من أثر الحديد الأبيض الساخن. وكان ثمة جرح أحمر على جبهته يشبه الصليب. لكن الذي ادخل الرعب فيّ هي تلك الفتحات الدموية في يديه وقدميه."

"من أنت ؟ " سألته مرة أخرى، وأنا أحدق فيه بإشمئزاز وخوف.

"حممني" كان هذا جوابه. ذهبت وسخنت ماءً وحممته. بعد ذلك، جلس على جذع شجرة، هو ذاته الذي تجلس عليه أنت الآن وقال:

الآن أريد أن آكل"! "فجلبت له صينية مليئة بالطعام. انحنى أخذ قبضة رماد من الموقد ونشرها على الطعام ثم بدأ يأكل. حين انتهى نهض وتشبث بيدي كان وجهه قد سكن، حدق فيّ بتودد ورقة. وقال لي: "لقد أصبحت الآن أخي. أن أستدرت نحوي سوف ترى وجهك، ولو نظرت إليك لرأيت وجهي. أنت أخي. وداعاً."

"إلى أين تذهب؟"

"حيثما تذهب! " وداعاً وحتى نلتقي ثانية"!

"وتلاشى حالما قال ذلك، ذاب في الهواء. إن رائحته مازالت في الغرفة! من كان هنا؟ من؟ ... من تعتقده يا أخي ليو؟ "

ومن دون أن أجيب، غيرت موقعي على الجذع مخافة أن المس ذلك الزائر اللامرئي. فمن يكون: رسول من الجن؟ رسول من القوة النيرة؟ ثمة شيء واحد فقط كنت متيقناً منه: ثمة معركة كبيرة تحدث في الجو حول هذا الشاب الثري.

* * *

مرت ثلاثة أيام، وبدأ الدم يجري في خدود فرانسيس الشاحبة، وعادت القوة إلى مفاصلة واحمرت شفاهه وراح جسده يجوع ويطلب الطعام. وحين وقف جسده على رجليه مرة أخرى، كذلك روحه، كذلك وقف العالم والفناء والبئر وعريشة العنب والأوعية التي حول الغرفة والأصوات التي في الشارع والكواكب التي في السماء أثناء الليل. كلها عاد ظهورها ورتبت نفسها في الأماكن التي أعطيت لها من قبل الزمن والله.

في اليوم الرابع، وعند الفجر، بدأت أجراس سان روفينو تقرع

واستعدّت السيدة بيكا للذهاب إلى الكنيسة وتبعتها المعزى العجوز. أما السيد بيرنارمن دون فلم يعد إلى الآن من جولته. قرعت الأجراس باحتفالية لأن ذلك اليوم، الثالث والعشرين من أيلول، كان عيد القديس داميانو القديس المحبب في صقلية. كانت كنيسته الصغيرة تقع خارج المدينة على المنحدر الذي يقود إلى السهل. إنه يتداعى تدريجياً الآن ليتحول إلى خراب، لكنه حين كان في مجده، كان في كل سنة في مثل هذا اليوم يقام احتفال بهيج هناك ويغطى تمثال القديس بالهدايا الذهبية والفضية. الآن صارت الفجوات تتداعى وتكثر. الشيء الوحيد الذي بقي سليماً هو الصليب، إذ كان صليباً بيزنطياً وله مسيح أخضر مدمى يتعلق عليه. كان ثمة شيء غريب بديع حول هذا المسيح، حزن ليس إلهياً بل إنسانياً. فأنت تحس أنه يبكي، ويموت مثل البشر، لذلك كان المؤمنون الذين يركعون أمامه يرتجفون من المنظر لأنهم يشعرون أنهم كانوا هم المشدودين إلى الصليب والذين يهزهم الألم.

دخلت غرفة فرانسيس منذ الصباح الباكر. كانت السيدة بيكا قد رتبت لي، طوال غياب زوجها، غرفة صغيرة حيث يمكنني أن أنام وأكون قريباً من إبنها، لأنه كان يطلبني طوال الوقت الذي كان فيه مريضاً ورفض أن أبتعد. وجدته اليوم جالساً على فراشه. كان سعيداً. عيناه متعلقتان بالباب وينتظرني.

ناداني حالما رآني: " تعال، تعال يا أسد الله. أرى أنك قد مشطت عُرفك اليوم وثنيت شاربك بطريقة قلب الأسد. ها أنت تلعق فمك. كنت تأكل، عرفت ذلك."

"لقد بعثت لي أمك بارك الله فيها خبزاً وحليباً مع المعزى قبل أن

تذهب إلى الكنيسة... نعم يا سيدي الشاب. كيف لي أن اصف لك شعوري؟ لقد بدأت أتحول إلى أسد، ساعدني يا إلهي."

وضحك.

"إجلس". قال لي ذلك وهو يشير إلى الجذع المنحوت باعتناء قرب الفراش.

وطفق الكناري يغني ثانية. كانت الشمس قد صدمته وامتلأ صدره وحنجرته بالأغنية. حدق فيه فرانسيس لوقت طويل، من دون أن يتكلم، فأغرأ فمه إلى النصف وعيناه مغرورقتان بالدموع.

وهمس أخيراً: "إن الكناري يشبه روح الإنسان. القضبان حوله لكنه يغني بدل الياس. إنه يغني، وينتظر ويرى يا أخي ليو: في يوم ما ستحطم أغنيته القضبان."

ابتسمت. أيعني ذلك أن القضبان يمكن أن تتحطم بسهوله!

لكنه وهو يرى ابتسامتي إمتلأ غيظاً. فقال" ماذا؟ أنت لا تصدقني أليس كذلك؟ لم يحدث لك أبداً أن سألت نفسك فيما إذا كان الجسد، من عظام وشعر ولحم، موجوداً حقاً وحده أم أن لكل جسد روح؟"

"أبداً يا فرانسيس، أبداً. سامحني. إنني نوع بليد من البشر قلت لك، وعقلي أيضاً."

"لم يحدث لي أبداً أن شككت هكذا من قبل يا أخي ليو، إلا خلال مرضي. لقد سحبك الله وجلبك بقربي بوساطة الكسل، أما في حالتي أنا فاعتقد انه كان بوساطة المرض. وليس خلال النهار، بل خلال الليل بينما كنت نائماً وغير قادر على مقاومته. بقيت أسأل نفسي في أحلامي: ربما لا يوجد شيء إسمه الجسد، ربما تكون

الروح وحدها موجودة وما نسميه بالجسد، ليس إلا ذلك الجزء من الروح الذي يمكننا أن نراه ونحس به. في كل ليلة من ليالي مرضي وحالما بدأت أميل إلى النوم شعرت أن روحي تطوف ببهجة وبهدوء في الفناء وتتمركز على قمة العريشة وتتعلق بعد ذلك في الهواء بتموج إلى الأمام والخلف فوق قمم السقوف في صقلية. وأكتشفت حينذاك السر العظيم. أن الجسد غير موجود، أجل يا أخي، ليس ثمة شيء إسمه الجسد، لا يوجد شيء غير الروح"!

فجلس على فراشه متألق الوجه.

وصاح بسعادة: "إن لا يوجد شيء سوى الروح، إن لا يوجد شيء سوى الروح فكر فقط يا أخي، إلى أي حد يمكن أن نذهب! حين يعود الجسد هنا كي يعيقنا، فبقفزة واحدة يمكن أن نكون في السماء"!

لم يفهم دماغي كلماته جيداً لكن قلبي استوعبها كلها: "إستمر"

واتخذت هذه القفزة في حلمي، "أنظر، هكذا! " فتح ذراعيه بنشاط إلى الأعلى نحو السماء وكأنها أجنحة. "عندما تحلم، ليس ثمة أبسط ولا أسهل من ذلك. لكنني سأفعلها أيضاً، سوف ترى، بلى لقد قررت، فان دم أمي يصرخ في داخلي. ولسوف أفعلها الآن وأنا مستيقظ. سيكون من الصعب، من الصعب جداً. أنا بحاجة لمساعدتك يا أخي ليو"!

"أود لو أساعدك يا أخي وبكل سرور. ولكن كيف؟ دراستي لا تستحق الذكر، وعقلي ليس واسعاً أيضاً. الشيء الوحيد الذي لدي هو قلبي، ولكن ماذا ستفعل به؟ المسكين، إنه مشوش بطبيعته، ورغم

ذلك مترفع مثل ديك تعس، ذاك الشحاذ! من الأفضل لك أن تضع ثقتك به ... لذلك كما ترى، كيف لي أن أساعدك؟

"تستطيع، تستطيع. وبسرعة [illegible]. إسمع: غدا سأستيقظ مبكراً وأريدك أن تأخذ بيدي وتساعدني كي لا أسقط. سوف نذهب إلى كنيسة سان داميانو."

"فصرخت مندهشاً: " سان داميانو!! أنت تعرف أن اليوم هو عيد سان داميانو. ألم تسمع الأجراس؟"

فاستغرب فرانسيس وصفق بيديه: "اليوم إذن من أجل هذا...."

"ماذا تعني؟"

"لقد حلمت، لقد رأيته في الحلم. في الليلة الماضية جاء إليّ في منامي. كان رثاً وعاري القدمين متكئاً على عكازات وهو يبكي. شعرت بالخوف وهرعت لمساعدته. قلت له وأنا اقبل يديه: "لا تبك يا قديس الله. ما الذي حدث لك؟ أنت في الفردوس أليس كذلك؟ هل هذا يعني ان البكاء موجود هناك أيضاً؟ " فأوما برأسه." نعم أن البكاء موجود حتى في الفردوس أجابني" ولكنه لأولئك الذين مازالوا يزحفون على الأرض. رأيتك تتمدد بسلام على فراشك الوثير وشعرت بالأسف عليك. لماذا تنام يا فرانسيس؟ عار عليك! الكنيسة في خطر."

الكنيسة في خطر؟ ولكن ما عساي أن أفعل؟ ماذا تتوقع مني أن افعل؟"

"مد يدك وأسندها بكتفك. لا تدعها تسقط"!

"أنا؟ أنا بيرنارمن دون؟"

"أنت فرانسيس الأسيزي. ان العالم يتداعى إلى حطام، المسيح في

خطـر. انهـض، إسـند العـالم بظهـرك كـي لا يـسقط. لقـد هبطـت الكنيسة إلى الحالـة الـتي فيهـا كنيـستي الـصغيرة: إنهـا تتهـار. فأعـد بناءها"!

"تلمس كتفي ودفعني بقوة. فاستيقظت مذعوراً."

وعرى فرانسيس ظهره.

قـال: "أنظـر. لابـد أنـك مازلـت تـستطيع رؤيـة آثـار أصـابعه علـى كتفي. إقترب."

أقتربت منه، وعدت في الحال خائفاً ورسمت رمز الصليب.

تمتمـت مرتعـشاً: "فلتـدافع عنـا ملائكـة الله." كنـت أسـتطيع أن أميز بوضوح العديد من آثار الأصابع على كتفي فرانسيس.

قال فرانسيس: "لا تخف إنها آثار القديس داميانو."

ثم بعد دقيقة:

"هـل فهمـت الآن لمـاذا نحـن ذاهبـان إلى الكنيـسة؟ سـوف تنهـار. وكلانا سوف يعمل كي يعيد بناءها بالحجر والاسمنت، سوف نملأ المصباح المقدس بالزيت ليضيء وجه القديس مرة أخرى."

أهذا هو فقط ما أراد منك يا فرانسيس، أهذه كل التعليمات؟ أو ربما كانت"

فقال فرانسيس وهو يضع يده على فمي وكأنه كان يخشى أنني قد أذهب بعيداً: "كـلا، كـلا، لا شـيء غير ذلـك. إهـدأ ودعنـا نبـدأ العمل."

بقيت هادئـاً، لكـن قلبي زاد نبضه. أحسـست أن هـذا الحلـم قـد أرسـل مـن الله، وأنـه يتـضمن رسـالة مرعبـة سـرية. عرفـت ذلـك حـين أمسك الله القـدير برجـل لم تعـد لديـه رحمـة، بـل يمـسك بالـضحية

ويسير من قمة لأخرى حتى لو تقطعت إلى الأف الأشلاء. لهذا، وحالما رأيت فرانسيس ينهض من فراشه تملكني الخوف.

* * *

يتخذ أولى خطواته الحذرة عبر البيت. وبعينين جاحظتين كان ينظر في الغرفة الواسعة وكأنه يراها لأول مرة، الصناديق المزخرفة وصور القديسين على الألواح الثلاثية وتلك اللحظة الخاصة التي كان يقف فيها في الممر الذي يقود إلى الفناء ويستمتع برؤية التمثال الحجري في الزاوية التي كانت بجانب البوابة الخارجية والذي يمثل عذراء أفينون وهي تحمل إبن الله بين ذراعيها، وأيضاً البئر وجدارها الرخامي الذي تحيطه النباتات العطرة من الريحان والماجورام والقطيفة التي ذكرت السيدة بيكا بحبيبها والوطن المبلل بالشمس.

قال وهو يضحك حالما رآني: "مرحباً بأسد الله. هذا هو الأسد يذهب نحو الحملان وبدلا من أن يأكلها يطلب لها الصدقات."

واستدار نحو أمه:

"أماه، أي من الحواريين كان مصاحباً الأسد؟ لوق؟"

فأجابت السيد بيكا متنهدة: "كلا يا ولدي، لقد كان ذلك هو مارك. لابد لك من الذهاب كثيراً إلى الكنيسة، أنى لك أن تعرف؟"

فقال فرانسيس وهو يقترب مني ليتكىء عليّ: "حسن أذن، أنا مارك وهذا أسدي. دعنا نذهب"!

فصاحت الأم: "إلى أين أنت ذاهب يا ولدي؟ الا تدرك أنك بالكاد تستطيع الوقوف على قدميك؟"

"لا حاجة بك للخوف يا أمي. فلدي أسد، ألا ترينه؟"

أخذ بذراعي وقال: "بسم الله " ثم رسم شارة الصليب وتقدمني حتى الباب الخارجي.

"أماه، في أي يوم نحن؟"

"الأحد يا ولدي ."

"ولكن في أي شهر، أي تاريخ؟"

"في الرابع والعشرين من أيلول يا ولدي.

"أدخلي يا أماه، خذي لوحاً مثلثاً واكتبي على ظهر رسم المصلوب: "في يوم الأحد الرابع والعشرين من أيلول عام 1206 من بعد الميلاد لسيدنا المسيح ولد أبني فرانسيس من جديد."

أي رحيل كان في ذلك الصباح! أية أجنحة أخذتنا عبر أزقة صقلية الضيقة! وصلنا بيازاسان جيورجيو عبرنا بوابة الحصن وسرنا في الطريق المؤدي إلى السهل.

كان صباحاً خريفياً حقيقياً وثمة ضباب خفيف يطوف فوق أشجار الزيتون والكروم وتعلقت فيه عناقيد العنب متدلية بانتظار قاطفيها. كان بعض منها يكاد يمس الأرض. وكانت أشجار التين الخيرة قد نضجت حتى برز العسل الكثيف من فوقها حيث الطيور الصافرة تحوم جائعة. أما أشجار الزيتون فكانت مثقلة بالأثمار، وارتعشت قطرة ضوء فوق كل ورقة صغيرة منها. تحت، كان السهل لا يزال نائماً: ولم يزل ثمة الضباب الصباحي الرقيق وهناك إزدانت الحقول بالقمح المحزوز، والتمعت بين السيقان أشجار الخشخاش الأخيرة التي أرتدت الأرجوان مثل الملكات ووضعت كل واحدة منها صليباً أسود على صدرها.

أي متعة! كيف قفزت قلوبنا! ليست قلوبنا فحسب، بل قلوب الناس أجمعين.

كان فرانسيس شخصاً غامضاً. فمن أين أتى بقوة كهذه، وأي مرح هذا الذي أصابه؟ لم يعد بحاجة إلى مساعدة، لا بل صار يتقدمني، ويغني أغاني التريادور بلغة أمه. كان ينظر إلى العالم رشيقاً ومبتهجاً مثل ملاك يراه لأول مرة.

مر ثوران مقدسان يطوحان برقبتيهما اللامعتين بخجل ذات اليمين وذات الشمال ويلعقان منخريهما الرطبين بلسانيهما الخشنين. كانا أبيضين ناصعين وسمينين، برقاب قوية متوجين بآذان قمحية. تفاجأ فرانسيس، واندفع كي يستمتع بمنظرهما ومد يده ليحييهما.

تمتم: "أية نبالة وأي محاربين ! هؤلاء هم كادحو الرب" !

وعند الوصول اليهما طبطب على أردافهما البيضاء الثلجية العريضة. التفت الثوران وحدقا فيه برقة وكرم مثل البشر.

قال لي ضاحكاً: "لو أنني كنت الخالق لكنت قد وضعت الثيران في الفردوس مع القديسين. هل يمكن أن نتخيل الفردوس من دون حمير ولا ثيران ولا طيور يا أخي ليو؟ أنا لا أستطيع. فالملائكة والقديسون ليسوا كافين. كلا لابد للفردوس من حمير وثيران وطيور" !

ضحكت.

"وأسد: أنت، يا أخي ليو" !

فقلت وربت على الشعر الطويل المرسل على كتفيه: "ومغني تروبادور. أنت فرانسيس." وشرعنا في السير مرة أخرى. وبمساعدة المنحدر رحنا نركض.

توقف فرانسيس فجأة. وتساءل باندهاش: "إلى أين نحن ذاهبان؟ ولماذا نركض؟"

"ولكن يا سيدي الشاب، ألسنا ذاهبين إلى سان داميانو، هل

نسيت؟" هزّ فرانسيس رأسه. وأضحى وجهه الآن قاسياً، كئيباً:
"وكنت أعتقد أننا ذاهبان نركض كي ننقذ الضريح المقدس."

فاعترض فرانسيس وأشتعل وجهه فجأة "لسنا اثنين. لسنا أثنين، "ثلاثة."

ارتجفت كان محقاً: فنحن ثلاثة. هذا ما كان يفسر لماذا شعرنا بالسعادة الكثيرة والثقة. وهذا يفسر أيضاً الهجوم الآن، فليساعدني الله، هذه الحملة لم تكن سليمة، بل على العكس، بدا وكأن الحرب قد أندلعت، وأننا كنا جيشاً. سيد شاب وغني وشحاذ، وقائدهما الرب ونحن مندفعون في هجوم.

كم من السنوات مرت منذ إرتفع فرانسيس إلى السماء، أما أنا فما زلت لم يقدر لي ان استحق الكفاف عن هذه الحياة. لقد هرمت. شعري قد سقط وأسناني، وانتفخت ركبتاي، وتصلبت شراييني كالخشب. ارتعشت يدي في تلك اللحظة وهي تمسك الريشة، كانت الورقة قد تبللت وتغطت بالدموع التي كانت تجري من عيني. ولكن رغم ذلك وبينما أتذكر الآن تلك الرحلة في صباح ذلك اليوم أشعر وكأن نوابض في قدمي تأخذ عكازي وتتسلق التل كي تقرع الأجراس وتوقظ العالم... حقاً أيها الأب فرانسيس، كنت محقاً: ليس ثمة شيء اسمه الجسد الشيء الوحيد الموجود هي الروح. وهي تحت الطلب. فانهضي يا روحي، تذكر ذلك الصباح حين جرينا نحو سان داميانو، وقصصنا كل شيء. كل شيء من دون أن نخشى الملحدين الجبناء!...

وبينما كنا نجري سمعنا فجأة صرخات عالية وضحكات فتيات. فأسرعنا في الجري ووصلنا إلى آثار كنيسة سان داميانو. كانت

الجدران مائلة إلى الخارج وكان نبات النجمة قد أحاط بالحجر قبل ذلك وأزاحها قليلاً، وتداعى برج الجرس الصغير وما زالت أحجاره ملقاة في الفناء، وإلى جانبها الجرس الصغير الأخرس. وسمعنا صراخاً وضحكاً من جميع الجهات من دون أن نرى أي أثار لخطى بشرية. استدار فرانسيس وألقى نظرة أدهشتني.

"إن الآثار بأكلمها تضحك. لابد أن ثمة ملائكة هنا."

فسألته: "ولكن ما رأيك إن كانت شياطين؟" وبدأت اشعر بالضيق وقلت له: "هيا بنا نعود"

"أن الشياطين لا تضحك هكذا يا أخي ليو. إنها ملائكة. انتظر أنت هنا. سوف أدخل الكنيسة وحدي أن كنت تخاف."

فقلت خجلاً: " كلا، سآتي معك، فالأخ ليو لا يخاف"!

* * *

كان الباب مخلوعاً عن مصراعيه. عبرنا العشب الذي غطى العتبة ودخلنا. اندفعت الحمامات التي كانت في الداخل مسرعة عبر النوافذ الصغيرة ثم اختفت. لم نستطع الرؤية أول الأمر، ولكننا في الحال استطعنا رؤية صليب قديم معلق على المذبح وعليه خمّنا، إذ لم نتمكن من الرؤية بوضوح، جسداً شاحباً، يتدلى طافياً، مثل شبح. عند قدميه مثلت صورة سان داميانو وزجاجة المصباح المطفأة.

تقدمنا ببطء وصعوبة. كان يبدو وكان الهواء قد مليء بالأجنحة.

قال فرانسيس برقة: "سوف يظهر لنا سان داميانو على عكازاته."

كان يريد أن يبين صلابته، لكن صوته كان يرتعش.

اندفعنا أكثر. عبر النافذة الضيقة للحرم كان بإمكاننا

مشاهدة النباتات الخضراء: من المحتم أنها الحديقة الصغيرة للكنيسة. شممنا زهرة أكليل الجبل وصريمة الجدي.

قال فرانسيس: "دعنا نخرج إلى الحديقة، سوف نختنق إن بقينا هنا."

ولكننا في اللحظة التي أوشكنا فيها على ان نعبر العتبة سمعنا لهاثاً من خلف المذبح وهفهفة لثياب حريرية - أو كما يبدو - أجنحة. تشبث فرانسيس بذراعي.

"ألم تسمع؟ ألم تسمع؟"

ولكن قبل أن ينهي كلامه، ظهرت بنات من خلف المذبح يرتدين ثياباً بيضاء، واندفعن أمامنا مثل ثلاثة بروق، قفزن عبر الممر وهرعن نحو الفناء يصرخن.

هناك ضحكن ثلاثتهن. كان يبدو أنهن قد أدركن كم كنا خائفين وأردن إخرجنا.

وهذا ما جعل فرانسيس مضطرباً. فقفز هو أيضاً إلى الفناء على حين غرة وتبعته مسرعاً.

رأيننا الفتيات من دون أن يشعرن بالخوف. من الواضح أنهن كن يعرفن فرانسيس، ذلك لأن كبراهن قد تورد خداها. أما فرانسيس فقد وقف واتكأ على دعامة الباب وراح يمسح العرق عن وجهه.

وراحت الفتاة تقترب منه. كانت مبتهجة ومنفعلة وثمة غصن زيتون مثقل بالثمار يتوج رأسها.

خطا فرانسيس خطوة إلى الوراء: وبدا وكأنه كان خائفاً.

سألته هامساً: "هل تعرفها؟"

فأجابني: "إسكت!" كان وجهه شاحباً.

اقتربت الفتاة بجرأة وقالت ساخرة: "أهلا بكما في بيتنا المتواضع يا سيد فرانسيس."

نظر فرانسيس إليها من دون أن يجيبها، لكن فكه الأسفل بدأ يرتعش.

فأجبت من أجل أن أغطي صمت فرانسيس: "هذا منزل القديس داميانو يا آنسة. منذ متى وأنت هنا؟"

اقتربت الفتاتان الأخريان ببطء وكفيهما على فميهما كي تلطفا ضحكتيهما. كانتا صغيرتين ما بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة.

أجابت الكبرى: "منذ الصباح. سوف نقضي النهار كله هنا. هذه شقيقتي إغنس، وهذه جارتنا أرمليندا. جلبنا معنا طعام مع بعض الفاكهة."

والتفتت إلى فرانسيس مرة أخرى: "آن تلطف السيد فرانسيس في أن يأكل معنا فنحن نرحب به. لقد جاء إلى بيتنا وسوف نضيفه."

قال فرانسيس بلطف: "يسرني أن أراك يا كلاراً كان صوته غير لعوب، وغير ضاحك. وكأن يخرج من أعماق قلبه مما أربك الفتاة الشابة."

فقالت لائمة وكأنها توبخه لأنه جاء ليفسد متعتهن: "جئنا لنلعب."

"لم آت إلى هنا لكي ألعب، بل جئت لأنني رأيت حلماً."

فسألته الفتاة:

"هل كنت مريضاً؟ " كان صوتها هذه المرة مشحوناً برقة خفية.

أجاب فرانسيس: "كنت مريضاً قبل أن أقع في المرض."

"لا أفهم."

"أتمنى من الله أن تفهمي يوماً ما."

واستمرت الفتاة من دون أن تعرف ماذا تقول، أو كيف تجد ذريعة كي تطيل اللقاء الذي تم بالمصادفة: "سمعتك مرة تغني، كان ذلك في الليل."

"كنت تسمعينني كل ليلة يا كلارا، لكنك لن تسمعيني بعد الآن."

رفعت الفتاة رأسها فجأة. تدلى شعرها على كتفيها وسقط الشريط الذي كان يشده.

"لماذا؟" تسألت وثبتت عينيها على الأرض.

"لا أعرف السبب لحد الآن يا كلارا. لا تسأليني. ربما سأغني تحت نافذة أخرى."

"نافذة أخرى؟ ... أية نافذة ؟ نافذة من؟"

أحنى فرانسيس رأسه وقال متمتماً: "نافذة الله.." ولكنه قالها برقة حتى أن الفتاة لم تسمعه.

فاقتربت خطوة أخرى وكررت سؤالها: "نافذة من ؟ أية نافذة؟"

لكن فرانسيس لم يجبها.

قالت إحدى الفتيات: تعالي يا كلارا، دعينا نذهب ونلعب. لا تكلميه لماذا تكلمينه؟"

وراحت الفتاتان تسحبانها من يدها وهما قلقتين من اجل المغادرة.

لكن كلارا توقفت في مكانها، تعبث بالشريط الأخضر الذي أنحل من شعرها. كانت نحيفة ورشيقة ترتدي ثياباً بيضاء ولا تتزين بأي شيء سوى صليب ذهبي صغير يتعلق في رقبتها ووضعت زنبقة فضية بين نهديها النافرين تعويذة. المدهش في هذه الفتاة حاجباها، ففوق العينين كان ثمة سهمان نحيفان مستقيمان، ولكنهما ينطلقان إلى الأعلى، ولذلك تبدو عيناها السوداوان اللوزيتان قاسيتين وغاضبتين.

أمسكت شعرها المنطلق وكأنها كانت حانقة عليه وثنته ثم شدته بقوة بالشريط الحريري الأخضر. ثم إلتفتت نحو رفيقتيها. وقالت بحنق: "هيا سوف نبتعد إلى كنيسة أخرى وندع السيد فرانسيس يبقى هنا ليفعل ما يريد. يبدو أنه قد رأى حلماً"!

التقطت أرمليندا السلة متذمرة، وأخذت أغنس الأخت الصغرى السلة الصغيرة التي تحتوي الفواكه وقادت كلارا الفتاتين وانطلقن عبر أشجار الزيتون، متجهات نحو السهل الذي في الأسفل.

تمتم فرانسيس: "لقد تخلصنا..." وتنفس بعمق، كأنه تخلص من خطر محيق.

* * *

إنهار على عتبة الباب وراقب الفتيات الثلاث عبر أشجار الزيتون وهن يتوهجن تحت ضوء الشمس في دقيقة، وتضاءلن في الأخرى حتى غبن في الأخير.

فكرر وهو يقف منتصباً: "لقد تخلصنا.."

لابد أنها كانت الظهيرة. نظر إليّ بعد أن تلاشت علامات الخوف من وجهه.

"أخي ليو.. " كان وجهه قد تغير الآن وأصبح جاداً وموطد العزم."

أخي ليو، ألم تقل أننا كلانا جيش وأننا انطلقنا من أجل تحرير الضريح المقدس؟ لا تبتسم أريد أن نؤمن! سوف نبدأ بأشياء صغيرة وسهلة، ثم شيئا فشيئا سوف نحاول في الأشياء الكبيرة وسوف نلتفت نحو المستحيل. أتفهم ما أقوله لك، أم تراك تظنني مازلت طريح الفراش في منزل بيرنارمن دون، وأنني أهذي؟"

سألته مرعوباً: "قلت نلتفت نحو المستحيل يا أخي فرانسيس؟ ماذا تعني؟ إلى أي مدى خططت لذلك؟"

أخي ليو، ألم تخبرني بنفسك كيف أنك ذهبت مرة إلى زاهد أعد نفسه للعيش على قمة شجرة؟ فناديته: "أنت أيها الأب المقدس اعطني نصيحة!" وأجابك: "انطلق على قدر ما تستطيع! فصحت ثانية: "هب لي نصيحة أخرى أيها الأب المقدس!" وكان جوابه" أذهب أبعد ما تستطيع!" "... ألا ترى يا أخي ليو، سوف نذهب أبعد مما نستطيع في الوقت الحاضر نحن نستخدم آثار سان داميانو كي يمنحنا الزخم. هل تفهم ما أقول؟"

وأجبته: "لا تسألني أسئلة يا فرانسيس. أنا لا أفهم شيئاً وأفهم كل شيء! قدني فقط!.. لقد شبت النار في قلبي، ويمكنها أن تبتلع غابة بكاملها.

"سوف نجمع الصخور. مازالت معي بعض نقود بيرنارمن دون في جيبي: سوف نشتري السمنت وأدوات البناء وسوف نقوم بالعمل كلانا كي نعيد بناء الجدران. وسوف نشتري قرميداً أيضاً للسقف كي لا يخترقه المطر، ونشتري طلاء للنوافذ والأبواب. وزيتاً لمصباح القديس. كم من السنوات مرت عليه من دون أن يشتعل؟ سوف نوقده. أتفقنا؟"

وعقصت أرداني فقد أشعلت كلماته دمي.

"متى نبدأ؟"

"الآن. سان داميانو معرض للخطر، إنه يتداعى، فيترنح، في العتمة. ولن يستطيع الإنتظار. أما أرواحنا، فهل تظن يا أخي ليو أنها تستطيع الإنتظار؟ هي أيضاً معرضة للخطر، وهي أيضاً تتداعى

وتترنح في العتمة. تقدم يا رفيقي! بسم الله"!

رمى معطفه المخملي وبدأ في ترتيب الأحجار الكبيرة للزاوية التي سقطت وملأت الفناء. رفعت طرف ثوبي لأصنع جيباً واسعاً وركضت لأحمل به الأحجار التي نقلتها إلى مكان واحد على هيئة ركام وراح فرانسيس يغني أثناء العمل أغاني التوريادور التي تعلمها في صغره. لقد كانت أغاني عشق. عشق من؟ كان مغنو التوبادور قد زخرفوا عفة المعشوقة ولكنه حين غنى هذه المرة لم يفكر إلا بمريم العذراء المقدسة.

كان المساء قد حل من قبل أن نعود إلى البيت. كنا نتحدث بألفة ونحن في الطريق عن الأحجار والسمنت والمالج. وأننا بناءان، وكان ذلك كأننا كنا نتحدث عن الرب وكيفية خلاص العالم الذي يوشك ان يتحطم وأدركت في ذلك المساء للمرة الأولى أن كل الأشياء واحدة وحتى أكثر الأفعال تواضعا هو جزء من قدر الإنسان. واستثار فرانسيس بعمق، وشعر أيضاً أن ليس ثمة ما يمكن أن نصنفه بأنه عمل صغير وآخر كبير، وان تشق جداراً متهاوياً بحصاة واحدة هو عمل مشابه لإصلاح الأرض بكاملها للحفاظ عليها من السقوط، وهو مشابه لإصلاح روحك كي تمنعها من السقوط.

وما كدنا نقترب من المنزل حتى رأتنا السيدة بيكا الجالسة عند نافذتها تترقب الطريق بقلق. لم يحل الظلام بعد، ولا يزال الضوء يعم. وحالما رأتنا عن بعد، هبطت السلالم كي تفتح الباب بنفسها. وكانت عازمة على أن توبخ ولدها لتأخره وإجهاده نفسه وهو لا يزال مريضاً، ولكنها حين وقفت أمامه ورأت وجهه، لم تستطع الكلام. حدقت فيه مدهوشة للحظة وفتحت فاها أخيراً:

"لماذا يشع وجهك هكذا يا ولدي؟"

أجاب فرانسيس ضاحكاً: "إن كنت تعتقدين أنه يشع الآن يا أماه، إنتظري فقط! فهذه هي البداية. نحن في أول خطوة، وثمة أمامنا سبع وسبعون خطوة."

أخذ والدته من ذراعها ومال إلى أذنها.

"هذه الليلة سيأكل الأخ ليو معنا. على مائدة واحدة"!

في الصباح التالي تسللنا من المنزل عند الفجر مثل لصين وهبطنا إلى موقع السوق. اشترينا مطرقتين ومالجين، وكذلك طلاء وفرشاة وطلبنا قرميداً وسمنتاً. ثم انطلقنا مسرعين على طول الشارع نحو كنيسة سان داميانو.

كانت ثمة غيوم متناثرة في السماء. وكان الجو بارداً، وثمة ريح قارسة تهب من الجبل. كانت الديكة قد بدأت بالصياح في فناءات الدور، واستيقظ الرجال والدواب والتمعت أشجار الزيتون. وقد غادرت من قبل ذلك الثيران نحو كدحها اليومي المقدس.

قال فرانسيس وهو يلتفت نحوي فجأة: "هكذا تستيقظ الروح. فلديها أيضاً خمسة ثيران تضعهم تحت النير في الصباح الباكر وتبدأ بالحرث والبذر.

فسألته غير قادر على الفهم " تبذر ماذا ؟"

وأجاب فرانسيس: "مملكة السماء. أو ربما جهنم."

ثم أنحنى كي يلتقط زهرة الربيع الجميلة من حافة الطريق. ولكنه حالما مد يده مسك عن ذلك فجأة. كان قد غير رأيه.

"لقد بعثها الله كي تزين الطريق . يجب ان لا نمنع مخلوقات الله من تأدية واجبها."

وحينما قال ذلك لوح بيده إلى زهرة الربيع وكأنه كان يودع أخته الحبيبة.

عندما وصلنا أخيراً إلى الكنيسة المهدمة وجدنا راعيها جالساً على العتبة يشمس نفسه. كان رجلاً مسناً قد أحنت السنون ظهره وأتلفه الفقر تماماً كما هو حال كنيسة سان داميانو الصغيرة. حين أضحى فرانسيس على بعد مسافة قريبة منه. توقف وجفل.

وتمتم: "أيمكن أن تكون أنت سان داميانو؟"

ولكنه هيأ نفسه ليصحح ما قاله في الحال واتخذ بضع خطوات إلى الأمام مقترباً من الرجل وعرفه. " أنه الأب الشيخ انتونيو، راعي الأبرشية. أعرفه." وشعر بالراحة وتقدم وحياً الكاهن مقبلاً يده.

"بإذنك يا أبتي إنا عازمان على إعمار الكنيسة. كان القديس قد زارني في الحلم وقد وعدته بذلك."

رفع الراعي رأسه على حين غرة. ورغم أن جسده كان يترنح فإن عينيه كانتا مثل اللهب. تساءل بغضب لائماً : " لماذا لم يأتني أنا في أحلامي؟ لقد شخت وأنا أقوم في خدمته، أليس كذلك ؟ لقد أكلني بالزيت الذي كنت أحتاجه ليبقى مصباحه مضيئاً والمكانس لأنظف المكان والبخور لأجعل رائحته طيبة والنبيذ كي أغسل نصبه. ولم يحضر في منامي أبداً ليقول لي شيئاً حلواً ؟ أبداً ! والآن، ماذا بعد، يأتي الناس من أمثالك.. ألست أنت الأبن المبذر الفاسق للسيد بيرنارمن دون؟. ذلك الذي يقضي الليل بطوله يطوف الشوارع بقيثارته ؟"

"بلى، يا أبتي، ذلك هو أنا: الإبن المبذر الفاسق."

"حسن إذن ما الذي يتوقعه منك الرب؟"

أجاب فرانسيس: "لا شيء. لا شيء سوى أنني أتوقع كل شيء منه."

"ماذا تعني بكل شيء؟"

"خلاص روحي."

أطرق الكاهن برأسه خجلاً وبقي صامتاً، رافعاً يده ليقي عينيه من الشمس.

انطلقنا، أنا وفرانسيس، نحو العمل بعد أن طوينا أكمامنا وشيئاً فشيئاً ومن دون أن نعي رحنا نغني. كنا نجري ذهاباً وإياباً كي نجمع الأحجار، ثم وصل السمنت فالتقطنا مالجينا. كنا مثل طيرين يبنيان عشهما وقت الربيع.

سألت رفيقي بغتة: "ماذا نشبه يا فرانسيس؟"

وأجابني ضاحكاً: "نشبه طيرين يبنيان عشهما وقت الربيع."

كان الكاهن قد نهض وراح يحدق باتجاهنا ولا يقول شيئاً. وبين الفينة والأخرى كان يختلس النظر إلى فرانسيس ويرسم رمز الصليب. عند حلول الظهيرة غادرنا للذهاب إلى بيته الصغير، القريب من الكنيسة وعاد بعد هنيهة يحمل طبقاً كبيراً فيه رغيفان من الذرة وقبضتان من الزيتون الأسود ورأس بصل، مع أبريق صغير من النبيذ.

قال لنا متبسماً: "إن اشتغل الإنسان دعه يأكل، هكذا قال القديس بول."

حينذاك شعرنا بالجوع. جلسنا متصالبي السيقان في الفناء ورحنا نأكل.

تساءل فرانسيس وهو يلوك الذرة بتلذذ: "هل ذقت مرةً زيتوناً أو خبزاً ألذ من هذا؟ هل ذقت مرة نبيذاً ممتازاً مثل هذا."

أجبت: "مرة واحدة فقط، ولكن ذلك كان في الحلم". (من

المعروف أن الجياع يحلمون بالخبز) كنت لتوي قد دخلت الفردوس، وجاء ملاك يحمل طبقاً كبيراً مثل هذا وضع فيه خبز ذرة وزيتوناً وبصلاً وإبريقاً صغيراً من النبيذ.

قال لي الملاك: "لقد جئت من طريق بعيد. لابد أنك تتضور جوعاً. أجلس وكل وأشرب قبل أن تقابل الرب. تمددت على العشب الفردوسي الكثيف وبدأت آكل. كانت كل لقمة تدخل في بطني تتحول في الحال إلى روح. خبز ونبيذ وبصل: كلها تتحول إلى روح. تماماً كما يحصل الآن."

وعدنا إلى العمل مرة أخرى. نقطع الصخر، نخلط السمنت، نغني كل الأغاني التي نعرفها، نسد شقوق الجدران المتصدعة بدأ الليل يهبط. تخيلت لدقيقة أن سان داميانو قد نهض من الكنيسة ووضع نفسه في الممر حيث كان يراقبنا راضياً. لكننا رأينا أنه الكاهن وكان يبتسم.

قال فرانسيس وهو ينظر باحترام نحو الشيخ الصغير الذي وقف على العتبة: "من يدري، ربما كان هو نفسه القديس داميانو. فمن الممكن بعد سنوات طويلة من الصلاة والفقر أن يصبح الأثنان واحداً."

وفي الحقيقة، عندما هبطت العتمة وتوقفنا في النهاية عن العمل وذهبنا لنتمنى له ليلة سعيدة أشرق وجهه مثل وجوه القديسين.

* * *

لن أسرد هنا كم من الأيام والأسابيع عملنا فكيف لي أن أتذكر! لقد مر الوقت سريعاً مثل جريان جدول وجرينا معه، في الطلاء وفي شق القرميد على السقف، مستعملين المطارق والموالج

والفرشاة بمهارة كل يوم تشرق فيه الشمس وحتى ترتقي إلى كبد السماء ثم تميل بعد ذلك إلى الغروب، وتظهر نجمة المساء في السماء الغربية، يهبط الليل ونصعد نحو صقلية، سعداء وأيدينا مبقعة بالسمنت.. الشيء الوحيد الذي بإمكاني أن أقوله بيقين أننا خلال كل يوم من تلك الأيام المقدسة والأسابيع أعتدنا على تجريب الإحساس بالفرح والعجالة والحب الذي يتملك الطير الذي يبني عشه، واكتشفنا لأول مرة، المعنى الحقيقي ل "العش" و "الطير" والإبتهاج عند إدراكك أن دواخلك مليئة بالبيض ! لقد كانت تلك الأيام مشرقة لنا طول حياتنا، إنها رائعة بالعظمة وكأنها كانت فترة خطوبة أرواحنا للرب.

سألني فرانسيس في إحد الصباحات ونحن نبدأ العمل: " ما الذي حدث ما الذي حدث يا أخي ليو؟ هل تغير العالم أم نحن؟ إنني أبكي واضحك في الوقت نفسه. إنني أومن أنني أسير فوق الأرض، طائفاً في الهواء!.. ماذا عنك أخي ليو؟"

"أنا ؟ أنا موقن أنني يرقان الفراشة المدفون عميقاً تحت الأرض. الأرض بأكلمها فوقي، تسحقني، وأبدأ في ثقب التربة، اخترق ممراً نحو السطح كي أنفذ من القشرة والغشاء نحو الضوء. إنه عمل يخترق الأرض بأجمعها، لكنني قادر على أن أكون صبوراً فلي أمل كبير أنني حالما أجتاز الغشاء نحو الضوء سأكون فراشة."

فصاح فرانسيس بجذل: "لقد أصبت ! أصبت لقد فهمت الآن. بارك الله فيك يا أخي! كلانا يرقانتان تسعيان لأن تكونا فراشتين إذن... هيا إلى العمل... إخلط السمنت، إجلب الحجر وناولني المالج!"

* * *

وتماماً ونحن على وشك أن ننهي إعادة بناء كنيسة سان داميانو، كان العجوز بيرنارمن دون قد عاد من رحلته. وحين لم يجد أبنه في الدكان أصابه الذهول. ما عاد فرانسيس يساعده في العمل مثلما كان في السابق، أنه يخرج منذ الفجر ويعود بعد حلول الظلام، يخدم نفسه في الطعام، ولم يكن حتى يراه.

كان يسأل زوجته بغضب: "أين يذهب عزيزك في كل صباح بدل أن يرعى شؤون الدكان؟"

وكانت تخفض نظرها وتخونها الشجاعة على مواجهته مباشرة.

أجابته: " لقد حلم بالقديس داميانو المبجل، جاء وأمره أن يعيد بنا الكنيسة."

"وإذن..؟"

"إنه يذهب كل صباح للبناء؟"

"وحده ؟ بيديه الأثنتين ؟"

"بيديه الأثنتين."

"وحدهما؟"

"كلا، معه صديقه الشحاذ."

قطب السيد بيرنارمن دون جبينه وجمع قبضتيه.

قال: "إن إبنك ينحرف عن الطريق السوي يا سيدة بيكا وأنت الملامة."

"أنا ؟ "

"أجل أنت. دمك ! ففي دمك يكمن التوربادوريون والمجانين والمشعوذون. وما تعرفين من سواهم."

امتلأت عيون الأم بالدموع. بينما أخذ بيرنارمن دون عكازه وقال:

"سوف أذهب بنفسي لكي أسترده. إذ ليس دمك وحده الذي في داخله، بل دمي أيضاً. وما ثمة أمل فيه."...

جاء إلى كنيسة سان داميانو قبيل الظهر. كان وجهه كئيباً، وصدره يلهث من إجهاد المشي. كان فرانسيس جاثماً على سقف الكنيسة، يقلع القرميد. وكان هذا هو آخر يوم لنا في العمل وكنا نغني أغاني التوربادور بلغة أمه بحيوية غير معتادة.

رفع بيرنارمن دون عصاه وصاح "أنت أيها الصانع الماهر، انزل فأنا أريدك."

أجاب فرانسيس من أعلى السقف. "أهلاً بالسيد بيرنارمن دون. ماذا تريد؟"

"إن دكاني ينهار أيضاً أنزل وأصلحه."

"آسف يا سيد بيرنارمن دون، فأنا لا أصلح الدكاكين، لابل أحطمها."

أطلق بيرنارمن دون عواءً وضرب بعكازته على الأرض ساخطاً على صغار الحصى في الفناء. كان يريد أن يتكلم لكنه لم يفلح في العثور على الكلمات، فانثنت شفاهه والتفت.

وجأر، أخيراً: "أنزل إلى هنا في الحال. آمرك بان تنزل ! ألا تعرف من أنا؟ أنا أبوك."

"آسف يا سيد بيرنارمن دون، فأبي هو الرب، الرب ولا احد غيره."

فناداه بيرنارمن دون والزبد يغطي شفتيه: "وماذا عني؟"

كان يقف في الشمس وبدا وكأن الدخان راح يرتفع من شعره.

صاح ثانية: "وماذا عني ؟ ما أنا ؟ من أنا؟"

"أنت السيد بيرنارمن دون، الرجل الذي يملك دكاناً كبيراً في

الساحة في صقلية والذي يخزن الذهب في صناديق حديدية ويعري الناس الذي من حوله بدل أن يكسيهم."

سمع الكاهن الصياح من بيته الصغير وخرج. وحالما رأى بيرنارمن دون العجوز أدرك الأمر. فتقدم مذعوراً تحت ردائه واخرج كيس النقود الذي أعطاه إياه فرانسيس لكي يشتري به زيتاً لمصباح القديس.

قال: "هذه النقود هي لك يا سيد بيرنارمن دون. سامحني. لقد أعطاني إياها إبنك، لكنني لم ألمسها."

ومن دون أن يلتفت بيرنارمن دون نحو الكاهن سحب الكيس ورماه في جيبه الواسع. ثم لوح بعكازته مهدداً مرة أخرى نحو السقف.

"اللعنة عليك، إنزل كي تنال الجلد الذي تستحقه"!

فأجابه فرانسيس: " إنني آت."

وراح ينزل.

وضعت مالجي وانتظرت ما سيحدث.

وتقدم فرانسيس نحو والده وهو ينفض عن ثيابه الغبار والسمنت. كانت النيران تتطاير من عيون العجوز. وقف هناك متوهجاً، مستعداً لحرق الولد المتمرد. لم يتحرك ولم يتكلم، لكن عكازته أرتفعت في الهواء، وأنتظر اقتراب ولده. جاء فرانسيس وحين انحنى كي يرحب بوالده، صالب ذراعيه على صدره، فرفع العجوز يده الكبيرة الثقيلة وصفعه بقوة على خده الأيمن فأدار له فرانسيس خده الأيسر.

وقال له بهدوء: "إصفع الخد الآخر أيضاً يا سيد بيرنارمن دون. إصفعه وإلا فلسوف يشعر بالإحباط."

كنت قد تحفزت للدفاع عن صديقي لكنه مد يده وقال: "لا تتدخل بأفعال الله يا أخي ليو. فالسيد بيرنارمن دون يساعد ولده في إيجاد الخلاص.. إصفع يا سيد بيرنارمن دون"!

أصاب العجوز الاهتياج. رفع عصاه ليصفع إبنه على رأسه، لكن يده تجمدت في الهواء من دون حراك. فنظر فرانسيس إلى الأعلى مندهشاً. وبرزت حبات عرق كبيرة على جبين الأب، وازرقت شفتاه. وشوه الخوف وجهه. أنت تشعر أنه كان يجاهد كي ينزل عصاه على هامة إبنه لكن ذراعه قد تحجرت.

شاهد فرانسيس كيف أن والده يحدق في الهواء بعيون جاحظة ويختض من الرعب. لا بد أن ملاكاً حانقاً قد انقض على العجوز وقيد يده. لم ير فرانسيس هذا الملاك ولا أنا، لكننا سمعنا أجنحة تصفق في الهواء بغضب.

قال فرانسيس: "لا تهتم يا أبي. لا تهتم ولا تخف."

كان قد شعر بالعطف على الرجل. وطفق يتلمس ذراعه لكن العجوز ترنح بحركة واحدة وانهار على الأحجار الصغيرة، حين أفاق كانت الشمس تتعلق في كبد السماء، ولا يزال الكاهن العجوز يمسك بكأس الماء الذي أستخدمه كي يرش به صدغي الرجل المغمى عليه، أما فرانسيس فقد كان جالساً ورأسه بين كفيه متصالب الرجلين إلى جانب والده ويحدق في جوانب جبل سباسيو البعيد والغارق في الشمس.

جلس العجوز بيرنارمن دون واسترد عصاه. هرعت لأساعده لينهض على قدميه، لكنه دفعني بيده. نهض، منهكاً ومسح عرقه. ومن دون أن ينبس بكلمة، نظر إلى إبنه، الذي كان لا يزال جالساً على

الأرض وإلى الكاهن العجوز الضئيل الجسد مع القدح، نفض ثيابه ثم إتكأ بكل ثقله على عصاه وراح يسير متباطئاً صاعداً التل. وسرعان ما اختفى خلف منحى الطريق.

* * *

لم يعد فرانسيس إلى البيت في تلك الليلة. وبقيت إلى جانبه. إذ كان قد وجد قبل أيام، وهو يبحث في جوار كنيسة سان داميانو، كهفاً كان يذهب إليه غالباً، تاركاً عمله، ويحبس نفسه هناك لساعات. لابد أنه كان يقضي الوقت يصلي، لأنه حين ظهر من الكهف وعاد ليزاول عمله ثانية رأيت هالة نورانية تحيط وجهه تماماً كما هي الهالات التي نشاهدها في رسومات القديسين: أن نار المصلي قد ألتفت حول رأسه.

ذهبنا إلى هذا الكهف وسحبنا أنفسنا إلى الداخل. كان مملوءاً برائحة التربة الرطبة. كنا قد وضعنا حجرين تحت رأسينا على أنهما وسادتان واضطجعنا من دون أن نتناول أي طعام ومن دون أن نتبادل الحديث. استيقظت وتلصصت النظر إلى فرانسيس وهو جالس عند فم الكهف ووجهه مقحم بين ركبتيه كنت اسمع تمتمة مستمرة خرساء يبدو أنه كان يبكي بهدوء، محاولاً أن يوقظني. لقد قدر لي أن أحظى عدة مرات، في سنوات النجاح، وأن أسمع فرانسيس وهو يبكي. لكن بكاءه في ذلك الصباح كان يشيه بكاء طفل بحاجه إلى الرضاعة وليست لديه أم.

زحفت إلى المدخل وجثمت قربه مسمراً عيني في السماء. كانت النجوم قد بدأت بالاضمحلال رغم أن البعض منها مازال متعلقاً في

السماء الجلية، وإحداها، الكبرى، كانت تطلق بريق أضواء خضراء ووردية وزرقاء.

سألته كي أصرف إنتباهه: "ما إسم تلك النجمة يا أخي فرانسيس، هل لديك فكرة؟"

قال مانعاً دموعه من السقوط: "لابد أنها ملاك كبير، من يدري، ربما كان جبرائيل كبير الملائكة. إنه ملاك كبير فعلاً، يلمع ببريق، حين هبط في صباح ما وقال: "مرحباً مريم."

وظل هادئاً لدقيقة.

"وذلك النجم لامع جداً، ذلك الذي تراه يرقص في الشرق والذي يكاد يذوي في ضوء الشمس. إنه إبليس"!

فاستغربت مندهشاً: "إبليس! لماذا ؟ لماذا؟ كلا ليس صحيحاً إنه أكثر شعاعاً من جبرائيل كبير الملائكة! أبهذه الطريقة عاقبه الله؟"

وأجابني فرانسيس بصوت قوي: "ليس ثمة وسيلة أصعب في العقوبة يا أخي ليو، من أن ترد الحقد بلطف." وأستمر بعد دقيقة صمت: "ولماذا تندهش؟ ألم يفعل الرب ذلك معي، أنا العقيم التعس الذي لا فائدة ترجى منه، إبليس الذي هو أنا؟ فبدلاً من أن يقذفني بصاعقة تحولني إلى رماد في إحدى الليالي وبينما كنت أغني وألتهم الطعام والشراب وأفسق، ما الذي فعله لي؟ بعث لي سان داميانو في المنام وأرشدني أن أضع ظهري تحت الكنيسة. قال لي أنها في خطر. إجعلها صلبة. إنني أومن بك." فأيقنت أنه كان يتكلم عن الكنيسة المحطمة التي أعدنا بناءها. ولكن الآن.

تنهد، فارداً ذراعيه وتنفس بعمق.

فسألته وأنا انظر إليه بقلق: "والآن؟"

"والآن، مازال قلبي غير هادىء. كلا، كلا. لم يكن يتكلم عن الكنيسة. ذلك ما كنت أفكر به طول الليل. لقد بدأت افهم يا أخي ليو المعنى الرهيب الخفي."

وصمت.

"ألا يمكنني أن أسمعه أيضاً يا أخي فرانسيس؟ اخبرني كي يصيبني الحبور معك."

"لن تبتهج أيها المسكين يا أخي ليو. لن تبتهج، لابل سيصيبك الرعب. تجمل بالصبر. تعال معي، ولتؤمن. وستفهم شيئاً فشيئاً ثم ستبكي، ولك أن تعود إلى ما كنت عليه. أن طريق العُلا قاس بالتأكيد. ولكن من يدري؟ ربما بعد حين سيفوت أوان العودة."

تشبثت بيده. أردت تقبيلها، لكنه لم يسمح لي بذلك. فقادني! بقينا صامتين، نراقب الضوء الذي يزداد أبداً. وشيئاً فشيئاً تحول جانب الجبل من الأرجوان إلى الوردي، ثم من الوردي إلى البياض الناصع. كانت أشجار الزيتون والأحجار والتربة تضحك، ظهرت الشمس وأجلست نفسها على الحافة الصخرية، بينما رفعنا ذراعينا ونحن جالسان عند المدخل لنحييها.

نهضت لأذهب إلى كنيسة سان داميانو كي أجمع أدواتنا، وأنظف الكنيسة وأرتب كل شيء.

قال فرانسيس: "إمنح الأدوات للكاهن العجوز. لكن في أول الأمر قبلها الواحدة بعد الأخرى: لقد قامت بواجبها على أفضل وجه. لم نعد بحاجة إليها، لأن الكنيسة التي نحن سائران الآن إليها لنقويها لا يمكن أن تتقوى بالمالج والسمنت."

وكدت أفتح فمي لكنني سرعان ما أغلقته وقلت لنفسي، سوف أفهم في يوم ما. دعني أحاول وأكون صبوراً.

قال فرانسيس: "اذهب وليكن الله معك انني اخطط أن أقضي النهار هنا في الكهف. أريد أن أتضرع إلى الله. لدي الكثير الذي أود قوله له. أريد أن أتضرع إليه كي يمنحني القوة. فأمامي جنهم. كيف لي أن أعبرها وأستطيع عبورها، كيف لي أن أكون قادراً على الوصول إلى الله؟" وخرجت، وبعد سنين تلت، يوم صارت إحدى قدمي فرانسيس في القبر وكان مستعداً لمغادرة هذه الحياة، عرفت ما الذي حدث داخل الكهف ذلك اليوم. كان مستلقياً على الأرض العارية خارج بورتتكيولا، أتذكر، وجاءت إليه فئران وعضته، ارادت أن تفترس اللحم الضئيل الذي بقي له حين لم يستطع النوم، دعاني كي أجلس إلى جانبه لأطردها، ولكي أرافقه ثم وبينما كنت جالساً معه تلك الليلة، كشف لي ما الذي حصل داخل الكهف.

عندما وجد نفسه وحيداً سقط على وجهه وبدأ بتقبيل التراب ونادى الرب: "إنني أعلم أنك في كل مكان. تحت أية صخرة أرفعها، سوف أجدك في أي بئر أنظر فيه، سوف أرى وجهك، خلف أية يرقانة أحدق فيها، في البقعة حيث تحضر أجنحتها، سوف أجد أسمك محفوراً. ولذلك فأنت موجود أيضاً في هذا الكهف وفي فم الأرض التي أضغط عليها شفاهي في هذه اللحظة. أنت تراني وتسمعني وتشفق علي."

"لذا، استمع يا أبي لما ينبغي لي أن أقوله. في الليلة الماضية في هذا الكهف صرخت بفرح: " لقد أعدتُ بناء سان داميانو وجعلته قوياً."

"وأنت قد أجبتني: ليس كافياً"!

"ليس كافيا؟ ماذا تريد مني أن أفعل؟ مرني"!

"ثم سمعت صوتك ثانية: فرانسيس. اجعل من فرانسيس صلباً. أعد بناء ابن بيرنارمن دون"!

"كيف أجعله صلباً يا إلهي، ثمة سبل كثيرة ولكن أي منها هو لي؟ كيف لي أن أدحر الشياطين التي في داخلي؟ ثمة الكثير منها، وإن لم تتجدني فلسوف أضيع. كيف لي أن أزيح الجسد يا إلهي، كي لا يحشر نفسه بيننا ويفصلنا؟ أنت ترى بنفسك يا إلهي كيف اضطرب قلبي حين واجهت تلك الصبية عند كنيسة سان داميانو، وكيف اضطرب حين واجهت والدي. كيف لي أن أنقذ نفسي من أمي وأبي، من النساء والأصدقاء، من الحياة المرفهة، ومن الكبرياء واللهفة للمجد، من السعادة ذاتها.إن عدد الشياطين المميتة سبعة، وكلهم يرضعون من قلبي. كيف لي أن أنقذ نفسي يا إلهي من فرانسيس؟"

كان يصرخ ويهتاج بهذه الطريقة طول اليوم، ينبطح على أرض الكهف ويختض بعنف. قبيل المساء بينما كنت لا أزال أتجول في صقلية أتسول الصدقات، سمع فرانسيس صوتاً يأتي من فوقه:

"فرانسيس"!

"ا أنا إلهي. قدني."

"فرانسيس هل يمكنك الذهاب إلى صقلية. المكان الذي ولدت فيه وحيث يعرفك الجميع هناك، هل يمكنك الذهاب إلى هناك، تقف أمام منزل أبيك وتغني وترقص وتصفق بيديك منادياً باسمي؟"

استمع فرانسيس وهو يرتعش. لم يجب. وسمع ثانية ذلك الصوت الآتي من فوقه، ولكنه الآن أقرب من ذي قبل في أذنه: "هل يمكنك أن تدوس على فرانسيس هذا بقدميك، هل يمكنك أن تهينه؟ إن فرانسيس هذا يمنع إتحادنا. دمره! سيركض الأطفال وسيرجمونك بالأحجار، وستخرج الصبايا رؤوسهن من النوافذ ليضحكن منك،

وأنت المبتهج المسفوح دمه من الأحجار، ستوقف أرضك وتصرخ: "كل من يرميني بحجارة واحدة، يباركه الله مرة واحدة، وكل من يرميني بحجارتين يباركه الله مرتين. وكل من يرميني بثلاث حجارات يباركه الله ثلاثاً.... هل يمكنك أن تفعل ذاك؟... لماذا لا تتكلم؟"

أصغى فرانسيس مرتعشاً. لا أستطيع، لا أستطيع، لا أستطيع، كان يقول لنفسه، لكنه خجل من أن يكشف ما في ذهنه. وفتح فمه أخيراً:

"إلهي إن توجب علي الرقص في وسط الساحة والمناداة باسمك ألا يمكنك أن ترسلني إلى مدينة أخرى؟"

لكن الصوت أجابه بكلام قاس ومليء بالاحتقار: "لا بل صقلية"!

فامتلأت عيون فرانسيس بالدموع. وعض التراب الذي كانت شفاهه قد أستراحت عليه. صرخ:

"عفوك يا الهي. إمنحني الوقت كي أهيء نفسي، روحاً وجسداً. أطلب منك ثلاثة أيام، ثلاثة أيام وثلاث ليال، لا أكثر."

ورعد الصوت ثانية، ولكن ليس في إذن فرانسيس الآن، بل في أعماقه: "لا بل الآن"!

"لم أنت بهذه العجلة يا إلهي ! لماذا تريد أن تعاقبني هكذا!؟"

فقال صوت الرب: "لأنني أحبك..." صار الصوت ناعماً الآن، رقيقاً، وقد جاء من عمق قلب فرانسيس.

وفجأة تجشأ المرارة من صدره وتلبسته القوة، ليست قوته: بل قوة هائلة. نهض. بدأ وجهه مشعاً وتصلبت ركبتاه. وقف للحظة عند مدخل الكهف. كانت الشمس توشك على المغيب.

قال: "إنني ذاهب" ورسم رمز الصليب.

عند ذاك كنت قد عدت من التسول وكيسي ممتلىء بالخبز القديم. رايته مبهراً، وكان عليّ أن أضع يدي على عيني كي أظللهما. وفكرت أن أقول له: "لقد جلبت بعض الخبز، لابد أنك جائع، فلم تأكل شيئاً طول النهار، أجلس ودعنا نأكل. لكنني كنت خجولاً في ان أقول هذا، لأنني في اللحظة التي رأيته فيها أحسست أنه ليس بحاجة إلى الخبز.

حالما رآني رفع يده.

قال: "دعنا نذهب."

"أين ؟ "

"كي نقفز"!

ومرة أخرى أكون فيها فظاً لأسأله أن يوضح: "كي نقفز ؟ فوق ماذا؟ ولماذا ؟ لم أفهم". لكنه خرج أمامي، يخطو مسرعاً فوق التراب والصخور وسرنا معاً نحو صقلية.

* * *

كان الليل يهبط. وكانت السماء الغربية تجعل لون الكرز البري داكناً وبدأت الغيوم المستثارة والغريبة المنظر بالنهوض وبتبريد الأرض، التي كانت لا تزال تفور من حرارة النهار العالية. وكان سهل أومبريا المثمر يستريح. فلقد قام بواجبه، وأعطى القمح وزيت الزيتون للناس. والآن، وهو في رقوده، كان يحدق في السماء ينتظر المطر واثقاً من أن البذور التي تحت تربته ستنمو مرة أخرى وتصنع الثمر.

كان الفلاحون عائدين إلى بيوتهم، وأمامهم تسير الثيران البريئة

الممتلئة الأبدان ببطء وجلال. لقد ظلت تلتفت وترمقنا بعيون خيرة وأليفة لدقيقة وكأننا كنا ثيراناً من نوع ما وقد عدنا إلى صقلية أيضاً بعد إنقضاء عملنا يسحبنا نداء الأسطبل المليء بالتبن والشوفان. سار فرانسيس في الأمام، مستغرقاً في تفكيره. توقف من حين لآخر ونظر إلى السماء وأصغى بانتباه وكأنه كان يتوقع أن شخصاً ما يكلمه. ولم يسمع شيئاً على أية حال عدا الجلبة الناعمة للريح في الأشجار، وصوت الكلاب التي تنبح بعيداً في صقلية. كان يستأنف الصعود بعد أن يتنهد في كل مرة.

انعطف وانتظرني لكي ألحقه.

سألني بعذوبة وثقة: "هل تعرف كيف ترقص يا أخي ليو ؟"

فضحكت: "أرقص ؟ لسنا ذاهبين إلى عرس، أليس كذلك ؟"

"نعم، إلى عرس، هذا هو ما نحن ذاهبان إلية يا أخي. ولا تضحك. فلسوف يتزوج خادم الرب."

"من هو خادم الرب؟"

"الروح سوف تتزوج عاشقها الكبير."

"أتعني الرب، يا أخي فرانسيس؟"

"نعم الرب يا أخي ليو، ويجب أن نرقص أمام بيت بيرنارمن دون في وسط الساحة: حيث يقام العرس. ويجب أن نصفق بأيدينا ونغني يا أخي ليو. ولسوف يجتمع الناس، وبدلاً من ان يقدموا لنا فطائر اللوز، فإن طريقتهم في قولهم لنا: "فلتكن حياتكما سعيدة أبداً، أنهم سوف يرجموننا بالحجارة وقشور الليمون."

"ما الذي حدث لفطائر اللوز وأوراق الغار وزهر الليمون؟ لماذا الأحجار والقشور يا أخي فرانسيس؟"

"هكذا يشاء العريس."

واستأنف التسلق ولم يعد للكلام ثانية وراقبت بطتي ساقيه الضامرتين، والأقدام العارية المدماة التي تتعثر وتترنح باستمرار. صار يعدو الآن محدقاً بثبات إلى صقلية، فقد خامره فجأة إحساس بضرورة العجالة والتلهف الكبير. ولكن حين وصلنا الجدران تراجعت ركبتاه وتوقف.

سألني بصوت لاهث متضرع وهو يمسك بذراعي، هل تتذكر يا أخي كيف أن المسيح رفع يديه في تلك الليلة وهو على جبل الزيتون إلى السماء وصاح: "خذ هذا الكأس مني يا أبي."

"كان العرق يتصبب من جبهته يا أخي. وكان يرتعش. لقد رأيته، كان هناك ورأيته ! كان يرتعش."

"إهدأ، الآن، إهدأ يا فرانسيس، لا ترتعش هكذا. تعال لنعود إلى الكهف. سوف تقضي الأيام بالصلاة وسوف أقضي أيامي شحاذاً وسوف نجلس كلانا في المساء أمام قطعة خبز ونتحدث عن الرب."

تحدثت إليه بعذوبة ورقة لأنني كنت خائفاً من عينيه المشتعلتين. لكنه كان بعيداً، بعيداً عن جبل الزيتون، ولم يسمع.

تمتم ثانية: "كان يرتعش، كان يرتعش.. لكنه أمسك بالكأس وشربه جرعة واحدة حتى القعر"!

حرر يدي، ومر موطد العزم عبر بوابة المدينة، ثم ألتفت ونظر إليّ، رافعا يده.

"دعنا نذهب" قالها بصوت مرتفع. وبعد ذلك مباشرة قال هامساً: "ساعدني، أيها المسيح"!

تبعته راكضاً. لقد تنبأت بمعاناته واقتربت منه لأقاسمه معاناته.

ماذا تشبه روح الإنسان؟ طفقت أسأل نفسي وأنا أتأمل فرانسيس في الشحوب والارتجاف الذين يخترقان جسده. ماذا تشبه روح الإنسان؟ عش مملوءاً بالبيوض؟ الأرض الظمأى تحدق في السماء وتنتظر المطر؟ إن روح الإنسان هي آه ! الآنين الذي يصعد نحو السماء.

التفت فرانسيس وحدق بي: " يمكنك أن تعود إذا رغبت يا أخي."

فأجبت: "إنني باق. حتى لو ذهبت أنت، فأنا باق."

"آه، لو أنني فقط أستطيع الذهاب، لو أنني فقط أستطيع الهروب! ولكنني لا أستطيع."

ورفع عينيه نحو السماء:

"إن وجهك خلف الماء، وخلف الخبز وخلف كل قبلة، انه خلف العطش والجوع والطهارة. آه يا ربي، كيف لي أن اهرب منك؟"

وبوثبة وقفزة تحول إلى أول زقاق ضيق وسرعان ما وصل بيازا سان جيورجيو، حين بدأ القفز، صفق يديه وصاح: "تعالوا، تعالوا جميعاً لسماع الجنون الجديد"!

* * *

كانت تلك هي الساعة التي يعود فيها الناس مع حميرهم المثقلة من مزارع الكروم وحقول البطيخ، والساعة التي يغلق فيه التجار والحرفيون محلاتهم. ويجتمعون في المقاهي ليشربوا ربع لتر من النبيذ ويتحدثوا بمتعة مع أصدقائهم. وأيضاً ساعة تجلس العجائز على عتبات بيوتهن. كان منظرهن يزداد عتمة، ولكنهن لم يأبهن لذلك، لأنهن لم يفقدن متعتهن في مراقبة الطريق والناس والحمير في صقلية. من جانب آخر كان الشبان والفتيات قد أستحموا للتو

ولبسوا ثيابهم الجميلة الطويلة الضيقة. كانت الغيوم قد أنقشعت، وثمة نسمة عليلة تهب وتجعل شعور الفتيات ترفرف مما يثير الشباب ويجعلهم يبصرون النساء بشوق ورغبة. وكانت أنغام العيدان قد بدأت تدوي في الحانات.

وفجأة: ضحك وصراخ وسخرية. والتفت الجميع لينظروا. كان فرانسيس منتصباً على حافة الساحة، يقفز ويرقص رافعاً أطراف ثوبه. كان ينادي: "تعال أنت. تعالوا جميعاً يا أخوتي، تعالوا لتسمعوا الجنون الجديد"!

وارتفع من خلفه ضجيج ضحك الأطفال كان يطارمن دونه ويرمونه بالحجارة.

وكنت مسرعاً خلفه، مهدداً أياهم بالعصا ولكن كان يظهر المزيد من كل شارع. وسرعان ما اجتمعوا كلهم وهاجموا فرانسيس. أما هو فكان هادئاً ويضحك ويلتفت من حين لآخر، رافعاً ذراعيه للأطفال ويصيح: " كل من يرميني بحجر فليباركه الله مرة واحدة، وكل من يرميني بحجرين فليباركه الله مرتين، وكل من يرميني بثلاث حجرات فليباركه الله ثلاث مرات." وعند ذلك أمطروه بوابل من الأحجار.

وصار الدم يجري من جبهته وحنكه. انطلق الناس من الحانات يقهقهون. حتى كلاب صقلية نهضت، وتجمعت وراحت تنبح على فرانسيس. كنت قد وضعت نفسي أمامه لأحصل على حصتي من الأحجار لكنه دفعني جانباً. كان يقفز ويرقص بجذل وهو مغطى بالدم.

وغنى: "اسمعوا يا أخوتي، اسمعوا الجنون الجديد"!

واصطخب الجميع بالضحك. وشرع الشباب بالصفير، يموءون

وينبحون كي يحجبوا صوته، أما الصبايا فقد تجمعن حول أعمدة المعبد القديم وصرخن. وصاح شخص ما في الحانة المقابلة:

"قل لي ألست فرانسيس إبن بيرنارمن دون، المترف؟ حسن، أخبرنا عن جنونك الجديد. دعنا نرى ما هو"!

"أخبرنا، اخبرنا، أخبرنا!" جاء الصوت من كل مكان، ويرافقه كورس قهقهات.

صعد فرانسيس سلالم المعبد وفتح ذراعيه نحو الحشد الساخر وصرخ: "الحب! الحب! الحب!" ثم راح يركض من إحدى نهايات الساحة نحو الأخرى يقفز ويرقص ويصيح.

كانت ثمة فتاة متكئة على شرفة قصر مهيب تراقب.. تراقب وتبكي.

- "كلارا!" جاء الصوت من الداخل: "كلارا"!

لكن الفتاة لم تتحرك.

وفجأة تجمد دمي. صار ثمة ضجيج، وفسح الطريق لشخص ما وتوقفت أصوات الازدراء على حين غرة. واندفع عملاق كبير إلى الأمام وسحب فرانسيس من رقبته. لقد كان هو أباه، بيرنارمن دون.

زأر وهو يهز ولده باهتياج: "تعال معي"!

لكن فرانسيس كان قادراً على التشبث بأحد أعمدة المعبد.

صاح: " إلى أين؟ لن أذهب إلى أي مكان"!

"تعال إلى البيت"!

"بيتي هنا. هنا في الساحة. وهؤلاء الرجال والنساء الذين يهزأون بي هم أمي وأبي."

وجن جنون بيرنارمن دون العجوز. فامسك بإبنه من وسطه بكلتا

يديه، وحاول أن يبعده عن العمود.

صرخ فرانسيس: "لن أذهب" ورمى ذراعيه بقوة اشد حول العمود: "ليس لي أب ولا أم، وليس لي بيت لي رب فحسب"!

هدأ للحظة ثم راح يصرخ ثانية: "لي رب فحسب! " لي رب فحسب" واصطخب الناس ضاحكين.

وحدث أن مر في تلك اللحظة مطران صقلية. كان رجلاً عجوزاً موقراً، طيباً وذا روح بسيطة وصوتاً رقيقاً. إنه رجل يرتعش حين يفكر بالجحيم، يرتعش حين يفكر بالفردوس، وهو الذي دائماً ما يتوسل الشيطان في أن يتوب ويعود إلى الفردوس، بهدوء مبتهلاً ومن دون أي تفكير بالرجوع.

هذا المساء كان يقوم بجولاته المعتادة حول المقاطعات الفقيرة للمدينة. وخلفه كان يسير الشماس وبيده السلة الكبيرة فارغة، تلك التي كان المطران قد ملأها بالطعام كي يوزعها على الفقراء. وبينما كان يمشي وصولجانه الطويل ذو المقبض العاجي في يده، سمع الصراخ فتوقف. كان فرانسيس مازال يصيح: "ليس لدي بيت. لي الله فحسب!" ويكاد الناس ينشطرون من الضحك.

وبدا للمطران أن شخصاً ما في خطر ويطلب المساعدة منه بوصفه ممثل الله في صقلية. فأسرع في خطوه بأقصى ما يستطيع حتى وصل.

كان الظلام لم يحل بعد، إذ لا تزال آخر أشعة الشفق حاضرة، وكان باستطاعة المطران أن يرى فرانسيس ويعرفه. وهناك فوقه رأى العجوز بيرنارمن دون يجاهد كي يسحبه معه. رفع المطران صولجانه. وقال بصوت قاس.

"لا يا سيد بيرنارمن دون من العيب على أحد أعيان المدينة أن يقدم

عرضاً مسرحياً ليفرج عليه الناس. إن كان لك إي خلاف مع إبنك فتعّالا إلى موقعنا كي نرى إن كان بإمكاننا أن نصدر حكماً."

والتفت نحو فرانسيس: "لا تقاوم يا بني، كنت تنادي الرب. وأنا ممثل الرب في صقلية. فتعال معي."

خلص فرانسيس نفسه من العمود ورآني إلى جانبه.

قال: " تعال أنت أيضاً يا أخي ليو. لقد بدأ الأرتقاء."

قادنا المطران وتبعه فرانسيس وأنا ومعنا العجوز بيرنارمن دون يمشي متذمراً خلفنا. وخلفنا في البعيد، الذي حافظ على مسافة قريبة منا، الجمهور الهائج، وعيونهم مثبتة على الأرض بقنوط.

التفت إليّ فرانسيس لدقيقة وسألني بصوت خفيض: "هل أنت خائف يا أخي ليو، هل تشعر بالخجل؟ إنني أكرر عليك طلبي إن كنت تود العودة فبإمكانك ذلك. لماذا تتورط؟ إذهب"!

"مادمت معك يا أخي فرانسيس فلن أخاف ولا أخجل. لن أتركك ما دمت حياً."

وألّح: "مازال لديك الوقت أنني اشعر بالخوف عليك. إذهب"!

عند ذاك، لم أستطع كبح نفسي فانفجرت باكياً. فأمسك فرانسيس بكتفي برقة.

"حسن، حسن يا أسد الله الصغير. بإمكانك البقاء."

وصلنا إلى قصر المطران ودخلنا الفناء الذي داهمه الليل. خلفنا كان ثمة عدد هائل من أناس المدينة تدافعوا بالمناكب كي يدخلوا إلى الداخل كما فعل العديد من الوجهاء الذين أسرعوا في الحضور ليستمتعوا بالنظر إلى الحالة التي سقط فيها إبن بيرنارمن دون.

كان الخادم قد أضاء الشمعدان وأنار القاعة الكبرى. فوق

العرش الأسقفي كان ثمة صليب يظهر المسيح جميلا ومعافى ذا خدين متوردين منتفخين. جلس المطران على عرشه بعد أن رسم رمز الصليب. وذهب السيد بيرنارمن دون ليقف على يمينه وفرانسيس على يساره. وبعيد عنهما وقف خمسة أو ستة من الوجهاء وابعد منهم وقف العامة من الناس إزاء الجدار.

إنني أتذكر كل شيء عن تلك الليلة، أتذكر جيداً كلمات المطران وعذوبة فرانسيس وروعته وغضب بيرنارمن دون. لكنني أرويها على عجل كي أصل إلى خلاصتها. في اللحظة العظيمة التي وقف فيها فرانسيس عاريا أمام الله والآنسات. كما قلت، إعتلى المطران عرشه ورسم رمز الصليب.

قال السيد بيرنارمن دون بصوت أجش ساخط: "سيدي المطران، لم يعد إبني هذا يملك عقله. فلديه أحلام مجانين، إنه يسمع أصواتاً في الجو، يأخذ ذهباً من صناديقي ويبذرها. إنه يدمرني. حتى أنه صرفها أخيراً كي يقضي وقتاً ممتعاً وقلت لنفسي إنه ما زال شاباً ولسوف يكف عن ذلك. لكنني فقدت كل أمل فيه. إنه يتجول مع الصعاليك، ينام في الكهوف، يبكي ويضحك من دونما سبب أو ذريعة. ومؤخراً أصابه الهوس في إعادة بناء الكنائس المهدمة. وهذه الليلة ذهب بجنونه إلى أقصاه. جاء إلى صقلية وراح يغني ويرقص في وسط الساحة بينما الجميع يضحكون عليه.. إنه عار على دمي. لم أعد أريده"!

وتساءل المطران وهو يرى بيرنارمن دون متردداً: "ولهذا..؟"

قال بيرنارمن دون وهو يضع يده على رأس إبنه: "ولهذا، إنني أتبرأ منه أمام الله والناس. لم يعد إبني."

كان ثمة همس مكتوم بين الوجهاء وعامة الناس، لكن المطران أعاد الهدوء بتلويحة من يده. التفت إلى فرانسيس الذي كان يصغي مطرق الرأس، وأجاب: "لا شيء. سوى هذا."

وقبل أن يمنعه أي أحد منا رمى بحركة سريعة ثيابه المخملية التي كان يرتديها وكورها في صرة بهدوء ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة إنحنى ووضعها عند أقدام بيرنارمن دون. ثم ذهب للوقوف أمام عرش المطران عاريا كما ولدته أمه.

قال: "أيها المطران، حتى هذه الملابس تعود له! إنني أعيدها له. لم يعد لديه إبن. ولم يعد لدي أب. ها قد أنتهى الحساب بيننا."

وقفنا جميعاً فاغري الأفواه، وامتلأت أكثر العيون بالدموع. إنحنى بيرنارمن دون وأمسك بالصرة ووضعها تحت ذراعه. نزل المطران من عرشه. كانت عيناه مبللتين. خلع عباءته وأحاط فرانسيس بها ساتراً عريه.

وتساءل بصوت مؤنب حزين: "لماذا فعلت ذلك يا ولدي؟ أما كنت تخجل أمام هؤلاء الناس؟"

فأجاب فرانسيس بتواضع: "لا أيها المطران، إنني أخجل أمام الله فحسب. سامحني أيها المطران."

والتفت نحو الوجهاء:" أيها الأخوة إسمعوا ما أمرني به الله. أنا حتى الآن أنادي السيد بيرنارمن دون أبي. أما بعد هذا فسوف أقول: "أبانا الذي في السموات." إنني أقطع الوشائج التي تربطني بالأرض، إنني أنال الزخم الذي قد يعيدني إلى بيتي، إلى السماء. هذا هو - يا أخوتي - هذا هو الجنون الجديد."

ولم يعد يستطيع العجوز أن يكبح جماع نفسه. إزداد الزبد في فمه

فقفز على فرانسيس ورفع قبضته. لكن المطران تمكن من إمساكه في الوقت المناسب.

قال: "لم تعد تملك السلطة عليه. فلتكبح جماع غضبك يا سيد بيرنارمن دون"!

رمق بيرنارمن دون الغرفة بنظرة حادة. كان الدخان يتصاعد من رأسه عض شفته كي يمنع نفسه من صب اللعنات وضغط الصرة تحت ذراعه وخرج صافقاً الباب خلفه بغضب. ثم ألتفت المطران نحوي: "إذهب وأطلب من البستاني أن يعطيك ثياباً قديمة لتستر عري فرانسيس".

هرعت إلى الخارج وعدت بعد دقائق بمعطف قديم مرقع آلاف المرات. رسم فرانسيس صليباً بالطباشير على ظهر المعطف ثم ارتداه.

إنحنى وقبل يد المطران ثم استدار نحو الوجهاء والعامة وقال لهم: "وداعاً يا أخوتي. فليرحم الله أرواحكم"!

واكب المطران فرانسيس مسافة قصيرة في الفناء. مال إليه وقال له بصوت هادىء: "إنتبه يا فرانسيس أنت تبالغ."

أجاب فرانسيس: "هكذا يجد الواحد منا الرب أيها المطران."

هز المطران رأسه: "حتى الفضيلة تحتاج إلى اللطف، وألا فستكون عجرفة."

قال فرانسيس " يقف الإنسان ضمن حدود اللطف، ويقف الرب خارجها. إنني أتوجه نحو الرب أيها المطران." وتقدم مسرعاً نحو الباب المؤدي إلى الشارع. لم يكن لديه وقت يضيعه.

عقد المطران يديه بإنفعال. " لا تكن عجولاً يا بني. إنني أرى الجو الذي حول رأسك مملوءاً بالعناء والعذاب والدم. لا تذهب نحو النزاع

يا بنيّ من دون ان تأتي وتراني. أنا عجوز، لقد جربت المرارة كثيراً، ما الذي تفعله الآن، قد فعلته أنا سابقاً. أظن أن بإمكاني مساعدتك."

قال فرانسيس: "سوف آتي لأطلب منك أن تباركني أيها المطران."

وخطا عابراً العتبة.

* * *

ركضت خلفه وخرجنا إلى الشارع. لم يكن القمر قد بزغ حتى الآن، وكان الظلام حالكاً. الغيوم تغلق السماء وثمة ريح رطبة تهب، من الواضح أن المطر قد سقط على الجبال.

كانت الشوارع مقفرة. المصابيح قد أضيئت في المنازل وجلس الناس ليتناولوا عشاءهم. وقفنا في وسط الشارع لبعض الوقت. أين ستذهب؟ بأي إتجاه نحو السهل أم نحو الجبل؟ نحو البرية أم نحو مقر الناس؟ الرب في يميننا وفي يسارنا، في السهل والجبال. كل الطرق كانت مقدسة.

لم يكن فرانسيس قد إختار طريقه بعد. وقف في وسط الشارع من دون حراك.

سألته: "أين ستذهب الآن يا أخي فرانسيس؟"

ضحك فرانسيس بهدوء كأنه طفل وأجاب: "نحو الفردوس. ألا تفهم! لقد ركلنا الأرض مودعين لها، لقد فزنا فلنتقدم إلى الأمام يا أخي ليو، بسم الله"!

وأستدار نحو اليمين باتجاه جبل ساباسيو.

ونحن نغادر عبر البوابة الشمالية، دخلنا أرضاً قاحلة وعرة وبدأنا بالصعود. لم يتكلم فرانسيس لوقت طويل. ذهب أمامي في الظلام

وبدا لي جسده الناحل مثل سيف ينشطر في الطريق إلى إثنين، بينما كان معطفه المهلهل الكبير يرفرف في الريح مثل جناحين.

بالنسبة لي كنت مرهقاً وجائعاً، توقفت ونظرت إلى الأسفل نحو صقلية كانت الأضواء لا تزال تشتعل، ويمكنك أن تسمع صخب الناس ونباح الكلاب. ثمة قمر فضي اقتحم المكان، مليئا بالكآبة، ظهر على حافة السماء.

وحالما لم يعد فرانسيس يسمع خطواتي خلفه إلتفت. ناداني وهو يراني أراقب المدينة التي داهمها الليل: " لماذا أنت متردد يا أخي؟ لماذا تنظر خلفك؟.. ألا تتذكر تعاليم المسيح؟ أزح عن قدميك تراب صقلية، تراب أبيك وأمك، تراب الناس"!

أجبت: "لا تقلق يا أخي فرانسيس. هذا ما افعله بالضبط: إنني أزيح التراب."

واحسرتاه ! لم يجعل الرب مني بطلاً ولا جباناً، كما إن روحي تنتقل بين الأثنين.

وبدأنا ثانية. كان فرانسيس مرحاً، راضياً وبدأ يغني برقة، مرة أخرى بلغة أمه. مرة أخرى نفذ أمر الرب: لقد غنى ورقص في وسط صقلية، وتخلى عن أمه وأبيه، كسر الأغلال التي كانت تشده إلى الأرض وأنقذ نفسه. ألم يغن بذات الطريقة حين نفذ مشيئة الرب الأولى ببناء كنيسة سان داميانو؟ وجاءت المهمة الثانية لتكون أصعب بكثير، ولهذا أضحى فرحه أكبر.

وصلنا إلى غابة السنديان البري. كان القمر يطلق ضوءاً شاحباً حزيناً فوق الغصون والأحجار، ومن حين لآخر يحلق بوم بصمت فوق رؤوسنا. فجأة وبينما كان فرانسيس يغني سمعنا خطى ثقيلة ونفساً

لبشر خلف الأشجار. قطع غناءه وتوقفنا ساكنين.

قلت: "هنا يكمن مكان قطاع الطرق. لقد ضعنا."

أجاب فرانسيس: "كيف يمكن ان تضيع حين لا تملك شيئاً تضعيه؟ لا تخف."

وبينما كنا نتكلم سمعنا همسة الأغصان: كانت الخطوات تقترب. وعلى حين غرة باغتنا خمسة أو ستة رجال شاهرين خناجرهم. سحبني إثنان منهما وطرحاني على الأرض، وقفز الآخرون على فرانسيس.

صاحوا وهم يصرون بأسنانهم: "من أنتم؟"

أجاب فرانسيس بهدوء: "أنا مبعوث الملك العظيم."

"وماذا تعملان هنا؟"

"أتيت لأدعوكم يا أخوتي قطاع الطرق لتدخلوا الفردوس. إن الملك العظيم يقيم عرساً. فلسوف يتزوج إبنه، ويطلب منكم أن تشاركوا في الأحتفالات."

قرب أحد قطاع الطرق ضوء المصباح من فرانسيس وحدقّ في وجهه الشاحب الجائع، وقدميه العاريتين الملطختين بالدم ومعطفه المهلهل. وضحكوا جميعاً واستغربوا ساخرين "أنت مبعوث الملك العظيم، انت الشحاذ العاري القدمين الصعلوك؟ وراح يبحثون عن كيسه.

لكنهم لم يجدوا شيئاً. ثم تفحصوا الكيس الذي كان على ظهري ولم يجدوا شيئاً أيضاً. ولا حتى كسرة خبز. فحدقوا ثانية في وجه فرانسيس وهم يسلطون عليه ضوء المصباح.

قال أحدهم: "لابد أنه مجنون. نحن نضيع وقتنا."

وقال آخر: "دعنا نضربهما ونرميهما في تلك الحفرة. حينذاك لا نكون قد ضيعنا وقتنا على الأقل."

فرفعوا ذيول الثيران التي كانوا يحملونها وراحوا يجلمن دوننا من دون رحمة. فصرخت متألماً أما فرانسيس ففي كل مرة يتلقى فيه جلده كان يرسم الصليب ويتمتم: " الحمد لله."

ضحك قطاع الطرق.

وقال أحدهم: "يا إلهي، إن هذا الإنسان ليس مجنوناً، بل إنه قديس."

وقال آخر بدا أنه هو القائد: "إنه الشيء نفسه، أليس كذلك، لقد فرمنا لحمهم جيداً. أرفعوهما واقذفوهما في الحفرة."

فحملونا من الأكتاف والأقدام، ورمونا في الحفرة ثم غادروا ضاحكين وهم يطلقون اللعنات علينا.

رفع فرانسيس يده وربت على ظهري.

تساءل: هل كان ذلك مؤلماً يا أخي ليو؟"

أجبته نازفاً: " هل علي أن أفترض أنه ليس مؤلماً بالنسبة لك يا أخي فرانسيس؟ إن ظهري مصنوع من اللحم كما تعرف."

"لا تجدف ضد اللحم البشري يا أخي ليو. تذكر ما قلناه يوماً: الآن أو لاحقاً فلسوف يصبح أيضاً روحاً، ومن المؤكد أن فيه روحاً من قبل! إنني لا أشعر بأي ألم، يا أخي ليو، مطلقاً. أقسم لك."

كانت الحفرة عميقة. جاهدنا كي نخرج منها، لكننا بقينا ساقطين في القعر.

قال فرانسيس: "هذا المكان جيد مثل أي مكان يا أخي. كنا نبحث عن مأوى كي نقضي الليل اليس كذلك؟ حسن هذا هو المكان. لقد بعثه الرب لنا برحمته الكبيرة. إذن دعنا ننم هنا وعند

الصباح سوف يبعث لنا الشمس كي يرينا الطريق."

جثمنا متقابلين بسبب البرد وأغمضنا عينينا. ما زال ظهري يلسعني لكنني كنت منهكاً فنمت. هل كان فرانسيس نائماً أيضاً؟ لا ادري. أشك بذلك، على أية حال، لأنني كنت من وقت لآخر أسمع صوتاً في منامي وكان ذلك صوت غناء.

حين جاء الصباح، تسلقنا الحفرة بأطرافنا الأربعة وخرجنا لنستأنف تجوالنا. في بعض الأحيان كنا نبقى صامتين لفترة غير قليلة، وفي أحيان أخرى كنا نتبادل بعض الكلمات حول الرب، أو الجو، أو الشتاء القادم. وفي كل مرة نرى فيها قرية عن بعد كان فرانسيس يسحب كميه بجذل.

كان يقول لي: "تعال يا أخي ليو. تعال ولا تبطئ. ففي داخل تلك البيوت الصغيرة ثمة روح تتلهف للإنقاذ. دعنا نذهب كي نجدها."

وندخل القرية، وكان فرانسيس يصيح كأنه منبه المدينة:

"مرحباً يا سكان القرية تعالوا وشاهدوا! سأجلب لكم بضائع جديدة سوف أوزعها عليكم مجاناً. تعالوا أولاً وخذوا!... مجاناً!... مجاناً! مجاناً"!

كنا قد عثرنا على جرس كبير في الطريق، وراح فرانسيس يطرقه في شوارع القرية بينما يصيح، ويسمعه السكان ويركضون، رجالاً ونساءً وأطفالاً، لكي يروا ماذا كنا نجلب لهم ونوزعه مجاناً. ثم يرتقي فرانسيس الحجر ويبدأ الكلام عن الحب، لابد أن نحب الله والناس والأصدقاء والأعداء، لابد أن نحب الحيوانات والطيور وكل ارض نخطو عليها. واخذه الحماس. كان يتكلم عن الحب، وحين لم يفلح في العثور على الكلمات المناسبة انفجر باكياً. ضحك

الكثيرون حين سمعوه وغضب البعض، أمطره الأطفال بالحجارة. وجاءه البعض من الناس وقبلوا في السر يده. وبعد ذلك، عمل جولة سريعة حول البيوت ماداً يديه للتسول. ومنحوه بعضاً من الخبز المعفن. وبعد ان نشرب من بئر القرية كنا نرحل إلى قرية أخرى من المؤكد أنني لا يمكنني تذكر كم من الأيام والأسابيع قد مرت على هذه الشاكلة. كان الوقت يدور ويمر سريعاً.

في مدينة صغيرة ـ نسيت اسمها ـ قابلنا صديقاً قديماً لفرانسيس. كان في وقت ما رفيقه في صخبه. كان هذا الصديق قد شاهد فرانسيس يقف في الساحة ويرقص ويغني منادياً على بضاعته. فاستغرب ذلك وهرع إليه.

صاح: "فرانسيس يا صديقي القديم، كيف توصلت إلى هذه الحال؟ من أوصلك إليها؟"

أجاب فرانسيس: "الله" وابتسم.

"أين ملابسك الحريرية والريشة الحمراء التي كانت في قبعتك وأين خواتمك الذهبية؟"

"لقد أعارهما الشيطان لي. وها أنا قد أعدتها إليه."

حدجه الصديق مندهشاً من قمته وحتى أخمص قدميه، وتفحص معطفه الذي رقع وأعيد رقعه آلاف المترات. وشاهد الأقدام العارية والرأس الحاسر. فظل مضطرباً.

وسأله أخيراً وكان صوته محشواً بالعاطفة: "من أين أتيت يا فرانسيس؟"

فرانسيس: "من العالم المجاور".

"وأين ستذهب؟"

"نحو العالم المجاور."

"ولماذا تغني؟"

"كي لا أضل طريقي."

هز الصديق رأسه شاعراً بإلياس. لابد أنه كان يحمل قلباً شفوقاً أذ أخذ الشاب بيد فرانسيس وأشار إليّ أن اتبعه. فعدوت خلفهما.

"إن كان فهمي لك صحيحاً يا صديقي القديم فرانسيس فأنت تريد أن تنقذ العالم. ولكن اسمعني أرجوك، الشتاء قادم، تعال معي إلى البيت ودعني أمنحك معطفاً دافئاً. وإلا فسوف تموت من البرد. وأنىّ لك أن تنقذ العالم بعد ذلك؟"

قال فرانسيس: "أنني أرتدي الرب. فلا أشعر بالبرد."

ضحك الصديق وقال: "أنت ترتدي الرب. ولكن ذلك غير كاف. فأنت أيضاً تحتاج إلى معطف دافيء. أنت تعطف على الديدان وتحاول أن لا تقع خطاك عليها، حسن إرحم جسدك أيضاً. فهو أيضاً دودة، لفه بمعطف...؟ وقال مضيفاً وهو يرى فرانسيس متردداً: "ولا تنس أنك بحاجة لجسدك إن كنت تريد إنقاذ العالم."

قال فرانسيس: "أنت محق. تلك هي نتيجة التعليم: فأنت شخص حاد الذكاء!...

نعم فأنا مازلت بحاجة إلى الجسد. خذنا معك"!

وصلنا إلى المنزل. كان من الواضح أن صديقه غني. دخل في إحدى الغرف وجاء حاملاً معطفاً طويلاً ثقيلاً من الصوف، وزوج نعلٍ من الصندل، من ذلك النوع الذي يرتديه الرعاه، وعصا راعي أيضاً.

قال: "هذه هي ثياب الراعي الذي يعمل عندي، إلبسها."

نظر فرانسيس إلى الرداء الصوفي ورفعه كي يقيس حجمه. كان

يصل إلى قدميه وجرب القلنسوة وخلعها. كان يضحك مثل طفل.

قال أخيراً أحبها. أحبها لأن لها نفس لون الحقول المحروثة في الخريف. أنه يذكرني بالتراب. بحق المسيح يا روفيتو، أعط واحداً مثله إلى رفيقي هنا الأخ ليو."

قال: أي شيء رائع هذا بأن أعيش في ذاكره الناس بأنني أعطيتك هذا المعطف الذي جعلت منه رداء الراهب! هل تزمع أن توجد رهبنة كرهبنة القديس بنديكت؟"

"هل أزمع أنا أم يزمع الرب؟ أنه هو الذي عليك أن تسأله. والذي أسأله."

وقف جانباً وأرتدى الرداء الجديد واستخدم قطعة حبل وجدها في الفناء حزاماً. وفي الوقت نفسه جلب صديقه لي ثياباً. لبستها، وشددتها بقطعة حبل لففتها حول خصري. وغطى الدفء ظهري. اخذ الصديق جرابي وذهب نحو الخزانة كي يملأه بالمؤن.

مد فرانسيس ذراعه إلى صديقه حالما عاد.

قال له: "صافح هذه اليد الطينية!" وضحك الصديق وشد على يده.

"أيها الأخ روفينو العزيز ليت الله يجعل من هذا الجبل ما يؤمن دخولك يوماً إلى مملكة الفردوس.. حتى نلتقي ثانية"!

تساءل روفينو ضاحكاً: "أين في مملكة الفردوس؟"

"كلا في مملكة هذا العالم. وليت الله أيضاً يهديك يوماً ما لتبدأ السير في طريق السعادة التامة."

وانطلقنا مرة أخرى. كان الجو بارداً والسماء ملبدة بالغيوم.

قال فرانسيس ضاحكاً: "ألا ترى، حين لا تفكر بما ستأكل أو تشرب، يفكر الله بهذا بدلاً عنك ويبعث لك روفينو بجراب مليء

بالطعام واثنين من الثياب الصوفية.

اتجهنا نحو الشرق، مسرورين بملابسنا الجديدة مثل طفلين. كأنك كنت تشعر أننا قمنا بارتداء الملابس العسكرية ونتعجل الذهاب نحو الحرب.

"أخي ليو، الفرحة الوحيدة في هذا العالم هي أن تطبق مشيئة الله. هل تعرف لماذا؟"

لأن ما يريده الله، هو، وليس غيره، ما نريده نحن. لكننا لا نعرفه. يأتي الله ويوقظ أرواحنا، يكشف لها عن رغبتها الحقيقية، رغم أنها مجهولة. هذا هو السرّ يا أخي ليو. أنا أنفذ مشيئة الله ذلك يعني أن أنفذ رغبتي المخيفة عميقاً. وحتى ضمن أكثر الناس تفاهة ثمة خادم لله كامن."

"من أجل هذا السبب أصلحت كنيسة سان داميانو؟ أكانت هي رغبتك، لكنها الرغبة المجهولة لديك والتي كشفها الله حين جاءك في منامك أكان هذا هو السبب الذي جعلك تتخلى عن كل شيء وتتبعني."

واعترضت: "ولكن يا أخي فرانسيس، نحتاج في بعض الأحيان أشياء كثيرة، من بينها مشيئة الله؟"

أجاب فرانسيس متنهداً :"التي هي الأصعب."

ثمة اصطفاق للرعد في البعيد. وثمة رائحة للمطر في الهواء.

"وما الذي تريده في أعماقك الآن يا أخي فرانسيس؟ هل يمكنك أن تعرفه قبل أن ينبئك الله به؟"

أطرق فرانسيس برأسه وكأنه يصغي لشيء ما.

وقال أخيراً متنهداً أيضاً: "لا يمكنني. إنني أعرف ما هو مدفون

في أعماقي ولا أريده لكنني لا أعرف ما الذي أريده."

"ما هو الذي لا تريده يا أخي فرانسيس؟ ماهو ذلك الذي تكرهه وتخشاه أكثر من غيره؟ سامحني لسؤالي هذا."

تردد فرانسيس للحظة. فتح فاه وأعاد غلقه مرة. وقرر أخيراً أن يتكلم.

"المجذومون أولئك ما أكره. لا أطيق رؤيتهم. حتى وأن كنت بعيداً عنهم. إن سماع الأجراس التي يضعونها فقط لينبهوا المارين ليبتعدوا عنهم يكون كافياً ليجعلني واهناً. سامحني يا رب، ليس ثمة شيء في العالم كله يثير أشمئزازي كما يفعل المجذومون."

بصق. وفجأة شعر بالغثيان والدوار. فاتكأ على شجرة ليستريح.

تمتم: " إن روح الإنسان الشريرة ضعيفة، تعسة... شريرة، ضعيفة، تعسة.. متى تعطف عليها يا إلهي، وتنقذها؟"

وبدأ المطر يسقط. فوضعنا قلنسوتينا وسرنا مسرعين كي نصل إلى أقرب قرية. كانت ثمة فتاة تسرع في الأتجاه المعاكس. قالت محيية إياه: إمنحاني بركاتكما يا قديسي الرب." ووضع فرانسيس يده على قلبه وردّ التحية، ولكنه لم يرفع عينه لينظر إليها. كانت جميلة ريانة ومرحة.

سألته: "لماذا أطرقت برأسك إلى الأرض؟"

فأجاب: "كيف لي أن أرفع عيني وأواجه عروس المسيح؟"

سرنا وسرنا، لكننا لم نجد أثراً لأي بشر. كانت المقاطعة مهجورة. وسرعان ما داهمنا الظلام. وأشتدت قوة المطر.

قلت: "دعنا نجد كهفاً يمكن أن يأوينا، لا يريدنا الله أن نتقدم أكثر."

"أنت محق يا أخي. لا يريدنا الله أن نتقدم أكثر. وبكلمات أخرى نحن أيضاً لا نريد"!

ورحنا نبحث في الظلام في سفح الجبل حتى وجدنا كهفاً ودخلنا فيه. إضطجع فرانسيس، وكان مطمئناً.

قال: "إن الله يبعث المطر، ولكنه يبعث أيضاً القلنسوة وحين تزداد ضراوة المطر يبعث كهفاً.

قلت: "هذه حكمة حقيقية."

فصحح فرانسيس كلامي: "كلا إنها عطف حقيقي."

فتحت الجراب وأخرجت بعض المؤن التي أعطانا إياها صديق فرانسيس روفينو. فأكلنا ولأننا كنا متعبين أعمضنا عيوننا في الحال لكي ننام. ورحت أغط في النوم بعد أن وضعت القش تحتي. واحسرتاه، ليس ثمة من أسباب عظيمة تبقيني صاحياً. لكنني لا أظن أن فرانسيس قد أغمض جفناً. عند الفجر أطلق صرخة وقفز على قدميه.

وناداني بعد أن نخسني بإصبع قدمه: "استيقظ يا أخي ليو، فقد طلع النهار. "فأجبته متثائباً:" لم ينقشع الظلام بعد، لماذا أنت عجول؟"

"لست عجولاً يا أخي، إنه هو، إنه الربّ! استيقظ."

نهضت. "هل حلمت؟"

"كلا. لم أستطع النوم طوال الليل. حين بزغ القمر أغمضت عيني وصليت إلى الله وقلت: "يا أبي، دعني أنم، فأنا عامل، عامل في خدمتك فعلت ما أمرتني به لقد أصلحت كنيسة سان داميانو، رقصت وصرت أضحوكة في صقلية، تخليت عن والدي، فلماذا لا تدعني أنم؟ ماذا تريد مني أكثر منّ هذا؟ أليس هذا كافياً؟"

"ثم سمعت صوتاً وحشياً من فوقي كلا، ليس فوقي، بل من داخلي ليس كافياً"!

"أقسم لك يا أخي ليو أنني لم أكن نائماً. لم يكن حلماً. ربما كان شيئاً آخر غير الحلم: أنت وأنا وهذا الكهف والمطر. ذلك الصوت، على أية حال. لم يكن حلماً.

فصرخت مذعوراً: "ليس كافياً؟ ماذا تريد مني أكثر من هذا؟"

"لقد طلع النهار. انهض وسر في طريقك. سأوقف المطر، من أجلك فحسب. فباشر طريقك، وسرعان ما ستسمع بعض الأجراس. وسوف يكون ذلك مجذوما يطلبك من قبلي. أسرع إليه، عانقه وقبّله... هل تسمع؟ تبدو وكأنك لا تسمعني. لماذا لا تجيب؟"

ولم أستطع مقاومة ذلك، فصرخت: " أنت لست أباً أنت لا تحب البشر. أنت متسلط بلا رحمة تعبث بنا. لقد سمعتني قبل قليل وأنا أقول لصديقي بينما كنا في الطريق أنني لا أطيق لمس المجذوم. وسرعان ما رغبت في أن ترميني في حضن الجذام. هل يعني هذا أن ليس ثمة طريق آخر، ليس ثمة طريق أسهل، طريق يلائم الفقراء، إنسان تعس يعد نفسه ليأتي ويعثر عليك؟"

"ضحك أحد ما في داخلي، ومزق أحشائي."

وقال الصوت بعد دقيقة: "ليس ثمة من طريق آخر "ثم صمت فجأة..."

كان فرانسيس واقفاً مترنحاً قرب فم الكهف، يحدق برعب عبر الفتحة وكانت كلماته تبعث القشعريرة في جسدي.

فسألته وأنا أنظر إليه بتعاطف عميق: "والآن؟" ولكنه لم يسمع.

فكررت: "والآن ؟ "

فالتفت إليّ هذه المرة. قال مقطب الجبين: "كفّ عن تكرار "الآن" ليس ثمة شيء مثل "الآن". انهض لكي نجده."

-"من ؟"

أخفض فرانسيس صوته وشعرت أن جسده المعذب يرتعش بأكلمه. وأجاب برقة: "المجذوم ".

خرجنا من الكهف. كان الضياء يتسع في الخارج، وقد توقف المطر. وفي السماء كانت الغيوم تجري وتذوي وكأنها كانت مطاردة من قبل أنفاس الرب. في كل ورقة كانت تتعلق قطرة ماء براقة. وفي كل قطرة كان ثمة قوس قزح كامل.

حين انطلقنا اتجهنا هابطين نحو السهل الذي مازال نائماً، ومغلقاً بضباب الصباح. تقدمني فرانسيس وهو يسير بخطى عملاق. كان على عجل.

ارتقت الشمس الجبال، وأحاط الدفء الأرض وكذلك نحن. في الأسفل في البعيد، خلف أشجار الصنوبر شاهدنا مدينة كبيرة.

تساءل فرانسيس " أية مدينة هذه يا أخي ليو ؟

"إنني مشوش. كأنني أرى كل شيء لأول مرة... إنها رافينا كما أظن."

وتوقف فجأة وأمسك بذراعي. كان شاحباً حد الموت. وسألني بصوت خفيض : " هل تسمع ؟"

"كلا. ماذا ؟"

"أجراس..."

وحالما قال ذلك، سمعت في الحقيقة صوت أجراس تأتي من السهل. كان لا يزال بعيداً. فوقفنا كلانا ساكنين. كان فك

فرانسيس الأسفل يرتجف وكانت الأجراس تقترب باستمرار.

تلعثم وهو يتكىء عليّ كي أسنده. "إنه قادم..." صار جسده يرتجف بأكلمة الآن.

فقلت راضخاً: "دعنا نبتعد عن هذا المكان" وتشبثت بفرانسيس من وسطه لأحمله إلى مكان يستريح فيه.

أين يمكننا ان نذهب؟ نهرب نهرب من الرب؟ ولكن كيف، يا أخي التعس الفقير ليو، كيف؟"

"بإمكاننا أن نتخذ طريقاً آخر يا أخي فرانسيس."

"ثمة مجذوم في كل طريق نتخذه. سوف تمتلىء بهم الأرض ولن يختفوا حتى نسقط في أحضانهم. لذلك ضع جهة جريئة يا أخي ودعنا نتقدم إلى الأمام"!

صار يمكن سماع الأجراس بالقرب منا الآن، خلف الأشجار تماماً.

قلت: "تشجع يا أخي فرانسيس سيمنحك الله القوة كي تتحمله."

لكن فرانسيس كان قد اندفع إلى الأمام مسرعاً. وكان المجذوم قد ظهر من أجمة الأشجار وفي يده عصا غلفت بالأجراس التي كانت تنبه المارين ليبتعدوا عنه كلما تحرك. وحالما رأى الذعر، وتوقف، وخارت ركبتاه وكأن إرهاقاً مفاجئاً منعه من الاستمرار. اقتربت ونظرت إليه مرعوباً. كان نصف أنفه المتعفن قد تلاشى، ويداه كانتا بمن دون أصابع. لم يكن غير بقايا وما شفتاه سوى جرح ينضح.

رمى فرانسيس نفسه على المجذوم ليقبله، ثم حنى رأسه وقبله من شفتيه. وبعد ذلك رفعه بين ذراعيه وغطاه بردائه وراح يتقدم ببطء

وبخطوات ثقيلة نحو المدينة. من المؤكد أن ثمة محجراً صحياً للمجذومين بإمكانه أن يودعه فيه.

فسار وسار. وتبعته وعيناي مليئتان بالدموع. وفكرت أن الرب قاس إلى درجة مبالغ فيها، ولا يشفق على البشر. ما هذا الذي قاله فرانسيس للتو: من المفترض أن يكون الرب رغبتنا المجهولة العميقة؟ كلا، كلا! يسائلنا الرب عما نزدريه ثم يقول "هذا ما أحب!" إنه يسائلنا عما لا نريده ثم يقول "هذا ما أريده. افعلوا ما يزعجكم، لأن هذا هو ما يريحني!" وكما ترى، فهاهو فرانسيس المسكين يحمل المجذوم بين ذراعيه بعد أن قبله من فمه!.

كانت الشمس قد ارتفعت في قلب السماء وحينها شعرنا بالرذاذ الشمسي الخريفي ذي القطرات الكبيرة المتناثرة وكانت المدينة التي أضحت أكبر الآن قد بدت لعيوننا فجأة لامعة في ضوء الشمس بأبراجها وكنائسها وبيوتها، وكنا نقترب منها بتثاقل.

وعلى حين غرة رأيت فرانسيس يقف. إنحنى وسحب الرداء جانباً ليرى المجذوم ولكنه فجأة أطلق صرخة: كان الرداء خاليا!

التفت نحوي ونظر إلي، فاتحاً ومغلقاً شفتيه محاولا الكلام ولكن من دون جدوى. لكن وجهه كان مشعاً ومشتعلاً! شارباه وشعر وجهه وأنفه وفمه، كل شيء فيه أنغمر في الحريق الهائل.

جرت الدموع من عينيه بغزارة، وسقط منبطحاً على الأرض كي يقبل التراب. وبقيت واقفاً فوقه، أرتجف. لم يكن ذلك إنساناً مجذوماً، بل كان المسيح نفسه الذي جاء إلى الأرض في هيئة مجذوم من أجل أن يختبر فرانسيس.

مر بنا رجل من القرية. وحين رأى فرانسيس ممتداً على الأرض

تحت المطر وهو يبكي، توقف.

تساءل: "ما الذي حدث له؟ لماذا يبكي؟ هل هاجمه قطاع الطرق وضربوه أهذا ما حصل له؟"

وأجبته: "كلا. قبل دقيقة جاء المسيح إلى هنا. رآه، وهو الآن يبكي من الفرح؟" هز الرجل كتفيه وضحك وعاد ليستمر في طريقه.

فتح فرانسيس عينيه. حدق في السماء الملبدة بالغيوم، وحدق في الشلالات الصغيرة المتناثرة التي تبعث الرطوبة في الجو ثم نظر إلى الأسفل مرة أخرى وشاهدني. كان لايزال لا يستطيع الكلام. ابتسمت له، سقطت في الحال إلى الأرض في وسط الطريق إلى جانبه لكي أقبله وأربت على وجهه برفق محاولاً تخليصه من الرعد الإلهي الذي سقط عليه. كان جسده لا يزال يطلق بخاراً.

لا أستطيع القول كم من الساعات بقينا هناك ممددين في وسط الطريق من دون أن نتكلم كلمة. لكننا حين نهضنا ونظرنا من حولنا، كانت الشمس تذوي وعادت قدرة النطق إلى فرانسيس.

"هل رأيت يا أخي ليو؟ هل فهمت؟"

"لقد رأيت يا أخي ولكن الشيء الوحيد الذي يمكنني فهمه أن الرب يلعب معنا".

"ذا هو يا أخي ليو ما فهمته: كل المجذومين والمشلولين والمخطئين إن قبلتهم من أفواههم...."

وتوقف خوفاً من أن يكمل فكرته.

"نورني يا أخي فرانسيس، نورني، لا تتركني في الظلام."

أخيراً وبعد صمت طويل تمتم مرتجفاً: "كل هؤلاء، إن قبلتهم من

الفم آه يا إلهي سامحني لقولي هذا، فسيصبحون كلهم المسيح."

* * *

حين وصلنا المدينة الكبيرة أخيراً كان الوقت ليلاً. رأينا أشجار الصنوبر الكثيفة العالية القادرة على أن تجعل أبراجها المدورة في الظل. وشعرنا أن هواء البحر المنطلق يحيط كل ما حولنا وانتعشنا ونحن نشم الهواء الملحي. كنا قد وصلنا مدينة رافينا الشهيرة.

قال فرانسيس لا أحبها. إنها مدينة عظيمة مليئة بالقصور، والكنائس والمجد القديم.

قلت: "دعنا نقضي الشتاء هنا ففصل المطر قد داهمنا، والأنهار منتفخة. أين ستمضي في مثل هذه الحال؟ هنا وفي كل مكان آخر ثمة أرواح بانتظارك يا أخي فرانسيس."

كنا متعبين. ولم يمكننا الاستمرار أكثر، كانت الأبواب مقفلة. وكان الليل قد هبط وأمسى الوقت متأخراً للدخول. وراح المطر يسقط بغزارة.

"سوف ننام هنا أمام الباب، وفي الصباح بمشيئة الله سوف ندخل لنصلي." وأدركت فجأة أنه كان جائعاً.

فتساءل: " هل بقي شيء في الجراب يا أخي؟"

"لا شيء. لا شيء سوى جرس المنجنيق. لم نمر بأية قرية هذا اليوم. هل أنت جائع؟"

"لا يهم. غداً هذه مدينة كبيرة، في مكان ما، في احد البيوت سنجد رغيف خبز ربة البيت التي أمنته لنا فحسب، ولسوف تنتظرنا."

رسمنا رمز الصليب واضطجعنا ملتصقين بالبوابة مثل طفليين.

ولأننا كنا ناقعين ونشعر بالبرد جثمنا متلاصقين وتشابكت أذرعنا.

قلت: "طوال حياتي يا أخي فرانسيس وأنا أتساءل لماذا لا يتسول بعض الناس؟ وإن عرضت عليهم الصدقات فلا يقبلونها. وآخرون يقبلون الصدقات رغم أنهم لا يتسولون وغيرهم يتسول بنشاط. من منهم على حق، أرجو أن تنيرني؟"

"إن التواضع المقدس يتطلب منك أن تمد يدك للتسول وان تتقبل كل ما يعطى لك يا أخي ليو. الآخرون متكبرون. الأغنياء عليهم واجب منح الفقراء، ولابد لهم أن يقوموا بواجبهم... وهذا كاف لحد الآن. لا تسألني على شيء آخر. فأنت تعب وأنا كذلك. طابت ليلتك."

أدركت أن فرانسيس كان قلقاً في ان يبقى وحده مع الرب لذلك سكت عن الحديث وأغمضت عيني. وبدا لي في منامي وكأنني كنت اسمعه يتحدث وفي أحيان أخرى يضحك وفي أحيان يبكي.

في الصباح التالي وقفنا كلانا أمام البوابة وانتظرنا مجيء الحارس كي يفتح البوابة. وحين نظرنا من خلال ثقب المفتاح إلى الفناء، الذي أضحى مضاءً الآن، رأينا الحديقة مع الغار والسرو، والبئر الرخامية في الوسط. كانت صفوف الأقبية في كل الجهات، وفي الخلف كانت هناك الكنيسة الشهيرة التي بنيت وزخرفت من قبل حرفيين ماهرين غرباء جاءوا من الشرق.

بزغت الشمس، وظهر الحارس مع مفاتيحه. كان نحيلاً ومتجهماً، حافياً وله لحية بيضاء مجعدة صغيرة، وكان يمضغ بصوت واضح طاحناً شيئاً ما بين لثتيه الخاليتين من الأسنان. حين رآنا تحولت سيماؤه إلى الفظاظة.

فتساءل بغضب: "متسولون ؟ ليس في الدير أي خبز لأمثالكم، أيها المتسكعون."

أجابه فرانسيس بلطف: "لسنا متسكعين أيها الأب ماجردومو. نحن نعمل كما تعمل أنت، نحن أيضاً نحمل مفاتيح، ونغلق ونفتح."

"تغلقون وتفتحون ماذا أيها المخادعان؟"

"الجحيم ."

"الجحيم ؟"

"أجل الجحيم: قلبينا."

زمجر الحارس مثل كلب مسعور، لكنه لم يقل شيئاً. أدخل المفتاح وأداره في القفل، سحب المزلاج وسمح لنا بالدخول. لم يكن الرهبان في صوامعهم وكانت صلاة الصبح قد بدأت وكنا نسمع صوت نشيد المزامير العذب.

إنتشر ضوء النهار الآن واقتحم حديقة الدير تماماً، واستيقظت الطيور. ثمة راهب شاب كان يسحب الماء متكئاً على البشر وكانت تقف على جانبي الكنيسة شجرتا سرو طويلتان مثل ملاكين كبيرين، ناحلتان ومستقيمتان مثل سيفين، وفي وسط الفناء،ثمة شجرة غار خصبة تسبح بالعطر.

سحب فرانسيس ورقة وقبّلها. ثم حملها عالياً بيده مثل شمعة متقدة، ودفع باب الكنيسة ودخل. كنت ظامئاً وتوقفت متلهفاً بانتظار الراهب الشاب كي يسحب الدلو وأشرب منه الماء وحين أطفأت ظمأي رسمت علامة الصليب وشكرت الله لأنه بعث لنا الظمأ والماء وخطوت مجتازا العتبة.

كان الرهبان جالسين في مقاعدهم ينشمن دون، والهواء عبق بالبخور. تلصصت النظر إلى فرانسيس وهو ساجد على الحجر المرصوف وعيناه مثبتتان بنشوة على القبو الذي فوق المذبح.

ورفعت أنا أيضاً عيني. أية معجزة تلك التي رأيتها؟ هل كانت تلك هي الفردوس؟ نظرت إلى الفسيفساء الهائل الأخضر والأبيض والذهبي والقديس ابوليناريوس في الوسط يرتدي بطرشيله الذهبي ويداه مرفوعتان في صلاة تطوقه أشجار سرو وملائكة وخراف بلون الثلج وأشجار محملة بالثمار.

يا إلهي ما هذا الخضار، ما هذا النضار والجمال؟ أي هدوء أبدي لا تشويه جلبة، أي مرج أخضر ترعى فيه الروح حتى نهاية الزمان! حتى أنا، الفلاح، كنت غير قادر على كبح جماع انفعالي. ركعت بجوار فرانسيس ورحت ابكي.

قال فرانسيس بلطف: "إهدأ، لاتبك ولا تضحك ولا تتكلم. استسلم لنفسك فحسب."

يبدو لي أننا لم نتنفس طوال ذلك اليوم. ولا أتذكر كيف خرجنا من تلك الكنيسة أو إن كان الرهبان قد أعطونا أية قطعة خبز، أو متى دخلنا المدينة. الشيء الوحيد الذي أتذكره أننا طفنا الشوارع جيئة وذهاباً ننظر إلى الناس والأبراج والقصور ولا نرى شيئاً سوى المروج الخضر. وفي الوسط قديس بصحبة خرفان بيض تركض بسعادة كي تحييه، وفي الأعلى صليب كبير فارد الذراعين يعانق الهواء.

نحو المساء توقفنا عند ساحة كبيرة، الساحة التي يحمل في وسطها تمثال المسيح حملاً على كتفيه. الحمل الضائع الذي كان يعيده إلى الحضيرة. كان الكسبة يغلقون حوانيتهم، وعاد الأولاد والبنات من مختلف المناطق المجاورة كي يتقابلوا. وكان المطر قد توقف وثمة رائحة لأناناس في الهواء الرطب. تلمس فرانسيس جرس

المنجنيق لدقيقة وكأنه أراد أن ينادي الناس ليسمعوا عن الجنون الجديد، لكنه غير رأيه في الحال. لابد أن أفكاره كانت في مكان آخر. علق الجرس بالحبل الذي يحيط خصره وجلس على الأرض وراح يراقب الناس وهم يمرون.

جثمت قربه والتفت نحوي فجأة.

"أخي ليو، لقد رأيت تلك المروج من قبل في مكان ما، المرج الأخضر حيث القديس ابوليناريوس ورعاته الملائكة وهم يرعون خرافهم. ولكن أين؟ إنني أجاهد كي أتذكر، ولكنني لا أستطيع هل كان ذلك في حلم؟"

وخيم عليه الصمت، ولكنه فجأة صفق يديه بفرح، وقال مندهشاً: "لقد وجدتها، لقد وجدتها شكراً لله! هذا القلق عن المكان والزمان كان يزعجني لساعات، لكنني الآن وجدت الجواب." وصار وجهه مشعاً على حين غرة، وامتلأت عيناه بالزمرد.

قال مسروراً: "في داخلي"!

كان الظلام يهبط، وكلما تقدم الليل نسمع الأصوات الكثيرة لرافينا بوضوح أكثر. كانت المدينة ممتدة في العتمة مثل وحش مترامي الأطراف بآلاف الرؤوس متخم، يضحك وينبح ويصهل، يغني مع آلاف الأفواه البشرية والكلبية والحصانية، مع أفواه لاعد لها متشكلة مثل العيدان والقيثارات. وما ان غمرنا الليل، بدا لي للحظة أن المسيح كان يقف في الوسط وأن ذلك لم يكن حملاً ذاك الذي يحمله ليعيده إلى الحظيرة: بل كان رافينا:

تساءل فرانسيس وهو يراني وعيناي مسمرتين على التمثال الحجري ليسوع: "بماذا تفكر؟"

"كنت أفكر يا أخي أنه لم يكن حملاً بل رافينا."

"أنها ليست رافينا يا أخي ليو. كلا ليست رافينا، إنها العالم العالم بأكمله."

* * *

إنغمسنا في الصمت مرة أخرى، ثم جاء شيخ ذو تعابير قاسية ووقف أمامنا. كان ضخماً، شفته العليا حليقة نظيفة وله لحية بيضاء طويلة ومتموجة. في الشعاع الآتي من مصابيح الحانات استطعنا رؤية وجهه الملوح بالشمس وقد لاحت فيه آثار ضربات السيوف.

جلس متصالب الساقين إلى جانبنا. كانت قد تناهت إلى سمعه كلماتنا الأخيرة.

قال: "اعذراني، لقد رأيتكما تتجولان من دون كلام، جرابكما فارغ، كأنكما متسولان وغير متسولين في الوقت نفسه. قبل لحظة سمعتكما تتكلمان وأعجبني كلامكما. كنت أتساءل ماذا تكونان، متسولين كسولين تافهين عاجزين أم قديسين؟ لا أستطيع أن أقرر رأياً بحقكما."

ضحك فرانسيس ورفع إصبعه وأشار على تمثال المسيح الذي فوقنا.

"أنظر. إننا الخراف الضائعة، وإنا نثغو ونبحث عن المسيح في كل مكان. أبونا المسيح لا يبحث عنا، بل نحن الذين نبحث عنه."

ورد العجوز ساخراً: "وجئتما كي تجداه هنا في رافينا؟"

أجاب فرانسيس: "إن ربنا العظيم في كل مكان. لكننا لن نعرف أبداً أين يتمحور كي يكشف لنا عن نفسه. ربما حتى في رافينا."

هز العجوز رأسه الأشيب وقال بصوت خفيض وهو يمشط لحيته البيضاء: "أنا أيضاً بحثت عنه مرة. ولقد وجدته بعيداً بعيداً في النهاية الأخرى من الأرض، وسط صخب الحرب ولكن كي يكشف لي عن نفسه اتخذ صورة رجل، صورة ملك عظيم."

تنهد وكأن قلبه قد انشطر إلى اثنين. مال فرانسيس ووضع يده على ركبة العجوز. قال: "أتوسل إليك يا أبت بحق المسيح الذي فوقنا ان تخبرنا كيف ومتى، ساعدنا كي نجده أيضاً."

أخفض العجوز رأسه ولم يتكلم لبعض الوقت. بإمكانك ان تشعر انه يختار كلامه بصمت ويعرف من أين يبدأ، ذلك لأنه فتح فمه لعدة مرات، ولكنه أغلقه ثانية وعاد إلى صمته.

وعاد إلى الكلام أخيراً كنت في الشرق قبل عشرين عاماً، في مدينة أورشليم المقدسة، عالم شرقي غريب من العطور والروائح النتنة. كانت ثمة أشجار نخل كالتي نراها في صور القديسين، وأشجار أخرى أكثر غرابة، ونوع من العنب ينمو بارتفاع الإنسان. النساء كن متشحات بالسواد من الرأس وحتى القدم كالأشباح، وإن ظهر ظفر إصبع من قدمها صدفة فكنت تراه مصبوغاً بالأحمر كما هو تمرهم، وكذلك نعل أقدامهن. أعرف ذلك لأننا أسرنا البعض منهن خلال الحرب وكشفنا عنهن ورأينا... بالنسبة للرجال من المستحيل ان تعرف أين ينتهي الحصان وأين يبدأ الإنسان. رأسان وستة سيقان، وروح واحدة ! والسلطان صلاح الدين ملكهم، إن كان من هو الشجاع القوي البنيان فليس إلا هو. إنه يلبس الثياب المزركشة بالذهب واللآلىء، وبإمكانه ان يقفز على جواده بينما يكون الجواد مسرعاً بأقصى طاقته. قصره مليء بالنساء والينابيع

وسيوف اليطقان ويجلس متربعاً على القبر المقدس مثنياً شاربيه ويهدد كل المسيحية."

تنهد فرانسيس.

قال: "ونحن يا إلهي عار علينا! نجلس هنا كسالى في رافينا، نجوب الشوارع ونتسول بدل أن ننهض، كي ننقذ القبر المقدس! إنهض، إنهض يا أخي! لماذا تجلس؟ إلا تريد أن تحرر نفسك؟ إذن حرر القبر المقدس"!

فاعترضت: "إن كنت تريد تحرير القبر المقدس فحرر نفسك أولاً". هز العجوز رأسه.

"هذا هو الشباب. إنه يظن أنه إن قام بذراعيه فبإمكانه أن يقهر العالم. أنا نفسي فعلت ذلك مرة. كنت قد وطدت نفسي هنا في رافينا، فلدي أطفال وحقول وخراف وحصان ابيض أحببته مثل إبني. تخليت عن كل شيء سوى الحصان الذي أخذته معي. أخذت قطعتين من القماش الأحمر، وخطتهما على ظهري كي اصنع صليباً، وانطلقت لأنقذ القبر المقدس."

توقف لدقيقة ورسم رمز الصليب بيده.

قال غير قادر على الاختيار: "من أين نبدأ ؟ كان رأسي مليئاً بالبحار والصحارى والأبراج المحصنة والفوضى، وفي مركز عقلي تقف أورشليم المقدسة. سرت وارتحلت أحياناً في قارب وأحياناً على حصاني. وواجهت عصابات من الرجال المتوحشين، رجال من كل نوع يتكلمون أي لغة يمكن تخيلها. وأخذني طريقي عبر مدينة القسطنطينية الشهيرة التي تمتد فوق منطقتين كبيرتين من أوربا وآسيا الصغرى. حين رأيتها جن عقلي. كيف يمكن مقارنتها بالأحلام؟ إن عقل الإنسان لمحدود جداً لكي يحتوي تلك المعجزة، إن

النوم لشيء فقير جداً. أين يمكنك أن تجد حلماً كهذا كي تحققه لنا؟ تجولت في المدينة أحدق بنهم في قصورها وجوامعها واحتفالاتها ونسائها. سامحني يا إلهي، لكنني نسيت القبر المقدس تماماً، وحين وصلت أورشليم كانت قد سقطت قبل وصولي بيد المسيحيين وكان ملك أورشليم...."

أمسك بلحيته وطواها عالياً مغطياً وجهه. ومضى وقت حتى وجد صوته مرة أخرى: "كان عمر الملك عشرين عاماً. وكان الناس يسمونه بالبدوي، ولكنني سرعان ما عرفت أنه لم يكن إنساناً مثلنا، بل كان شيئاً آخر تماماً. سألت نفسي، وأنا أتوسل إلى الله ان يغفر لي وقاحتي، أكان هو الذي أبحث عنه؟ حين رأيته أول مرة، ارتجفت. كان المسلمون يهاجمون مرة أخرى على خيولهم وجمالهم في محاولة لاستعادة أورشليم. فأطلق السهل خارج أورشليم، آلاف المشاة وكل الفرسان ينتظرون ظهور الملك.

"ثم آه، كيف لي أن أتذكرها من دون أن ينشق قلبي إلى نصفين؟ ثم رأيته لأول مرة، وأدركت أن روح الإنسان لها قدرة كلية، حتى أن الله، الله بكماله، يجلس في داخل الإنسان، وان ذلك غير ضروري بالنسبة لنا كي نركض نحو نهايات الأرض لنبحث عنه. كل ما علينا هو أن نحدق في قلوبنا.

كانوا يحملون الملك في مهاد من قش وكان قد تعفن وذاب حتى لم يبق منه غير النصف، فلم تكن له إصابع مطلقاً في يديه، ولم تكن لديه أصابع حتى في أقدامه. ولم يستطيع المشي. أنى له أن يمشي؟ لذلك كانوا يحملونه. كان الجذام قد أكل عينيه أيضاً وجعله أعمى. حدث أنني كنت بالقرب منه. فملت إلى الأمام كي أراه، ولكن كان عليّ أن أكمم أنفي فالرائحة لا تطلق.

لم يكن الملك إلا كومة لحم فاسد، ولكن في داخل هذا اللحم الفاسد ثمة روح تقف شامخة وخالدة. كيف حدث أن الله لم يجده مقززاً ودعاه ليتوج وهو بهذه العفونة؟ السلطان المرعب يحاصر القلعة المنيعة لـ (الكرك) في صحراء مؤاب، خلف البحر الميت. سار الملك في القيادة عبر الصحراء وسط الحرارة اللاهبة وتبعناه لاهثين. واندلعت من مهاد القش قوة لهب كبيرة، وطقطق الهواء مثل شجرة صنوبر التهمتها النيران."

صمت العجوز، غير راغب أو ربما غير قادر على أن يتكلم أكثر. وضعت راحتي على ركبة المحارب القديم ورجوته أن يكمل، لكنه وضع يده على حنجرته. من الواضح انه كان يخمد النشيج الذي كان يرتفع من هناك.

قال أخيراً: "حين أتذكر ذلك المنظر فإن قلبي يغلي وتشتعل النيران في عقلي. لن أرى في حياتي أبداً سر الله بهذا الوضوح وبهذا الشكل الملموس. كنت هناك حين مات الملك وعمره أربعة وعشرون عاماً، كنت هناك في القصر الكبير حين فارق الحياة، تقف عند رأسه أمه البشعة المعتوهة وأخته سلسل العقيمة، الجميلة المنغمسة في ملذات الجسد. وبقية الغرف كانت ممتلئة بمتعطشي الدماء من النبلاء والبارونات والكونتات والمركيزات. كلهم ينتظرون لاهثين أن يلفظ الملك أنفاسه الأخيرة كي ينطلقوا مثل الكلاب المسعورة الجائعة على مملكة أورشليم ويمزقونها إرباً، كل واحد منهم يأخذ منها قطعة في أسنانه. وخلال ذلك كان الملك ذو الأربعة والعشرين عاماً، ذلك النموذج للّطف النبيل، كان ساكناً ويسلم روحه إلى الله بصمت، وثمة تاج من الأشواك فوق رأسه المتعفن."

عض المحارب القديم شاربه، وجرت دموع كبيرة على خديه الملوحين بالشمس. حنى فرانسيس رأسه على ركبته وفجأة انفجر في نواح وسط الظلام.

ويغضب مسح العجوز دموعه خجلاً من البكاء. ثم دفع يديه إزاء الأرض ليتكىء عليها. نهض وكانت عظامه المسنة تطقطق واختفى من دون أن يلوح لنا بيده مودعاً ومن دون ان ينطق بكلمه.

واستمر فرانسيس نائماً.

قال أخيراً رافعاً رأسه: "هذه هي الروح كما نراها على حقيقتها. والله على حقيقته وما الذي يمكن أن يعنيه للإنسان. منذ الآن سيقودنا هذا المجذوم ويرينا طريقنا. إنهض ودعنا نذهب"!

"أين بحق الله؟"

"لنعد إلى صقلية. هناك سوف نحشد قوانا كي نستطيع القفز. هيا أيها المتقاعس عن الله، قم"!

"الآن في منتصف الليل؟"

"الآن. هل تعتقد ان الرب يمكنه الإنتظار حتى الصباح؟"

* * *

كان المجذوم الملكي قد قادنا في رحلة العودة بأكملها، بينما أمطرت السماء وأمطرت، وفاضت الأنهار والشوارع وغطسنا في الطين حتى الركب. شعرنا بالبرد وكنا جائعين. في أغلب القرى التي كنا نمر بها كنا نجد أنفسنا نستقبل بقذائف الحجارة فنبتعد. وحين صاح فرانسيس "الحب! الحب! الحب!" كان الناس يطلقون كلابهم علينا فتعضنا.

كان فرانسيس يقول كي يريحني. "ما هذا العبث الذي نقاسيه بحق المسيح؟ لعلك تذكر الملك المجذوم"!

في أحدى الليالي كنا مبتلّين حتى العظم وكدنا نسقط من الجوع والبرد ورأينا أضواء دير عن بعد فركضنا نحوه. ربما يعطف علينا الرهبان ويدخلوننا، يمنحوننا بعض الخبز لنأكل ويقربوننا من النار المبجلة فنتدفأ. كان الظلام دامساً والمطر غزيراً. فهرعنا، سقطنا في الحفر، نهضنا، رحنا نركض مرة أخرى. لعنت المطر والعتمة والبرد، لكن فرانسيس الذي كان أمامي كان يؤلف الأغاني في رأسه ويغنيها.

يغني. أية أعاجيب هنا! انظر! أجنحة في الوحل، الرب في الهواء! حالماً تفكر فيك اليرقانات أيها الرب، فإنها تتحول إلى فراشات"!

وتوقف فجأة وانتظرني كي ألحق به. كنت قد وقعت في خندق مرة أخرى ورحت أجرجر نفسي واطلع.

قال لي: "لقد انتهيت للتو من تأليف أغنية قصيرة يا أخي ليو. هل تريد سماعها؟"

فأجبته ساخطاً: " أهذا وقت الأغاني؟"

"إن لم تؤلف الأغاني الآن فمتى تفعل؟ إسمع أول حيوان ظهر عند بوابة الفردوس كان البزاقة. انحنى بيتر إلى الأمام، ربت عليه بعصاه وسأله: "عن أي شيء تبحث هنا يابزاقي الصغير اللطيف؟"

فأجابه البزاقة: "الخلود."

فانفجر بيتر ضاحكاً: "الخلود، وماذا تفعل بالخلود؟"

فرد البزاقة: "لا تضحك، ألم أكن من مخلوقات الله؟ ألست ابن الله تماماً مثل جبرائيل كبير الملائكة؟ ها أنا البزاقة أحد كبار الملائكة أيضاً"!.

"أين أجنحتك الذهبية إذن وأين سيفك المعقوف وخفّاك القرمزيان اللذان يدلان على رموزك الملائكية؟"

"في داخلي، نائمة وتنتظر."

"تنتظر ماذا ؟"

"اللحظة العظيمة."

"أية لحظة عظيمة"؟

ودخل الجنة...

سألني فرانسيس ضاحكاً: "ألا تفهم؟ نحن يا أخي ليو البزاقتان. في داخلنا الأجنحة والسيوف المعقوفة، وإن رغبنا دخول الفردوس لابد لنا ان نقفز.... من أجل خلاص روحك، إتبع الرياضي واقفز"!

وامسكني من يدي وركضنا. حتى توقف بعد دقائق لاهثاً.

"أخي ليو، إستمع جيداً لما سأقوله لك. إثقب أذنيك. هل أنت مصغ؟... لدي شعور بأنك لا تحب الحياة التي نعيشها جيداً. إنها تبدو خانقة لك ويأكلك القلق."

"كلا يا أخي فرانسيس أنا لا يأكلني القلق. ولكننا بشر لقد نسيت أنت هذه الحقيقة أما أنا فلم أنسها. هذا هو الأمر ببساطة."

"هل تعرف ما هو الفرح المطلق يا أخي ليو؟"

لم أجبه. فقد كنت أعرف ماهو الفرح المطلق. وهو أن نصل هذا الدير، وأن يشفق علينا الحارس ويفتح البوابة، وهو أيضاً النار الكبيرة التي تشعل لنا في الموقد، وهو كذلك الإناء الذي يوضع على النار وأكوام الطعام الساخن المعدة لنا، وهو فضلاً عن ذلك أن يذهب الرهبان إلى السرداب ويجلبوا لنا إبريقاً كبيراً من النبيذ المعتق كي نشربه، هذا هو الفرح المطلق! ولكن كيف لي أن أقول

أشـياء معقولـة كهـذه؟ إن حـب الله جعلـه يقلـب الأمـور بـالعكس. فبالنسبة لـه أخـذ الجـوع مكـان الخبـز وأخـذ العطـش مكـان المـاء والنبيـذ فكيـف لـه أن يفهـم أولئـك الـذين كـانوا جياعـاً وظمـأى؟... فأمسكت لساني.

"حتى لو كنا من أكثر النـاس قدسية على الأرض وأحب النـاس إلى الله تذكر جيداً يا أخي ليو، ما سأقوله لك: فإن ذلك ليس هـو الفرح المطلق."

مشينا أبعد قليلاً. ثم توقف فرانسيس مرة أخرى.

ناداني صائحاً لأنه لم يستطع تمييزي بسبب الظلام: "أخي ليو، يا أخي ليو حتى لـو أننـا منحنـا البصر للأعمى، وطردنـا الشياطين مـن النـاس ونشرنا الموتى من قبورهم، تذكر جيداً ما قلتـه لك: فإن ذلـك لن يكون هو الفرح المطلق."

لم أتكلم. فكيـف لـك أن تنـاقش قديسـاً؟ يمكنـك أن تنـاقش شيطاناً أما القديس فلا. لذلك لم أتكلم.

تقدمنا متعثرين فوق الصخور والغصون التي أسقطها المطر على الطريق. وتوقف فرانسيس مرة أخرى.

"أخي ليو حتى لو تكلمنا كل اللغات البشرية والملائكية، وحتى لو وعظنا بكلمة الرب، لو هدينا كل الملحدين إلى الأيمان بالمسيح، تذكر جيداً يا أخي ليو ما أقوله لك: فإن ذلك ليس هو الفرح المطلق."

كان صبري قد نفد. كنت جائعاً وأشعر بالبرد وكانت قدماي تؤلمانني ولا أستطيع الحركة. فسألته بامتعاض: "حسن، ما هو الفرح المطلق؟"

فأجـابني: "لا أدري". وجثمت أنـا عنـد الزاويـة الـتي بقـرب البوابـة.

إنني خجل من أن أقول ذلك، ولكن مادام الاعتراف بالذنب يزيله فأنا أعترف أنني كنت العن القدر الذي شدني إلى دابة الرب، الوحش المرعب هذا الفرانسيس. فرغم أنه لا يدري، فهو يشبه ذلك الملك المجذوم من أورشليم. كومة لحم وعظام، وكان يجلس في داخله الرب بعظمته. ولهذا كان يتحمل الجوع والعطش والبرد، ويتحمل الأحجار التي كان الناس يقذفونه بها وكأنها كانت نثاراً من أزهار الليمون. أما أنا فكنت بشراً، رجلاً عاقلاً وتعساً. كنت أشعر بالجوع، وكانت الأحجار بالنسبة لي أحجارا.

فتح باب داخلي. وتردد صدى خطوات ثقيلة في الفناء. إنه الحارس قلت لنفسي. إنه يشفق علينا. شكراً لله!

أجاب فرانسيس بصوت رقيق عذب: "افتح البوابة يا أخي الحارس. نحن اثنان من عبيد الله البسطاء يشعران بالجوع والبرد، نبحث عن مأوى كي نقضي الليل في هذا الدير المقدس".

وجاءه الصوت: " اذهبا إلى أعمالكما. أنتما، يا عبيد الله. وماذا تفعلان تتجولان في الشوارع في مثل هذه الساعة؟ أنتما قاطعا طريق تسلبان الناس وتقتلانهم وتشعلان النار في الدير. اذهبا من هنا"!

فصرخت: "أليس لديك رحمة يا أخي الحارس؟ هل ستدعنا نموت من البرد؟ إن كنت تؤمن بالمسيح، افتح البوابة. اسمح لنا بزاوية حيث بإمكاننا أن نتقي المطر، امنحنا كسرة خبز. إننا مسيحيان! إشفق علينا"!

وسمعنا صوت العصا وهي تضرب بلاط الفناء.

وزأر الصوت الشديد: "والآن ها أنتما تطلبان ذلك بلسانيكما أيها التعسان! أنا آت كي أجلدكما. "تحمّل العصا مثل رجل يا أخي ليو. لا تقاوم."

فُتح الباب وانهل علينا راهب ضخم يحمل هراوة غليظة وأمسك بفرانسيس من رقبته.

وصاح به: "أيها الشرير، القاتل، المجرم جئت لتسطو على الدير، أليس كذلك؟ خذ هذا! وهذا!"!

وسحقت الهراوة جسد فرانسيس الواهن العليل.

إندفعت إلى الأمام لأنقذه، لكن فرانسيس مد يده.

"لا تعارض مشيئة الله يا أخي ليو!... اضرب يا أخي الحارس فأنت خلاصي."

والتفت الحارس إليّ بضحكة ساخرة وأمسك بي من نهاية رقبتي.

"جاء دورك أيها المتشرد"!

رفعت عصاي كي أستعد للتلويح بها لكن فرانسيس وبنظرة يائسة صاح: "أخي ليو، أتوسل إليك بالمسيح أن لا تقاوم"!

"أخي ليو، أخي ليو، إن كنت تحبني فلا تقاوم. دع أخانا الحارس يقوم بواجبه. لقد أمره الله أن يجلدنا، لذا، لابد لنا أن نجلد." فرميت عصاي على الأرض وشبكت يدي على صدري.

وقلت وشفتاي ترتعشان من الغضب: "اضرب أيها الأخ الحارس. اضرب وليتكفل بك غضب الله."

ضحك الحارس من كلماتنا. كانت رائحة النبيذ والثوم تفوح منه. وبدأ يسحقني بهراوته وأنا أسمع عظامي تطقطق. وكان فرانسيس الذي كان جالساً على الأرض في الطين يكلمني كي يمنحني الشجاعة."

"لاتصرخ يا أخي ليو، لا تلعن، لا ترفع يدك دفاعاً وفكر بالمجذوم الملكي، فكر بالمسيح عندما كان يصلب. حصّن قلبك."

أنهى الحارس واجبه. وأعطى لكل منا ركلة أخيرة، ثم أغلق الباب ووضع الرتاج.

جثمت عند الزاوية أكاد أموت من الألم. كنت ألعن مع نفسي، لكنني لم أجرؤ على فتح فمي. سحب فرانسيس نفسه إلي حيث سقطتُ وأمسك يدي برفق وربت على كتفيّ المتألمتين واستكان في الزاوية معي وعانقنا بعضنا كي نتدفأ.

همس في إذني وكأنه كان لا يريد أن يسمعه أحد: " هذا هو يا أخي ليو، هذا هو الفرح المطلق."

الآن لقد بالغ بالأمر كثيراً! "الفرح المطلق!" صرخت مهتاجاً. "عفواً يا أخي فرانسيس بالنسبة لي إن هذا أكثر ما يشبه الصفاقة المطلقة. إن قلب الإنسان يكون صفيقاً عندما لا يتقبل شيئاً سوى الشيء البغيض. يقول الرب :"لقد جلبت لك الطعام لتأكل والنبيذ لتشرب والنار لتتدفأ". ويجيبه قلب الإنسان بأشد الصفاقة: "عفواً، لا أريدها!"... عندما يكون عليه أن يقول نعم، المدعي الأبله"!

"حالما يفتح الرب ذراعيه يا أخي ليو، ويقول له تعال، يصرخ القلب: "كلا! كلا! كلا! لا أريد المسرات الصغيرة التافهة. لماذا برأيك يفعل هكذا؟ كي ينقذ نفسه ليصل إلى ال "نعم" العظيمة."

"ألا يمكنها أن تصل إلى هناك من خلال طريق آخر؟"

"كلا. إن الـ "نعم " العظيمة تتشكل فحسب بوساطة هذه اللاءات الكثيرة.

"في هذه الحال لماذا خلق الله الأرض غنية بكل شيء؟ لماذا وضع أمامنا مأدبة كبيرة كهذة؟"

"من أجل أن يختبر قوة احتمالنا يا أخي ليو."

"ما الفائدة من المناقشة معك يا أخي فرانسيس؟ ... دعني أنم. إن النوم أرحم من الرب ربما أحلم بأرغفة الخبز."

تكومت في هيئة كرة، أغمضت عيني، وسرعان ما غلبني النوم، باركه الله، وطواني.

في الصباح التالي وعند الفجر راح شخص ما يوقظني. لقد كان ذلك هو فرانسيس، فاستيقظت.

"إسمع إنه آت ؟"

وجاء من داخل الفناء صوت الحارس القادم، والمفاتيح ترن في حزامه. وفتح الباب.

تمتمت: "شكراً لله، لقد انتهت مشاكلنا." كنت قد لممت ساقي كي أستعد لعبور العتبة. التفت فرانسيس ونظر إلي بهاتين العينين المتلألئتين المليئتين بالألق القدسي.

سألني: "هل سندخل؟ ماذا تظن، يا أسد الله الصغير، هل سندخل؟"

وفهمت. كان يريد مشاكستي، لأنني كنت جائعاً وغير قادر على مقاومة نداء معدتي. لقد أخذت العزة أفضل ما في جوعي.

أجبت: "كلا، دعنا لا ندخل. أنا لن أدخل!" وأشحت بوجهي عنه.

رمى فرانسيس نفسه بين ذراعي. "حسناً فعلت يا اخي ليو. هكذا أريدك: شجاع حقاً"!

التفت نحو الدير. "وداعاً أيها الدير البخيل المقدس. لم يعد الأخ ليو بحاجة إليك، إنه لن يدخل"!

رسمنا رمز الصليب، وانطلقنا مرة أخرى في رحلتنا. كان فرانسيس سعيداً ويكاد يطير.

* * *

بزغت الشمس وتوقف المطر. كانت الأشجار والصخور تضحك والعالم يتلألأ بعد أن غسل من جديد. نفض طائران أسودان جناحيهما المبللين ونظرا نحونا وكأنهما يوبخاننا. لكن فرانسيس لوح لهما بيده وحياهما.

قال: "هذان هما راهبا مملكة الطيور. انظر كيف يرتديان"!

ضحكت. "أنت محق يا أخي. لقد رأيت في الدير القريبة من بيروجيا طائراً أسود يتدرب على إنشاد صلاة "الكرياليسون" ! إنه راهب حقيقي."

تنهد فرانسيس: "آه لو يستطيع الإنسان أن يعلم الطيور والثيران والخراف والكلاب والذئاب والخنازير البرية أن تقول فقط " كرياليسون، يارب ارحمنا"! آه لو كانت الخليقة كلها تستيقظ بهذه الطريقة كل صباح، من أعماق الغابة، من كل شجرة وكل اسطبل، من كل فناء تسمع كل الحيوانات تحمد الرب وتصدح" كرياليسون، يارب ارحمنا"!

قلت: "دعنا أولاً نعلم الناس هاتين الكلمتين. لا أرى سبباً يدعونا لتعليم الطيور والحيوانات. فهي لم تذنب."

حدق فرانسيس بي بعينين جاحظتين. "نعم، إن ما تقوله صحيح يا أخي ليو. فمن بين كل المخلوقات يبقى الإنسان هو المذنب الوحيد."

"أجل، ولكن من الناحية الأخرى يا أخي فالإنسان هو الوحيد الذي بإمكانه أن يتجاوز طبيعته ويدخل الفردوس. بينما لا تستطيع الحيوانات أن تفعل ذلك"!

احتج فرانسيس "لا تكن متيقناً إلى هذه الدرجة. لا أحد يعرف مدى رحمة الله."

بهذه الطريقة ونحن نتحدث عن الله والطيور والإنسان، وصلنا في إحدى الصباحات إلى خارج صقلية الحبيبة. كانت أبراجها وأجراسها وبساتين الزيتون وأشجار السرو تملأ عيوننا بالبركة. ملأت الدموع عيون فرانسيس. قال: "لقد جبلت من هذه التربة. أنا حَمَل طيني جُبل من هذه التربة."

إنحنى وملأ كفه ببعض التراب وقبله.

"أنا مدين بحفنة تراب إلى صقلية، ولسوف أعيدها لها. ولا يهمني أين سأموت يا أخي ليو أريدك أن تأتي بي إلى هنا لتدفنني.

كنا قد دلفنا في زقاق ضيق. كان اليوم هو أحد، وكانت الأبراج تدق في نهاية الصلاة.وما كاد فرانسيس ينهي ما يقوله حتى توقف فجأة واتكأ على الجدار ليستند إليه، متنفساً بصعوبة، وكأنه كان يختنق. كنت أركض خلفه، وعليّ حين غرة انقطع نفسي أيضاً. وقفت أمامنا ابنة الكونت سيفي. كانت ترتدي ثوباً أبيض ناصعاً كله عدا وردة حمراء على صدرها. كانت شاحبة جداً وحزينة وثمة حلقات معتمة حول عينيها. فخلال كل ذلك الوقت منذ أن رأيناها في كنيسة سان داميانو يبدو أنها لم تنم وبقيت تبكي لقد أضحت الفتاة الصغيرة امرأة على عجل!

كانت المربية الجليلة العجوز في إثرها. وحين رأت سيدتها تتوقف، توقفت هي أيضاً وانتظرت. كان الصباح قد سبح في ضوء الشمس وكانتا قد اتخذتا أطول طريق يمكن أن يعيدهما من الكنيسة لتصلا البيت متأخرتين على قدر ما تستطيعان فتقللان بذلك فترة حبسهما فيه.

حالما رأت كلارا فرانسيس خارت قواها وأرادت العودة، من

حيث أتت، لكنها شعرت بالخجل. وأجبرت نفسها على أن تكون جريئة، فرفعت عينيها وحدقت مباشرة في عينيه بنظرة قاسية وحزينة. ثم خطت نحوه وبحلقت في أسماله وقدميه العاريتين المدميتين، ووجهه المتضور جوعاً. فهزت رأسها في احتقار.

وسألته بصوت قوي ويائس: " ألا تشعر بالخجل؟"

"الخجل؟ ممن؟"

"من أبيك، من أمك، مني. لماذا تذهب إلى هذه الأماكن؟ لماذا تصيح هكذا؟ لماذا ترقص وسط الشارع مثل بهلوان الاحتفالات؟"

أصغى فرانسيس إليها مطرق الرأس، وانحنى نصف راكع. لم يتكلم. ومالت إليه كلارا، كانت عيناها مغرورقتين بالدموع.

قالت بحماس متوهج : "إنني أشعر بالأسف عليك. يكاد قلبي ينفطر حين أفكر فيك."

"وأنا أيضاً..." قال لها فرانسيس، ولكن برقة لم يسمعها أحد سواي لأنني كنت أسنده كي لا يسقط.

وسألته منتفخة الصدر: "فرانسيس ... أنت تفكر فيّ أيضاً؟"

رفع فرانسيس رأسه وصرخ : "أبداً ومد ذراعه وكأنه كان يريد أن يزيحها عن طريقه.

فأطلقت الفتاة صرخة حادة. وهرعت إليها المربية، لكن كلارا دفعت العجوز جانباً. عيناها كانتا مشعتين. رفعت يدها وقالت بصوت حاد:

"ملعون كل من يتصرف على العكس من مشيئة الرب، ملعون كل من يعظ بأننا يجب أن لا نتزوج، ولا يكون لنا أطفال ونبني بيتاً، ملعون من يعظ بأن الرجال يجب أن لا يكونوا حقيقيين،

ويحبون الحرب والنبيذ والنساء والمجد، وان النساء يجب أن لا يكن حقيقيات ويعشقن الحب والملابس الجميلة وكل متع الحياة... سامحني إن قلت لك هذا أيها المسكين فرانسيس، فهذا هو ما يعني أن تكون إنساناً حقيقياً."

نعم، نعم، هذا هو ما يعني أن تكون إنسان حقيقياً، يا أخي فرانسيس المسكين، واعذرني في قول هذا، كنت أكرر لنفسي متأثراً بالكلمات المدهشة التي قالتها الفتاة بضراوتها وجمالها.

اقتربت المربية ووضعت ذراعها حول خصر سيدتها.

قالت: "تعالي يا طفلتي. سوف يراك الناس."

وضعت الفتاة رأسها على صدر المرأة العجوز وانفجرت باكية. يعلم الله كم من الشهور كانت هذه الكلمات تدور في قلبها وتتوق لرؤية فرانسيس لتقولها من أجل أن تريح نفسها. والآن، ها قد تكلمت أخيراً ولم تسترح أبداً، قلبها كان ينبض وعلى وشك أن ينفجر.

أخذتها المربية بهدوء وبرفق، ولكن في اللحظة التي كانتا فيها تنعطفان في الزقاق التاليّ توقفت كلارا. فتحت الوردة الحمراء من صدرها واستدارت ورأت فرانسيس مازال منحنياً على الأرض ورمتها إليه.

قالت: "خذها. خذها أيها المسكين التعس فرانسيس، خذها تذكاراً مني تذكاراً من هذا العالم"!

وقعت الوردة عند قدمي فرانسيس.

قالت الفتاة لمربيتها: "تعالي. كل شيء انتهى الآن"!

بقي فرانسيس من دون حراك، عيناه مثبتتان على الطريق. رفع رأسه تدريجياً ونظر حوله مرعوباً ثم ضغط على يدي.

سألني بلطف: "هل ذهبت؟"

أجبته: "لقد ذهبت." والتقطت الوردة.

قال فرانسيس مرعوباً: "لا تلمسها ! ضعها على حافة الطريق كي لا يدوسها أحد. تعال ولا تنظر خلفك"!

"إلى أين؟ إلى صقلية أيضاً! لقد كانت هذه المقابلة فألاً سيئاً يا أخي فرانسيس دعنا نرحل."

فقال وبدأ يركض: "إلى صقلية! خذ الجرس ودقه ! يا إلهي، أن أتزوج ويكون لي أطفال وأبني بيتاً إنني أبصق على هذه الأشياء"!

"واحسرتاه على ذلك اليوم يا أخي فرانسيس ولكنني أؤمن . سامحني يا إلهي على هذا التفكير. إنني متيقن أن الفتاة كانت على حق: إن الإنسان الحقيقي......"

"إن الإنسان الحقيقي هو الذي يتجاوز ما هو بشري هذا ما أقوله! أتوسل إليك يا أخي ليو أن تسكت"!

فأمسكت لساني. ماذا بإمكاني أن أجيبه؟ كلما طالت صحبتي لفرانسيس كلما أحسست بوضوح ان ثمة طريقين يقودان إلى الله: الطريق المستقيم المتوازن، والذي هو طريق الإنسان حيث بأمكانك أن تصل إلى الله متزوجاً ولديك أطفال، حليق الذقن مشبعاً بالطعام ومنتفخاً بالنبيذ، وهنالك الطريق العسير، طريق القديسين، حيث تصل الرب رث الثياب، كومة من الشعر والعظام، تفوح منك رائحة القذارة والبخور. وكان يناسبني الطريق الأول، ولكن من ذا الذي يتعب نفسه ويسألني يوماً ما يناسبني! لذلك اتخذت الطريق العسير وليت الله يمنحني القوة كي أتحمله!

وصلنا مركز المدينة. سرت أمام فرانسيس وقرعت الجرس

صارخاً: "تعالوا جميعاً لتسمعوا الجنون الجديد. توقف الناس الذين في الشارع. الآن سوف يلتقطون الأحجار ويبدأون بقذفنا. قلت لنفسي، سيظهر الأطفال الآن من كل زقاق ويبدأون برجمنا بكل قواهم... ولكن لم يحدث شيء. صمت. بت مرعوباً. أهكذا سوف يستقبلوننا منذ الآن من دون أن يوبخوننا ويهزأوا منا؟

لم يرفع أحد يداً لإيقافنا. واستمرينا. كان بيرنارمن دون يقف خارج دكانه. كتفاه قد انحنتا الآن، وبات جلده أصفر. حين رآه فرانسيس اعتراه الخوف لدقيقة ثم تحول كي يغير خطوه ليعثر على سكة أخرى.

قلت له بلطف: "تشجع يا أخي فرانسيس" وأخذت بيده. "هذا هو المكان الذي سوف ترينا فيه كم أنت شجاع."

التفت بيرنارمن دون وشاهدنا. وسرت رعشة في جسده أولاً، لكنه أسرع إلى الدخول بعد ذلك، وتناول عصاه وهبط نحونا يجأر. خطا فرانسيس إلى الأمام ونبهني.

هاهو أبي السيد بيرنارمن دون. إنه يمنحني بركاته، وأنت تمنحني لعنتك. إنه والدي"!

وأخذ يده وقبلها.

إغرورقت عينا بيرنارمن دون بالدموع التي مسحها بحافة كمه العريض. وتوقف عدد غير قليل من المارة وراحوا يتفرجون بكراهية على التاجر الغني وابنه الصعلوك. كان الأب سلفستر راعي الأبرشية في سان نيكولو مارا أيضاً. وأوشك أن يحاول التدخل في إعادة الوفاق بين الأب والإبن لكنه غير رأيه فجأة. وتمتم: "دعهما يقرران شؤونهما بنفسيهما." وسار في طريقه نحو كنيسته.

أحنى بيرنارمن دون رأسه من دون أن يتفوه بكلمة. لكن وجهه أصبح متغضناً فجأة. وشعر أن ركبتيه لا تحملانه، فاتكأ على عكازته وراح ينظر إلى ابنه لبعض الوقت من دون أن يتكلم أيضاً. وتساءل أخيراً وصوته مليء بالمرارة: "ألا تشفق على أمك؟"

وصار وجه فرانسيس شاحباً. فتح فمه ليجيبه، لكن فكه بدأ يرتجف.

سأله بيرنارمن دون ثانية: "ألا تشفق على أمك؟ إنها تبكي ليلاً ونهاراً. تعال على البيت دعها تراك."

وتمكن فرانسيس من أن يجيبه: "لابد لي أن أسأل الله."

"أي نوع من الآلهة هذا الذي يمنعك من رؤية أمك؟" قال بيرنارمن دون ذلك وهو ينظر إلى ابنه بتوسل.

أجاب فرانسيس: "لا أدري. دعني أسأله."

وانطلق باتجاه المنطقة العالية من المدينة نحو الحصن. نظرت خلفي لدقيقة ورأيت بيرنارمن دون لايزال واقفاً في وسط الشارع. بدا وكأنه تحول إلى حجر. كان يضغط على حنجرته بيده اليسرى، وكأنه يحاول ان يكبح جماح لعناته أو دموعه من ان تصب.

حقاً، أي نوع من الآلهة كان ذلك؟ سألت نفسي متذكراً أمي المسكينة سيئة الطالع مذ أن ماتت منذ زمن طويل. أي نوع من الآلهة كان قادراً على أن يفصل ولداً عن أمه؟

حدقت في فرانسيس الذي كان أمامي يخطو مسرعاً فوق التل. كان قد وصل قبلي إلى الحصن. وشعرت أن داخل جسده الواهن نصف الميت تختفي قوة لا إنسانية ولا رحمة لديها. لا تهتم بالأب ولا بالأم، لا بل ربما تستريح بالافتراق عنهما. أي نوع من الآلهة هذا حقاً!

أنا لا افهم! آه لو كان من الممكن لي فقط أن أتحول نحو زقاق ينحرف بعيداً وأهرب! آه لو كنت أستطيع الدخول في حانة، أجلس عند طاولة واصفق يدي وأقول: أيها النادل، اجلب لي خبزاً ونبيذاً ولحما. فأنا أتضور جوعاً! على نحو مريع! لقد مللت الجوع! وإن كان فرانسيس ابن بيرنارمن دون يأتي ويسألك إن كنت قد رأيت الأخ ليو فأخبره أنك لم تره.

كان فرانسيس يعرف كهفاً عميقاً في سفح الجبل. واعتكف عناك.

قال لي يودعني: " أخي ليو لابد لي أن أبقى هنا وحدي لثلاثة ايام. وداعاً. لدي أشياء كثيرة أريد أن أسأل الله فيها، ولابد لنا من أن نكون وحيدين. وداعاً. سوف نلتقي بعد يومين.

وبينما كان يتكلم كان جسده ينحف وينحف، فقد ذاب وبات متحداً مع ضوء الكهف الشحيح حتى تلاشى فيه، هواء في هواء. وركع في المداخل رافعاً يديه نحو السماء ونطق صرخة تشق القلب، كان يبدو أنه يستدعي الله كي يحضر. وقفت ساكناً لبعض الوقت أنظر إليه وأودعه بصمت. من يدري فيما إذا كان سيخرج من هذه الصلاة حياً! لدي شعور مبكر أن الجهاد القادم سيكون رهيباً، وان حياة فرانسيس في خطر.

رحت أتسول في شوارع صقلية لثلاثة أيام. في كل مساء كنت أجلب ما يمكن أن يمنحني إياه المحسنون المسيحيون واضعه على صخرة خارج الكهف. ثم أخرج كي لا يراني فرانسيس وتسقط تأملاته إلى الأرض. لكنني في اليوم التالي كنت دائماً أجد الطعام لا يزال في مكانه على الحجر لم يمسه أحد.

في أحد الأيام، مررت بمنزل بيرنارمن دون ورآتني السيدة بيكا من النافذة، فنزلت السلالم وأدخلتني. كانت تريد أن تكلمني وأن تسألني، لكن الدموع غلبتها، ولم تستطع سوى أن تحملق بي بصمت.

لكم تغيرت وشاخت! وذبل خداها الورديان، وتعمقت الغضون التي حول فمها، وباتت عيونها حمراء.

تمكنت أن تقول بعد أن مسحت دموعها بمنديلها الصغير: " أين هو؟ وماذا يفعل؟"

"إنه في الكهف يا سيدة بيكا يصلي"

"ألا يمكن أن يسمح له الرب أن يأتي إلي وأراه؟"

"لا ادري يا سيدتي. إنه يصلي ويطلب منه ذلك لكنه لم يحصل على جواب حتى الآن."

"خذ مقعداً واجلس. أخبرني بكل شيء. إن ألم الأم لكبير. سامحني يا إلهي بقدر حجم الرب نفسه. أشفق عليّ وكلمني عنه".

وحكيت لها كل شيء، بدئاً من اليوم الذي عرى ولدها فيه نفسه أمام المطران والمواجهة مع المجذوم الذي كان هو المسيح نفسه، ثم رافينا، حيث المحارب القديم وبعد ذلك الدير الذي جلمن دونا فيه وأخيراً كلارا ابنة الرجل النبيل وحزنها.

إستمعت السيدة بيكا وجرت الدموع على خديها وعلى ياقتها البيضاء. وحالما انتهيت، قامت وذهبت نحو النافذة وشهقت بعمق. كان ثمة سؤال مرعب على حافة لسانها، لكنها لم تجرؤ على النطق به. وفهمت ذلك وتأسفت لحاها.

قلت مخمناً سؤالها: "سيدتي، إن ولدك يرتقي السلالم، واحداً

بعد الآخر، هذا شيء مؤكد، بخطوات ثابتة. إنه يصعد نحو الرب. ربما هنالك بركان يغلي في داخله ويسبب هذا الخراب في عالم الجسد، لكن عقله أقسم لك، يا سيدة بيكا، بالروح التي سوف أسلمها للرب، إن عقله سيبقى سليماً ولا يهتز."

حين سمعت السيدة بيكا تلك الكلمات رفعت رأسها بحيوية. وبدأت عيناها الباهتتان تبرقان مرة أخرى. وعادت شابة مرة أخرى.

تمتمت "شكراً لله" ورسمت رمز الصليب. "لا أريد مكافأة أكثر من ذلك يا إلهي." ونادت المربية.

"خذي جرابه واملئيه".

ثم التفتت إلي ثانية وتساءلت: " هل تشعر بالبرد؟ ماذا لو أعطيتك بعض الملابس الصوفية؟"

أجبت: " كلا يا سيدتي."

"كلا إنه يرتدي الرب تحت جلده كما يقول. وهذا ما يجعله دافئاً."

"وماذا عنك؟ ألا تشعر بالبرد؟ دعني أُعطيك شيئاً لتتدفأ به"

"أجل، إنني خجل بأن اعترف يا سيدتي، فأنا أشعر بالبرد. وأنا خجل أيضاً، على أية حال، في أن أرتدي الملابس التي تمنحينها لي."

"مم تخجل ؟"

"كيف لي ان أعرف يا سيدتي؟ ربما من فرانسيس، أو ربما من نفسي، وربما أيضاً من الرب. واحسرتاه، فالطريق الذي اتخذته لا يسمح لي بأية رفاهية."

تنهدت. آه، كم كنت أحب لو أن لي ملابس داخلية دافئة وجوارب صوفية سميكة ونعلين جيدين كي تندمل جروح قدمي

ومعطفاً ثقيلاً فيه أقل ما يمكن من الثقوب!

جاءت المربية بالجراب مملوءاً حتى القمة.

قالت السيدة بيكا وهي تقوم: "اذهب الآن وليكن الله معك. وأخبر ولدي برغبتي في أن ينجح في مسعاه الذي حاولت تحقيقه مرة ولم أفلح وأخبره أنني امنحه بركاتي"!

إنتهت الأيام الثلاثة. في اليوم الثالث تسلقت إلى الكهف منذ الصباح الباكر ووقفت في الخارج بانتظاره. شكراً لقلب السيدة بيكا وخزانتها، فجرابي مليء بالطعام الشهي. شعرت بالفرح، لكنني في الوقت نفسه كنت أرتعد من فكرة رؤية فرانسيس، فإن تحدث الرب العظيم لثلاثة أيام يعني أن تعرض نفسك للخطر المحدق. فقد يقذفك الرب في الهوة السحيقة التي لا يستطيع إلا هو الخلاص منها، أما الإنسان فلا. من يستطيع أن يخمن في أية هوة يمكن أن ترمي محادثة الأيام الثلاثة هذه رجلاً مثلي ! تشجعي يا روحي! كررت لنفسي. سوف أتشبث برداء فرانسيس. بعدها لا يهمني إن سقطت...

وبينما كنت أفكر ملياً بكل هذا في عقلي وبدني يرتجف، ظهر فرانسيس فجأة من الكهف. كان مشعاً مثل جمرة تتلألأ. كانت الصلاة قد أكلت لحمه مرة أخرى. ولكن ما بقي منه كان يلمع مثل روح نقية. مد يده لي. ثمة تعبير غريب للجذل يرتسم على محياه.

ناداني: "أهلاً أخي ليو، هي أنت جاهز؟ هل وضعت درعك الحربي: معطفك المدرع، وسلاحك الحديدي والقبعة والخوذة البرونزية مع ريشتها الزرقاء؟"

كان يبدو منفعلاً. عيناه مشتعلتان، وحالما اقترب لمحت ملائكة واشباحاً في بؤبؤيه، كنت مرعوباً. هل يمكن أن يكون قد جُنّ؟

وفهم وضحك. لكن ناره لم تنطفىء.

قال: " يعدد الناس الكثير من المدائح للرب حتى الآن. ولكنني سوف أعدد المزيد: استمع إلى ما سوف أناديه به: الهاوية التي لا قعر لها، النهم الذي لا يرحم والذي لا قلب له. واقترب أكثر، ووضع شفاهه قرب أذني وصاح بصوت راعد:

"ليس كافياً!" هذا ما صرخ به نحوي. وإن سألتني يا أخي ليو، أي إله يأمر من دون أن يمنح أي فرصة للراحة فبإمكاني أن أخبرك به، لأنني عرفته في غضون الأيام والليالي الثلاث الماضية في الكهف. اسمع!: "ليس كافياً ! ليس كافياً!" هذا ما كان يصرخ به كل يوم، وكل ساعة نحو الإنسان التعس المسكين. "ليس كافياً! ليس كافياً!"... ويئن الإنسان " لا أستطيع الاستمرار أكثر" ويجيبه الرب: "تستطيع !" ويئن الإنسان ثانية: "سأنشطر إلى اثنين!" ويجيب الرب: "نشطر".

وراح صوت فرانسيس يتهدج. وتدحرجت دمعة كبيرة على خده.

وبت حانقاً مما يحدث . وشعرت بعاطفة غامرة إزاء فرانسيس،

تساءلت: "ما الذي طلبه منك أكثر مما فعلت؟ ألم تعد بناء كنيسة سان داميانو؟"

"ليس كافياً"!

"ألم تترك والديك؟"

"ليس كافياً"!

"ألم تقبل المجذوم؟"

"ليس كافياً"!

"حسن، ما الذي يريده أكثر من ذلك؟"

"سألته يا أخي. ماذا تريد مني أكثر من ذلك يا ربي؟" وأجابني "إذهب إلى كنيستي بورتيونكيولا وسوف أخبرك هناك"... لذلك دعنا نذهب إلى الأسفل يا أخي ونرى ماذا يريد. أرسم رمز الصليب، شد رداءك حول وسطك. إننا نتعامل مع الرب، وليس ثمة مهرب منه"!

هبطنا من الجبل مسرعين، وعبرنا صقلية من دون توقف، ووصلنا إلى السهل. كنا في شباط والبرد يعض، والأشجار لا تزال عارية، والأرض مغطاة بالثلج الصباحي الأشيب، الذي يجعل الواحد يتجمد ويسقط.

مررنا بكنيسة سان داميانو. وتركنا بساتين الزيتون خلفنا ودخلنا غابة صغيرة من أشجار الصنوبر والبلوط المحشوة بالثمار. كانت أشعة الشمس قد صدمت أشواك الصنوبر، وعطرت الهواء. توقف فرانسيس وتنفس بعمق.

تمتم بسعادة: "آية عزلة! أي عطر وأي سلام"!

وبينما كان يتكلم، قفز أرنب صغير من تحت العشب، رفع أذنيه والتفت فرآنا. لم يخف، بل نظر إلينا بهدوء اتكأ على ساقيه الخلفيتين كأنه كان ينوي أن يرقص. وسرعان ما اختفى في الدغل.

تساءل فرانسيس متحركاً بنشاط: " هل رأيته يا أخي ليو؟ أخانا الأرنب الصغير الذي كان سعيداً برؤيتنا. لقد لوح بساقيه الصغيرتين وحيانا! إشارة طيبة، وفأل حسن، يا أخي ليو، ها قد وصلنا."

تقدمنا قليلاً، وهناك بين أشجار البلوط، كانت تقف كنيسة سانتاماريا ديغلي انجلي - البورتيونكيولا الصغيرة المعزولة الساحرة. كانت قد بنيت من الرخام القديم، وحولها ثمة اثنتان أو ثلاث من الصوامع الخربة تشابك اللبلاب والصنوبر حولها. ثم، وبشكل

مفاجىء إرتفعت أمامنا شجرة جوز يانعة بدت كأنها قد خطت خارج الكنيسة كي تستقبلنا، كانت مغطاة بالزهور من كل مكان.

تمتم فرانسيس: "هذه هي سانتا ماريا ديغلي أنجيلي."

فامتلأت عيوننا بالدموع. ورسمنا رمز الصليب.

قال فرانسيس فارداً ذراعيه: "يا أختي يا شجرة الجوز الجميلة، يا أختنا الصغيرة الجميلة، لقد ارتديت حلتك ووضعت حُليك. ها قد جئنا. لكم هو رائع أن نراك!" وربت على جذعها حين اقترب منها.

"مباركة تلك اليد التي غرستك، مباركة تلك الجوزة التي ولدتك. تتقدمين من من دون خوف إلى الأمام، يا أختي الصغيرة، أنت الوحيدة التي تجرؤ على أن تنتصب في وجه الشتاء وأول من تزهر من الأشجار في يوم ما، بمشيئة الله، سيأتي أول الأخوان ليجلس تحت أغصانك المزهرة."

دفعنا الباب وفتحناه، ثم دخلنا. كانت رائحتا الطين والعفن الفطري تفوحان من الكنيسة. وكانت النافذة الصغيرة معلقة بانحراف وقد سقطت من السقف قطع صغيرة من السقف، وحاكت العناكب شبكة رقيقة وسميكة حول تمثال سانتاماريا.

أزحنا شراك العناكب واقترينا من التمثال كي نصلي، فوقنا كانت صورة من الجص وكان بإمكاننا أن نرى عليها الأم المباركة، مرتدية رداءً أزرق، وقدماها العاريتان تستريحان على نصف قمر نحيل. جماعات صغيرة من الملائكة ذوي أذرع قوية وثمة زغب أسود على خدودهم. كانوا يسانمن دونها ويسحبونها نحو السماء.

على المذبح كان هناك الإنجيل مفتوحاً قديماً، مترطباً من كل مكان فيه من تكرر الأصابع عليه، وتآكل من الريح وتلون أخضر بالعفن الفطري.

أمسك فرانسيس بذراعي "انظر يا أخي ليو. هذه إشارة الرب لنا! إذهب واقرأ الآيات التي تجدها أمامك. لقد فتح الرب الإنجيل كي يفصح لنا عن نواياه. إقرأ بصوت عال لتدوي في سانتا ماريا ديغلي أنجلي مرة ثانية بعد العديد من السنوات، لتضج بالصدى وتسر.

سقطت أشعة الشمس على الإنجيل بينما دخلت من خلال النافذة المغلقة. انحنيت وقرأت بصوت عال: "أذهب بعيداً وعظ وقل، إن مملكة السماء في اليد... لا تأخذ ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في حزامك، لا تأخذ جراباً من أجل رحلتك، لا رداء ولا نعل ولا عصا..."

وسمعت فجأة صرخة عالية خلفي. التفتُّ ورأيت فرانسيس راكعاً على الأرض المغبرة وسط قطع الجص المتساقطة. كان قد بدأ يصرخ بصوت حاد مثل الصقر: "لا شيء! سوى عيوننا، وأيدينا وأقدامنا وأفوهنا كي نستطيع القول: إن مملكة السماء في أيدينا"!

وسحبني بقوة إلى الخارج. ورمى عصاه ونعليه بعيداً، وقال آمراً: "ارم حاجياتك أيضاً. ألم تسمع: لا نعل ولا عصا"!

وتساءلت بقلق وأنا أعانق الجراب المملوء: "وهذه أيضاً؟"

"والجراب أيضاً! ألم تسمع. لا جراب"!

فتمتمت مشاكساً بينما أزحت الجراب ببطء عن كتفي: "يتوقع الله أشياء كثيرة من الإنسان. فلماذا يتعامل معنا بلا إنسانية؟"

أجاب فرانسيس: "لأنه يحبنا. لا تتذمر."

"إنني لا أتذمر يا أخي فرانسيس، أنا جائع. واليوم فقط حدث أن امتلأ الجراب بالطعام الشهي. دعنا نأكل على الأقل."

نظر فرانسيس إلي بعطف.

وقال مبتسماً: "كل أنت يا أخي. أنا أستطيع الإنتظار."

ركعت على ركبتي، فتحت الجراب وهجمت على الطعام. كان ثمة قارورة نبيذ في داخله أيضاً، وهذه شربتها حتى القعر. أكلت وشربت على قدر ما أستطيع وأكثر مما أستطيع، مثل جمل يستعد لعبور الصحراء.

خلال ذلك، كان فرانسيس قد جثم إلى جانبي وراح يحدثني:

"أنت تدرك، بالطبع، يا أخي أن الرب محق. فحتى الآن كنا مهتمين فقط بذواتنا الصغيرة العزيزة، بأرواحنا، كل ما يهمنا هو كيف يمكن ان ننقذ أنفسنا. وهذا ليس كافياً! لابد لنا أن نقاتل كي ننقذ الجميع أيضاً، وإذا لم ننقذ الآخرين، كيف لنا أن نُنقَذ؟"، "كيف لنا أن نقاتل، يا ربي؟" صرخت بالرب وأجابني: " أذهب إلى كنيستي البورتيونكيولا وسوف أخبرك. هناك سوف تسمع أمري." والآن لقد سمعته أنت أيضاً، يا أخي ليو بأذنيك "أذهب بعيداً، عظ وقل، فمملكة السماء في اليد."من هنا يبدأ واجبنا الجديد، يا أخي ورفيقي المحارب: أن نعظ! أن نجمع حولنا من الأخوان على قدر ما نستطيع، الكثير من الأفواه التي تعظ على قدر الامكان، والكثير من القلوب المحبة، والأقدام التي تتحمل المسيرات الطويلة. نكون الصليبيين الجدد، وننطلق معاً لإنقاذ الضريح المقدس. ماهو الضريح المقدس يا أخي؟ إنه روح الإنسان!

وصمت لدقيقة ثم قال:

"هذا هو الضريح المقدس. إن المسيح المصلوب يرقد داخل جسم الإنسان. إننا نغادر كي نصل إلى الروح، يا أخي ليو، ليست أروحنا وحدنا، بل أرواح البشرية. إلى الأمام ما دمت قد أكلت وأطفأت ظمأك، دعنا نذهب الآن كي نختار رفاقنا الجدد. فاثنان لم يعودا

كافيين نحن نحتاج إلى الآلاف... إلى الأمام بسم الله"!

رسم فرانسيس رمز الصليب وأخذني من يدي.

قال: "دعنا نذهب. من ذا الذي يمنعني منذ الآن من الالتحاق بالرب؟ فرانسيس! لقد أزحته جانباً. وقم أنت بالشيء نفسه: أزح ليو جانباً. فقد بدأ نضال جديد."

أمسكت لساني وتبعته فالهلاك قد بدأ، هكذا كنت أقول لنفسي، وتعلقت برداء فرانسيس...

صعدنا إلى صقلية ووقفنا في وسط الساحة. أخرج فرانسيس الجرس من حزامه وراح يقرعه يريد اقتراب الناس منه. فاحتشد جمع غير قليل من المارة وكونوا حلقة حوله. وتجمع معهم من خرجوا من الحانات حيث كانوا قد قضوا (كان يوم أحد) الصباح يزقون النبيذ بخمول. فتح فرانسيس ذراعيه لتحيتهم.

قال لكل شخص اقترب منه: "السلام عليكم! السلام عليكم"!

حينما تجمع حشد غفير وامتلأت الساحة أفرد ذراعيه.

وصاح: "السلام، السلام على قلوبكم، على منازلكم وأعدائكم. السلام على العالم! إن مملكة السماء في اليد"!

كان صوته يتهدج باستمرار. ويقول الشيء نفسه مرات ومرات، وكلما تعذر عليه الكلام، طفق يبكي. صاح: " السلام، السلام،" كان يحض مستمعيه لأن يقيموا السلام مع الرب ومع الناس ومع قلوبهم. كيف؟ ليس ثمة غير طريق واحد: الحب.

صاح: "الحب! الحب! وشرع يبكي مرة أخرى.

ظهرت النسوة من أبواب بيوتهن ومن السطوح كي يسمعنه. لم يضحك أحد من المتجمهرين هذه المرة. ولم يسخروا منه. في كل يوم

كان فرانسيس يتجول عبر شوارع صقلية ويعظ الناس بالكلمات نفسها، دائماً الكلمات نفسها، الدموع نفسها. وقفت إلى جانبه وبكيت أيضاً، ولكن من من دون كلام. في صباح كل يوم آخذ الجرس وأهرع عبر الشوارع صارخاً: "تعالوا، تعالوا جميعاً سيلقي فرانسيس كلمة"!

في إحدى الأمسيات وبعد أن انتهى من الوعظ وكنا نوشك على ان نصعد عائدين إلى كهفنا لنقضي الليل، جاء إلى فرانسيس تاجر اسمه بيرنارد من كوينتافال. كان يتاجر بالأقمشة كما كان يفعل السيد بيرنارمن دون وكان أكبر قليلاً من فرانسيس، ذو تعابير حالمة وعينين زرقاويتين نبيهتين. لم يكن قد شارك فرانسيس أبداً في عربدته طوال الليالي، بل كان، كما أسرني هو فيما بعد، قد اعتاد على أن يمضي ساعات طويلة في الليل يدرس في الكتب القديمة. لقد أرعبته قسوة "يهوه" في العهد القديم، وحين وصل إلى يسوع امتلأ قلبه بخليط من الحزن والفرح.

كان قد سمع عن فرانسيس وقد ضحك في البداية، مفكراً أن كل هذا الترقيع للكنائس، وتقبيل المجذومين، والتعري أمام الناس وإعادة الثياب التي كان يرتديها إلى أبيه ليست إلا سلسلة جديدة من المزح التي يقوم بها الابن المدلل لبيرنارمن دون. وها هو يمسك الجرس للناس متوهماً أنه قادر على إدراك ما هو بالضبط هذا "الجنون الجديد". كل يوم كان يرى فرانسيس يصيح ويبكي في الساحة. كان يقول أنه يقاتل من أجل إنقاذ الناس من الخطيئة. كيف له أن ينقذ الناس من الخطيئة، وهو الذي حتى الآن يقضي لياليه مخموراً؟ لكن هذا الجنون قد يقي إلى حد يفوق التوقع. هل يمكن أن يكون

الله هو الذي يمنحه القوة حقاً كي يقاوم الجوع والعري والاحتقار؟ إن لم أخش العار، هكذا قال بيرنارد لنفسه، فلسوف أذهب إليه وأكلمه. لم أنم لعدة ليال. كان يأتي إلى ذهني مرات ويشير إلى. إلى ماذا يشير وماذا يطلب منّي؟...

أخيراً وعندما لم يستطع أن يمنع نفسه أكثر من ذلك اقترب من فرانسيس.

"هل تذكرني، يا سيد فرانسيس؟ أنا بيرنارد من كوينتافال. هل تتلطف بالمبيت في منزلي الليلة؟"

نظر فرانسيس إليه وأدرك الألم والشوق الكبير الذي في عيون بيرنارد.

"أية أعجوبة هذه يا أخي بيرنارد؟ كنت أحلم بك في الليلة الماضية لقد أرسلك الله يا أخي مرحباً! إن مجيئك له معنى آخر. حسن، كن دليلنا على الطريق!

وأشار إلي. "أخي ليو، تعال أنت أيضاً. أنا وأنت لا نفترق"!

ذهبنا إلى منزل بيرنارد الكبير. وحضر لنا الخدم وجبة طعام، ثم اتكأوا على الباب وراحوا يصغون إلى فرانسيس حينما كان يتكلم عن الله والحب وروح الإنسان. كان الهواء قد أضحى ممتلئاً بالملائكة، وراح الخدم يحدقون عبر النافذة ليروا السماء خضراء، تسطع لامعة، القديسون والملائكة يتبادلون الحديث سوية بينما يتنزهون يداً بيد على العشب الأبدي، وفوق رؤوسهم يومض الملاكان جيروبيم وسيرافيم مثل نجمين.

ولكن حالما انتهى فرانسيس من كلامه عاد كل شيء إلى طبيعته. وعادت سنادين الزهور التي تحيط حافة البئر كي ترى مرة

أخرى من الفناء عبر النافذة. وانفجرت إحدى الخادمات باكية. كانت قبل لحظة قد دخلت الفردوس، أما الآن فقد عادت إلى الأرض ثانية وعادت خادمة مرة أخرى.

كان الوقت يقارب منتصف الليل وكان بيرنارد يصغي محني الرأس، مأخوذاً بكلمات ضيفه. ورغم أن فرانسيس قد سكت عن الكلام، فإن المضيف كان يشعر أن حضور ضيفه كان في داخله: حافي القدمين، يغني، يرتدي ثياباً بالية، يسير في الأمام ويتلفت مشيراً برأسه...

قال رافعاً نظره: " سيد فرانسيس، طوال الوقت الذي كنت أسمعك فيه تلاشى هذا العالم ولم يبق شيء سوى الروح فوق جهنم، جهنم الرب وهي تغني. ولا يمكنني القول أي جزء من هذه الرؤيا حقيقي وأي جزء منها حلم. يقال يا سيد فرانسيس أن الليل هو أحب رسل الله. دعنا نَر الليلة أية رسالة سينقلها لي."

ونهض قائلاً: " سيد فرانسيس سوف ننام الليلة في غرفة واحدة."

ثم ضحك كي يخفي انفعاله.

لكن بيرنارد كانت له دوافعه. كان ينوي اختبار فرانسيس. وحالما رقد راح يشخر متظاهراً بالنوم. وكانت الخدعة ناجحة. وحين صدق فرانسيس أن بيرنارد نائم إنسل من فراشه وركع على الأرض. عقد يديه وراح يصلي بصوت خفيض. أتلع بيرنارد أذنيه، ولكنه لم يسمع سوى هذه الكلمات:

"إلهي وكل ما لدي! إلهي وكل ما لدي"!

ولم ينته ذلك إلا عند الفجر، عند ذلك زحف فرانسيس إلى فراشه وتظاهر بالنوم. أما بيرنارد الذي كان يبكي الليل بطوله

بينما كان يصغي إلى فرانسيس، فقد نهض وخرج إلى الفناء. كنت قد استيقظت مبكراً ورحت أسحب ماءً من البئر. التفت ونظرتُ إليه. كانت عيناه مشتعلتين.

تساءلت: "ما الذي حدث يا سيد بيرنارمن دون فعيناك حمراوان."

"لم ينم فرانسيس طوال الليل. كان يصلي ونار متوهجة تلعق وجهه."

"لم تكن ناراً يا سيد برنارد، بل كان الله."

ظهر فرانسيس وسقط بيرنارد في الحال عند قدميه.

قال: "كان ثمة فكرة تعذبني يا سيد فرانسيس أشفق علي وهدىء قلبي."

تشبث فرانسيس بيد بيرنارد وساعده كي يقف.

"إنني مصغ يا أخي بيرنارد. لست أنا بل الرب سوف يهدىء قلبك. أخبرني. بما يقلقك."

"لقد سلمني رجل نبيل كنزاً كبيراً لأحتفظ له به. وحرسته لسنوات كثيرة، والآن أنا أخطط للذهاب في رحلة خطرة. ماذا سأفعل بهذا الكنز؟"

"حري بك أن تعيده إلى الشخص الذي ائتمنك عليه يا أخي. من هو هذا الرجل النبيل؟"

"إنه المسيح. وأنا مدين له بكل ثروتي: إنها له. كيف لي أن أعيدها له؟"

وأستغرق فرانسيس. في التفكير العميق. وقال أخيراً: "هذا سؤال محزن بشكل رهيب يا أخي. ووحدي لن أستطيع أن أجيبك. ولكن دعنا نذهب إلى الكنيسة ونسأل المسيح شخصياً."

توجهنا ثلاثتنا نحو الباب الخارجي. في تلك اللحظة طرق شخص

ما الباب. فهرع برنارد ليرى من هو، وصرخ في الحال فرحاً.

"أهو أنت حقاً يا سيد بيترو؟ لماذا جئت مبكراً؟ تبدو شاحباً مثل جثة."

كان السيد بيترو أستاذاً مشهوراً للقانون في جامعة بولونا. مواطن من صقلية، وكان عادة ما يأتي بين الحين والآخر إلى وطنه ليستريح. وهذه المرة، على أية حال، ترك بولونا لوفاة أحد تلامذته الذي كان أحبهم إليه قبل أيام. لم يكن قادراً على كبح جماح حزنه وقد حبس نفسه في بيت أبيه رافضاً أن يقابل أي شخص.

تساءل: " هل أنت وحدك يا برنارد؟"

"كلا فمعي فرانسيس ابن السيد بيرنارمن دون وصديقه."

قال بيترو: "لا يهم، فسوف أتكلم أمامهما." وخطا خطوة ليدخل في الفناء. كان رجلاً أرستقراطياً ضخم الجسد وله عينان رماديتان قاسيتان ولحية قصيرة مجعدة. لكن الدراسة لمدة ساعات طويلة قد أكلت وجنتيه وأضحى وجهه كله جافاً وأصفر مثل رق نفيس يستخدمه الرهبان كي يسجلوا عليه آلام المسيح.

تهالك على مقعد وهو يتنفس بصعوبة. وقفنا ثلاثتنا حوله وانحنينا لنسمع.

تنفس بعمق.

قال: "سامحوني، إن بدأت من دون مقدمات. كان لي طالب اسمه غايدو وقد أحببته مثل ولدي. لم يكن يرفع رأسه عن كتبه في عمر العشرين وله الذوق الرفيع والمعرفة الواسعة التي لرجل مسن. وبامتزاج ذلك مع عقله الوقاد يكون شخصاً نادراً: عاطفة تحرق عاطفة. من أجل هذا أحببته... وقد مات قبل بضعة أيام."

زم شفتيه ليمنع النشيج المتصاعد. لكن دمعتين كبيرتين تدحرجتا من عينيه رغماً عنه. ملأ بيرنارد قدحاً بالماء وقدمه له. شرب.

"في اليوم الذي كان يحتضر فيه، ملت إليه وقلت له: " غايدو يا ولدي، إنه قرار الرب، أن يستدعيك إلى جواره، فإنني أطلب منك خدمة."

"وأجابني: "أية خدمة يا أبي؟ سأنفذ ما تطلبه مني."

"أريدك أن تزورني في إحدى الليالي في الحلم وتخبرني ما الذي يحدث في العالم الآخر."

وتمتم الشاب: "سوف آتي." ووضع يده في يدي ثم أسلم الروح في الحال.

"تركت بولونا في الحال وجئت إلى هنا لأختلي بنفسي وأنتظره ليزورني في منامي. "تهدج صوت السيد بيترو وأجبر على أن يتوقف ثانية. وأخيراً تمكن من أن يكمل: "وقد جاء اليوم عند الفجر..."

جثم بيرنارد إلى جانبه وتشبث بيده. قال: " تشجع يا بيترو. تنفس عميقاً وأخبرنا ما الذي قاله لك."

انحنينا أنا وفرانسيس إلى الأمام، قلقين لكي نسمع.

"كان يرتدي نوعاً غريباً من الثياب. كلا لم يكن يرتدي ثوباً، بل كان عبارة عن مئات من قطع الورق المنسوجة معاً حول جسده من كل المخطوطات التي كان قد كتبها خلال موسم دراسته وعليها كل المشاكل والأسئلة، والأزمات الفلسفية والقانونية والاهتمامات اللاهوتية. كيف يمكن أن نتخلص ونهرب من الجحيم، ولنرتفع نحو المطهر ومن المطهر إلى الفردوس... كان مثقلاً جداً بالأوراق،

محاولاً عدم السير. هبت الريح، فأزاحت المخطوطات عنه وحينذاك تبينت لي جمجمة الفتى مغطاة بالطين والعشب من كل مكان. فصحت: غايدو، يا ولدي، ما هذه الأوراق التي حولك، ما هذه القصاصات التي تمنعك من السير؟"

فأجابني: "إن ثقل الأوراق يمنعني..." حين قال ذلك، تحولت إحدى عينيه إلى دمعة وسقطت على يدي فاحترقت. هاكم انظروا"!

مد يده اليمين. ورأينا جرحاً أحمر دائرياً بشكل دقيق مثل مقلة عين. تملكنا أنا وبيرنارد الرعب أما فرانسيس فقد ابتسم بهدوء.

نهض السيد بيترو وقال: " لقد انتهى كل شيء الآن. فقبل أن آتي إلى هنا رميت كل مخطوطاتي في النار الآن وحرقتها. كل مخطوطاتي وكل كتبي. لقد تخلصت منها! بارك الله بتلميذي المحبوب الذي نقل لي الرسالة من العالم الأسفل. إنني الآن أبدأ حياة جديدة حمداً لله"!

تساءل بيرنارد: "وأي طريق سوف تتخذ الآن يا عزيزي بيترو؟ أية حياة جديدة سوف تعيش؟"

أجاب المنقذ بتأمل: " لا أعرف حتى الآن، لا أعرف..."

وقاطعه فرانسيس عند هذه النقطة: "أنا أعرف!" ومد يده وفتح الباب الخارجي. "أنا أعرف! تعالا معي كلاكما"!

سار فرانسيس في الأمام وتبعه الصديقان يداً بيد، بينما أنا تخلفت وراءهم. هذان الروحان أضحيا جاهزين، كنت أفكر، جاهزين للبدء بالارتقاء...

اجتزنا كنيسة سان روفينو. كان الجمع يزداد والكنيسة ممتلئة. لم نتوقف. بل انعطفنا من الزاوية ووصلنا كنيسة سان نيكولو

الصغيرة المهجورة. دفع فرانسيس الباب وفتحه فدخلنا. فوق المذبح كان الصليب معلقاً ومضاءً بمصباح صغير.كانت قصة القديس نيكولو قد رسمت على الجدار باللون الأسود، حيث القديس وقد أحاطته الأسماك والقوارب والبحار اللا متناهية.

قال فرانسيس: "أخي بيرنارد لقد سألتني سؤالاً، فاركع إذن، سوف يقدم المسيح الجواب." وتقدم نحو المذبح وركع، رسم رمز الصليب وأخذ الإنجيل الثقيل الذي كان مجلداً بالفضة.

قال: " هذا هو فم المسيح."

فتح الإنجيل، ووضع إصبعه وقرأ بصوت عال: " لو كنت كاملاً، أذهب وبع ما تملكه وامنحه للفقراء، ولسوف تنال الثروة في السماء."

أغلق الإنجيل، وفتحه مرة أخرى، وقرأ: "لو جاء أي شخص بعدي، دعه ينكر نفسه ثم يرفع صليبه ويتبعني."

تحول فرانسيس نحو بيرنارد، الذي كان يصغي وهو راكع على ركبتيه ويبكي. تساءل: " هل لديك أية شكوك أخرى يا أخي بيرنارد؟ هل تريد من المسيح أن يفتح فاه مرة أخرى؟"

فصاح بيرنارد: "كلا، كلاً وأدركه الانفعال. ثم قفز على قدميه وقال: "أنا جاهز."

وقال صوت خلفه: "وكذلك أنا." وكان ذلك هو السيد بيترو. فقد كان يصغي وسقط.

وقال فرانسيس بفرح بعد أن خطا بين المؤمنين الجديدين وأحاطهما بذراعيه: "حسن،هيا نذهب! أنت يا سيد بيترو قد فعلت ما طلبه المسيح منك: لقد حرقت ثروتك مخطوطاتك وكتبك وأقلامك، وسكبت كل حبرك واسترحت... الآن جاء دورك يا أخي بيرنارد!

افتح دكانك وناد على الفقراء، وزّع القطن الذي كنت تبيعه. استر العراة! حطم عصا المقياس، وافتح خزائنك، وزع، وزع لكي تستريح. أخي بيرنارد، من الضروري، ومن الضرورة القصوى لنا أن نعيد لأخوتنا الفقراء ما استعرناه منهم. أن تقيد الإنسان حتى بسلسلة ذهب رقيقة، فلسوف يجدها تغطس بروحه إلى الأسفل، وتمنعه من الارتقاء والطيران.

التفت إلى المذبح وإلى الصليب.

"أيها المسيح، يا إلهي، لكم بعتنا حاجياتك بثمن بخس! لقد أعطينا محتويات دكان صغير واشترينا بها مملكة السماء. حرقنا ركاماً من الورق القديم وأخذنا حياة خالدة"!

قال بيرنارد: "تعالوا، دعونا لا نضيع أي وقت."

وأخرج مفتاح المخزن من حزامه وشرع يركض.

كان المصلون قد انتهوا من صلاتهم للتو. الكنائس كانت تغلق والحانات تفتح. وتجمع الناس في الساحة.

تناثرت الغيوم وأشرقت الشمس بسطوع. كان شباط المسكين بأيامه الثمانية والعشرين دافئاً مثل حزيران. والأشجار قد بدأت قبل ذلك في تفتح أوراقها الأولى الصغيرة المطوية.

كم من المرات يمكنني أن أرى قدوم الربيع؟ هذه على أية حال، هي أول مرة أدرك فيها المعنى الحقيقي للربيع. في هذه السنة، وللمرة الأولى، عرفت (لقد علمني فرانسيس ذلك) أن الأشياء واحدة، الشجرة وروح الإنسان كل الأشياء تتبع القانون الإلهي نفسه. إن الروح لها ربيعها كالشجرة.

حالما وصلنا إلى بيزا سان جورجيو أقحم بيرنارد المفتاح وفتح

دكانه. وقف عند عتبته وصاح: "كل من كان فقيراً ، كل من كان عارياً فليأت باسم المسيح سوف أوزع كل حاجياتي."

وقف فرانسيس إلى اليمين، ووقف السيد بيترو إلى اليسار وأنا حملت الأقمشة من نهاية المخزن وعملت منها ركاماً أمامهم.

كم ركض الناس! النساء والبنات والشيوخ والمتشرمن دون: كيف أشرقت عيونهم، وكيف مدوا أيديهم في هواء يوم الأحد! وضحك بيرنارد بفرح مع هذا ، مشاكساً هذا وذاك بينما كان يقطع بالمقص الكبير الذي في يده القماش ويوزع ثروته.

ومن وقت لآخر كان فرانسيس يلتفت إليه. كان بيرنارد يتنهد :

"أي فرح هذا يا أخي فرانسيس! أية راحة"!

وحدث أن كان الأب سلفستر ماراً. كانت رؤية بيرنارد وهو يغرف ويبذر ممتلكاته قد جعلت قلب الكاهن ينفلع إلى اثنين.

تمتم: " أليس من المخزي أن تبذر ثروة كهذه! من دون ريب إنه ذلك بسبب المجنون فرانسيس.

توقف وراقب الحال ثم هز رأسه. وخمن فرانسيس ما كان يفكر فيه الكاهن.

"أيها الأب سلفستر أنت تتذكر ما يقوله المسيح أليس كذلك؟ سامحني لو أني ذكرتك به. "إذا أردت أن تكون كاملاً، وزع ممتلكاتك على الفقراء وسوف تكسب ثروة كبيرة في السماء. "لماذا تهز رأسك إذن؟"

سعل الأب سلفستر وصار وجهه احمر، وسار في طريقه.

شعر فرانسيس بالضيق بإيذائه له وصاح خلفه: "أيها الأب سلفستر، أيها الأب سلفستر"!

التفت الكاهن.

"لقد ذكرتك بكلمات المسيح. سامحني. أنت كاهن الرب، وتعرفها أكثر مني، أنا الآثم."

لو كان فرانسيس قريباً لكان قد رأى دمعتين كبيرتين ذرفتهما عينا الكاهن.

جاء المساء، وأضحى المخزن محض جدران أربعة عارية. أخذ بيرنارد عصا القياس وحطمها ورمى القطع في مجرى الماء وبعد أن رمى المقص أيضاً، رسّم رمز الصليب وقال: "حمداً لله. لقد عثرت على الراحة."

وضع ذراعه حول السيد بيترو وتبع الاثنان فرانسيس. وهاجت صقلية كلها في الحال بهذه الحادثة الغريبة من رجل غني عاقل ومن رجل متعلم أستاذ في القانون. وعلمنا أنه في تلك الليلة تجمع الكثير من الوجهاء والكبار، المهزوزون، تجمعوا عند منزل احد أعمام بيرنارد ليقرروا كيفية معالجة هذا الطاعون. كان من الواضح أن هذا المرض معدٍ وأنه أغلب ما يصيب الشباب. دعنا نحذر، هكذا قرروا، كي لا يدير رؤوس أبنائنا أيضاً ويغريهم في أن يبذروا الثروة بين الحفاة والمتشردين، تلك الثروة التي كافحنا في جمعها بعرق جبيننا وجبين أسلافنا. إن هذا الجنون الجديد يزج الأفكار في رؤوس الناس ويقوض بيوتنا. دعنا نطرده. دعه يبتعد خارج حدود مدينتنا، وليذهب إلى الشيطان!... لذلك قرروا أن يستدعوا المطران وبعد ذلك مجلس شيوخ القرية ليطلبوا منهم طرد هذا المتشرد من صقلية.

في تلك الأثناء كان في البيت المتواضع للأرملة جيوفانا رجل ضخم مرح ملوح بالشمس قوي البنية يجلس قرب النار ليدفئ نفسه. راقب

عمته العجوز بينما كانت ترسم رمز الصليب وتبارك أسم القديس الجديد هذا ما أصبح الناس يسمون فرانسيس به. وكما اعترف لنا بنفسه بعد أيام، أنه ضحك منها وشاكسها قائلاً: "ياه، لن يصبح فتى لعوب قديساً بهذه السهولة! سوف أذهب وأجد قديسكم هذا، هذا الفرانسيس. أجل، سوف أجده، وإلا فلن يكون اسمي جيلز. وسوف آخذ قارورة النبيذ معي وبعضا من اللحم الطري كي أشحذ شهيته وسوف ترون إن لم أحضره نتنا مخموراً. ثم أضع أنشوطة حول رقبته وأقوده إلى الساحة. وحالما أصفق يدي سوف يرقص مثل دب مدرب"!

في البورتيونكولا أمام شجرة اللوز المزهرة بنينا كوخاً من الغصون وغطيناه بالجص فكان أول دير لنا.

كنا نركع لساعات ونرفع عيوننا نحو السماء نصلي. وكان فرانسيس يكلمنا عن الحب والفاقة والسلام، سلام روح الإنسان وسلام العالم. وأنا الذي لحد الآن لم أقم بشيء سوى طرح الأسئلة ومناقشة كل شيء، الآن بمجيء الأخوة الجدد، تعلمت أن أبقى صامتاً. في أحد الأيام قال السيد بيترو شيئاً لن أنساه مادمت حيا: "إن العقل لا يفعل شيئاً غير الكلام وطرح الأسئلة والبحث عن المعاني. أما القلب فلا يتكلم ولا يسأل الأسئلة ولا يبحث عن المعاني. إنه يتحرك بهدوء نحو الرب ويسلم له نفسه. العقل محامي الشيطان والقلب عبد الله. إنه ينحني ويقول للرب "سأنفذ أوامرك "!

أصغى فرانسيس لهذه الكلمات وابتسم.

"سيد بيترو"، دائما ما كان يخاطبه بهذه الطريقة من الاحترام، "سيد بيترو، أنت محق. حين كنت طالباً صغيراً جاء إلى

صقلية لاهوتي متعلم في أيام عيد الميلاد. صعد منبر الوعظ في كنيسة سان روفينو وبدأ في خطبة طويلة لساعات وساعات. كلها كانت عن ميلاد المسيح وتخليص العالم وعن الغموض المخيف للتجسيد. وتشوش عقلي، وأصاب رأسي الدوار. ولما لم أكن أستطيع إيقافه، صرخت: "أهدأ يا سيدي ودعنا نسمع المسيح يبكي في مهده!" وحين عدنا إلى البيت، صفعني أبي، غير أن أمي أخذتني جانباً في السر وباركتني"....

لقد كان الأخ بيرنارد نادراً ما يفتح فمه ويتكلم. كان في كل يوم ينشق فيه الفجر يركع تحت شجرة ويستغرق في الصلاة، وكان من الواضح من أجفانه المسبلة ووجنتيه الغائرتين ومن الارتجاف الخفيف الذي في شفتيه أنه كان يتحدث مع الرب. وعندما كان يجد فرصة من حين لآخر في أن يتكلم معنا، فإنه في اللحظة التي يلفظ فيها اسم المسيح كان يلعق شفيته وكأنها قد ترطبت بالعسل.

كان من عادتنا ان نتوزع ساعة شروق الشمس. أحدنا يذهب لجلب الماء والآخر الخشب والثالث للتسول وفرانسيس لعمل حلقات للناس في شوارع صقلية والقرى المجاورة ليعظهم بالحب: " الجنون الجديد". وغالباً ما كان يأخذ معه مكنسة كي ينظف كنائس القرية. كان عادة ما يقول: "إنها بيوت الله. وأنا القيِّم: وهي في عهدتي."

وبينما كنا راكعين نقول صلاتنا داخل الكوخ في إحدى الصباحات، كان ذلك في يوم العيد الكبير للقديس جورجيو، رأيت رجلاً ضخماً يقترب ببطء شديد جداً، من الواضح أنه كان يتجسس علينا. كان يحمل تحت ذراعه قارورة كبيرة من النبيذ وشيئاً ملفوفاً

بأوراق الليمون. كانت رائحة اللحم المشوي تصدم الأنف.

كان بطول برج الكنيسة، ملوح بالشمس، قوي البنية. جاء إلى كوخنا بخطى صامتة، خفيفة وألصق وجهه إزاء الجدار كي يبصرنا بفضول عبر الأغصان. وكنت قد راقبته من زاوية عيني.

كان فرانسيس قد بدأ يتحدث كما يفعل كل صباح، عما قال الرب خلال الليل وماذا قال. وعاد في لحظة ويداه فارغتان. ثم ألصق وجهه بالكوخ مرة أخرى وعاد ليصغي.

كان فرانسيس يقول: "إلهي إن أحببتك لأنني أريدك أن تضعني في الفردوس فابعث بملاكك حاملاً سيفه المعقوف ودعه يغلق البوابات بوجهي. إن أحببتك لأنني أخشى الجحيم فاقذفني في النيران الخالدة. ولكن إن أحببتك لأجلك فقط، لوحدك أنت، فافتح لي إذن ذراعيك واستقبلني."

كان الرجل الذي يصغي سراً قد تقدم خطوة كبيرة وتوقف عند المدخل وصار وجهه شاحباً وراحت دمعتان كبيرتان تجريان على خديه. فوقع عند قدمي فرانسيس وصرخ: " اغفر لي يا أخي فرانسيس. أنا جيلز، من صقلية، لقد سخرت منك وقمت بالمراهنة بأنني آتي إلى هنا وأجعلك مملاً ثم أضع أنشوطة حول عنقك وآخذك إلى بيازاسان جورجيو، حيث سأصفق بيدي وسترقص.

فقال فرانسيس ضاحكاً: " ولم لا يا أخي جيلز. لم لا أذهب معك وأقف في سان جيورجيو، حيث من المؤكد أن يجتمع كل الناس اليوم؟ لسوف تصفق يديك ولسوف أرقص. لا أريدك أن تخسر الرهان" وضع يديه تحت ذراع الآخر ورفعه.

قال له: "هيا بنا فالناس ينتظرون."

وخرجا. قبيل المساء كنا ثلاثتنا أنا وبيرنارد وبيترو جالسين خارج الكوخ ننتظر.

قلت: "لقد تأخر فرانسيس. أتراه مازال يرقص؟"

فقال السيد بيترو: "أجل إنه يرقص." وبعد دقيقة صمت قال: "واحسرتاه، ليست لدي الشجاعة في أن أفعل شيئاً كهذا أمام الناس. مازلت أشعر بالخجل في الظهور أمام الناس، وهذا يعني أنني لم أتعلم حتى الآن في ان أشعر بالخجل أمام الله.

وبينما كنا نتحدث، ظهر فرانسيس فجأة، وخلفه رجل ضخم يسير بخطى وئيدة وكأنه كانت له أجنحة. لقد كان ذلك هو جيلز.

أخذ فرانسيس رفيقه من يده وجاء مقترباً منا.

قال ضاحكاً: " لقد أرقصني، لكنني جعلته يرقص أيضاً! في البداية وثبت وحدي أمام الله، وكان هو يصفق بيديه. ولكن بعد هنيهة أصبح الأخ جيلز غيوراً. وبدأنا نرقص كلانا. كان يبدو كأن الخلق بأكمله قد أخذ بأكتافنا وكان يرقص معنا أمام الرب.

"وأية رقصة كانت تلك يا أخوتي، إن الأمر لمختلف تماماً بين أن يرقص الإنسان وحده وبين ان يكون هنالك الكثيرون في البداية إثنان، ثم ثلاثة ثم كل البشرية، وبعدة ذلك الحيوانات والطيور أيضاً، ثم الأشجار والمحيطات والجبال: كل الخليقة ترقص أمام الخالق. أليس كذلك يا أخي جيلز؟"

وأجاب ضاحكاً: "لا تطلب مني واجباً آخر. فالرقص كاف! سوف أضع يدي على كتفك، يا أخي فرانسيس وسأرقص من أجل الأبدية."

قال فرانسيس ناشراً ذراعيه: "دعونا نرحب بالأخ الجديد."

وصحنا جميعاً : "مرحباً، مرحباً" ورحنا نعانق جيلز.

وتورد وجه الأخ الجديد. كان لديه شيء يود قوله لكنه تردد في أن يفعل ذلك. وأخيراً تجاوز تردده قائلاً: "أخي فرانسيس، لقد جلبت طعاماً وقارورة نبيذ."

فقال فرانسيس وهو يربت على كتفي جيلز العريضين: "إننا نحتفل بعيد مولدك اليوم. دعنا نشرب في صحتك. فالقليل من النبيذ لا يضر: فليغفر لنا الله إن كنا غير مخلصين الآن وبعد ذلك سنلتجىء إلى الجوع والظمأ المقدسين. لذا اجلب لنا أدوات الخطيئة"!

وبقفزة هب جيلز نحو الأحراش وجلب اللحم المشوي وقارورة النبيذ.

قال فرانسيس وهو يرفع القارورة: "في صحة الأخ جيلز! لقد ولد اليوم: نتمنى له كل السعادة."

* * *

لم تمر أيام كثيرة حتى ظهر الأب سلفستر عند مدخل البورتيونكولا بينما كنا نغادر نحو مهماتنا. جاء حاني الرأس يغلبه شعور بالخجل، عيناه قد احمرتا من البكاء المستمر ويداه ترتعشان. كان يحمل صرة تحت ذراعه.

حياه فرانسيس بذراعين مفتوحتين وقال له: "كم أنا سعيد برؤيتك يا أبي. أية ريح جلبتك إلى كوخنا؟"

أجاب الكاهن: "ريح الله. لقد وبختني يا أخي فرانسيس وكانت كلماتك مثل اللهب: لقد أحرقتني وطهرت قلبي."

"لم تكن تلك كلماتي، أيها الأب سلفستر، لقد كانت كلمات المسيح."

"أجل كانت كلمات المسيح، لكن الطريقة التي قلتها فيها يا أخي جعلتني أشعر وكأنني اسمعها لأول مرة، وكأنني لم أقرأ الآناجيل أبداً. كنت أقرأها كل يوم، لكن كلمات المسيح لها حروف كثيرة، ومشوشة لا تشتعل أبداً. ولأول مرة ـ والشكر لك ـ يا أخي فهمت معنى الفاقة والحب ومشيئة الله... ولذلك، جئت."

"ماذا لديك في الصرة؟"

"ملابسي ونعلي وأشياء أخرى عزيزة علي."

ضحك فرانسيس.

قال له: "كان ثمة زاهد يجاهد لسنوات وسنوات كي يرى الله من دون أن يفلح. كان ثمة شيء ما يلوح دائماً أمامه ويمنعه. وبكى الرجل التعس وصرخ وناشد لكن من دون جدوى! لأنه لم يستطع أن يفهم ما هو ذلك الشيء الذي يحجب عنه رؤية الله. وفي صباح ما، قفز من فراشه مستبشراً. لقد وجدها! فقد كان إبريقاً صغيراً نقش ببراعة وكان الحاجة الوحيدة التي احتفظ بها من كل ممتلكاته، لقد كان يعتز به كثيراً. والآن امسك به وحطمه بضربة واحدة إلى آلاف القطع ثم وهو يرفع عينيه رأى الله للمرة الأولى.

"أيها الأب سلفستر إذا رغبت ان ترى الله اقذف بصرتك."

وحينما لاحظ تردد الكاهن أخذه من يده بر فق وقال له: "تعال معي. سوف تمشي بمحاذاة هذا الشارع وأنت، من خلال حبك للمسيح، سوف تعطي صرتك إلى أول فقير تقابله. إن الناس لا يدخلون الجنة بصرة أيها الأب سلفستر"!

قال سلفستر كأنه يتوسل إليه: "هل يمكنني أن أحتفظ بنعلي، نعلي فقط؟"

قـال فرانـسيس: "لابـد لـك أن تكـون حافيـاً كـي تـدخل الجنـة وتوقف عن محاولة عقد الصفقة يا أخي وتعال"!

لذلك وكما يقبض الذئب على الحمل بأسنانه، قبض فرانسيس على سلفستر من أجل أن يقذفه في الجنة.

إن النعمة الإلهية، يا إلهي عظيمة، عظيمة من دون حدود وغنية ويراها الكثيرون مثل ذيل الطاووس. إنها تغمر العالم من النهاية إلى النهاية، وتنتشر وتغطي أكثر الأرواح تواضعاً وتملأها بالزهو. وشهدت حقيقة أخرى إذ ما مرت أيام كثيرة حتى جاء رجلان متسكعان هما أضحوكتا صقلية كلها، جاءا وقبلا يد فرانسيس، وطلبا منه أن يقبلهما أخوين. أحدهما كان ساباتيانو، والرجل الآخر كان يدعى كابيلا لأنه حتى في منامه كان يرتدي بشكل مستديم قبعة طويلة من المخمل الأخضر مزركشة بشريط أحمر. لقد تذكرت ساباتيانو بسرعة فهو الرجل الذي سخر من فرانسيس في الليلة التي وصلت فيها صقلية أبحث عن مسيحي طيب يمنحني صدقة. كان رجلاً نحيلاً به مرض اليرقان، وذا تعابير تشبه الفأر وثمة ثؤلول مشعر على أنفه، أما كابيلا فقد كان ضامراً، بشعاً وله شاربان طويلان متدليان وأنف مدبب وحشي وشفاهه تشبه شفاه الأرانب. كان يتأتىء حين يتكلم ويغدو متعلقاً بكلماته.

بدأ ساباتيانو: "لم أعد أستطيع النوم يا أخي فرانسيس. لقد قلت أشياء سيئة عنك. حسبتك غنياً وأنا فقير، وسيما وأنا قبيح، كنت ترتدي أحسن الثياب وليس عندي سوى الاسمال وفي الأيام الخيرة، في كل ليلة أرقد فيها لأنام كنت أعرف ان ذلك لا جدوى منه، وإن حدث ونمت فلدقائق قليلة وتأتيني أنت في أحلامي وتقول لي "لا يهم يا

أخي ساباتيانو، أنا لا أحمل ضغينة، فنم، إن عطفك شق قلبي إلى نصفين. ولم اعد أطيق أكثر من هذا، لهذا جئتك فافعل معي ما شئت. سوف اتبع خطاك حتى الموت"!

قال كابيلا: "وأنا أيضاً، وأنا أيضاً.. معك حتى الموت، يا أخي فرانسيس. لقد تعبت من هذا العالم، والعالم مريض مني. أي ملجأ بقي غير الله؟ ولكنني سآتي معك بشرط واحد، أن تدعني أرتدي قبعتي. فلا أريد قلنسوة. ستقول أن هذا شيء غريب، ولكنني اعتدت على هذه القبعة، إنني أشعر أنها جزء من رأسي. لو جعلتني أخلعها سأعتقد أنك تقطع رأسي."

ضحك فرانسيس ولكن سحنته تحولت في الحال إلى الصرامة.

قال له: " احذر يا أخي فمن الممكن أن يصبح الشيطان قبعة ويضع نفسه على رأسك. احذر ولا تدعه يدفعك من الطريق أسفل التل. فبعد القبعة قد تكون الخطوة الثانية هي الرداء: ستقول "لا أريده!" ومن الرداء قد تهبط إلى الأخوة قائلاً: "لا أريده!" ومن الأخوة إلى الحب قائلاً: "لا أريده!" ومن الحب إلى الله قائلاً: "لا أريده"!

بقي فرانسيس صامتاً لدقيقة مستغرقاً في التفكير.

واستمر: "إن لشارع التل قمة: الرب! وأسفل الطريق له قعر: الجحيم!. هذه القبعة قد ترميك إلى الأسفل في الجحيم."

حدق بعمق في عيني كابيلا ولم يستطع المؤمن الجديد أن يكبح جماح نفسه فانفجر باكياً. قال له: "إن لم تسمح لي بما طلبت سوف أتركك ولسوف أموت."

* * *

كم من الأرواح في هذا العالم تتوق إلى الخلاص وتهرع راكضة نحو أذرع الله المنتظرة في اللحظة التي تسمع فيها صوتاً يدعوها! فيما إذا كانوا محترمين مألوفين، أو متشردين سيئي السمعة، ففي إحدى الليالي سيسمعون شخصاً ما يناديهم بصمت. وسيقفزون على أقدامهم بقلوب نابضة وفي الحال كل ما فعلوه حتى تلك اللحظة سيبدو عقيماً ولا فائدة منه. وسيشعرون وقد وقعوا في شركه الماكر، ولذلك يقعون على أقدام الشخص الذي ناداهم ويصرخ كل واحد منهم: "خذني، أنقذني، أنت من كنت أنتظره."

ما كان يمر يوم حتى يظهر احد ما من أجمة الأشجار التي حول بورتيونكولا ويجثو عند أقدام فرانسيس.

"خذني، خلصني، أنت من كنت بانتظاره!" قالوا له ورموا الثياب التي كانو يرتمن دونها، ولبسوا رداء الرهبنة.

في أحد الأيام جاء فلاح بسيط دمث وبدين عمره ما يقارب الثلاثين. كان يحمل إبريقاً رسم عليه ما يمثل الذنوب المميتة السبعة، وكل رسم معه اسم الذنب تحته: التكبر، الجشع، الحسد، الشهوة، الشراهة، الغضب، الكسل.

صرخ جاثماً عند أقدام فرانسيس: " اسمع ما لابد لي من ان أقوله. كنت هادئاً ومسالماً في قريتي. لقد حرثت وشذبت عرائش العنب ثم قطفتها: وعشت. ليس لدي زوجة ولا أطفال، وليس ثمة ما يقلقني أو هكذا ظننت. ولكن ما إن سمعت صوتك حتى أدركت أنني كنت تعساً. نظرت في قلبي الذي اعتقدت أنه بريء، ورأيت في داخله الذنوب السبعة القاتلة، فأخذت هذا الإبريق ورسمت كل واحد منها عليه وكتبت الاسم تحت كل واحد منها. الآن، انظر! لسوف

أحطمه عند قدميك وآمل ان تذهب كل هذه الذنوب الخالدة وتتسكب فوق الصخور"!

"ما اسمك، يا أخي ؟"

"جونيبر"(*)

"جونيبر، لكم يفرح هذا الرب ان تبني آلاف الأرواح أعشاشها على غصونك"!

يجلس آدم وحواء في الفردوس وهما يتحدثان:

"ليتنا نفتح البوابات ونخرج."

"أين نذهب يا عزيزتي؟"

"ليتنا نفتح البوابات ونخرج"!

"الخارج مرض وألم وموت"!

"ليتنا نفتح البوابات ونخرج"!...

اغفر لي يا إلهي، ففي داخلي كنت أعي هذين الصوتين. حين كنت أصغي إلى فرانسيس كانت روحي في الفردوس. نسيت مناخي وتجردي، وإغراءات العالم. ثم كان هنالك فجأة ذلك النداء المتمرد: "اخرج"!

في أحد الأيام عثر عليّ فرانسيس وأنا أبكي.

تساءل وهو ينحني ويربت على كتفي: "لماذا تبكي يا أخي ليو ؟"

"لقد تذكرت يا أخي فرانسيس، لقد تذكرت."

"تذكرت ماذا؟"

"الصباح الذي رفعت فيه يدي والتقطت تينة من شجرة التين التي لدي."

(*) جونيبر هو اسم شجرة العرعر (المترجم).

"وهل ثمة شيء آخر؟"

"كلا لا شيء آخر يا أخي ولهذا أبكي."

جلس فرانسيس على الأرض إلى جانبي وأمسك بيدي.

"اسمع يا أخي ليو ما سأقوله لك ولكن لا تقله لأحد".

"أنا مصغ يا أخي فرانسيس." وشعرت بدفء جسده حينما رفع يدي، كلا ليس جسده بل روحه، وكانت تدفيء روحي.

قلت له مرة أخرى لأنه بقي صامتاً: " إنني مصغ يا أخي فرانسيس." ترك يدي وقام. وفجأة سمعت صوتاً مختلفاً:

"إن العفة، يا أخي ليو، تجلس وحدها تماماً على قمة حافة مهجورة من خلال عقلها تمر على كل المتع المحرمة التي لم تذقها، وتبكي."

حينما قال ذلك سار بعيداً مطأطيء الرأس واختفى خلف الأشجار.

* * *

لقد قيل: أن تسقط قطرة عسل في مكان ما سيشمها النحل الذي في الهواء ويسرع في كل الاتجاهات لكي يتذوقها. وبالطريقة نفسها تفعل أرواح الناس، فما إن شمت روح فرانسيس، قطرة العسل، حتى بدأت تتجمع حول بورتيونكولا، ومن ذا الذي لابد أن يحضر في ساعة الغروب سوى ذلك الشخص الذي منحنا رداء الرهبان الذي ارتديناه: صديقنا القديم روفينو! قال لنا بضحكة خافتة: "الشتاء قادم وليس الرب كافياً لكي تتدفأ! فالثياب الدافئة ضرورية أيضاً!" وكان قد أعطانا أنا وفرانسيس عباءات الكادحين التي نرتديها وأيضاً نعلين وعصا.

حين أقبل علينا بادره فرانسيس قائلاً:

"ماذا أرى؟ صديقي القديم، الثياب الدافئة ليست كافية، نحن بحاجة إلى الله أيضاً!" وأخفض روفينو نظره.

"اعذرني يا أخي فرانسيس لأنني كنت أعمى وقتذاك، أقصد بالعمى أنني رأيت العالم المرئي فقط ولا شيء آخر يختفي خلفه. وبعدما زرت بيتي وبقيت هناك لبعض الوقت تغير الهواء في الداخل وأصبح ممتلئا بأصوات مغرية ودعاوات وأيدٍ تتخسني لأخرج. أخيراً جاء اليوم الذي لم اعد قادراً فيه على المقاومة. تركت بابي مفتوحاً على وسعه وقذفت بالمفاتيح إلى النهر، وجئت"!

"إن حياتنا هنا صعبة يا أعز الأصدقاء، صعبة جداً. أنى لك أن تطيقها؟ إنني أشفق على الإنسان الذي تربى معتاداً على الأكل الجيد والملابس الناعمة ودفء النساء"!

"ولكنني يا أخي أشفق على الإنسان غير القادر على أن يفطم نفسه عن الطعام الجيد والملابس الناعمة ودفء النساء. لا ترفضني يا أخي فرانسيس. اقبلني"!

"هنالك شيء آخر يا صديقي روفينو: إنني واثق انك ممن ذهبوا إلى بولونا وامتلأت عقولهم بالأسئلة. نحن هنا لا نسأل الأسئلة، لقد وصلنا إلى حالة اليقين. سوف أتدبر أمرك في أن تتحمل الجوع والعري **والابتعاد عن النساء، لكن هل سوف يتحمل ذكاؤك يقيننا** من دون أن يتبوأ موقفاً متمرداً؟ إن هذا هو الإغراء الكبير لكل من هو غير محظوظ ووضع نفسه عند أقدام شجرة المعرفة وسمح للثعبان بأن يلعق أذنيه وعينيه وفمه."

لم يجب روفينو.

تساءل فرانسيس وهو ينظر إلى صديقه بعين العطف "طيب، قل لي ماذا تعتقد؟" قال روفينو برفق يائساً: "كلا يا أخي، لا أستطيع، لا أستطيع أن أفعلها." فقفز فرانسيس وضم صديقه إلى صدره.

"تستطيع، تستطيع! لديك الشجاعة بان تقول انك لا تستطيع وهذا يعني أنك تستطيع! إن القلب أقرب ألف مرة إلى الله من العقل، فتخل عن العقل واتبع قلبك: إنه هو يعرف الطريق إلى الفردوس. والآن اخلع ملابسك وارتد ثوب الرهبنة. أنت تتذكر المعاطف التي أعطيتنا إياها، أليس كذلك، تلك التي كان يرتديها الرعاة عندك؟ لقد نسخنا ثيابنا عليها، إنها بلون الطين. فارتد يا أخي روفينو الطين"!

* * *

في مناسبة أخرى، وبينما كان فرانسيس يمر في قرية قابل مغامراً متبجحاً بكامل عدته بالسيف والمهاميز والريش الذي في قبعته وبدلته المخملية والشعر الجعد الطري المغسول الذي يفوح برائحة الصابون.

صاح به فرانسيس: "حييت أيها الشجاع. ألم تتعب من تزويق نفسك وثني شاربيك؟ لقد حان الوقت الذي تشد فيه حبلاً حول وسطك وتضع قلنسوة فوق رأسك وتمشي حافياً في الطين. اتبعني وسوف أقلدك فارس الرب."

فتل المغامر شاربه ونظر إلى ذلك المتشرد الذي يخاطبه وضحك.

لكنْ، بعد عدة أيام جاء انجيلو تانكريدي وسقط في شبكة الرب.

قال وهو يركع ليقبل يد فرانسيس: "لقد جئت، ضجرت من

الثياب ومن تزويق نفسي وثني شاربي. خذني"!...

لكن القرش المتوحش الذي ينهش نهشاً والذي سقط في شبكة الرب لم يظهر إلا بعد عدة أيام. كنا أنا وفرانسيس جالسين على عتبة باب بورتينكولا. كانت الشمس لم تغب بعد ولم يعد الأخوة بعد من التسول، إذ لم يبق منهم في بورتيونكولا غير بيرنارد وسرعان ما خرج أيضاً، بعد ان وقع على أقدام فرانسيس ليطلب المغفرة. كان يفعل ذلك كلما ذهب للصلاة، لأنه لم يكن يعرف أبداً فيما إذا كان سيخرج من الصلاة حياً.

جلس فرانسيس يحدق بصمت في يديه وقدميه مستغرقاً في التأمل. وبعد صمت طويل، تنهد وقال لي: "أخي ليو حين أفكر في آلام المسيح فإن أخمص قدمي وكفي يتألمان من الثقب. ولكن أين المسامير والدم، أين الصلب؟ أتذكر مرة أنني ذهبت إلى فناء سان روفينو في عيد الجمعة حين جاء الممثلون الجوالون ليمثلوا آلام المسيح في موسم عيد الفصح في صقلية. كان الرجل الذي مثل المسيح قد تنهد حين حمل صليبه، وتظاهروا أنهم سيصلبونه، وسكبوا صبغاً أحمر على يديه ورجليه على أنه دم يجري. وحين أطلق صرخته التي تشق القلب بدت الدموع تجري من عيني وتألم الرجال، وصرخت النساء مولولات، كان العرض قريباً من الحقيقة. ثم جاء الممثل إلى بيتنا حيث حضرت له أمي العشاء. وبدأ يضحك ويمرح، وجيء له بماء فاتر ليزيل الأصباغ. كنت صغيراً، ولم أفهم ذلك. فسألته: " ولكنهم صلبوك أليس كذلك؟ " فضحك وقال: " كلا، كلا، يا ولدي. كل ذلك كان عرضاً. أتفهم؟ لعبة. كنت فقط أتظاهر أنني صُلبت." وصار لوني أحمر من الغضب فصحت به: "يعني أنك كنت

كاذباً!" لكن أمي أجلستني على ركبتها قائلة: "اهدأ يا صغيري، مازلت صغيراً لتفهم." لكنني الآن كبرت يا أخي ليو، لقد كبرت، وأفهم وبدلاً من أن أصلب، أفكر في الصلب لا غير. هل من الممكن أن نكون ممثلين أيضاً يا أخي ليو.؟"

وتتهد.

"انظر إلى يدي، أنظر إلى قدمي. أين المسامير؟ هل يعني هذا أن كل هذا محض لعبة؟"

في تلك اللحظة ظهر عملاق هائل من خلف شجرة. سار بخطى ثقيلة، عمره يقارب الثلاثين عاماً، حاسر الرأس، قوي البنية، ذو جبين عالٍ مقوس وشعر طويل كث كشعر الأسد، وقف أمام فرانسيس ووضع يده على قلبه وحياه.

"إنني أبحث عن فرانسيس الأسيزي، الرجل الذي يجمع الأخوة حوله ليكون نظام رهبنة، أنا إلياس بومبارون، من كورتانا، خريج جامعة بولونا. لقد وجدت، على أية حال، أن الكتب قد حددتني كثيراً، وأريد الانغماس في الأعمال العظيمة.

أجابة فرانسيس: "أنا من تبحث عنه يا صديقي. إنني لا أجمع الإخوان حولي كي أؤسس نظام رهبنة، ولكنني أرى أننا جميعاً قد نناضل لننقذ أرواحنا. إننا بسطاء ولسنا متعلمين. فأي عمل سيكون لك بيننا أنت الرجل المتعلم؟"

"أريد أن أنقذ روحي أيضاً يا أخي فرانسيس، وسأنقذ بعد ذلك التعليم لقد تعلمت الكثير عن حياتك، وقد أحببت ما تعلمته. في بعض الأحيان يجد غير المتعلم البسيط، من أثر تتبع قلبه، ما يعجز عنه العقل. لكن العقل ضروري أيضاً يا أخي فرانسيس. هو أيضاً

منحة إلهية، قدمها الرب إلى أحب المخلوقات إليه: الإنسان. من هو إذن الإنسان الكامل؟ هو ذلك الذي يخلط العقل بانسجام. ما هو النظام الكامل؟ ذاك الذي له القلب أساساً ويسمح للعقل أن يبني بحرية فوق هذا الأساس."

"أنت تتحدث بدقة، أيها الصديق الذي لم أتوقعه، إن عقلك يدير حواراته بمهارة مذهلة. باختصار، إنني أخشى منك! أرجوك أن تبحث عن خلاصك في مكان آخر."

"أيها الأخ فرانسيس ليس لك الحق في ان تطرد روحاً تريد فقط أن تتخذ طريق الخلاص الذي وضعته. لأجل من تفعل ذلك؟ الأجل غير المتعلمين فقط؟ إن المتعلمين بحاجة أكبر للإنقاذ ألم تقل بنفسك ذلك؟ لقد قادتهم عقولهم إلى الضلال. تلك العقول التي تريد شيئاً وتضع أمامها الكثير من الطرق ولا تعرف الطريق الأمثل. أيها الأخ فرانسيس إنني واثق من طريقك."

لم يقل فرانسيس شيئاً. كان يحفر الأرض بقدمه. ومن دون أن يطلب الإذن جلس إلياس إلى جانبه على عتبة الباب.

تمتم: "أية عزلة وأية طمأنينة"!

غربت الشمس الآن. كانت جذوع الأشجار قد توردت، وبدأت الطيور بالعودة إلى أعشاشها وعاد الأخوة من التسول. جثم جونيبر أمام الموقد وأشعل النار لإعداد الطعام، كان قد أصبح طباخاً منذ يوم وصوله. وعاد بيرنارد من جولته بين الأشجار وقد خرج مرة أخرى حيا من صلاته. ورغم أن عينيه كانتا غاطستين ومجوفتين فقد كان يسير مثل الأعمى وكان ينظر إلينا من دون أن يرانا ودخل إلى الداخل.

تمتم إلياس مرة أخرى وهو يراقب الشمس وهي تهبط: "أية عزلة وأية طمأنينة"!

إلتفت فرانسيس ونظر نحو الزائر الجديد. أحسست أن ثمة صراعاً كبيراً يتفجر في داخله، كان يبدو أنه يتنبأ أن هذا العملاق الثقيل سيجلب الاضطراب إلى الأخوة المسالمة.

ران صمت طويل. نهض جونيبر على قدميه وصفق يديه.

نادى: "العدس جاهز أيها الأخوة، تعالوا وكلوا بسم الله"!

وقف فرانسيس ومد يده للقادم الجديد.

قال وقاده من يده: "إننا مسرورون أن تكون معنا يا أخي إلياس." وأدخله إلى الداخل.

دخلنا جميعاً وجلسنا على الأرض. وضع فرانسيس نفسه قريباً من الموقد. جلب جونيبر الطعام وبدأنا نأكل بشهية، وفجأة وضع فرانسيس ملعقته.

قال: " إن هذا العدس يا أخوتي لذيذ، لذيذ جداً، وإن الجسد يمتع نفسه أكثر مما ينبغي: إنه ذنب كبير. سوف أضيف حفنة رماد."

وحالما قال ذلك غرف بعض الرماد من الموقد ونثره على الاناء وعاد ليأكل.

قال. "سامحوني يا إخوتي. لست أفضل منكم، كلا، كلا، ولكن جسدي أكثر خطيئة، ولن أسمح له أن يغدو متمرداً."

تساءل إلياس: "لماذا لابد لنا أن نخشى الجسد كثيراً يا أخي فرانسيس؟ لا نحمل إيماناً كافياً في قوتنا الروحية؟"

* * *

قال فرانسيس لي وهو سعيد في اليوم التالي: "إن الأفواه التي تعظ بكلمة الرب تزداد."

أجبته: "إن الأفواه التي تريد أن تأكل تزداد أيضاً يا أخي فرانسيس. كيف سنطعمها؟"

في حقيقة الأمر بدأ الناس في صقلية يتذمرون: لقد تعبوا من إطعام الكثير من الرهبان المتسولين. في إحدى الصباحات جاء رسول يخبر فرانسيس أن المطران يرغب في مكالمته وعليه الحضور. وأجاب فرانسيس وهو يرسم إشارة الصليب "أنا في خدمته". ثم التفت إلي: "لديّ شعور أنه سوف يوبخني يا أخي ليو. فتعال أنت أيضاً."

وجدنا المطران جالساً في كرسيه الكبير يتمتم مع حبات مسبحته، تتراكم فوقه شؤون السماء والأرض. إذ من واجبه أن يقسم روحه إلى اثنين. أولاً أنه راعي البشر ومن الضروري أن يراقب الأغنام التي ائتمنه الله عليها: كان جَرَبُ الماشية معدياً وإن أصيبت إحدى الأغنام فعليه أن يحذر أن لا ينتقل المرض إلى الأخريات. ولكن في الوقت نفسه كان من الضروري له أن يهتم بروحه أيضاً. من الواضح، انه كان أيضاً أحد أغنام الله، ومن واجبه أن يتبع الراعي الكبير.

حين رأى المطران فرانسيس حاول أن يقطب جبينه، لكنه لم يستطع لأنه كان قد أحب هذا المتمرد القدسي الذي تخلى عما يصبو إليه الناس كثيراً في هذا العالم واتخذ ما يكرهونه ويخشونه: العزلة والفاقة. حتى انه تجاوز احتقار أصدقائه له وسار حافياً يعظ بالحب.

مد يده الأسقفية الممتلئة وركع فرانسيس كي يقبلها، ثم نهض ووقف معقود الذراعين ينتظر.

قال المطران وهو يجاهد في أن يجعل صوته قاسياً: "لدي سبب لتقريعك يا ولدي فرانسيس. لقد سمعت الكثير عنك وكله جيد. هنالك شيء واحد لا يسرني."

"دعني أسمعه يا صاحب الفخامة، وإن أراد الله أن ينفذ ما تريد فلسوف يتحقق ذلك. إن الطاعة المقدسة هي ابنة الله العزيزة."

سعل المطران، متردداً في أن يقول ما يريد وكيف يقوله من أجل أن لا يغيظ فرانسيس.

لقد صار أتباعك يأتون إلى هذه المدينة والقرى المجاور يطرقون الأبواب ويطلبون الصدقات. وهذا ليس لائقاً! الكل هنا فقراء. إلى أي حد تتوقع ان يزيد خبز عند هؤلاء الناس ليطعموك أنت وأتباعك؟"

أخفض فرانسيس رأسه من دون جواب. مد المطران يده ووضعها على الإنجيل الذي كان مفتوحاً أمامه.

"فضلاً عن ذلك أنت تنسى ما يقوله الإنجيل: "إذا لم يعمل أحد فليس له ان يأكل." وأضحى صوته غاضباً.

تمتم فرانسيس: "نحن نصلي ونعظ، وهذا عمل أيضاً." لكن المطران لم يسمعه.

واستمر: "لذا ولأنني المطران والأب الذي يحبك أريد منك تحقيق طلبين، أولاً أن تجعل أتباعك يعملون لئلا يعيشوا من عرق الآخرين، ثانياً أن يكون لك خزين، ملكية صغيرة، حقل، بستان عنب أو بستان زيتون، وأن تعمل في أن تدخر مما يهبك الله وتضعه في يد المزارعين. أنا لا أقول أنك يجب أن تعمل لتصبح غنياً. معاذ الله! ولكن لابد لك ان تفعل ذلك ولا ترم ثقلك على إخواننا الذين لديهم بيوتاً وأطفالاً والذين رغم ذاك قد يرغبون في إعطاء الصدقات

للشحاذين، الذين لا يملكون مصادر للرزق. إن الفقر المدقع يا ولدي ضد الله والإنسان. هذا ما أريد قوله لك، ومن أجل هذا دعوتك. والآن أرجو أن تفهم كلامي بحسن نية وتقول لي ردك."

يبدو أن الحديث قد أتعبه، فأغلق عينيه واتكأ على ظهر الكرسي، متدلي الرأس. وانزلقت عصاه من بين أصابعه. انحنيت والتقطتها ثم أعطيتها له.

كانت يداه بيضاوين وناعمتين تعبقان برائحة البخور.

رفع فرانسيس رأسه: "سأتكلم لو سمحت لي أيها المطران."

"إنني مصغ يا ولدي فرانسيس، تكلم بحرية."

"في إحدى الليالي كنت أبكي وأناشد الرب ان ينير لي بصيرتي من أجل أن أستطيع البت فيما إذا توجب أن يكون لي شيء ما لوقت الحاجة أم لا شيء مثل حقل صغير، بيت صغير وكيس دراهم من المتعذر إفراغه إلى الحد الأدنى من النقود، شيء يمكن أن تقول له: "أنت لي!" - أجابني الرب "فرانسيس، يا فرانسيس كل من له منزل يصبح باباً، نافذة، كل من له حقل يصبح تراباً وكل من له خاتم ذهبي رقيق سيجد أن ذلك الخاتم يتحول إلى أنشوطة تمسكه من رقبته وتعلقه!" ذلك هو ما أخبرني به الرب أيها المطران"!

احتقن المطران. أراد أن يجيب، لكن الكلمات باتت عالقة في فمه الأدرد. وبدأت الأوردة التي في رقبته تنتفخ، فركض أحد الكهنة الشباب الذي كان واقفاً مكتوف اليدين في الزاوية وجلب له كأساً من الماء.

استدار المطران. والتفت إلى فرانسيس:

"من يقول أنه الرب الذي كان يكلمك؟ مرات عديدة حين نصلي

نسمع صوتنا ونعتقد أنه صوت الرب، مرات عديدة، أيضاً يلبس المغوي وجه الرب وصوته ثم يأتي ويقود أرواحنا إلى الضلال. فهل تستطيع أن تقول لي أياً من الكلمات التي تسمعها حين تصلي هي كلماتك وأي منها كلمات الرب؟"

وشحب لون فرانسيس وبدأت شفاهه ترتعش.

تمتم: "كلا، لا أستطيع..."

تراخت ركبتاه تحته وتهالك على الأرض بصمت.

"بإذنك أيها المطران، سوف أبدأ بالبكاء والعويل. إن كلماتك سكاكين تنفذ في قلبي. كيف لي أن أميز الرب من فرانسيس الآن، أو فرانسيس من الشيطان؟"

أخفى وجهه بين كفيه وراح ينتحب.

انحنى المطران إلى الأمام وهو في كرسيه مشفقاً عليه وامسك به من ذراعه ورفعه. تحول إلى الكاهن الشاب: "آتنا بكأس من النبيذ لزائرنا، ولدي.

آتنا ثلاثة أقداح كي نشرب جميعاً في صحته."

ارتمى فرانسيس على المقعد وراح يمسح دموعه عن خديه ولحيته.

"اغفر لي أيها المطران فليست لدي مقاومة."

جاء الكاهن الشاب بأقداح النبيذ الثلاثة على صينية خشبية ورفع المطران الكأس.

قال: "إن النبيذ شراب مقدس يا ولدي وحينما يخصص من قبل الكاهن يغدو دم المسيح. أنا أشرب في صحتك يا فرانسيس. اذهب الآن وليبارك الله فيك. لا أريدك أن تجيبني في الحال. فكر بما قلته إلى حد ما، والثراء شيء جيد، ولكن فقط إلى حد ما والتوازن ضروري في

كل شيء، يا ولدي حتى في الشفقة والتقوى وحتى في احتقار كل ممتلكات الدنيا. وكلما اختل توازن هذه الأشياء يصبح من السهل السقوط في قبضة الشيطان لذا إحذر! وداعاً الآن وحظاً سعيداً."

كان فرانسيس يوشك أن ينحني كي يقبل يد المطران مرة أخرى ويستأذنه في الذهاب، لكنه منع نفسه. فقد ارتفع صوت في داخله: لا تذهب لا تخف منه. وأجبه!

فقال: "أيها المطران، ناداني صوت في داخلي ومنعني من المغادرة."

"صوت يا ولدي؟ ربما يكون صوت التمرد، من إبليس. ماذا يقول؟"

"إنه يقول أن الشيطان يسر حينما يرى الرجال يخشون الفقر... أن لا تملك شيئاً، لا شيء تماماً: ذلك هو الطريق الذي يقود إلى الله. ولا طريق سواه."

"يسر الشيطان، فرانسيس، حينما يراك تعارض مشيئتي! لا تقل كلمة واحدة أخرى، بل اذهب! وليرفق بك الله وان يمد يده إلى رأسك ليشفيك. فأنت مريض."

ركع فرانسيس وقبل يد المطران، وغادرنا.

* * *

في العودة إلى بروتيونكولا لم ينطق بكلمة طوال الطريق. توقف فرانسيس عند مفترق في الطريق. قال: "كانت كلمات المطران قاسية. أريد أن أكون وحيداً مع نفسي، يا أخي ليو. سأسير نحو اليسار نحو ضفة النهر وسأسير بمحاذاتها حتى أصل أول كوخ، ذاك الذي في الغابة.

"الناس هناك متوحشون وصعبو المراس يا أخي فرانسيس سوف يهاجمونك. إنني أخشى عليك من اللاأمان."

"ولكن هذا هو ما أريده بالضبط يا حمل الله. لم اعد أطيق هذه الحياة السهلة."

عدت وحيداً إلى بورتيونكولا. لم يعد لي مزاج للتسول. كانت كلمات المطران قاسية - وليسامحني الرب - صحيحة. أجل، فكرت، إن لم يعمل الإنسان، فعليه أن لا يأكل. ينبغي أن ننصرف إلى العمل مثل الآخرين ونكسب خبزنا بعرق الجبين هكذا أمرنا الله.

تهالكت على عتبة بورتيونكولا ورحت أنتظر هبوط الليل، حين يعود الأخوة، وفرانسيس أيضاً. كنت قلقاً وكان قلبي يشعر بالضيق. ما كان ينبغي أن أتركه وحده، فالدواب الوحشية كانت تعيش في ذلك الكوخ الذي كان ذاهباً إليه أولئك البشر الذين يكفرون بالمسيح وقد يضربونه.

قفزت على قدمي. لم تغرب الشمس بعد. أسرعت أسير بمحاذاة ضفة النهر، وصلت القرية الهمجية ودخلتها. كانت الشوارع مقفرة، ولكنني سرعان ما سمعت الكلاب تنبح وضجيج ضحك هائج وصياح. ركضت باتجاه الضجة، ولم أشاهد غير تجمع لرجال ونساء وأطفال. كانوا قد ساقوا فرانسيس إلى حافة البئر، حيث كانوا قد قذفوه بالحجارة وهم في هياج. ووقف هو هناك معقود الذراعين ويسيل الدم من رأسه. بين الحين والآخر كان ينشر ذراعيه ويهمس: "شكراً لكم يا أولادي، بارك الله فيكم!" ثم يصالب يديه مرة أخرى على صدره.

وفي اللحظة التي اندفعت فيها إلى الأمام كي أضع نفسي أمام فرانسيس لأدافع عنه، سمعت خلفه صخب همجي. التفت الجميع

وشق عملاق هائل طريقه بين صفوف المتجمهرين ورفع فرانسيس بين ذراعيه مثل رضيع.

قال له وهو ينحني فوقه: "أين تريدني ان آخذك أيها المسكين فرانسيس؟"

"من أنت؟"

"اسمي ماسيو، وأنا سائق عربة. الجميع يعرفونني. أين تريدني ان آخذك؟"

أجاب فرانسيس: "إلى بورتيونكولا. أنا سائق أيضاً يا أخي ماسيو. آخذ الناس من الأرض وانقلهم إلى السماء."

وانطلق ماسيو، حاملاً فرانسيس بين ذراعيه. ركضت خلفهما. حين وصلنا بورتيونكولا كانت الشمس قد غربت. وضع ماسيو فرانسيس على العتبة وجثم إلى جانبه. كان بيرنارد يصلي عند الزاوية، وكان كابيلا وانجيلو قد عادا لتوهما من جولاتهما للتسول. وظهر الرهبان الآخرون واحداً بعد الآخر حفاة يتضورون جوعاً، الحبال مشدودة حول خصورهم وتشع وجوهم بالسعادة. الجميع كانوا مسالمين ولطفاء. حلت العتمة تدريجيا، وزقزقت الطيور مودعة الضياء. وكان الممكن رؤية نجمة المساء تخفق في السماء. كان جيلز يراقبني بصمت حين ذهبت لجلب الماء ورحت أنظف به جروح فرانسيس. أشعل جونيبر النار بقدح حجرين. كان روفينو والسيد بيترو قد ذهبا إلى ضفة النهر ليجمعا أوراق الغار، وهما الآن في داخل الكنيسة يزينان تمثال القديسة ماريا ديغلي انجلي.

وقال فرانسيس فجأة: "إننا نقيم الليلة حفل زفاف. هل تريد ان تكون أفضل إنسان يا ماسيو؟"

وقال فرانسيس فجأة: "إننا نقيم الليلة حفل زفاف. هل تريد أن تكون أفضل إنسان يا ماسيو؟"

التفت الجميع مندهشين. قفز كابيلا في الهواء فرحاً. كان يمسك قبعته المخملية في يده لينظفها من الغبار.

تساءل: "زفاف يا أخي فرانسيس؟ زفاف من ؟"

أجاب فرانسيس بابتسامة: "لقد صادفت أرملة في الطريق. مضت عليها السنوات وهي تسير حافية ثيابها مرقعة، وجائعة ولا أحد يفتح لها بابه ليعطيها صدقة. ونحن أيها الأخوة سوف نفتح لها الباب."

فصاح الرهبان: "بالله عليك تكلم كي نفهم يا أخي فرانسيس، لمن هذه الأرملة؟"

"إنها أرملة المسيح أيها الأخوة. لا تحدقوا بوجهي هكذا، إن عيونكم لتكاد تخرج من محاجرها. إنها الفاقة أرملة المسيح. ومن اجل بعلها الأول، سوف أتخذها عروساً لي."

ونهض ثم نظر إلى نفسه.

قال: "ها أنا قد ارتديت ثياب العريس ولا حاجة بي لأن أغير أي شيء: الرداء المرقع، والحبل الخشن ذو العقد، والأقدام التي يعلوها الطين، والمعدة الخاوية: لا ينقصني شيء. ولا العروس أيضاً. لماذا لا نبدأ إذن؟ تعالوا يا خير الرجال وقوموا لتزفوني"!

سار فرانسيس في الأمام، ثم ماسيو خلفه والبقية منا خلفهما. ملأنا الكنيسة. تساءل فرانسيس وهو يلتفت باحثاً عن الأب سلفستر: "أين الأب سلفستر؟ دعوه يأتي ليبارك زفافنا."

قلت: "وأين العروس؟ إنني لا أراها."

"أنت لا تراها يا أخي ليو لأن عينيك مفتوحتان. أغمض عينيك وسوف تراها."

ركع أمام المذبح والتفت نحو اليمين.

وقال وكان صوته مشحوناً بالعاطفة: "أختي أيتها الفاقة، أختي أيتها الفاقة، أيتها المحبة العزيزة وأحب الرفاق إلى المسيح، أنت يا من بقيت مخلصة له طول حياته، الحليف الشجاع في النضال، أنت يا من رافقته في رحلته مباشرة حتى قدم الصليب ومن ثم حتى القبر، إنني أمد يدي وألمك من الشوارع وأتخذك زوجة لي.

أعطني يدك يا سيدتي"!

ومد يده في الهواء نحو يمينه.

فرحنا نصغي، ونحن راكعون أمام المذبح، باستغراب إلى كلمات العريس الغريبة ونراقبه وهو يمد يده إلى العروس اللامرئية.

أغمضت عيني، وحين فعلت ذلك، رأيت امرأة شاحبة إلى جانب فرانسيس على يمينه. كانت مكتئبة، وترتدي ثوباً من رقع سوداء، لكنها بدت نبيلة ورفيعة المستوى لكأنها ملكة مترملة. وكان ماسيو يقف أمامها ويضع تاجين من الأشواك فوق رأسيهما، وكان الأب سلفستر يحمل شمعة متقدة، ويترنم بترانيم الزواج السعيد.

حين فتحت عيني رأيت الأخوة. كانت وجوههم مشرقة، وتتقافز نيران مقدسة من عيونهم. وفجأة قفزنا جميعاً على أقدمنا، شبكنا أيادينا وكونا حلقة وبدأنا نغني ونرقص حول فرانسيس والزوجة اللامرئية. إنفجر الأخ بيرنارد بالبكاء وخلع الأخ كابيلا قبعته الشهيرة وظل يلوح بها في الهواء. أما جيلز الواقف إلى جانبه فقد كان يصفق بيديه. وفي تلك اللحظة تشجع ماسيو واخرج من تحت قميصه الناي الذي عزف فيه في تلك الليلة يوم سافر وحيداً، وركع على ركبتيه أمام فرانسيس وراح ينفخ أنغاماً رعوية بهيجة. وضجت الكنيسة الصغيرة المتواضعة التي كأنها زريبة في زفاف لأحد الرعاة.

واندهشت القديسة ماريا ديغلي إنجيلي، مثلها كمثل البقية منا، ونظرت من خلال تمثالها على ذلك الزواج الغريب وابتسمت من أجل ولدها، وكأنها كانت تقول له، يا ولدي، إن المبالغة في الحب قد قادت أصدقاءك إلى الجنون انظر إليهم فحسب وسترى أنهم قد سكروا من دون خمر، وأصبحوا عرساناً من دون عرائس. لقد أتخمهم الجوع وأغنتهم الفاقة. إنهم يتجاوزون الحدود يا ولدي، يتجاوزون الحدود المفروضة على الإنسان، وليس سوى القليل ويصبحون ملائكة. وذاك الذي في الوسط ألا تراه؟ ذلك هو صديقنا فرانسيس، المهرج المحبب إلى الله.

حين تركنا الكنيسة كانت السماء ملبدة بالنجوم. استمر فرانسيس في الظلام، كان يريد ان يكون وحيداً. واضطجع البقية منا على الأرض وأصغوا إلى الليل.

لم نتكلم. لقد اخترق الزواج الغريب عقولنا مرات ومرات. في البداية، كان العديد من الأخوة على شفا الانفجار بالضحك، ولكن شيئاً فشيئاً بدأنا جميعاً في إدراك المعنى الخفي. وتحول الضحك شيئاً فشيئاً إلى بكاء وتحول البكاء إلى منتهى السعادة. بهذه الطريقة تبكي الأرواح في الفردوس، قلت لنفسي، وبهذه الطريقة تضحك. السعادة هناك، لابد أن تكون هكذا تماماً... لقد تخلصت أرواحنا لدقيقة من عقولنا وأجسادنا، لم تعد بحاجة إلى حقائق وضيعة، من تلك التي يمكن ان ترى وتحس. بدلاً من ذلك أصبحت كل واحدة من أرواحنا نورساً صغيراً توقف عند محيط الرب، يهبط ويصعد بانسجام عظيم مع مشيئة الرحمن.

* * *

لم يعد فرانسيس في تلك الليلة، ولا في الليلة التالية. شعرنا بالضيق، ولكننا لم نقل شيئاً. في المساء الذي بعد ذلك جلسنا جميعاً خارج بورتيونكولا لنتناول الطعام الذي جمعناه خلال النهار وها نحن نقتسمه مع الجميع. وضعت لقمة في فمي، لكن بلعومي كان جافاً، فنهضت.

قلت: "سوف أبحث عن الأخ فرانسيس." وانطلقت باتجاه صقلية وتسلقت جبل ساباسيو. شيء ما كان يخبرني أنني سأجده في واحد من الكهوف التي أحبها كثيراً. أدرك تماماً أنه كان يمر في وقت حرج مرة أخرى. ثمة كرب جديد يمزق قلبه. وأنه قد عزل نفسه مع الله من أجل أن يسأله الرحمة والعون.

كان الوقت هومنتصف الليل عندما وصلت. دخلت كهفين أو ثلاثة لكنني لم أجده. وفجأة سمعت صوت نحيب هادىء، كأنه لطفل رضيع. اقتربت من الكهف الذي كان النواح يأتي منه. أبصرت عبر الظلمة وتمكنت من رؤية وجه شاحب، ويدين مرفوعتين متأرجحتين في الهواء. حبستُ أنفاسي وأصغيت. بدا لي أن شخصاً ما يتكلم، وان فرانسيس يتحدث مع شخص ما.

كان يبكي: "أريد أن أنفذ مشيئتك، أريد أن أنفذ مشيئتك، ولكنني غير قادر عليها"!

وبعد ذلك ران صمت. سمعت فرانسيس ينشج وسمعت صوت يديه وهما يلطمان صدره، ثم سمعت صوته ثانية:

"كيف لي أن أنقذ الآخرين، أنا المخطىء المدان حد اللعنة؟ لا أحد يدرك، لا أحد سواك يا سيدي، أي جحيم، أي طين يوجد في أحشائي"!

وران الصمت مرة أخرى. كان يبدو أن فرانسيس كان يصغي للجواب.

كنت خارج مدى السمع: وكانا كلاهما يتحدثان معاً، وشعرت أن من السماجة أن أتجسس عليهما وأصغي خلسة لأسرارهما. ولكنني قلتها مرة وأقولها الآن: أنا جلف! لقد مددت نفسي ووجهي على الأرض متلفهاً لسماع كل كلمة.

سرعان ما عاد صوت فرانسيس ليكون مسموعاً مرة أخرى، ولكنه مليء بالألم هذه المرة.

"هل غفرت لي ذنوبي؟ هذا ما أريد أن أعرفه: هل غفرت لي ذنوبي؟ إن لم تغفرها يا إلهي كيف لي أن أبدأ؟ فليس لي إيمان بهذا الطين الذي يدعونه الناس فرانسيس.

ولم أسمع شيئاً لوقت غير قصير لا صوت، لا نحيب، ولم أعد أرى اليدين تتأرجحان في الظلام.

ولكن فرانسيس نطق صرخة عنيفة: "متى ستقول كفى؟ متى؟ متى؟"

قفز على قدميه. كان الفجر قد انشق، وثمة وميض شاحب خجول قد زحف متقدماً ولعق الوجه الصخري للكهف. خطا فرانسيس خطوة، إلا أنه تعثر واصطدم رأسه بالحجر. وكنت أرى الدم يتدفق من جبهته. فصرخت وهرعت قافزا إليه.

"لا تخف يا أخي فرانسيس. إنه أنا الأخ ليو"!

رفع عينيه وحدق لوقت طويل من دون أن يراني. حتى رآني في الأخير وعرفني. وقال لي هامساً وهو يلهث: " كنت أتصارع، أتصارع يا أخي ليو، وأنا متعب."

غادرنا الكهف. وطفقت أمسك بذراعيه كي لا يسقط.

كان الضياء قد اصطدم بقمة الجبل وبدأ بالهبوط وكان العالم

يستيقظ. توقف فرانسيس وتساءل: "أين سنذهب؟ إلى أين تقودني؟ إنني بخير هنا. أنا متعب يا أخي ليو، أنا متعب."

حدق في الذروة. كان الضياء يضرب باستمرار منحدراً جديداً، موقظاً الصخور والأشواك والتراب. وجفل طائر حجل بصخب ومر من أمامنا وهو يفرق. في الشرق كانت نجمة الصباح ترقص وتضحك.

قال ثانية: "نحن هنا بخير حيثما نكون. لقد انقضى الليل، إنقضى، الحمد لله"!

وجثم متنهداً على صخرة ومد ذراعيه نحو الشمس ليدفئها. رفع رأسه وأشار إليّ بأن آتي لأجلس إلى جانبه. ثم حدق في ما حوله، وكأنه كان يخشى أن يسمعنا شخص ما.

قال لي بصوت خفيض، وهو يضع يده على ركبتي: "أخي ليو، إن أكثر وجوه الأمل تألقاً هو الله، ولكنه أيضاً أكثر وجوه اليأس تألقاً. إن أرواحنا تبحر وتميل بين حرفين."

ولم أتفوه بشيء. ماذا يسعني أن أقول؟ أحسست أن فرانسيس قد جاء من مكان بعيد بعيد، وقد هبط من أكثر القمم همجية، جاء ومعه من تلك المرتفعات رسالة قاسية وصعبة.

سألني بعد دقيقة: " هل لديك نعلان من الحديد يا أخي ليو؟ لابد لك أن ترتدي من هذا النوع يا صديقي ورفيقي المخلص. أيها الأخ التعس المسكين ليو أمامنا طريق طويل وشاق."

أجبته: "لدي قدماي. إنهما أعتى من الحديد: لا يهمني أينما تقودني، فلسوف يأخذانني إلى هناك."

ابتسم فرانسيس: "لا تتبرم يا أخي ليو. لقد جئت من مكان بعيد بعيد، ورأيت وسمعت أشياء مرعبة. استمع إليّ: لو عرضوا الخوف

للبيع في السوق يا أخي ليو، فلابد لنا أن نبيع كل ما نملك ونشتريه."
وتمتمت: "لم أفهم"
قال فرانسيس: "هذا أفضل شيء." وسقط في الصمت مرة أخرى.

* * *

فاض الجبل بالضوء الآن. أمامنا كانت ثمة أجمة أشجار الوزال البرية المغطاة بأزهار عطرة. ولاحت غيمة وردية كانت تسير بتؤدة عبر السماء حتى ذابت شيئاً فشيئاً تحت حرارة الشمس وتلاشت. وجاء طير صغير له قلنسوة حمراء على رأسه وحط على صخرة منتصبة أمامنا. كان يلوح بذيله ويدير رأسه بقلق في كل الاتجاهات، ثم أبصر بشكل مباشر نحونا وحين فعل ذلك (لا يمكنك إلا أن تشعر أنه كان يعرفنا) تشجع وبدأ يصفر: بصوت عال أول الأمر، ولكنه في الحال رجع برأسه إلى الوراء، ملأ حنجرته، وبعد ان حدق في السماء والضياء والشمس، انفجر بأغنية بانغماس مخمور. تلاشى كل شيء، ولم يبق في العالم سوى هذا الطير والله، الله ومنقار يغني.

أصغى فرانسيس مغمض العينين، وانطبع تعبير مشوش في ذهنه، ولكنه جذل في الوقت نفسه إلى حد لا يوصف. فارتخت شفته السفلى وراحت ترتعش.

وتوقف الطائر فجأة ونشر جناحيه ثم اختفى. وفتح فرانسيس عينيه.

تمتم : "اغفر لي يا إلهي، لقد نسيت نفسي للحظة."

ونهض مضطرباً. قال : "تعال يا أخي ليو!" رحنا نهبط.

تمتم: "ورغم ذلك فإن قلب الإنسان هادىء وذو عزم، إنه بحاجة فقط إلى طير صغير يغني، وهو مستغرق"!

اتخذنا منعطفاً بعيداً كي نصل إلى بورتيونكولا من دون أن نمر بصقلية لقد كانت مقفرة. تبعثر الرهبان ولن يعودوا حتى المساء.

قال لي فرانسيس: "اجلب الريشة والمحبرة."

جلبت الأدوات وركعت على ركبتي لأقابله وجهاً لوجه.

أمرني فرانسيس ماداً ذراعه: "اكتب"!

"اكتب: كفى يعني كفى! أنا متعب من السير تحت الأشجار المزهرة، متعب أن تكون لي دواب وحشية تأتي وتلعقني، متعب من رؤية الأنهار تنشق لأمرّ، متعب من المرور في النار من دون ان أحترق! إن بقيت هنا لوقت أطول فلسوف أتعفن من الأمن والكسل والحياة السهلة. افتح الباب ودعني أذهب"!

"آدم، آدم، أنت أيها المخلوق الطيني: لا تكن وقحاً."

"لست ملاكاً ولا حماراً. أنا إنسان. وأن تكون إنساناً يعني أن تكون محارباً. عاملاً، متمرداً. لدي شعور قوي أن في الخارج حيوانات تعض، وانهار تجرف، ونار تحرق. سوف انسحب من الصراع! افتح البوابة ودعني اخرج"!

مسح فرانسيس العرق عن جبهته ونظر حوله ليتأكد ان ليس ثمة من يمكنه أن يسترق السمع.

"هل كتبتها ؟"

"أجل يا أخي فرانسيس. سامحني لأنني رغم ذاك لا أفهم ماذا تقصد."

"لا يهم خذ ورقة أخرى واكتب:

"إن المطران على حق. نحن أيضاً حري بنا أن نكسب خبزنا بعرق جبيننا، لابد لنا أن نعمل، هذه هي مشيئة الله. ولكننا تزوجنا الفاقة

ومع كل احترامنا لك أيها المطران فلن نتخلى عنها أبداً."

"كتب:

- كل راهب من الإخوان يعرف في التجارة يجب أن يعمل في تلك التجارة، شرط أن تكون تجارة نزيهة، ولا تشكل عائقاً لخلاص الروح. وفي مقابل عملهم سيستلم الأخوة الرهبان فقط ما هو من ضروريات الحياة، ولن يقبضوا مالاً. إن المال، بالنسبة لهم، ليس إلا أحجاراً ونفايات. وإن لم تكن تجارتهم تكفي لعيشهم، فيجب عليهم أن لا يخجلوا من طرق الأبواب للتسول، ذلك لأن إعطاء الصدقات للفقراء شيء فرض على كل منا، ولم يكن المسيح يخجل من فقره أو لأنه كان غريباً ويعيش على الصدقات.

"احذروا يا أخوتي،ولا تدعونا نخسر حصتنا من السماء مقابل أشياء زائلة وتافهة كمثل الممتلكات الأرضية. لابد لكم أن تكونوا متواضعين وطيبي القلب، ويجب ان تسروا حين تجمن دون أنفسكم بين أولئك المتواضعين والمحتقرين من بين الفقراء والمرضى، بين المجذومين والمتسولين.

"اكتب يا أخي ليو:

"إن الفاقة، والطاعة والعفة، وفوق كل هذا، الحب، هم أعظم الرفاق في رحلتنا. وثمة واحد هو الذي يجب ان يسير أمامنا ليلاً ونهاراً ويجب أن تبقى عيوننا مشدودة إليه: إنه المسيح. لقد جاع، فدعونا نجوع أيضاً. لقد عانى، فدعونا نعاني أيضاً. وقد صلب فدعونا نصلب كذلك. وبعث من الموت، ونحن أيضاً، في يوم ما سوف نبعث من الموت."

كتبت وكتبت، وملأت الورقة. ثم أخذ فرانسيس الريشة ووقع اسمه في الأسفل بحروف غير متقنة: فرانسيس فقير الله الصغير.

قال: "هذا هو مبدأنا. الآن اكتب في أعلى الورقة، إلى أبينا الأكثر قداسة، البابا براءة."

ونظرت إلى فرانسيس مندهشاً. "هل سنرسلها إلى البابا؟"

"كلا يا أخي ليو. سوف نأخذها إليه شخصياً أنت وأنا. إن قدميك من الحديد أليس كذلك؟ وكذلك قدميّ. سوف نسير على الأقدام حتى المدينة المقدسة، مثل حجاج مستضعفين وسوف نهديها إلى البابا بيدينا. سنطلب منه أن يثبت ختمه أسفل الورقة، وإن لم يرغب فلسوف يختمها الله. لقد وعدني بذلك"!

"متى سنغادر؟"

"الليلة."

"أبهذه السرعة يا أخي؟"

"كم مرة يتحتم عليّ أن أقول لك ان الله لا ينتظر."

بدأ الرهبان بالوصول واحداً بعد الآخر بينما كنا نتحدث وتهالكوا على الأرض وقد غلبهم الإرهاق.

همس الأخ بيرنارد في إذن جاره: "إننا نضيع وقتنا، أو بكلمات أخرى أرواحنا، بالتجول طوال اليوم نطرق الأبواب. وكان الأحرى أن نبقى من دون حركة، راكعين على ركبنا، نصلي. حتى متى سيستمر هذا الحال يا أخي بيترو، حتى متى؟"

"ما دامت لنا أفواه يا عزيزي بيرنارد، لذلك كن صبوراً."

في تلك اللحظة تحولت الانظار نحو فرانسيس الذي نهض وكان يوشك ان يتكلم إذ ألقى نظرة على كل واحد من الرهبان وعيناه مليئتان بالقلق والحزن. لقد كان يعرف كم كان المغوي بارعاً، وكم هو ساذج قلب الإنسان، وكم ان الجسد قوي وجميل.

قال: "يا أشقائي، لقد استلمت رسالة من الرب، لابد لي ان أذهب بعيداً لبعض الوقت. لقد ازداد عددنا وأضحينا نعيش في أخوة كاملة، والآن يجب أن نؤسس لنا مبدأ. إنني أغادر كي أرمي نفسي عند قدمي ظل المسيح في الأرض، من أجل أن يباركنا. لا تبتئسوا. لن تبقوا وحيدين، سوف أكون بينكم ليلاً ونهاراً من دون أن تروني. وكل من هو لا مرئي يمكنه ان يُرى بوضوح أكثر ويسمع بوضوح أكثر، ويكون أكثر قدرة على قراءة أفكار الناس... ولكن احذروا! لا تنسوا! ما قلناه في صلوات المساء عن: الطاعة والعفة والفاقة، وفوقها جميعاً، الحب. والأمر الأخير يا أبنائي، الذي آمركم به هو: الامتناع عن التسول. فكل واحد منكم الآن سيتخذ عملاً. فهذا سيخدم في مستشفى، وذاك سوف يقطع الخشب في الغابة ويبيعه، ويعمل الآخر حمالاً أو ناسج سلال أو خفافاً أو يحرث الأرض ويحصد أو يقطف العنب أي شيء يلهمه الله للعمل به. ولا تنسوا على أية حال أننا قد تزوجنا الفاقة. لا احد سوف يخونها. سوف تعيشون من اليد إلى الفم، كل يوم عمل يوفر فقط ما تحتاجونه لذلك اليوم. كل شيء بعد ذلك سيعود إلى الشيطان. الفاقة، يا أبنائي، والطاعة والعفة والحب! هذه الأشياء بينكم أنتم يا من لديكم موهبة الحديث إلى الناس، ارسموا شارة الصليب وانطلقوا في أعمالكم. اذهبوا أزواجاً كي يسلي أحدكم الآخر، توقفوا حيثما ترون رفاقاً لكم، توقفوا ونادوا بالحب الكامل، الحب التام لأعدائكم كما هو لأصدقائكم، للفقراء كما هو للأغنياء، للأشرار كما هو للصالحين: فكلهم أطفال الله، وكل واحد منهم هو أخ لنا.

"أترك الأب سلفستر بدلاً عني أثناء غيابي. فأطيعوه. إنه كاهن الرب، إنه يصلي في الناس أمام المذبح، يحول الخمرة إلى دم المسيح. بالنسبة للجميع يقف هو ليكون الأقرب إلى الله.

"أيها الأب سلفستر، أسلمك الأخوة الرهبان في يديك. ارعهم. لو سقط خروف منهم مريضاً، فقد يكون ذلك خطأ الراعي جزئياً، وإن قفز أحد الخراف من فوق السياج وهرب من الزريبة، فهو جزئياً خطأ الراعي. فانتبه، أيها الأب سلفستر"!

ونشر ذراعيه، ليعانق الإخوان واحداً بعد الاخر.

"وداعاً يا أخوتي. سيرافقني حمل الله هذا الأخ ليو. القمر مشرق هذه الليلة والطريق إلى روما مضاء، كله أبيض، سنغادر الآن - ارسم شارة الصليب يا أخي ليو - بسم الله"!

وانفجر جيلز وماسيو وبيرنارد بالبكاء، وقبّل الآخرون يد فرانسيس من دون ان يتكلموا. واقترب روفينو وهمس في أذنه لكن فرانسيس هزّ رأسه.

قال: "كلا، كلا يا أخي روفينو. لا نريد عصا ولا نعالاً ولا خبزاً. سيعوضنا الله عنها. وداعاً يا أبنائي"!

خطا بضع خطوات، ثم عاد وقد امتلأت عيناه بالدموع.

"أنتم جميعاً: أمي وأبي وإخوتي. رفع الشيطان رايته وصاح الرب: "تعالوا يا كل المؤمنين! استمعوا إلى ندائه وأجيبوه: إننا آتون يا إلهنا، نحن آتون... تشجعوا يا إخوتي. إن الطيب والخبيث يتصارعان، لكن الطيب سيغلب. ولا وجود للخوف يا إخوتي، ولا وجود أيضاً للجوع ولا للعطش ولا للموت. الشيء الوحيد الموجود هو الله."

وأخذني من ذراعي.

قال: "تعال، دعنا نذهب." وكان تواقاً للانطلاق.

* * *

كم من السنوات قد انقضت منذ تلك الليلة حينما رسمنا شارة الصليب وانطلقنا في رحلتنا! إنني أجلس الآن في صومعتي. أغمض عيني، وأفكر: كم من الأقمار، كم صيفاً وخريفاً، كم من الدموع، لابد أن فرانسيس جالس الآن عند قدمي الرب لأنه ربما ينحني ويبصر في الأرض، يبحث في كل مكان عن بورتيونكولا لكنه لن يجدها. كنيسة كبيرة تنتصب على قمتها وسحقتها بعدد كبير من الأبراج، والأجراس والنصب والثريات والذهب والأخوة الرهبان: لم يعودوا يمشون حفاة، بل يلبسون الصندل والثياب الدافئة، والبعض سامحني يا إلهي في قولي هذا، البعض منهم صنعوا مشدات من الحرير!...

أتذكر أننا بينما كنا نسير تحت ضوء القمر تحول فرانسيس فجأة وحدق إلى الخلف مرعوباً. كان يبدو أنه قد سمع أجراساً ورأى كنيسة مستطيلة هائلة ذات ثلاثة طوابق. فأطلق صرخة، ورسم إشارة الصليب، فاختفى المبنى الضخم في ضوء القمر.

تمتم: "لم يكن ذلك حقيقة. المجد لله"!

واحسرتاه. أيها الأب فرانسيس، لقد كان ذلك كله حقيقة. كيف يمكن لأي إنسان أن يلجم كبرياء الإنسان وغروره؟ كيف يمكن للطهارة ان تسير أمامنا ويلتفت بين الحين والآخر ليبتسم لنا، أشك بأننا كنا قادرين على تحمل ذلك الإرهاق، وذلك الجوع والبرد أثناء الليل!

انقضت الرحلة بعد عدة أيام وليال. لو لم ننشد مدائح الرب طوال الطريق، لو لم نكن نتحدث عن الرب لما أحسسنا ان المسيح كان يسافر أمامنا ويلتفت بين الحين والآخر ليبتسم لنا، أشك بأننا كنا قادرين على تحمل ذلك الإرهاق، وذلك الجوع والبرد أثناء الليل!

حين كنا ندخل قرية كنا نطرق الأبواب ونحن جياع لنسأل الصدقات، وفي بعض الأحيان يعطينا بعض الناس لقمة خبز، وفي أحيان أخرى يضعون في أيدينا حجراً أو فأراً ميتاً ثم ينفجرون بالضحك، وحينما نغادر، كنا نتمنى البركة لمن أخطأ بحقنا.

كان الجو ربيعياً رائعاً. بدأت الأزهار تتورد وتتفتح والبراعم تتفتح على أشجار الكروم. وأورقت أشجار التين أول أوراقها الرقيقة.

ظل فرانسيس يقول لي: " هكذا سيكون النشور يا أخي ليو. سيكون كأنه الربيع، وسيقفز الموتى نحو الضياء كالقذائف."

في إحدى الأماسي توجهنا إلى سوق مدينة كبير. كان الشبان والشابات يتهيأون لإقامة احتفال كبير: لإحراق الأب الشتاء. ذهبنا إلى ساحة القرية ورأينا نصب الشتاء تماماً في الوسط، أمام الكنيسة. كان مصنوعاً من فروع الأشجار والقش وله لحية طويلة من القطن. كان الشبان من غير المتزوجين والعذارى من البنات يحملون المشاعل ويرقصون في حلقة حوله، يغنون الأغاني السافرة عن الربيع، وكانوا كلهم متوهجين من الإثارة: كانوا شباباً وغير متزوجين، ربيع مضاف له النبيذ فسكروا وانتفخت صدروهم وأوساطهم وكانت دماؤهم تغلي.

كان المتزوجون والشيوخ يراقبون ويضحكون ويتحلقون حولهم. إتكأ فرانسيس على إحدى الأشجار التي تحيط بالساحة وراح يراقب أيضاً. توقعته سيغضب ويغادر مجرجراً إياي معه، ولكنه استمر في

المراقبة بعيون مفتوحة على وسعها.

قال لي: "الجنس البشري شيء خالد يا أخي ليو. انظر إلى هؤلاء الشبان والشابات. انظر كيف تشتعل وجوههم وكيف تلمع عيونهم، وكيف يحدقون الواحد في الآخر وكأنهم يقول واحدهم للآخر "لا تقلق، فحتى لو بقينا أنا وأنت الوحيدان على الأرض، فلسوف نملؤها بالأولاد والبنات مرة أخرى!" إنهم أيضاً يا أخي ليو، يتتبعون طريقهم، طريق سوف يقودهم إلى الله. إننا نتخذ طريق الفاقة والعفة، أما هم فقد اتخذوا طريق الطعام الغزير والتسافد."

بينما كنا نتكلم، كان الرجل الذي يقود الرقص قد قفز إلى الأمام وقذف شعلة في بطن الشتاء. وأشعل العجوز التبن سريعاً. وارتفعت النيران عالياً، ارتفعت وهبطت ولم يبق شيء منها سوى الرماد. قذف الأولاد والبنات مشاعلهم بصياح قاصف وهم يتأوهون ويصرخون، وتفرقوا يطارد واحدهم الآخر باهتياج في الظلام. وامتلأت القرية بالضحك واللهاث.

أخذ فرانسيس يدي - وتقدمنا نحو الكنيسة في الجهة المقابلة من الساحة. وجثمنا عند مدخلها المقوس.

قال: " لقد كان ذلك يوماً رائعاً يا أخي ليو "واستراح عند دعامة الباب متهيئاً للنوم. "أجل كان يوماً رائعاً: رأينا فيه الوجه الآخر للإنسان الذي يجاهد. ليت البركة تحل عليه أيضاً"!

* * *

افترقنا ثانية في الصباح الباكر.

اندهش فرانسيس بفرح: "أية حرية لدينا! إننا أكثر الناس حرية

في العالم لأننا أكثرهم فقراً. فالفاقة والبساطة والحرية أشياء متطابقة."

بدأنا نغني مرة أخرى لكي ننسى جوعنا وإرهاقنا.

ورغم ذلك ففي كل يوم كان فرانسيس يجد قلبه ممتلئاً بالمرارة. في كل قرية ندخلها وكل مدينة كان الشيطان يقيم مخيماً. كان الناس يجدفون ويتخاصمون، يطعن بعضهم البعض، ولا يخطون خطوة واحدة في الكنيسة ولا حتى يرسمون إشارة الصليب.

وكان يقول لي دائماً: " لقد ثارت روح الإنسان، ولم تعد تخشى الله يا أخي ليو. إن الشيطان يقف عند المفترق. ينتحل أي وجه يعجب ويغوي الإنسان. إنه يظهر أحياناً راهباً، وأحياناً شاباً وسيماً وأحياناً أخرى امرأة."

في أحد الأيام حين كنا أخيراً قد اقتربنا من المدينة المقدسة توقفنا - ربما كان ذلك في منتصف النهار - واضطجعنا تحت شجرة سرو لنستريح ونلتقط أنفاسنا. كانت أقدامنا ينضح منها الدم، وعلا الغبار سيقاننا وفروتي رأسينا، كنا نتحدث منذ الصباح عن آلام المسيح، وقد انتفخت عيوننا واشتعلت بالنحيب. وحالما أغمضنا عيوننا نصف إغماضة متأملين إن يشفق علينا النوم ويزورنا، خرج من خلف شجرة السرو راهب سمين وسعيد يرتدي خفاً أحمر وقبعة واسعة حمراء. كان حليق الوجه، معطراً ووسيماً. هل كان من الممكن أننا قد نمنا وتراءى لنا أننا رأيناه؟

جاء إلينا وحيانا بفخامة ونشر منديله الحريري على صخرة وجلس.

من خلال أقدامكما العارية ومن رداءيكما المليئين بالثقوب،

لابد أنكما أعضاء في مذهب جديد، مذهب قاس بإفراط وصعب. أفهم أنكما في طريقكما للحج إلى روما."

أجاب فرانسيس: " لسنا سوى راهبين مسكينين، مذنبين وأميين من حثالة البشر، وإنا مسافران إلى روما من اجل ان نقع على أقدام البابا ونسأله أن يهبنا حجة؟"

" أية حجة ؟"

ضحك الكاهن وقال: "إنني أرى العنجهية تختلس النظر من الثقوب التي في رداءيكما. لا شيء وكل شيء هما واحد، وكل منا يبحث عن امتلأك اللاشيء يبحث أيضاً أن يمتلك كل شيء وهذا ما تعرفانه جيداً، أنتما أيها الثعلبان الماكران، ولكنكما تدعيان الفقر، أيها الشيطانان التعسان من أجل ان تقحما مخالبكما في كل شيء من دون ان تواجها معارضة ومن دون ان يدرك أي أحد ما تنويان فعله ولا حتى الرب."

وسرت رعشة في بدن فرانسيس. جلس تحت السرو مذعوراً وشفتاه ترتعشان: "كل شيء؟"

"كل شيء، وأنت تملك كل شيء من قبل أيها المنافق! أنت أغنى رجل على الأرض."

"نعم أنت. لسبب بسيط لأنك وضعت آمالك في الرب. ما أريد أن أراه هو هذا: فأن تكون فقيراً يعني أنك يجب ان تتخلى حتى عن الآمال إنك في يوم ما سترى الرب. هل بإمكانك أن تفعل ذلك؟ هذا هو الفقر المدقع: إنه يعني الزهد التام. هذا هو أعلى شكل للقداسة. هل بإمكانك أن تفعل هذا؟"

صاح فرانسيس: "من أنت؟ جئت من خلفي، أيها الشيطان!" ورسم

إشارة الصليب في الهواء، وسرعان ماذاب الراهب في الشمس ولم نعد نسمع سوى صراخ، وضحك صاخب تضاءل بعيداً حتى تلاشى خلف أشجار السرو. وبقيت رائحة القطران والكبريت عالقة في الهواء.

قفز فرانسيس على قدمية وقال: "أسرع، دعنا نذهب. إنه يغوي الموت كي يجلس في السرو... ألا ترى، يا أخي ليو، ألا تسمع؟"

"لقد رأيت يا أخي وسمعت. دعنا نذهب."

وانطلقنا مرة أخرى، لكن قلبينا مهتاجين. ولم يتنفس فرانسيس بكلمة طوال العصر. كان يسير أمامي مسرعاً، وكنت أسمعه يتنهد بشكل مستمر. التفتُّ ورأيته: كان وجهه يضمحل.

سألني هامساً: "هل تظن بأنه كان على صواب؟ هل تظن بأن ذلك الراهب عليه اللعنة كان على صواب؟ ولكنني هالك من دون ذلك الأمل"!

وجاهدت كي أواسيه. قلت: "إن الكلمات شيطانية، إنها فخاخ ينصبها المغوي. لا تقع في فخها يا فرانسيس."

صمت لدقيقة، ولكنه استمر بعد ذلك في صوت حزين:

"كان الراهب مصيباً. إن فقرنا لمفرط مفرط، لأنه يبقى السماء مخفية عميقاً في قاع صندوقها. الفقر الحقيقي يا أخي ليو يعني أن الصندوق خال تماماً حتى القعر، إنه لا يحتوي على شيء، ولا حتى السماء، ولا حتى الخلود. لا شيء، لا شيء، لا شيء"!

فكر لدقيقة وتنهد. كان يريد ان يقول شيئاً آخر، ولكن الكلمات الفظيعة قد خمدت في حنجرته. لكنها أخيراً استطاعت أن تخرج:

همس: "إلهي، امنحني القوة لتمكنني يوماً من أن أتخلى عن

الأمل، إلهي، في أن أراك. من يدري: ربما هذا، وهذا فقط يصنع الفقر المدقع."

وخنقت دموعه صوته. ترنح، فأمسكت به لأمنعه من السقوط.

"لا تقل ذلك يا أخي فرانسيس. إن ذلك يتطلب ما يتخطى القوة الممنوحة للبشر."

"أجل، أجل أيها الأخ المسكين ليو، إنه يتطلب ما يفوق قوة البشر، ولكن هذا هو بالضبط ما يتوقعه الرب منا تحديداً! ألم تستطع ان تفهم ذلك بعد، يا رفيق سفري التعس المسكين؟"

لم أفهم ذلك ولن أفهم. ألم تكن للطبيعة البشرية حدود وأن تلك الحدود مثبتة من قبل الله نفسه؟ لماذا إذن يتوقع منا سبحانه وتعالى أن نتخطاها؟ مادام لم يمنحنا الأجنحة لماذا يدفعنا إلى الطيران؟... كان حرياً به أن يمنحنا أجنحة!

عثرنا على شجرة صنوبر ذات أغصان شوكية طويلة وكثيفة منحنية باتجاه الأرض، فكانت لنا ملجأ طبيعياً. كانت الشمس قد جلدتها طوال النهار، وكان ثمة نسغ عطر ينضح من الجذر. تهالكنا على الأرض نتهيأ لقضاء الليل. ورغم ان بضع نتف من الخبز المتصلب قد بقيت في جرابي، فلم تكن لدينا رغبة حتى في تذوقها.

لم يتكلم أحد منا. لم أشعر بالنعاس، لكنني أغمضت عيني لأنني لم أستطع ان أرى وجه فرانسيس وهو في هذه الحال، إذ لم أره وهو في هذا الكرب. ورغم أنه كان يعض شفتيه ليكبح انفعاله، فقد سمعت أنين حيوان جريح يخرج من صدره.

ظهرت النجوم، وارتفعت الأصوات الليلية من التربة، وأحسست بعذوبة الليل وهي تخترقني تدريجياً وتلف نفسها ببراعة حول أحشائي.

وعلى حين غرة سقط نجم من السماء فناداني فرانسيس وهو يشير إلى الأعلى: " ألم تر ذلك يا أخي ليو؟ ثمة دمعة تدحرجت على خد الرب... أهذا يعني أن الإنسان ليس وحده الذي يبكي؟ هل أنت أيضاً تبكي يا إلهي؟ وهل تعاني يا أبي كما أعاني؟"

إتكأ على جذع شجرة الصنوبر منهكاً. أغمضت عيني وقد شعرت بالسكينة التي تبشر باقتراب النوم حتى سمعت فرانسيس فجأة. كان صوته أجش ومختنقاً ويصعب التعرف عليه:

"إنني أتوسل إليك يا أخي ليو أن لا تنام، وتتركني وحيداً! إن فكرة فظيعة ترتفع من أعماق وجودي، ولا أريد ان أكون وحيداً معها"!

فتحت عيني. لقد أرعبتني النغمة التي تشق القلب في صوته.

" أية فكرة هذه يا أخي؟ هل يمكن أن يكون المغوي قد عاد مرة أخرى؟ اخبرني وسوف تشعر بتحسن."

جاء فرانسيس إلى جانبي ووضع كفه على ركبتي: "أنت تعرف يا أخي ليو أن الإنسان يتمسك بورقة عشب صغيرة. وتأتي الملائكة والشياطين يحاولون فصله عن ورقة العشب هذه. إنه جائع وظامئ ويتصبب العرق من جبهته، مغطى بالدم، يبكي ويلعن من من دون أن يستطيع الفكاك. إنه غير راغب في أن يفك قبضته من ورقة العشب أو الأرض. أخي ليو، إن السماء أيضاً ورقة عشب"!

صار هو هادئاً، أما أنا فراح جسدي كله يختض.

صرخت مرتجفاً: "إنه ليس فرانسيس ذاك الذي يتكلم، لأنه ليس فرانسيس الذي يتكلم، إنه المغوي."

وأجاب: "إنه ليس فرانسيس وليس المغوي ولا حتى الرب. إنه الصوت

الذي يتكلم في داخلي يا أخي ليو وهو يعود إلى حيوان جريح."
وفتحت فمي لأتكلم، إلا أن فرانسيس وضع يده عليه.
وجأر: "لا تقل أي شيء آخر! وعد إلى النوم"!

* * *

كانت الشمس قد بزغت حين استيقظت في الصباح التالي. ولم أجد فرانسيس إلى جانبي، ونظرت حولي، بحثت من شجرة لأخرى أصيح بإسمه. ورفعت عيني فجأة لأراه يجثم على غصن عال. كان يحدق فيما بين الأشواك يختلس النظر إلى سنونوين يزقزقان بينما يرفرفان جيئة وذهاباً وهما يبنيان عشهما، ينقلان بمنقاريهما في كل مرة عوداً من القش أو شعرة حصان سقطت في الطريق، وكتلة من الطين.

فصحت:"انزل يا أخي فرانسيس. لقد بزغت الشمس. دعنا نكمل طريقنا"!

وأجاب: "إنني مرتاح هنا. نكمل طريقنا؟ أين؟ روما هنا، والبابا هنا؟ ومن هنا سآخذ الأذن. الوعظ."

مسكت لساني. فكثيراً ما يغلبني الخوف من أن سيدي ربما قد أصابه مس من الجنون. فجثمت على أحد جذوع الصنوبر وانتظرت.

واستمر: "لن أذهب إلى أي مكان. لقد أخذت الأذن من السنونوين فلا حاجة بنا إلى ان نذهب إلى البابا"!

ولم أتفوه بشيء أيضاً. كنت أنتظر أن يخمد لهيب الرب في داخله. وبعد صمت طويل سمعت صوته للمرة الثالثة، هادئاً الآن ومليئاً بالعاطفة:

"لماذا لا تقول شيئاً يا أخي ليو؟"

فأجبت: "إنني أنتظر أن يخمد لهيب الرب في داخلك."

وجاءتني ضحكته السعيدة، المنعشة والطفولية من خلف الأغصان ورنت في أذني.

"لا فائدة من الإنتظار يا أخي ليو! مادام لي دم ولحم فلن ينطفىء هذا اللهيب. سيلتهم أولاً اللحم والعظام، ثم سيلتهم الروح، وعند ذاك فحسب سوف يخمد. لذلك لا فائدة من الإنتظار يا أخي!... على أية حال، سوف أنزل"!

أزاح الغصون جانباً وبدأ بالهبوط. كان وجهه هادئاً، رائعاً. قال: " في هذا الصباح، أظن أنني بدأت أفهم لغة الطيور. هل سمعتها؟ إنها تتحدث عن حب الله، كما نفعل.؟

"من تقصد يا أخي فرانسيس؟"

"السنونوات."

أردت أن أضحك، ولكنني فكرت في الحال أننا جميعاً لا نملك غير آذان خارجية وعيون، أما فرانسيس فله عيون داخلية إضافة إلى الخارجية. حينما تغني الطيور لا نسمع نحن غير اللحن، أما هو فيسمع اللحن والكلمات.

ركعنا تحت أشجار الصنوبر وقرأنا صلاتنا ثم استأنفنا رحلتنا.

* * *

إن قلبي ليقفز فرحاً مثل طفل وليد. منذ سنين وأنا أتوق إلى زيارة المدينة المقدسة، لكي أحج إلى قبور الحواريين، ولكي أقف على قاعدة أحد أعمدة القديس بيتر وأرى الملامح المقدسة لممثل الرب على الأرض. لقد سمعت أن لا أحد يمكن أن يراها من من دون ان يرفع

يديه إلى عينيه ليحميها من الشعاع الساطع.

واقتربنا أخيراً. كلما دنونا كلما سمعنا بوضوح الخوار العالي للمدينة الخالدة: لقد كانت مثل بقرة تلد أو مثل حيوان يعذبه الجوع. فمن وقت لآخر كانت تتساب الأصوات البشرية في الهواء وتدوي الأبواق وتطرق الأجراس. نبلاء متسلحون وسيدات غنيات يمتطين خيولاً سوداء وبيضاء تمر عبر الشارع الكبير. وترتفع غيوم من الغبار، كانت الحرارة تبعث على الضيق، الهواء محشو برائحة روث الخيول والثيران والناس.

قال لي فرانسيس: "إننا ندخل منزل الحواري بيتر. كل ما تراه الآن له معنى سري. فاحذر. إذن! ألم تلاحظ السيدات النبيلات اللاتي مررن بنا يمتطين الخيول البيضاء والسوداء؟ إن الفضيلة والرذيلة يتنزهان هنا بالطريقة نفسها: كمثل السيدات النبيلات العظيمات."

وتعجبت: "الرذائل أيضاً يا أخي فرانسيس هنا في بيت بيتر الحواري؟"

ضحك فرانسيس: "لكم أنت بسيط وساذج يا أخي ليو ولكم أنت عديم التجربة! وكم احبك حباً جماً!... فأين تراك تجد الرذيلة؟ بالطبع هنا، في المدينة المقدسة! هنا حيث يكون الشيطان في خطر ولذلك يركز قوته كلها. ارسم إشارة الصليب وادخل. نحن هنا"!

دخلنا الشارع العريض.ولما كنا غير معتادين على ضوضاء المدينة الكبيرة فقد كانت آذاننا تصم من الصراخ والقعقعة والنباح والصهيل، كان التجار ينامن دون على بضائعهم من أعماق صدورهم ومر بنا المطارنة في داخل مهاد من الحرير، بينما كان مرافقوهم

يسيرون في الأمام ليفسحوا لهم الطريق. وكان ثمة عاهرات يتجولن، فيفوح الطريق بأكمله بالمسك والياسمين... "هذه هي الرذيلة" رحت أحدث نفسي وأطرقت بنظري.

وبغتة صرخنا أنا وفرانسيس. فقد ظهر في نهاية الشارع موكب غريب. يتقدمه خمسة أو ستة من المنذرين الذين يرتمن دون الثياب السوداء وينفخون في أبواق نحاسية طويلة، يوقفون خيولهم لمرات عدة وثمة مناد يمتطي بعيراً وينادي: "أيها المسيحيون، أيها المسيحيون، إن الضريح سوف يمر من أمامكم فانظروا إليه شاعرين بالعار! إلى متى سيبقى يوطأ ويدنس من قبل الملحدين؟ إلى السلاح أيها الأخوة، دعونا نتحد باسم المسيح كي نخلص القبر المقدس"! ثم يصمت، وتنفخ الأبواق ثانية. بعد ذلك كان يتقدم ببطء شديد أربعة ثيران مشدودة إلى عربة وفوق العربة كان ثمة ما يمثل الصريح المقدس صمم من الخشب والحديد وقماش ذي ألوان مختلفة، وكل ذلك متوج بجواد خشبي يمتطيه شخص متخف على انه احد المسلمين، وهو يحمل راية هلال على خلفية خضراء، كان يلوح بها في الهواء بينما كان الحصان المرفوع الذيل، يتبرز فوق الضريح. وتبعت ذلك مجموعة من النسوة يرتدين ثياب الحداد. كن قد أطلقن شعورهن إلى الوراء ورحن يلطمن على صدروهن ويندبن.

كان الموكب قد ابتعد، انعطف في زاوية واختفى. لم يختف من عيوننا، على أية حال، ولكنه ابتعد وابتعد وكأن ليست له نهاية. فاضت عيوننا بالدموع وأضحت المدينة غامضة، ولم نعد نرى سوى الضريح المنتهك وأرواحنا المنتهكة.

قال فرانسيس وهو يمسح دموعه: "نحن أيضاً لدينا عمل لابد أن

ننجزه يا أخي ليو. الحياة قصيرة، فهل لدينا الوقت؟... ماذا تعتقد يا أخي؟"

أجبت: "كما ترى حياتنا الأرضية لها قيمة بالتأكيد، فلماذا نهجرها؟"

لم يجب فرانسيس. كان يفكر، وسررت لأنني جعلته يفكر بهذا: أنت ترى أنني أحببت الحياة، تلك الورقة الصغيرة من العشب ولم أرد ان أحل قبضتي عنها.

* * *

حل الظلام. كنا مستعدين للنعاس، وذهبنا عبر الأزقة الضيقة، كنا نتوقف في كل لحظة كي نبحث عن مكان ننام فيه. كان ثمة رجل عجوز حافي القدمين وله لحية بيضاء صغيرة تشبه الإسفين يتبعنا لبعض الوقت. حتى جاء إلينا في الأخير.

قال: "يبدر أنكما غريبان هنا، وفقيران، مثلي ومثل المسيح، وليس لديكما مكان تريحان فيه رأسيكما. تعالا معي."

قال فرانسيس: "لقد أرسلك الله إلينا سنذهب إلى حيث تقودنا."

وسرنا في أزقة قذرة حيث يحتشد الفقراء كالنمل، وحيث الأطفال يتمرغون في الوحل، والنساء يغسلن الثياب أو يطبخن في وسط الشارع. وثمة رجال يتجمهرون ليلعبوا النرد. سار دليلنا في الأمام مسرعاً وتبعناه بصمت.

ومال فرانسيس إلي ليهمس في أذني: "من يكون؟ ربما يكون هذا المسيح وقد أشفق علينا."

أجبت: "وقد يكون أيضاً الشيطان. لابد أن نحذر."

وكـان قـدرنا في فنـدق صـغير نـصف منهـار لـه باحـة واسـعة وفي وسطه بئر. تبدو من كل جهاته السوداء غـرف خربـة ومـن دون أبـواب مثل الكهوف.

توقـف الـشيخ ونظـر حولـه، وأخـذنا في واحـدة مـن الغـرف. وأنـار المصباح.

بإمكانكمـا أن تقضيا الليـل هنـا بأمـان إيهـا الأخـوة هـذه مدينـة شريرة وخطرة في الليل ليحمكما الله.

سـأله فرانسيس وهو يحدجه بتفرس: "من أنت أيها الأخ؟"

واستمر الآخر: "ستجدان مقعـدين وإبريـق مـاء هنـا. أنـا ذاهـب الآن لأجلب لكما بعض الخبز والزيتون وبعد ذلك سنتكلم. يبـدو أنكمـا من النـاس الذين يخافون الله. أنا أيضاً فقير وأخشى الله. وهـذا يعـني ان هنالك الكثير الذي يمكـن ان نتحدث فيه سوف أعود بعد قليل."

واختفى في ظلمة الفناء.

نظرت إلى فرانسيس.قلت: "لا أحـب هـذا الـشيخ، ثمـة شـيء خفـي وراء طيبته."

قال فرانسيس: "مـن خـلال رؤيـة عينيـه، يبـدو أنـه موثـوق بـه. دعنـا نضع ثقتنا بالرجل يا أخي ليو."

كانـت هنالـك سـجادتان قـديمتان قـد فرشـتا علـى الأرض. وظهـر بريق العديد من النجوم عبر ضوء السماء البعيدة التي شكلت أشعتها صليباً. لقد أمسى الظلام دامساً في الخارج الآن.

عاد الرجل بالخبز والزيتون. وجلب معه أيضاً رمانتين.

قـال: "أيهـا الأخـوة نقـول في بـلادي: لـدينا القليـل مـن الممتلكـات والكثير من الحب!... مرحباً بكم"!

رسمنا إشارة الصليب وبدأنا نأكل. جلس مضيفنا في الزاوية وراح يراقبنا. وحالما انتهينا وشكرنا الله، بدأ فرانسيس بالكلام، من دون ان يمنح الشيخ فرصة للسؤال.

قال: "إننا راهبان فقيران. ولدينا أخوة آخرون أيضاً، ونحن نقضي حياتنا نمجد الرب ونتسول. لا نريد امتلاك أي شيء، وقد جئنا هنا إلى المدينة المقدسة كي نسأل ممثل المسيح ليمنحنا امتيازاً عظيماً: إمتياز الفقر المدقع... الآن عرفت كل شيء. لقد قدمنا اعترافنا. جاء دورك."

سعل الشيخ الضئيل. وبقيت صامتاً لبعض الوقت، وهو يمشط لحيته بأصابعه. وأخيراً فتح فمه للكلام:

"ما دمتما قد وثقتم بي، فلسوف أثق بكما. يشهد الرب أنني سأقول لكما الحقيقة كاملة. أنا من بروفانس وأنا واحد من طائفة للمسيحيين الحقيقيين، اسمها الكاثاري لابد أنكّ قد سمعت بنا. أنتم تحبون الفاقة وكذلك نحن. ولكن فوق ذلك نحن نحب الطهارة والعفة والنظافة، ومن أجل هذا يطلقون علينا الكاثاري. إننا نكره المتعة والمرأة وكل شيء مادي. نحن لا نجلس على معقد جلست عليه امرأة ولا نأكل من خبز عجنته امرأة. لا نتزوج فلا أطفال لنا، ولا نأكل اللحم، لأنه يتولد من لقاء الذكر والأنثى. ولا نشرب النبيذ ولا نسفك الدم، لا نقتل ولا نذهب للقتال في الحروب. ليس لدينا أي رجاء في هذا العالم: إنه غير نزيه، كاذب وزان، شرك نصبه الشيطان. هل من الممكن أن يكون الله قد خلقه؟ كلا فهذا العالم ليس من خلق الله، إنه من خلق الشيطان. لقد خلق الله العالم الروحي لا غير، وخلق الشيطان العالم المادي حيث سقطت أرواحنا فيه، وهي

الآن تغطس فيه. لذلك فلكي ننقذ أنفسنا، لابد لنا أن نهرب من هذا العالم. كيف؟ عبر القداسات الاحتفالية لكبير ملائكة الخلاص، الموت.."

كانت ملامح وجه الشيخ تتلألأ، وكان الهواء الذي حول رأسه يتبخر بحرارة الإشعاع. كان فرانسيس قد أخفى وجهه بكفيه.

واستمر الشيخ منجرفاً بانفعاله: "ما هو الموت؟ ما هو الموت؟ إنه الملاك الذي يحرس البوابة! يفتح الباب فتدخل حياة الأبدية."

رفع فرانسيس رأسه. وللحظة أعتم وجهه وكأن جناح الموت قد مر من فوقه.

"عفواً أيها الشيخ، ولكن يبدو لي أنك تحتقر العالم أكثر مما ينبغي. إن العالم ساحة صراع. حيث جئنا لنتصارع من أجل أن يتحول الجسد إلى روح. وفقط بعد أن يصبح الجسد روحاً لا يعود العالم ضرورياً لنا. ودع الموت يأتي " فيما بعد " وليس قبل ذلك. إننا يجب ان نلتمس من الله الوقت الكافي كي نمحو الجسد."

واعترض الشيخ بعناد: "الموت وحده يمكنه ذلك."

تساءل فرانسيس: "إن كان ذلك هو الأمر فما قيمة الإنسان؟ لابد لنا أن نفعل ذلك وليس الموت."

ثم نهض وجلب الضوء من الجدار وقربه من وجه الشيخ. وسأله بصوت متألم: "من أنت؟ كلماتك مغرية وخطرة. هكذا يتكلم المغوي إنني لن أتزحزح."

ثم التفت نحوي وأشار إليّ: "انهض يا أخي ليو إننا ذاهبان."

ولم أتحرك. أين يمكننا ان نذهب؟ ثم إنني كنت أشعر بالنعاس ولا يمكنني أن أتزحزح. قلت: "يا أخي فرانسيس إن الهروب لا يبدو

لي فعلاً رجولياً لماذا لا نبقى؟ ليس ثمة من سبب يدعو للخشية منه. دعه يصف الطريق الذي اختاره للوصول إلى الله. ثمة العديد من الطرق."

كان فرانسيس يقف في المدخل ينظر إلى الليل في الخارج. كانت ضوضاء المدينة قد خمدت وتعلقت النجوم فوق الأرض وهي تهتز. وتنهدت بوم برقة في زاوية خربة من الفندق.

عاد فرانسيس إلى سجادته وجلس، متكئاً بظهره إزاء الجدار. تمتم: "نعم، ثمة الكثير من الطرق، الكثير من الطرق..."

ثم صمت.

نهض الشيخ وقال: " لابد ان كلماتي دخلت أذنك، الآن أعجبتكم ام لا فإنها سترحل في داخلكما، بطيئاً ولكن ليس أكيداً، حتى تصل إلى قلبيكما. لقد قلت ما لدي لقد بذرت بذوري، والبقية تعود إلى الله"!

وما أن أعلن ذلك، حتى اختفى في ظلام الفناء وبقينا وحيدين. أطفأنا المصباح وجلسنا صامتين لوقت غير قليل. أغمضت عيني لأنام، ولكن بعد ذلك قال لي فرانسيس في صوت هادىء ورقيق وحزين: "أخي ليو، إنني واثق من قلبك. تكلم"!

أجبت: "لا تصغ للمغوي العجوز. الأرض طيبة. بالنسبة لي أرغب أن أشد جسدي إلى سلحفاة ليطول بي الطريق الأرضي أطول ما يمكن. لماذا؟ لأنني أحب الأرض! سامحني يا إلهي: السماء رائعة، بروعة ما نتمنى، ولكن آه، على رائحة شجرة اللوز في الربيع!..."

فاستغرب فرانسيس وهو يغير موضعه: "ظهرت من خلفي أيها الشيطان! لقد سقطت روحي بين مغويين اثنين. فنم"!

لم أطلب أفضل من هذا. أغمضت عيني وسرعان ما نمت. حين استيقظت في الصباح رأيت فرانسيس راكعاً عند العتبة، يصغي بانتشاء إلى العالم المتيقظ.

* * *

حتى الآن بعد هذه السنين الكثيرة، اشعر بالدوار حين أفكر بالمدينة المقدسة. ومازلت أرى فرانسيس جالساً على معقد واطئ في غرفة البابا ينتظر أن يسمح له بالدخول. انتظرنا منذ الصباح وحتى الليل، كلانا، يوماً، يومين، ثلاثة. حفاة ومتعبين وجياعاً. كان يمر من أمامنا الكاردينالات بأرديتهم اللامعة داخلين وخارجين وكذلك السيدات النبيلات، بينما كان فرانسيس جالساً على معقد واطئ يصلي وينتظر.

قلت له مشمئزاً في اليوم الثالث: "كان أسهل علينا أن نرى المسيح نفسه."

أجاب: "إن ملامح البابا عالية فوقنا وبعيدة جداً. لقد مضى علينا ثلاثة أيام ونحن نتسلق. غداً سوف نقابله. أعرف ذلك لأنني حلمت، فاصبر يا أخي ليو."

وكان ذلك حقيقة. ففي اليوم الرابع أشار إلينا الكاهن الشاب الذي كان يعمل بواباً، وفتحت البوابة الكبيرة. رسم فرانسيس إشارة الصليب ولكنه بعد ذلك تردد للحظة وركبتاه تختضان.

قلت له برفق: "تشجع يا أخي. لا تنس ان المسيح قد بعث إليك فلا ترتعش."

تمتم: "إنني لا أرتعش يا أخي ليو." وخطا بعزم عابراً العتبة.

دخلنا في غرفة طويلة ضيقة مزخرفة في كل مكان بالذهب، ورسمت آلام المسيح على الجدران، وثمة تماثيل للحواريين على كلتا الجهتين. في النهاية البعيدة، جلس رجل عجوز بدين على عرش كبير، يتأمل. كان رأسه يستقر على راحته، وعيناه مغلقتاه. من الواضح انه لم يشعر بدخولنا لكنه لم يتحرك. وبقيت قرب الباب. تقدم فرانسيس بخطى متعثرة يقترب من العرش، ركع وأحنى جبهته على الأرض.

وران صمت طويل. كان بإمكاننا أن نسمع أنفاس العجوز الثقيلة المتقطعة الأنفاس بدت وكأنها تتهدات. هل كان نائماً، يصلي أو يلاحظنا بمكر بعيون نصف مغلقة؟ شعرت أنه كان مثل حيوان خطر يتظاهر بالنوم وهو مستعد للانقضاض علينا في أية لحظة.

"أيها الأب المقدس..."كان صوت فرانسيس منخفضاً ثابتاً وخاضعاً "أيها الأب المقدس..."

رفع البابا رأسه ببطء، ثم نظر إلى الأسفل ورأى فرانسيس. كان أنفه يهتز.

وتعجب: "أية رائحة كريهة هذه!"، وكان حاجباه يتذبذبان من الغضب. " من هؤلاء الحثالى الحفاة! من تظنون أنفسكم؟"

أجاب فرانسيس ولا يزال وجهه مطرقاً: " أنا خادم الله المتواضع من صقلية أيها الأب المقدس."

"من أية حظيرة خنازير جئت؟ أظن أنك تعتقد أنك بذلك تضاعف رائحة الفردوس أليس كذلك؟ الم تستطع ان تغتسل وترتدي الثياب اللائقة وتهتم بمظهرك أمامي؟ ماذا تريد؟"

خلال أيام السهاد الطويلة كان فرانسيس قد حفظ عن ظهر قلب

ماذا كان سيقول للبابا. كان قد جزأ الكلام كله بمهارة وأعطاه بداية ووسطاً ونهاية من أجل أن لا يعطي البابا فكرة بأنه لا يعرف ماذا يريد. أما الآن فما أن وجد نفسه أمام ظل الله فقد خانه عقله. فتح فمه مرتين وثلاثاً ولكنه لم يستطع ان ينطق بكلام بشري. وبدلاً من ذلك ثغى كالحمل.

قطب البابا جبينه: " ألا يمكنك الكلام؟ اخبرني ماذا تريد؟"

"جئت كي أقع عند قدميك أيها الأب المقدس، وأطلب منك معروفاً."

"أي معروف؟"

"أن تمنحني امتيازاً."

"أنت أمنحك امتيازاً؟ أي امتياز؟"

"امتياز الفقر المدقع، أيها الأب المقدس."

"أنت تطلب الكثير"!

"إننا عدد من الرهبان الذين نرغب في الزواج من " الفاقة " وجئت لأطلب منك أن تبارك زواجنا، أيها الأب المقدس، وتسمح لنا في ان نعظ."

"ان تعظوا بماذا؟"

"بالفقر المدقع، والطاعة الكاملة والحب الكامل."

"لسنا بحاجة إليكم، مادمنا نحن الذين نعظ بهذه الأشياء. اذهب وكن لطيفاً."

رفع فرانسيس وجهه من الأرض وقفز على قدميه.

"اغفر لي أيها الأب المقدس." قال ذلك وغدا رابط الجأش الآن. "ولكنني لن اذهب. لقد أمرني الله ان أقوم بهذه الرحلة كي أتكلم

إليك، وقد جئتك. أتوسل إليك أن تسمعني. إننا فقراء وأميون، حيث نسير في الشوارع نرتدي ثياباً مرقعة فيرمينا الناس بالأحجار والقشور. يهرع الناس من بيوتهم ودكاكينهم ليسخروا منا. هكذا والحمد لله بدأت رحلتنا. على هذه الأرض، ألم يبدأ كل أمل عظيم دائماً على هذا المنوال؟ كل ثقتنا بفاقتنا، وجهلنا وقلوبنا التي اشتعلت بالنار. قبل أن أغادر من هناك إلى هنا واجدك، أيها الأب المقدس، رسمت بوضوح في عقلي ما كنت أنوي أن أقوله لك لأجل أن تقول نعم وتختم لي ورقتي. والآن نسيت كل شيء. إنني أنظر إليك، وأرى خلفك المسيح مصلوباً وخلف صلب المسيح، انبعاث الرب، وخلف انبعاث الرب انبعاث العالم المنبوذ تماماً. أية سعادة أراها أمامي، أيها الأب المقدس! كيف يمكن أن تفشل في إرباك عقل الإنسان؟ لقد احتار عقلي واضطربت كلياً، لا أعرف من أين أبتدىء، وما هي البداية وما هو الوسط وما هي النهاية. كل الأشياء متشابهة الآن، كل شيء صار حسرة، أيها الأب المقدس، الرقص، تلك الصرخة العظيمة التي لا أمل منها. هي رغم ذلك مملوءة بكل أمل. آه لو تسمح لي بالغناء، أيها الأب المقدس عند ذاك سأستطيع ان أنقل إليك ما ارجوه منك"!

كنت أراقب فرانسيس من زاوية وشعرت بالهلع حين سمعت كلماته. بدأت أقدامه بالمراوحة نافذة الصبر، مستثارة تقذف بخطوة إلى اليمين وخطوة إلى اليسار، أحياناً ببطء وأحياناً على عجل، كأولئك الراقصين الذين يقدمون إيقاعهم قبل أن ينغمسوا بقلوبهم وأرواحهم في الخدر المقدس للرقص ومن دون شك فإن روح الله كانت تدور حوله. وكان سيبدأ في التصفيق في أية لحظة ويرقص،

حيث عند ذاك سيرمينا البابا إلى الخارج.

وفي الحقيقة، بينما كانت تلك الفكرة تمر في ذهني، رفع فرانسيس يديه وقال:

"يجب ألا تفهمني خطأ أيها الأب المقدس، إنني ببساطة أملك الرغبة لإطلاق الصرخة الثاقبة وأصفق يدي وأبدأ الرقص. إن الله ينفخ في كل ما هو حولي في الأعلى والأسفل، نحو اليمين ونحو اليسار، ويجعلني أدور مثل ورقة يابسة."

اقتربت منه على نهاية أطرافي وهمست: " فرانسيس يا أخي، إنك أمام البابا. أين احترامك له؟"

لكنه جأر: "إنني أمام الرب. كيف ستتوقع مني أن أقترب منه، بغير الغناء والرقص؟ أفسح لي مجالاً... لسوف أرقص"!

حنى رأسه لأحد الجانبين، ومد ذراعيه وتقدم إلى الأمام إلى نحو قدم، ثم آخر وطوى ركبتيه ثم آخر وطوى ركبتيه ثم قفز في الهواء، وطوى ركبتيه مرة أخرى، وجثم على الأرض. في اللحظة التي لمسها فيها عاد ليقفز بسرعة في الهواء ويداه ممدودتان على الجهتين، لكي يبدو إنساناً مصلوباً ويرقص أمامنا.

عندها سقطت عند قدمي البابا. وتوسلت: "اغفر له أيها الأب المقدس. إنه مخمور بحب الله ولا يعرف أين هو. إنه دائماً ما يرقص حين يصلي."

قفز البابا عن عرشه محاولاً كبح جماح غضبه بصعوبة وصرخ في فرانسيس: "كفى"! وأمسكه من كتفه. "إن الله لن يكون لك خمراً لتجعل نفسك سكراناً. اذهب إلى حانة إذا كنت تريد أن ترقص."

توقف فرانسيس واتكأ على الجدار وهو يلهث. وبعد ان حدق في ما حوله في الغرفة عاد إلى وعيه.

"اخرج." أمر البابا، وسار ليستدعي البواب بالجرس. لكن فرانسيس سحب نفسه من الجدار واستعاد رباطة جأشه.

"اصبر أيها الأب المقدس. أريد أن أذهب ولكنني يجب أن لا اذهب لأنني مازال لدي شيء أود قوله لك. فقد حلمت في الليلة الماضية بحلم."

"حلم؟ انظر هنا أيها الراهب، لدي الكثير من المشاغل، إنني أحمل الكون بأكمله على أكتافي، وليس لدي الوقت لأستمع إلى أحلام."

"إنني أركع وأصلي لقداستك: فقد يكون هذا الحلم رسالة من السماء عن الليل الرسول العظيم للرب. يجب أن تتلطف وتسمعه."

قال البابا: " أجل إن الليل هو الرسول العظيم للرب. تكلم."

وعاد ليجلس على عرشه وعلى وجهه تعابير من هو مستغرق في التفكير.

"بدا لي أنني كنت واقفاً على صخرة مقفرة عالية وأحدق في كنيسة لاتيران التي هي أم كل الكنائس. وبينما كنت أحدق فيها، رأيتها تتداعى بغتة. مال البرج وراحت الجدران تتشق وسمعت صوتاً في الهواء:

"ساعدني يا فرانسيس"!

قبض البابا على ذراعي عرشه ودفع بالجزء الأعلى من جسده إلى الأمام متحمساً وكأنه كان يريد أن ينقض على فرانسيس.

"ثم ماذا لا تتوقف!" صار صوته أجش، وراح يلهث.

"هذا كل ما في الحلم، أيها الأب المقدس، طار الحلم واستيقظت."

قفز البابا من عرشه وانحنى ثم أمسك بفرانسيس من مؤخرة عنقه.

وأمره: "لا تخف وجهك، ارفع رأسك ودعني أراك.

"إنني خجل أيها الأب المقدس. لست إلا نملة حقيرة."

"اخلع قلنسوتك، ارفع وجهك لأراك"!

قال فرانسيس: "تفضل أيها الأب المقدس" وأزاح قلنسوته وكشف وجهه.

واندفع شعاع من ضوء الشمس عبر النافذة وسقط على ملامحه، مضيئاً الخدود الضامرة، والفم الذابل والعيون الكبيرة المليئة بالدموع.

وأطلق البابا صرخة وصاح: " أنت! أنت؟ كلا، كلا، لا أريد الاعتراف بهذا! متى حلمت بحلمك هذا؟"

"هذا الصباح عند الفجر."

فزأر البابا: "أنا أيضاً، أنا أيضاً كان لي هذا الحلم في هذا الصباح عند الفجر." وسار إلى النافذة وفتحها. كان يختنق. واندفعت همهمة المدينة إلى الداخل. فعاد وأغلق النافذة وعاد إلى فرانسيس مسرع الخطى.

وسأله بغضب واحتقار وهو يهزه من أكتافه: "أنت هل رأيت الله من قبل؟"

"اغفر لي أيها الأب المقدس: أجل في الليلة الماضية."

"هل تكلم معك؟"

"لقد بقينا معاً طوال الليل من دون ان نتكلم. وبين الحين والآخر كنت أقول له " أبي " ويجيبني هو " ولدي ". ولا شيء آخر. وعند الفجر رأيت حلمي."

انحنى البابا فوق فرانسيس وتفحص وجهه بقلق كبير: "إن مكائد الذرى القصوى جحيم جحيم... اليوم عند الفجر حين غادرك الحلم، جاء وعثر علي. أنا أيضاً رأيت الكنيسة تميل وبدأت تتداعى. ورأيت شيئاً آخر لم تره أنت: رأيت راهباً ذا وجه قبيح وثوب مرقع."

وزأر بعد دقيقة: " كلا، كلا، إنه أيضاً شيء مخز، فهل هذا يعني أن البابا غير أهل لمنصبه؟ ألا أكون الإنسان الذي يحمل المفتاحين اللذين يفتحان السماء والأرض، يا إلهي، لماذا تخطىء بحقي هكذا؟ ألم أكن أنا الذي قضيت على الهراطقة المتوحشين الخارجين على القانون، الكاثاريين، وثبت ركائز الإيمان في بروفانس؟ ألم أكن أنا الذي حطم أساس عش الزنابير الملعونة، مدينة القسطنطينية، ألم أكن أنا من نقل ثرواتها: من ذهب وثياب فاخرة وإيقونات ومخطوطات وعبيد من نساء ورجال إلى بلاطك؟ ألم أثبت الصليب في كل حصون إيطاليا؟ ألم أكن أنا الذي أقاتل كي أثير المسيحيين لإنقاذ قبرك المقدس؟... لماذا إذن لا تناديني بدلاً من هذا الراهب المرقع الثوب القبيح الوجه الذي جاء ليسند بظهره الجدران المتداعية للكنيسة كي لا تسقط؟"

وأمسك بفرانسيس مرة أخرى من رقبته وسحبه نحو النافذة ونحو الضوء. ثم دفع برأسه إلى الخلف وانحنى فوقه.

وتساءل في صوت مرتعد: " أيمكن ان تكون هو أنت؟ وجه الراهب ذو الثياب المرقعة يشبه وجهك تماماً! هل يعني هذا أنه أنت الذي سوف ينقذ الكنيسة؟ كلا، كلا، لا يمكن ان يكون الأمر هكذا! إلهي أنا ظلك على الأرض: فلا تذلني!"

هز فرانسيس بعنف، ثم مد يده نحو الباب:

"اخرج "!

فـردّ فرانـسيس: "أيهـا الأب المقـدس إنـني أسمـع الـصوت الـذي في داخلي يقول لي لا تخرج"!

"إنه صوت الشيطان، يتمرد"!

"أنا أعرفه. إنه صوت المسيح، أيها الأب المقدس. إنه يأمرني بأن لا أخرج. إنه يقول: افتحوا قلوبكم لمن يمثلني في الأرض. إن قلبه مليء بالرحمة، ولسوف يساعدكم."

حنى البابا رأسه الكبير، وعاد بخطوات بطيئة إلى عرشه وجلس. كـان ثمـة مفتاحـان كبيران مطلبـان واحـد بالـذهب والآخـر بالفـضة يلمعان خلف العرش تماماً فوق رأسه.

قال بعد أن رق صوته: "تكلم. لم أتوصل لقرار بعد. إنني منصت إليك. أخبرني بما تريد."

"لا أعرف من أين أبدأ أيها الأب المقدس، أو ماذا أقول، أو كيف أضع قلبي تحت قدميك. أنا مهرج الله، أقفز وأرقص وأغني من أجل ان أجعله يضحك لبعض الوقت. هذا أنا، وهذا كل ما أستطيعه. أيها الأب المقـدس، أرجـو منـك ان تـسمح لـي بالغنـاء والـرقص في المـدن والقرى وان أكون في ثياب بالية وحافياً ولا أملك شيئاً آكل منه."

"ولماذا تتوق إلى الوعظ بهذا الشكل؟"

"لأنني أعتقد أننا قد وصلنا إلى حافة الهاوية. فأرجو منك أن تسمح لي بالصراخ، إننا ننحدر إلى الدرك الأسفل!" هـذا هـو كـل مـا أطلبـه منك، أن تسمح لي بأن أصرخ: "إننا ننحدر إلى الدرك الأسفل"!

"وأنـت تعتقـد أيهـا الراهـب، أنـك في صـرختك هـذه سـتنقذ الكنيسة؟"

"معاذ الله! من أنا حتى أنقذ الكنيسة؟ أليس للكنيسة بابا يحميها، والكاردينالات والمطارنة، والمسيح نفسه؟ بالنسبة لي أنا أسأل شيئاً واحداً، وهو كما تعرف، أن تسمح لي بالصراخ: "إننا ننحدر إلى الدرك الأسفل"!

ومد يده في داخل ردائه واخرج اللائحة التي كتبتها بعد أن أملاها علي، وزحف بها نحو العرش.

"عند أقدام عرشك أيها الأب المقدس، أضع القانون الذي سوف ينظم حياتي وإخوتي.أرجو تلطفكم بوضع ختمكم المبجل عليه."

شخص البابا بنظره على فرانسيس. قال ببطء في نغمة وقورة محذرة: "فرانسيس الأسيزي، فرانسيس الأسيزي، إنني أتبين ناراً حول وجهك. هي نيران الجحيم أم نيران الفردوس؟ إنني لا أثق بالرؤى التي تبحث عن المستحيل: الحب الكامل والعفة الكاملة والفقر المدقع. لماذا ترغب في اجتياز الحدود البشرية؟ كيف تجرؤ على الافتراض أنك تبلغ ذرى لم يصلها غير المسيح، القمة التي يقف عليها الآن وحده، ومن دون منافس، إن هذه غطرسة، غطرسة لا حدود لها! احذر يا فرانسيس الأسيزي: إن وجه الشيطان الحقيقي هي العجرفة. من يؤكد لك أنه ليس الشيطان الذي ينخسك كي تضع نفسك أمام أي أحد آخر من أجل أن تعظ بأشياء مستحيلة؟"

أحنى فرانسيس رأسه بتواضع. وقال: "أيها الأب المقدس، اسمح لي أن أعبر لك بالأمثلة."

وزأر البابا: "عدت إلى الغطرسة. فهكذا تكلم المسيح."

"اغفر لي أيها الأب المقدس، ولكنني لا أستطيع غير ذلك. ومن دون أية رغبة واعية بالنسبة لي، فأن أفكاري، وليست أفكاري

وحدها، بل أعظم أمل وأكبر يأس، يتحول إلى حكايات حينما يبقى في داخلي لأية مدة من الزمن. لو مزقتني وفتحت قلبي، أيها الأب المقدس، لن تجد غير الرقص والحكايات لا شيء آخر."

عقد ذراعيه وصمت. وحدق فيه البابا بصمت أيضاً. انتظر فرانسيس حتى يسمع صوته، ولكنه عندما لم يتكلم رفع رأسه وتساءل: "هل أستمر أيها الأب المقدس؟"

"إنني منُصت."

"حين تتغطى شجرة اللوز بالأزهار في قلب الشتاء، تبدأ كل الأشجار التي حولها بالسخرية منها. إنها تصيح: "أية خيلاء وأية غطرسة! فكروا فقط أنها تظن أنها يمكن ان تجلب الربيع هكذا! فتتورد أزهار اللوز حينذاك من الخجل. وتقول الشجرة: " سامحنني أيتها الأخوات أقسم أنني لم أرد أن أزهر، ولكنني شعرت فجأة بريح الربيع الدافئة العذبة في قلبي."

وفي هذه المرة لم يستطع البابا كبح جماح نفسه. فصرخ قافزاً على قدميه:

"كفى، إن غرورك لا حدود له ولا حدود أيضاً لتواضعك. إن في داخلك الله والشيطان يتصارعان، وأنت تعرف ذلك."

"أجل، أعرف ذلك أيها الأب المقدس، ولهذا جئت كي أطلب منك الخلاص. مد لي يدك، ساعدني! ألست أنت أكبر شخصية في المسيحية؟ وأنا، هل روحي في خطر؟ ساعدني"!

"سأتكلم مع الرب لأصل إلى قرار. وداعاً"!

ركع فرانسيس، ثم سار إلى الخلف وبعد ذلك عبر الممر وتبعته. تجولنا في الشوارع، وسرنا في الهواء مثل السكارى. كانت الأزقة

تتفتح وتنغلق مثل الأكورديون، والمنازل تتأرجح، وأبراج الأجراس تتمايل، والهواء ممتلىء بالأجنحة البيضاء. وكي نسير في طريقنا كان علينا ان نمد أذرعنا وكأننا نسبح. كان يبدو لنا أن شخصاً ما ينادينا، ولكننا حين نلتفت لا نرى أحداً. نسوة جميلات كن يسرن من أمامنا كأنهن بوارج تدفعها الريح، وكلها تبحر عالياً، خلفنا سمعنا بحر الناس، الحانات وصهيل الخيول. عناقيد كبيرة من العنب الأسود تحيط بشبابيك المنازل، وكنيسة لاتيران القديمة كانت شجرة عنب ذات ألف سنة والتي تعانق مجساتها الأبواب والشبابيك والشرفات، والمدينة كلها، ثم اختفت في السماء مثقلة بالثمار.

حين وصلنا النهر، هبطنا الضفة وغمسنا رؤوسنا في الماء، وأنعشنا أنفسنا وعادت أذهاننا لتصفو، وكذلك صفا العالم من حولنا، واختفت شجرة العنب. نظر فرانسيس إليّ مندهشاً وكأنه يراني لأول مرة.

سألني بصوت قلق: " من أنت؟".

ولكنه عاد إلى وعيه في الحال وسقط بين ذراعي. "سامحني يا أخي ليو. إنني أنظر إلى كل شيء وكأنني أراه لأول مرة. ما هذه الضوضاء التي تحيطنا من كل الجهات؟ أهي المدينة، أهي روما؟ وأين الحواريون، أين المسيح؟ تعال لنبتعد"!

حدق فيما حوله واخفض صوته: " هل سمعت البابا؟ أجل كنت معي هناك لقد سمعته. لكم كان يتكلم بحذر ووقار، إنه موثوق به وكل من يتبعه لن يسقط في الجحيم، ولكنه لن يقفز أيضاً ليجتاز الطين الذي هو الإنسان. بالنسبة لنا يا أخي ليو، فأن مهمتنا أن نجتاز الطين الذي هو الإنسان"!

وتجرأت على السؤال: "ولكن هل نستطيع حقاً؟" وندمت على

كلماتي في اللحظة التي نطقتها فيها.

تساءل فرانسيس بعد ان توقف: "ماذا قلت؟"

وانكمشت متراجعاً: "لا شيء يا أخي فرانسيس. لم أقل شيئاً، لقد كان ذلك هو المغوي يتكلم في داخلي."

فابتسم فرانسيس بمرارة: "كم سيستمر المغوي يا أخي في التكلم في داخلك؟"

"حتى أموت يا أخي فرانسيس. ولسوف يموت معي."

"ضع ثقتك في روح الإنسان يا أخي ليو، ولا تنصت إلى نصيحة المخدر. إن الروح يمكنها ان تنجز المستحيل."

سار مسرعاً بمحاذاة ضفة النهر، وراحت أقدامه تتخبط في الطين. وتوقف فجأة في انتظاري. وضع يده بثقل على كتفي.

"افتح ذهنك يا أخي ليو، واحفر فيه ما سأقوله لك. إن جسد الإنسان هو القوس والله الوتر، والروح هي السهم. هل تفهم؟"

"نعم ولا، يا أخي. ماذا تحاول أن تقول؟ قرب فكرتك إلى الأرض كي يفهمها عقلي."

"أقصد يا أخي ليو ما يلي: ثمة ثلاثة أنواع من الصلاة: "الأولى: اعطفني يا إلهي وإلا فلسوف أتعفن." "الثانية: لا تعطفني كثيراً يا إلهي، لأنني حينذاك سأنكسر." "الثالثة يا أخي ليو هي صلاتنا: اعطفني يا إلهي بشدة، ومن يبالي فيما لو انكسرت!" وكما أن هناك ثلاث صلوات فثمة ثلاثة رجال. سجلها جيداً في عقلك ولا ترتعش... لا أدري كم من المرات قلتها لك، ولكنني أقولها مرة أخرى: لديك الوقت حتى الآن في أن تتراجع، أن تهرب أن تحمي نفسك من الإنكسار"!

وأمسكت بيد فرانسيس وقبلتها،

قلت: "اعطفني بشدة يا أخي فرانسيس، ومن يبالي فيما لو انكسرت"!

واستمرينا سائرين ونحن صامتان لبعض الوقت. سرت في أثر خطى فرانسيس، مبتهجاً بشدة، ولكنني في الوقت نفسه أرتعش من فكرة ان شخصاً تافهاً مثلي يتوجب عليه أن يتبع رجلاً شاحباً وخطراً يصلي لله أن يحنيه بشدة حتى لو انكسر... ولكن ماذا كنت سأفعل؟ لقد وجدت نفسي أردد ذات الصلاة، الاختلاف الوحيد بيننا هو بينما كان فرانسيس يبتهج كنت أرتعد. لقد أخبرني أن بإمكاني التراجع وأنى لي ذلك؟ إن الخبز الملائكي الذي يطعمني إياه هو الألذّ لدي. لقد تذكرت الليلة التي تذمر فيها الأخوة الرهبان من الجوع. فقطب فرانسيس جبينه وغضب قائلاً: "أنتم جياع لأنكم لم تروا الرغيف الملائكي الموجود أمامكم وحجمه بحجم حجر الرحى، لم تروه، ولم تدركوه لتقطعوا منه شريحة تأكلونها فتسدوا بها جوعكم إلى الأبد"!

وعلى حين غرة كان ثمة صوت مألوف سمعناه من خلفنا:

"أيها الأخ فرانسيس، أيها الأخ فرانسيس"!

فالتفتنا. كان ثمة راهب يركض خلفنا للحاق بنا.

فصاح فرانسيس: "إنه الأب سلفستر" وركض ليحييه.

وسأله وهو يضغط على ذراعيه: "لماذا تركت القطيع؟" ورغم ان سلفستر كان يلهث ويبكي فقد بدأ الكلام في الحال:

قال وهو يجاهد كي يتنفس: "أخبار سيئة يا أخي فرانسيس! بينما كنت معنا كان المغوي يحوم خارج حظيرتنا. كان يكشّر عن

أنيابه ويعوي ولكنه لم يجرؤ على اجتياز السياج والدخول. كان يشم رائحتك يا أخي فرانسيس وهذا ما كان يجعله يرتعد. ولكن الآن بعد مغادرتك....."

"قفز من فوق السياج ودخل؟"

"أجل يا أخي فرانسيس، لقد قفز من فوق السياج ودخل. لقد انحنى فوق آذان ساباتينو وأنجيلو وروفينو وهمس فيها بينما كانوا نائمين ولم تكن ثمة حراسة على أرواحهم، وتحدث إليهم عن الأسرة الناعمة والطعام الطيب والنساء. فاستيقظوا في الصباح التالي متقطعي الأنفاس، عابسين، وتكلموا لأحدهم الآخر بفظاظة وراحوا يتخاصمون من دونما سبب. وساءت الحال أكثر بعد ذلك حتى وصلت إلى الضرب. وباءت كل جهودي التي بذلتها بالفشل وأنا أقف بينهم وأصرخ: "السلام أيها الأخوة، دعونا نعيش بتآلف! أين خشيتكم من الله؟ الا تخجلون من هذه الأفعال أمام فرانسيس؟ إنه هنا بيننا يسمعنا ويرانا!... ولكن لم يكن ثمة غير أمل ضئيل في أن يسمعوني. لقد صاح ساباتيانو: "إننا نموت جوعا. أخبر فرانسيس أن دبته المدربة لن ترقص من من دون أن يطعمها! نريد أن نأكل، أن نأكل! لقد غرز المغوي براثنه في بطونهم وهو يسحبهم نحو الجحيم."

وتساءل فرانسيس بألم: "وبيرنارد أيضاً وبيترو؟"

"وقف بيرنارد جانباً مع بيترو، كانا دائماً معاً ويصليان."

"وإلياس؟"

"يريد إلياس أن يغير لائحتك يا أخي فرانسيس. إذ تبدو له حادة وغير إنسانية. إنه يقول إن الفقر المدقع شيء فوق الاحتمال وان الطبيعة البشرية غير قادرة على الوصول إلى الحب الكامل وحتى

العفة الكاملة. إنه يذهب ويجيء، يتحدث مع الإخوة في السر والعلن، ويقضي لياليه يكتب لائحة جديدة مع انطونيو على أنه كاتبه. إن لديه أهدافاً محرمة. يقول أنه يريد أن يبني كنائس وأديرة وجامعات ليرسل البعثات نحو البعيد ويتوسع ليهزم العالم. لأنه يقول على كل شخص في العالم يجب أن يرتدي قلنسوة لكي يظهر بهذا الشكل أمام الرب."

تنهد فرانسيس: "ماذا هنالك أيضاً لتخبرني به يا أبتي؟ لا تبق شيئاً. تكلم."

"كابيلا هو الآخر رفع علمه الشخصي. إنه يرى أن لائحتك هشة جداً ويريد أن يتبعك إلى روما من أجل تصديق بابوي يخطط لإنشائه بنفسه. إنه يقول إننا يجب ان نأكل اللحم يوماً في السنة وهو يوم عيد الفصح. وباقي الأيام ليس غير النخالة والماء، عدا أيام الأحد التي يمكن أن نضيف فيها الملح. ومن رأيه أيضاً أن الحديث رفاهية زائدة، لذلك حري بنا أن لا نتكلم فيما بيننا بل نتكلم مع الله فحسب. ولقد قذف بقبعته الخضراء وشريطه الأحمر وداسها باهتياج وهو يصيح: " لا قبعة! ولا حتى قلنسوة! سوف نمشي حاسري الرأس، صيفاً وشتاءً!

قال فرانسيس: "إستمر ولا تتوقف، إستمر يا أبتي سلفستر. هذه هي أعمق الجروح. تمرد"!

"ثمة أخوة يفمن دون باستمرار. وهم متعلمون وأذكياء، ودائماً ما يقرأون في كتب سميكة يجلبونها معهم، أو يكتبون أو يقومون بإلقاء الخطابات في الكنيسة، وهم يرتمن دون الخفاف الجلدية وأردية غير مرقعة ويضحكون منا كلما رأونا. كيف لنا ان نتمرد

عليهم، نحن الذين كنا أخوتك الأصلاء؟ بغيابك، يا أخي فرانسيس ليس لنا قوة فكيف لنا أن نقاوم؟ مرة قضى اثنان من الأخوة الشباب الليل في بيت للمتعة. وحين سألتهما في الصباح التالي عندما عادا منهكين ويلهثان: " أين كنتما طوال الليل؟"، لم يجيباني، ولكنهما كانا يصدران رائحة غريبة ومقيتة، مما أصاب الأخ بيرنارد بالإغماء."

إتكأ فرانسيس عليّ كي لا يسقط.

واستمر الأب سلفستر: "لقد تبعثر الأخوة الأصلاء. وأجبرت نفسي على الصبر وأقول أنك ستعود سريعاً وتطرد المغوي وتعيد النظام ثانية. ولكن حدث شيء مريع بعد ذلك يا أخي فرانسيس. لقد كان ذلك يوم الجمعة المباركة، حين اجتمع الأخوة معاً في المساء، ولم نجد شيئاً نأكله. لقد أمسى الناس الطيبون في صقلية متعبين من إطعامنا. ورحت أكلم الأخوة عن آلام المسيح وأن يحمدوا الله الذي يسمح لنا أن نقضي هذا اليوم، يوم صلبه، في الصلاة والصيام التام. قلت لهم: " إن البطن الممتلئة تهبط بصلاتنا، إنها تحرفها وتمنعها من الارتقاء نحو السماء. إن الشيطان يسره ان يرى الإنسان يخشى الجوع." ولكن بينما كنت أكلمهم فوجئت مذعوراً بظهور معزى سوداء ممتلئة عند المدخل. كانت لها قرون طويلة ملتوية وعينان تشعان ضوءاً أخضر في الظلام، ولحية قصيرة مدببة كلها لهب. صرخ خمسة أو ستة من الأخوة فرحين وقفزوا على أقدامهم في اللحظة التي رأوا فيها المعزى. أحدهم كانت له سكين طويلة، أما الآخرون فقد فكوا أرديتهم المشدودة وعملوا أنشوطات، ثم اندفعوا إلى الأمام لاقتناص الحيوان بوضع الأنشوطة حول رقبته. شبت المعزى على ساقيها الخلفيين

ورقصت لدقيقة ثم انطلقت في الحال بقفزة نحو الغابة، وأصابت الأخوة حمى المطاردة. وركضت أنا أيضاً، أصيح بهم: " توقفوا أيها الأخوة، افتحوا عيونكم، إنه معزى، إنه الشيطان إنكم تقترفون ذنباً!" ولكن من كان يتوقع منهم أن يسمعونني؟ لقد ساقهم الجوع إلى الجنون. لقد رموا رداءهم الرهباني وانحنى الأخ الذي كان يحمل سكيناً إلى الأمام، يحدق في الظلام ويلوح بسلاحه عالياً ودانياً في المعزى أو هكذا كان يتخيل، لكنه لم يكن يطعن غير الهواء. واستمرت المعزى في إغوائهم. وطفقت تستدير لتنظر إليهم وعيناها تبدوان في الظلام وكأنهما اللهب. وصرخت: "إنه الشيطان ألا ترون النيران في عينيه؟ أتوسل إليكم باسم المسيح المصلوب، ان تتوقفوا! وخاف العديد من الأخوة وتوقفوا، ولكن بعد ذلك توقفت المعزى أيضاً وكأنها خشيت أن يتركها الأخوة الرهبان، ومن دون ضياع ثانية قفز الأخ الذي بيده السكين وأمسك برأسها ورأيتهما يتصارعان لبضع دقائق، وفجأة غرز السكين في بطن المعزى لتنهار على الأرض، وهي تثغو بسعادة. ثم اندفع الآخرون وبسرعة البرق مزقوا الحيوان من ذراع لذراع وفي فم كل من الأخوة كانت ثمة قطعة لحم يتساقط منها الدم. هضموه بسرعة وابتلعوه. لقد اقتطفوا لقمة جديدة، ثم وكأنهم كانوا سكارى بدأوا يرقصون حول الرأس المقطوع والقرون الملتوية والنار والدم يقطران من أفواههم. خلال كل ذلك كنت ألطم صدري وأبكي. كانت ثمة أبخرة كثيفة من الكبريت تثقل في الهواء، وفجأة آه يا إلهي، أنت عظيم بالتأكيد، رأيتها تتحرك، رأيتها بعيني هاتين. لقد ارتفعت في الهواء وتجمعت أجزاء الجسد والتصقت بالرأس المقطوع، وعادت الحوافر

الأربعة لتستقر على الأرض، وسمعت ثغاءً قصيراً ساخراً، وبعد ذلك اختفت المعزى المعافاة تماماً في غضون الليل. لكن الإخوة استمروا في رقصهم وأكلوا غير مبالين: لقد سحرهم المغوي ولم يروا أي شيء. ولم أعد إلى بورتيونكولا، بل هرعت إلى روما لأجثم على قدميك يا أخي فرانسيس وأبكي: إن الإخوة في خطر، إن أرواحنا في خطر، فتعال"!

تمتم فرانسيس وهو يحدق في الماء الطيني للنهر وهو يجري بأمان نحو البحر: "إن مهمة الراعي لعسيرة عسيرة. لقد كان ذلك خطأي. فقد انغمست في أشياء جديدة في هذا الحج، لقد نسيت روحي نفسها وانقطعت عن رعي قطيعي. وها قد بقي الإخوة من دون رقيب، فتفرقوا. إنها غلطتي! إنني قادم الآن أيها الأب سلفستر. إجمعهم ثانية وناشدهم أن يصبروا: إنني قادم. إذهب وليكن الله معك"!

قبّل الأب سلفستر يد فرانسيس وقال له: "وداعاً" ثم انطلق نحو الشمال.

التفت فرانسيس نحوي وقال مكرراً: "إنها غلطتي. أنا المذنب. أنا من تاق إلى النساء والطعام والفراش الناعم، أنا الذي ملأ فمه بلحم المعزى"!

وراح يلطم صدره ويتحسر. وضعت ذراعي حول خصره. واستمرينا نسير بمحاذاة النهر وتهالكنا أخيراً تحت الأوراق الكثيفة لشجرة الحور. أغمض فرانسيس عينيه، وهو مرهق تماماً. كان من الواضح أن الإخوة لم يخرجوا من ذهنه لأنه استمر في التنهد بكثرة. وفتح عينيه أخيراً.

قال: "الأحلام هي طيور الله الليلية: إنها تأتي بالرسائل. فقبل أن نأتي إلى هذه المدينة المقدسة، حلمت بدجاجة سوداء ضامرة جداً ولها

أجنحة صغيرة حتى أنها مهما فردتها فلن تستطيع ان تغطي كل صغارها. كان الجو ممطراً وكان الكثير من الفراخ التي لم ينبت لها ريش بعد، قد بقيت في الخارج فتبللت... كان لابد لي أن أفهم الرسالة وأتخذ قراري بعدم السفر بعيداً."

وبينما كان يتكلم رآنا راهب غريب المنظر وتوقف. كان يرتدي رداءً أبيض مشدوداً بحزام جلدي وأقدامه محمية بخفين سميكين مصنوعين من جلد الخنازير وعلى رأسه الحليق كان يرتدي قبعة صوفية سوداء. كان وجهه قاسياً متغضناً وعيناه جمرتان ملتهبتان. حين رأى فرانسيس توقف وحدق فيه مندهشاً. كان مضطرباً في البداية، ثم انفرجت أساريره. وفتح ذراعيه أخيراً على وسعهما وصاح: "يا أخي من أنت؟"

وتساءل فرانسيس: "لماذا تحدق فيّ بهذا الإصرار؟ هل رأيتني من قبل في مكان ما؟"

"أجل، أجل في الليلة الماضية في حلمي. ظهر لي المسيح في منامي. كان غاضباً ورفع يده متأهباً لسحق العالم. وبغتة تقدمت السيدة العذراء المباركة وصرخت: "الرحمة يا بني. أنظر، هاهما اثنان من عبادك الصالحين. أصبر، ولسوف يقوّمان العالم." أحدهما كنت أنا، أنا المتواضع،..... والآخر كنت أنت يا أخي كما أظن. وجهك وهيأتك والرداء الذي تلبسه، والقلنسوة كل هذا ينطبق عليك! فمن أنت؟ لقد جمعنا الرب سوية."

"إسمي فرانسيس الأسيزي، ويدعونني أيضاً فقير الله الصغير الطيب، وأيضاً مهرجه." وفسح المجال للغريب كي يجلس إلى جانبه. "ومن أنت؟"

"أنا راهب من إسبانيا. لقد جئت من طرف هذا العالم لأحظى بموافقة البابا في إيجاد نظام يقوم الحرب على الهرطقيين والملحدين. اسمي دومنيك."

"أنا أيضاً طلبت من البابا السماح لي في إيجاد نظام وأيضاً لأعظ."

"أن تعظ بماذا يا أخي فرانسيس؟"

"بالفقر المدقع، والحب الكامل."

"ألا تقوم بإشعال الحطب في وسط كل قرية لتحرق الهراطقة والمذنبين والكفرة؟"

إرتجف فرانسيس، واحتج: "كلا، كلا. لن أقوم بقتل الذنب من خلال قتل المذنبين، لن أقوم بإشعال نار الحرب ضد الأشرار والملحدين. بل سأعظ بالحب وسوف أحب، سأعظ بالتآلف ولسوف أعمل على تطبيق الحب الأخوي نحو كل إنسان في العالم. سامحني يا أخي دومنيك، ذلك هو الطريق الذي اخترته."

وتعب ذو الرداء الأبيض وقال غاضباً: "إن النفس الإنسانية لأمّارة بالسوء والشر والخداع والشيطنة. والرقة التي تتحدث عنها ليست كافية، نحن بحاجة إلى القوة. لو انحرف الجسد عن الطريق فأنت بحاجة ماسة إلى إلغائه كي تنقذ الروح. سوف أحرق الحطب في إسبانيا ولسوف تتخلى الأرواح هناك عن أجسادها على الأرض في شكل رماد وتصعد إلى السماء.

وراح الراهب يصيح ويشد قبضته: "الرماد والهباء! الحرب"!

"الحب"!

"القوة"!

"الرحمة"!

"أخي فرانسيس ليست الحياة متنزهاً حيث يمكن لاثنين أن يسيراً يداً بيد ويغنيان أغاني الحب. إن الحياة حرب، معاناة وعنف! هل بزغت الشمس؟ حسن، هيا بنا إذن! إحفر بئراً إن كنت تريد ان تشرب الماء، إضرب الأشرار باستقامة على رؤوسهم إذا أردت أن تطرد الشر. وحين تموت خذ معك فأساً لتكسر باب الفردوس إن أردت الدخول فليس لباب الفردوس مفتاح. لا مفتاح ولا بواب، المفتاح الوحيد هو الفأس... لا تنظر إليّ برعب أيها الراهب الصغير والفقير والطيب. لقد قال الكتاب المقدس الشيء نفسه: "إن الرجال العنيفين قد هيمنوا على السماء بالقوة."

تنهد فرانسيس: "لم أدر أن ذلك العنف كان أيضاً من الرب. لقد وسّعت عقلي، على أية حال إن قلبي يقاوم ويصرخ: "الحب!، الحب!، ولكن من يدري: ربما تلتقي طرقنا المتضادة وقد نلتقي على حين غرة ببعضنا البعض ونحن في سبيلنا للارتقاء نحو العلي العظيم."

أجاب الغريب: "هذا ما أرجوه من الرب. ولكنني أخشى أن تكون حملاً وقعت بين الناس الذئاب. سوف يأكلونك قبل أن تصل إلى هدف الارتقاء. سامحني إن قلت لك صراحة ما يدور في ذهني: أنت تعرف كل ماهو حول الحب، ولكن هذا ليس كافياً. فأنت يجب أن تتعلم أن الكراهية تأتي من الرب أيضاً، وأنها أيضاً في خدمة الرب. وفي أوقات مثل هذه، وعندما يكون العالم ساقطاً إلى هذا الدرك، فإن الكراهية تخدم الرب أكثر من الحب."

أجاب فرانسيس: "الشيء الوحيد الذي أكرهه هو الشيطان يا أخي دومنيك." ولكنه حالما قال ذلك، سرت رعشة في بدنه، وكأن الرعب قد تملكه حين نطق مثل هذه الكلمات القاسية.

وأضاف مسرعاً: "كلا، كلا، أنا لا أكرهه هو أيضاً. غالباً ما أركع على الأرض لأصلي وأطلب من الرب أن يغفر لأخينا الضال."

"من تقصد."

"الشيطان يا أخي دومنيك."

ضحك الأخ دومنيك وقال: "حمل الله، إذا كان عليّ أن أختار، فلسوف أكون أسد الله، إن الأسود والحملان لا يجتمعون فوداعاً!"

ونهض كي يغادر.

"وداعاً يا أخي دومنيك. الأسود والحملان. الحب والقوة، الضوء والنار، الخير والشر: كل الأشياء، أريد أن تعرف أنها تتسلق الجبل نفسه، جبل الله وهي لا تعلم. لا تعرف الكراهية تلك، هذا شيء أكيد، ولا يعرف الحب ذلك، وهذا أكيد أيضاً، والآن أنت تبتعد يا أخي، فإنني سأكشف لك عن السر المفرح. في يوم ما سيلتحم الجميع معاً عند القمة حيث يقف الله بذراعين مفتوحين. ليت ذلك يسر الرب العظيم يا أسد الرب، فإننا قد نلتقي مرة أخرى في الأعالي، وحينذاك لن تفترس حمله الصغير"!

وجاء دور فرانسيس ليضحك. وودع الراهب المشتعل. كنا قد شاهدنا الرداء الأبيض ينتفخ في الريح ويختفي حول منعطف في النهر. ثم التفت فرانسيس إليّ. وانتشرت ابتسامة على وجهه من الأذن إلى الأذن.

قال: "يريد الأخ دومنيك أن يأكلنا. لكنه لا يعرف، كيف له أن يعرف؟ إن يوم الحساب لقريب، وستشتبك فيه الأسود مع الحملان لتغدو واحداً."

* * *

أخذت بعض الراحة وأنا أنحني فوق الرق الذي أكتب فيه بعد أن وضعت الريشة خلف أذني الشائخة أغمضت عيني وتذكرت كل الأيام التي قضيناها في المدينة المقدسة. أتذكر الكنائس والأساقفة الذين يحتفلون بالجموع المصلية والأطفال الصغار الذين كانوا ينشمن دون إلى الرب. توقفت الشمس في وسط السماء لتجلدنا، وكذلك الزوبعة العنيفة التي أنعشت في يوم ما الأرض التي لسعتها الشمس، وانتشت بذلك القلوب أيضاً. أتذكر يوم وقف فرانسيس إلى جانبي تحت مدخل كنيسة الحواريين المقدسين، يحدق بلذة إلى المطر فاتحاً عينيه، منخراه المرتجفان يستنشقان رائحة الأرض، الرائحة المتميزة للتربة الرطبة، والدموع تجري على خديه.

قال لي: "إن السماء تتحد مع الأرض، والرب يتوحد مع روح الإنسان. الا تشعر يا أخي بأحشائك الأرضية، الا تشعر بها وهي تنمو؟ أشعر أن قلبي في داخلي قد تغطى بطبقة نضرة من العشب وأن عقلي قد امتلأ بالخشخاش."

في اليوم الذي استلمنا فيه "اللائحة" بعد أن قاسينا العناء الكبير ونلنا ختم البابا العريض بمفتاحيه الكبيرين المعلقين من طرف الرق والمثبتين بشريط حريري، أتذكر كيف هرعنا إلى الساحة التي أمام الكاتدرائية البابوية، كنيسة لاتيران ورحنا نقفز ونرقص يداً بيد مثل السكارى. ووضع فرانسيس أصابعه في فمه وصفر مثل الراعي، كان ينادي على قطيعه اللا مرئي.

أية فرحة كانت، أية قوة هائلة على الإنسان أن يخلقها ويعيد خلقها على غرار الهواء الشفيف! قلت لفرانسيس مندهشاً: "هذه هي الفردوس. لقد كان المسيح محقاً حين قال أن مملكة السماء في

دواخلنا. إن الجوع والظمأ وسوء الطالع أشياء ليس لها وجود، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوجد هو قلب الإنسان: لأنه يلف الهباء في عجلته ليصوغه خبزاً وماءاً وسعادة."

وبينما كنا نرقص ونصفر اقتربت منا شابه نبيلة مندهشة. وتساءلت ضاحكة:

"ما الذي حدث لكما؟ من سقاكما كل هذه الخمرة التي أسكرتكما؟"

أجاب فرانسيس وهو يصفق يديه: "الرب، الرب المسيح ذو البراميل الكثيرة. تعالي شاركينا. إشربي"!

"من أين أتيتما ؟"

"من العدم يا سيدتي"

"وإلى أين أنتما ذاهبان؟"

"إلى الرب. وفي طريقنا ما بين العدم والرب نرقص ونبكي."

ولم تعد الشابة تضحك. كان ثوبها مفتوحاً عند الياقة. فوضعت يدها اليمنى على حنجرتها المكشوفة وتنهدت: "! أمن أجل هذا ولدنا؟"

"أجل يا سيدتي: كي نرقص ونبكي ونسافر نحو الرب."

"أنا جاكوبة، زوجة النبيل غراشيانو فرانجياني. إن حياتي سعيدة بشكل لا يوصف، وهذا ما يجعلني أشعر بالخجل. إنني محظوظة فوق العادة، وهذا ما يخيفني. لا أستطيع الحديث معكما أمام الجميع. تفضلا معي إلى البيت."

وسارت أمامنا فتبعناها.

من كان يعلم أن هذه السيدة النبيلة والجميلة سوف تكون أقرب

رفاق فرانسيس من النساء وأكثرهن إيماناً لا تتقدم عليها إلا كلارا؟ من كان يعلم أن سعادة غير عادية قادرة على أن تدفع روحاً نزيهة إلى حالة من الندم والدموع؟

قالت لنا جاكوبة حين دخلنا قصرها: "إنني أشعر بالخجل في أن أملك أي شيء بينما لا تملك النساء الأخريات شيئاً. إن هذا ليس عدلاً، ليس عدلاً، إن يكن الرب عادلاً فلسوف يبعث لي كارثة. توسلا إليه أن يفعل ذلك. لو كنت حرة لسرت حافية في الشوارع ولسوف أتسول من باب إلى آخر. ولكن لدي زوج وأطفال، إنني مغلولة.

كان فرانسيس يراقبها بإعجاب. "لديك روح باسلة وشجاعة يا سيدتي وعقل رجولي. اسمحي لي أن أدعوك بالأخ جاكوبة بدلاً من الأخت... كن صبوراً أيها الأخ جاكوبة. سيأتي اليوم الذي ستكون فيه حراً وتتجول حافياً صبوراً وتتسول. إن الله عظيم. إنه يتعاطف مع النساء، ولسوف يشفق عليك... وداعاً الآن حتى نلتقي ثانية"!

"متى؟ وأين؟"

" أخي جاكوبة، صوت في داخلي يقول في ساعة موتي المرعبة."

ورفع يده وباركها. "حتى ذلك الحين"!

"لماذا تتحدث عن الموت يا أخي فرانسيس؟"سألته حالما غادرنا منزل جاكوبة وبدأنا رحلة العودة. "فليأخذه الطاعون! لم ننه بعد عملنا على الأرض."

هز فرانسيس رأسه.

"بينما كنا نرقص ونصفر يا أخي ليو، بينما كنا في قمة السرور، رأيت الملاك الأسود يهبط من السماء. فأشرت إليه: "انتظر انتظر قليلاً أيها الأخ الموت!" فابتسم ثم توقف في الهواء... لا تخف يا

أخي ليو، سوف أموت في الوقت المناسب وليس قبل ذلك. عندما يحين الوقت المناسب..."

واتجهنا شمالاً مسرعين مثل خيول عائدة لمعالفها بعد أن أزحنا غبار روما عن أقدامنا. من وقت لآخر، وحيثما وجدنا ماءاً، كنا نتوقف، نخفض رؤوسنا ونشرب. كنا نقترب كان وجه فرانسيس يغدو كئيباً ويجد من الصعوبة عليه ان يفرج شفيته ليتكلم. إلا إذا واجهنا طفلاً أو زهرة برية رائعة أو طيراً يوكر على غصن ويحدق، كان يعود إلى ملامحه المشرقة.

مرة قال لي: "مادام هناك زهور وأطفال وطيور في العالم فلا تخف يا أخي ليو: سيغدو كل شيء جميلاً."

سرنا وسرنا وتغطت أقدامنا بالجروح حتى لم نعد نقوى على الوقوف. وكنا فوق ذلك نتضور جوعاً وعند الليل جمدنا من البرد. وطفقت أقول لنفسي: آه لو أحصل على فخذ جمل مشوي وإبريق خمر، ورحت ألعق شفتي. وبعد ذلك فراش ناعم لأنام عليه. وبعدها، بأية نشوى سوف أغني مدائح الرب؟... حاولت أن أطرد هذه الغواية من رأسي ولكن من من دون جدوى. لقد هفهف صحن اللحم والإبريق والفراش بثبات أمامي في الهواء.

وحدس فرانسيس أفكاري. وتملكه العطف فوضع يده برفق على كتفي.

"أخي العزيز ليو، لا أدري لماذا أفكر بناسك عظيم قال مرة شيئاً لم أستطع نسيانه، هل تريد سماعه؟"

قلت وأنا أخفض عيني خوفاً من أن يرى الصحن والإبريق والفراش في البؤبؤين: "إنني مصغ إليك يا أخي فرانسيس."

"في يوم ما سمع عابر سبيل أن هذا الإنسان المقدس يتنهد فتوقف وسأله:"يا قديس الله، ماذا ترغب، وما الذي جعلك تتنهد متحسراً هكذا؟"

فأجاب الزاهد: "قدح ماء بارد يا بني."

"ذلك شيء سهل جداً. أترك إبريقك في الخارج أثناء الليل وسيأتيك الماء البارد."

"لقد فعلت ذلك مرة يا بني. ولكني في تلك الليلة حلمت. وبدا لي أنني وصلت إلى حدود السماء عند البوابات. وجاءني الصوت من الداخل: "من هناك؟"، "هذا أنا، يا كوميوس من طيبة؟" ثم ردد الصوت: "ابتعد. إن السماء لأولئك الذين لا يضعون أباريقهم خارج البيت أثناء الليل كي يحصلوا على شربة ماء بارد."

فجثوت على قدمي فرانسيس: "سامحني يا أخي فرانسيس. لم أفلح حتى الآن في أن أقهر الجسد. فما زلت أشعر بالجوع والتعب والبرد. أينما ستذهب سأذهب أيضاً، أحياناً لا يستطيع عقلي اتباعك وبدلاً من ذلك، يغدو وقحاً ويتمرد. إنني أمام بوابات السماء، لكنها لم تنفتح.

وأجابني وهو يربت على رأسي: "يجب أن لا تخسر قلبك يا أخي ليو، قف على قدميك وإن ركبك المغوي فلا تخف: فلسوف تتفتح البوابات، وتدخلان كلاكما"!

"المغوي أيضاً؟ سيدخل؟ كيف تعرف يا فرانسيس؟"

"أعرف ذلك بقلبي الذي ينفتح ويستقبل كل شيء. ومن المؤكد أن الفردوس كذلك."

* * *

وصلنا إلى مدينة صغيرة وجلسنا على جانب حاد من جبل صخري. عند قدمه ثمة منازل متداعية أنهكها المطر والشمس والزمن، عند القمة وقفت القلعة بأبراجها وراياتها الطويلة التي تشبه ذيل السنونو. هنا يقطن المالك مع صقوره. المدينة مسورة بحقول الكروم والزيتون التي في الأسفل على السهل.

قال فرانسيس شاعراً بالأسى عليّ: "سنتوقف هنا لنستريح لثلاثة أيام. إنني أرى ديراً صغيراً هنا بين أشجار الزيتون. لقد تلطف بك الرب يا أخي ليو."

دخلنا المدينة. كان الفلاحون قد عادوا من كدحهم، والشمس تقارب الغروب. جلسنا في حديقة الكنيسة المهدمة. كان ثمة شجر سرو في كل الجهات. والسياج مغطى بزهور حمراء ذات رائحة عبقة، في الوسط كانت ثمة شجرة دلب ذات أوراق رقيقة خضراء داكنة قد تفتحت للتو. وعند جذورها كان يجري نبع رقراق.

نظر فرانسيس حوله وتحسر بعمق قال: " لابد أن تكون الفردوس هكذا ولا تبحث عن شيء أكثر من هذا. إن هذا كاف لروح الإنسان وأكثر من كاف."

وعندما سمع الكثير من الزقزقة فوقه نظر إلى الأعلى. كان سرب من السنونوات يطير باتجاه شجرة الدلب. كانت أعشاشها هناك، وهي عائدة إليها لقضاء الليل. حطت على الأغصان ثم انتشرت في الحديقة وراحت تنظر بسعادة قبل أن تلجأ إلى بيوتها الصغيرة كي تضع رؤوسها على صدورها الملساء وتسلم أنفسها للنوم.

تقدم فرانسيس ببطء نحو الماء الجاري، الذي كان عند تجمع الطيور ومد يده ليحيي الطيور.

قال لي:"ابق حيث أنت يا أخي ليو. لا تتحرك فأنت تخيفها. ومادمت لا احمل معي قمحاً فلسوف أغذيها بكلمة من الرب كي تسمعها وتستطيع بعد ذلك أن تدخل السماء كالإنسان."

حين التفت إلى الطيور، انحنى فوقها وراح يغطيها ناشراً ذراعيه.

"إخوتي أيها الطيور، إن الرب، أب الطيور والإنسان يحبكم كثيراً، وأنتم تعرفون ذلك. ولهذا أراكم حين تشربون الماء ترفعون رؤوسكم الصغيرة نحو السماء بعد كل رشفة وتقدمون الشكر إليه، وكذلك تضرب الشمس في الصباح صدوركم الصغيرة فتمتلئ بالغناء وتطيرون من غصن لغصن تمجمن دون اسمه، اسم الله الذي بعث الشمس والأشجار الخضراء والأغنية. أنتم تطيرون عالياً في السماء كي تقتربون منه ويمكنه سماعكم. وحين تمتلىء أعشاشكم بالبيوض وتجلس الأمهات عليها كي تفقس، يغدو الرب طيراً ذكراً يحط على الغصن المقابل ويغني لكم ليهون عليكم التعب."

ومر سرب حمام بينما كان فرانسيس يتكلم. لقد سمعوا صوته العذب، فحطوا عند قدميه، وطارت حمامة صغيرة وحطت على كتفه الأيمن وهي تهدل. مال فرانسيس إلى الأمام أكثر فأكثر. وظل رداؤه يرفرف كأنه زوج من الأجنحة وزقزق صوته، عذباً كصوت العندليب. كان يبدو أنه يرافق الطيور التي حوله وهو يجاهد أن يكون طيراً أو عصفوراً كبيراً.

"إخواني أيها العصافير، أخواتي أيتها الحمامات، قدّروا جميعاً أية هبات وهبكم الله بها: لقد منحكم الأجنحة كي تسافروا بها عبر الهواء وكي تدفئكم عند الشتاء، ولقد نثر أنواعاً عديدة من الطعام

فوق الأرض وفي الأشجار كي لا تجوعوا، وملأ صدوركم وحناجركم بالأغاني."

وصلت الآن السنونوات وحطت في صفوف بمحاذاة السور إزاءنا وأيضاً بمحاذاة حافة سقف الكنيسة. طوت أجنحتها ومدت أعناقها إلى الأمام وأنصتت بانتباه. التفت فرانسيس ليحييها.

"مرحباً بأخواتنا السنونوات التي تجلب الربيع كل سنة على الأجنحة النحيلة رغم أن الجو يظل بارداً وممطراً ورغم أن الشمس قد قطعت شعرها الذهبي فأنتن تشعرن أن قلوبكن دافئة وممتلئة بالشمس. تجلسن على سقوف القرميد المغطاة بالثلج، وتطرن في طريقكن من غصن عار إلى آخر، وتنقرن على الشتاء بمناقيركن الحادة لتجبرنه على الرحيل. في يوم الحساب، يا عزيزاتي السنونوات، أنتن قبل كل الأشياء المجنحة قبل حتى الملائكة مع أبواقها، ستطرن نحو المقابر وتبدأن الزقزقة فوق شواهد القبور، تغنين أنباء البعث. وسيسمعكن الموتى وسيثبون من قبورهم نحو زهور الربيع ليحيوا الربيع الأبدي"!

وضربت السنونوات ذيولها بسعادة، وهدلت الحمامات واقتربت العصافير من فرانسيس وراحت تنقر رداءه برفق. ورفرف بيده فوق رؤوسها ورسم إشارة الصليب وبارك الطيور. ثم لوح في كل الاتجاهات مودعاً.

"لقد حل المساء يا أخوتي من عصافير وحمام وسنونوات، حل المساء فاذهبن للنوم. وإن تلطف الله وأعطاكم القدرة على الحلم فليته يجعلكم ترون سيدة السنونوات تطير فوق أعشاشكم مثل سنونوة ضخمة."

وبينما كان فرانسيس يتكلم، مر رجل على جواده وتوقف، إذ أثاره منظر الراهب وهو يتحدث إلى الطيور فضحك. كان أرستقراطياً في منتصف العمر، له أنف ضخم كالهراوة، وشفاه شهوانية ويرتدي ثياباً متنافرة الألوان، على رأسه تاج عريض من الغار وحول وسطه سلسلة ذهبية مع قرد صغير من القماش ليجلب له الحظ السعيد. وثمة عود معلق على كتفه.

خلفه كان فصيل من الشباب والشابات كلهم متوجون باللبلاب والزهور. وحينما شاهدوا القائد يقف، توقفوا أيضاً وانفجروا ضاحكين. كان وجه الفارس مشعاً، وكانت آخر خيوط الشمس قد اصطدمت برأسه فالتمع شعره الأشقر.

إتكأت على السياج الشجري وأشرت إلى أحد الشباب الذي جاء نحوي وسألته: "من هو هذا السيد الذي يمتطي هذا الجواد؟ إنه وسيم مثل ملك."

"اسمه خوليودلموس ديفيني وهو ملك حقيقي. ألم تسمع به؟ لقد جاء لتوه من روما حيث توجوه بالغار في العاصمة وسموه ملك الأغنية."

"وعن ماذا يغني؟"

"الحب أيها الراهب، الحب. لا أظنك سمعت عن هذا أليس كذلك؟" وعاد إلى رفاقه وهو يضحك من أعماق قلبه.

كان الفارس قد لجم حصانه في تلك اللحظة وبقي من من دون حراك، يصغي، في اللحظة التي جاءت فيها الحمامات، وبعد ذلك حين جاءت السنونوات. والتفت فجأة نحو فصيله الضاحك وصاح بهم غاضباً: "إهدأوا"!

كان فرانسيس يتمنى للطيور ليلة هانئة ويستعد لمغادرة المكان

حينما قفز ملك الأغنية من جواده وجثا على قدمي فرانسيس.

وصرخ وهو يقبل قدمي فرانسيس الداميتين: " أيها الأب المقدس، كنت أعمى وعادت إليّ الآن بصيرتي، كنت ميتاً وقمت الآن من قبري. خذني إليك، أبعدني عن عالم الناس، أنقذ روحي! طوال حياتي كنت أغني فضائل الخمرة والنساء. ولقد ضقت ذرعاً بذلك. خذني إليك لأغني عن عظمة الله أنا خوليودلموس ديفيني وقد توجني أولئك البلهاء في روما ملكاً للأغنية."

وحالما قال ذلك خلع التاج من رأسه ومزقه ونثر أوراق الغار على الأرض.

قال: "الآن أشعر بالسكون. ولسوف أخلع هذا الثوب المتعدد الألوان. أعطني ثوب الراهب أيها الأب المقدس. وها أنني أخلع هذه السلسلة الذهبية من وسطي. طوقني بحبل مشدود."

انحنى فرانسيس ورفعه ثم قبله على جبهته.

انهض يا أخي "سكون" سأناديك بهذا الاسم يا أخي لأنك الآن دخلت في سكون الرب. أُقبل جبهتك، إنها لا تزال مليئة بالأغاني. كنت معتاداً على الغناء حول العالم، ومنذ الآن سوف تغني حول الذي خلق العالم، إحتفظ بعودك فهو أيضاً قد يدخل في خدمة الله ويتقدس. وحين يأتي زمن الخير أريدك يا أخي "سكون" أن تعرف أنك سوف تدخل السماء بهذا العود وهو معلق على كتفك، بينما تلتف الملائكة حولك ويطلبون أن تعلمهم أغاني جديدة."

هرع الشبان والشابات لجمع أوراق الغار الساقطة. وحدقوا في مغني التروبادور الشهير، وهم غير قادرين على أن يفهموا إن كانت هذه لعبة جديدة يلعبها، أو كان قد فقد عقله فعلاً وقرر أن يصبح راهباً.

لكن الأخ سكون قد التفت ليودعهم: "وداعاً يا رفاق حياتي السابقة، الآن لقد مات خوليودلموس ديفيني. إذهبوا وادفنوه، وضعوا هذا القرد الصغير معه على كتفه، ادفنوه هو أيضاً!" ورمى عليهم سلسلة الذهب مع القرد القماش. وكرر: " وداعاً وداعاً، لن نلتقي مرة أخرى"!

وانتشر الشبان والشابات بعد أن أصابتهم الدهشة وتركونا ثلاثتنا وحدنا. وقادنا فرانسيس لنسير نحو دير صغير في وسط حقل الزيتون. كان سكون يغني طوال الطريق. قال : "إن قلبي طير، عندليب يا أخي فرانسيس. لقد جاء مع بقية الطيور ليصغي إليك، وحين سمعك، وجّه منقاره صوب السماء ليبدأ في أغنية جديدة."

ضحك فرانسيس وقال: " إنني أجلب جنوناً جديداً للعالم، وأنت أغنية جديدة أغنية الجنون الجديد. من الجميل يا أخي سكون أننا جمعنا قوانا. مرحباً بك للانضمام إلى إخوتنا."

قضينا ثلاثة أيام في الدير الصغير لنستعيد قوتنا. كان الرهبان قد بدأوا يمتعضون من رؤيتنا. كان فرانسيس يضحك وسكون يعزف بعوده وكنت أرافقه بصوتي الأجش.

صاح بنا الأب الكبير: "قولوا لي. أين تظنون أنفسكم؟ هذا دير: هذا بيت الله."

وأجابه فرانسيس: "وكيف تتوقعنا، أيها الأب الكبير، أن ندخل بيت الله نبكي؟ سيصرخ بنا: لدي ما يكفي من البكاء، لا أحب الحسرات، لقد تعبت من رؤية الوجوه الطويلة. ما أتوق إليه هو صوت الضحكة على الأرض!... أخي سكون إعزف لنا بعودك، غنّ أغنية، وأبهج قلب الرب."

واعتاد الرهبان علينا تدريجياً. وجعلهم فرانسيس يتجمعون في

الفناء كل مساء، يحدثهم عن الحب والفاقة والسماء.

سألهم: "كيف تعتقمن دون السماء؟ مثل قصر كبير ذي سلم رخامي مملوء بالذهب والأجنحة؟ كلا، كلا! في إحدى الليالي رأيتها في الحلم. إنها قرية صغيرة تماماً محاطة بالمراعي الخضر، وفي وسط القرية تكمن روح الإنسان إلى جانب ينبوع وكوخ متواضع جداً، وتشبه روح الإنسان مريم العذراء وهي ترضع الرب..."

وبينما كان فرانسيس يتكلم، هبط المساء علينا بأمان، وامتلأ الهواء بالأجنحة الزرقاء، وأغلق الرهبان عيونهم بسعادة ودخلوا الجنة.

* * *

واستأنفنا رحلتنا نحو الشمال بعد الأيام الثلاثة، وقد اختصر لنا غناء الأخ سكون الرحلة، ولهذا رأينا في إحدى الأماسي حصن وأبراج صقلية الحبيبة من دون أن نتوقع أننا سنراها بهذه السرعة.

قال فرانسيس: "مرحباً بك يا عزيزتي صقلية." ورفع يده وبارك المدينة " إلهي ساعدني كي أقابل إخوتي بسلام."

كانت الشمس قد غربت في الوقت الذي وصلنا فيه بورتيونكولا. اقتربنا بهدوء، فرانسيس وسكون أمامي وأنا تبعتهما منهكاً. أراد فرانسيس أن يفاجيء الأخوة الرهبان ليرى ماذا يفعلون وماذا يقولون. ولكنه حالما اقتربنا أكثر توقف. وسمعنا صرخات وضحك. كان الدخان يصعد من السقف. لابد أن الأخوة قد اعتادوا أن يشعلوا النار. ثم فاحت رائحة اللحم المشوي التي صدمت أنوفنا: كانوا يطبخون!

همس فرانسيس: "إنهم يحتفلون، إنهم يأكلون اللحم."

عند ذاك ظهر متسول عجوز. كان قد شم رائحة اللحم المشوي

من بعيد وركض آملاً بالحصول على بعض اللقم صدقة.

سأله فرانسيس: "هلا قدمت لي خدمة يا أخي؟ دعني أستعير قبعتك وعصاك وجرابك، لأذهب وأحيي الأخوة. وسأعيد لك حاجياتك في الحال. قدم لي هذا المعروف وليت الله يعوضك خيراً."

"أهو أنت الذي يسمونه فرانسيس الأسيزي؟"

"نعم يا أخي."

"فخذها إذن"!

سحب فرانسيس القبعة ووضعها فوق أذنيه، ووضع الجراب على كتفه واتكأ على العصا ثم ذهب وطرق باب بورتيونكولا.

وأنّ، مغيراً صوته: "باسم المسيح يا إخوتي، أشفقوا على الفقير المريض العجوز الجائع."

فأجابه الأخوة: " ادخل أيها العجوز. اجلس قرب النار وكل"!

دخل فرانسيس حاني الرأس محدودب الكتفين كي يخفي وجهه. جلس عند النار وظهره إزاء الأخوة. قدم له أحد الرهبان الجدد صحناً من المرق وكسرة خبز. انحنى فرانسيس وملأ يده بالرماد من الموقد ثم نثره في المرق وبدأ يأكل. فعرفه الأخوة في الحال، ولكن أحداً لم يجرؤ على كشف ذلك، وتملكهم الخجل لأن فرانسيس قد حظي بهم وهم يأكلون اللحم ويحتفلون. توقف الطعام في بلعوم كل منهم ولم يستطيعوا إكمال طعامهم. فانتظروا، وانحنوا فوق صحونهم وشعروا أن الصرخة قد تنطلق في أية لحظة.

أكل فرانسيس اثنين أو ثلاثة ملاعق من المرق ثم وضع صحنه والتفت إلى الأخوة الرهبان. قال: "عفواً أيها الأخوة، حين دخلت ورأيتكم تجلسون إزاء هذه الرفاهية الباذخة، لم أصدق عيني. هل

هـؤلاء هـم الرهبـان الفقـراء سـألت نفـسي، هـؤلاء الـذين يطرقـون الأبـواب ويتـسولون والـذين يتخـذهم جميـع النـاس قديـسين؟ إن كـان الأمر كذلك، فلماذا لا أدخل في نظـامهم وأعيش حيـاة هـانئة؟... إذن بحق المسيح، أخبروني رجاءاً فيما إذا كنتم الأخوة المتواضعين للفقـير الصغير الطيب فرانسيس الأسيزي أم لا؟"

ولم يـستطع الأخـوة الرهبـان أن يكبحـوا أنفـسهم أكثـر. انفجـر الـبعض بالبكـاء، وانـسل الـبعض الآخـر سـراً وركـضوا مـذعورين، وسقط آخرون عند أقدام فرانسيس طالبين منه المغفرة. أما فرانسيس فقد ظل معقود الذراعين، لم يفتحهما ليعـانق الأخوة، كمـا كانـت عادته. اقترب إلياس الذي لم يبك ولم يطلب المغفرة.

تساءل: "ألم تعرف الإخوة؟ لقد تكاثرنا بينما كنت بعيداً. ارفـع يدك وباركهم."

ولكن فرانسيس سمح لرأسه أن يسقط على صدره. لم يقل شيئاً وحدق بالإخوة الذين أحاطوه بألم.

مرة أخرى تكلم إلياس:

"هل رأيت البابا يا أخي فرانسيس؟ هل دمغ اللائحة بختمة؟"

وضع فرانسيس كفه على صدره.

"الختم بمفتاحيه هنا، يا أخي إلياس. لا تكـن نافـد الـصبر: غـداً، بمـشيئة الله، سـوف أتكلـم. الآن تعـالوا، دعونـا نـدخل الكنيـسة ونتوسل أن يدمغ بختمه أيضاً."

في اليوم التالي تجمع الأخوة في فسحة في الغابة. ذهب إلياس غادياً ورائحاً ليجمعهم في حلقات حوله ويتكلم معهم خلسة. كان جسده ضخماً وهو الأطول بينهم، بينما أضحى فرانسيس الواقف إلى جانبه

أقصر مما كان، وأكثر تواضعاً لقد تلاشى ببساطة. سامحني، يا ألهي، ولكنني لم أستطع أبداً أن أجعل هذا الشخص قريباً إلى قلبي. ففي نظراته خيلاء وجشع، وترى روحه أن بورتيونكولا صغيرة جداً، ويشعر أنه مقيد بالفقر والحب. إنه يريد لها أن تنتشر وتقهر العالم ليس فقط بالطيبة بل وأيضاً بالقوة، ثم تدخل مملكة السماء مثل فارس على ظهر جواده. لابد أن إلياس هذا هو أحد أتباع دومنيك، رجل البعثة الأسبانية الملتهب، وليس أحد أتباع الفقير الصغير الطيب الأسيزي، لماذا أرسله الله إلينا؟ ما هو الدافع الخفي للرب؟ هل يكون من الممكن أنه أراد أن يجمع ما بين من لا يمكن أن يجتمعا؟

في أحد الأيام تجرأت بما فيه الكفاية كي أخبر فرانسيس عن مشاعري تجاه الأخ إلياس. قلت: " لابد لكل نظام أخوة أن يكون له يهوذا. ليت الله يجعلني كاذباً، ولكن مع ذلك، إنني متيقن أن هذا الرجل هو يهوذانا."

أجاب فرانسيس: " حتى يهوذا طيب يا أخي ليو. رغم أنه خادم المسيح، وقد قدر الله له أن يكون خائناً، فقد كان يؤدي واجبه بالتحديد."

وأطرق لدقيقة ثم أخفض من صوته:

"هل تذكر ذئب غوبيو؟ كان معتاداً على دخول الحظيرة ويصطاد الخراف، لقد كان يدمر القرية. لقد شعرت بالأسف على سكان القرية وذهبت إلى الغابة لأحذر الذئب باسم الله أن لا يأتي ليأكل أياً من الخراف بعد الآن. فناديته وجاء هل تعرف ماذا كان جوابه؟ لقد قال: "فرانسيس يا فرانسيس لا تحطم نظام الرب الثابت. إن الخراف تعتاش على العشب والذئب على الخراف، هكذا نظمها الله. ولا

تسأل لماذا، أطع مشيئة الله فحسب واتركني حراً لأدخل الحظيرة كلما اشعر بقرصة الجوع. إنني أصلي كما تصلي قداستك، فأقول " يا أبانا الذي يحكم في الغابات والذي أمرني أن آكل اللحم، إن أمرك مستجاب. أعطني اليوم خروفي المعتاد لتمتلىء معدتي وسوف أمجد اسمك. عظيم أنت يا إلهي، يا من خلقت الضأن لذيذاً. حين يأتي اليوم الذي سأموت فيه، يا إلهي، سأكون مؤمناً أنك ستبعثني وتبعث معي كل الخراف التي أكلتها لآكلها مرة ثانية!"... هكذا كان، يا أخي ليو، جواب الذئب. فأحنيت رأسي وغادرت. لماذا سن الله القانون بأن تأكل الذئاب الخراف؟ إنها الغطرسة يا أخي ليو تلك التي تدفعك حتى للتساؤل"!

ولكن كيف يمكن أن يكون لي قلب مثل فرانسيس، يستطيع أن يتحمل ويغفر كل شيء! إن رؤية إلياس بومبارون وهو يتحدث خلسة مع الإخوة في ذلك اليوم جعلتني أختض من الغضب والخوف.

حالما اجتمعوا كلهم أخيراً، نهض فرانسيس وعقد ذراعيه على صدره كما اعتاد، وبدأ الكلام. كان صوته هادئاً وخافتاً وحزيناً. ومن حين لآخر كان يمد يده باتجاه الإخوة وكأنه كان يطلب الصدقة. وبكلمات بسيطة، قص عليهم كيف دخل المدينة الخالدة وكيف تمكن من رؤية الأب المقدس، وماذا قال للبابا وبماذا أجابه البابا وكيف ركع ووضع اللائحة عند قدمية. بعد ثلاثة أيام، من المؤكد أنه بأمر الرب، دمغ ختمه انظروا ها هو! وأخرج فرانسيس الرق المقدس من صدره وقرأه ببطء، مقطعاً بعد مقطع، بينما كان الإخوة ينصتون، وهم راكعون. وحين انتهى، مد ذراعية فوقهم ولم يقل شيئاً آخر لم يعد يكلمهم، بل كان يصلي: "سيدتي أيتها الفاقة

المقدسة، أنت ثروتنا لا تتخلي عنا! حافظي على أن نكون جياعاً غالباً، نشعر بالبرد، وليس ثمة مكان نضع فيه رؤوسنا!.

سيدتي أيتها العفة المقدسة، طهري عقولنا وقلوبنا، طهري الهواء الذي نتنفسه! أعينينا على أن نقهر المغوي الذي يحوم حول بورتيونكولا حول قلوبنا مثل الأسد.

سيدتي، يا رمز الحب المقدس، يا ابنة الرب الأولى الموقرة، إنني أرفع ذراعي إليك: اسمعيني وتقبلي صلاتي. وسّعي قلوبنا كي تقبل جميع الناس، الطيب والخبيث، وتقبل أيضاً جميع الحيوانات البرية والأليفة، كل الأشجار، المثمرة منها وغير المثمرة، كل الأحجار والأنهار والبحار. إننا جميعاً إخوة. لنا أب واحد وكلنا اتخذنا الطريق الذي يعيدنا إلى بيتنا الأبوي"!

وتوقف. ربما كان يزمع أن يقول المزيد، لكن الأخ إلياس قفز إلى الأعلى، وجسده الضخم يعلوه البخار ويتفصد العرق من صدغيه.

ونادى بصوت راعد: "افسح مجالاً للإخوة الآخرين أن يتكلموا أيضاً. إننا جميعاً متساوون أمام الرب، وكل واحد له الحق في أن يعبر عن ما في ذهنه بحرية..... أيها الأخوة لقد سمعتم باللائحة التي جلبها إلينا الأخ فرانسيس من يد البابا. فهل ترغبون فيها أم لا؟ فليتكلم كل منكم من دون تردد."

وصمت الجميع لدقيقة، البعض كانت لديهم اعتراضات، لكنهم كانوا يكنون الاحترام الكثير لفرانسيس. وآخرون ليس لديهم ما يقولونه، فلم يفهموا جيداً ما قرأه فرانسيس ولذلك صمتوا، كما فعلت أنا فبالرغم من أنني وافقت على اللائحة، لم تكن لدي أية فكرة حول كيفية التعبير عن موافقتي.

وأخيراً نهض الأب سلفستر وقال متنهداً: " أيها الأخوة، أنا أكبر كم سناً، ولهذا أملك الجرأة في أن أقف وأتكلم أولاً. انصتو إليّ أيها الأخوة: إن العالم متفسخ والنهاية قريبة. دعونا نتوزع في زوايا الأرض الأربع ونخبر الناس عن خراب العالم كي يخاف الناس ويندموا وينقذوا أنفسهم بعد ذلك. هذه هي فكرتي، ولكن تصرفوا كما أنار الله عقولكم."

قفز ساباتيانو إلى الأمام، كان وجهه أصفر وفيه مرارة، وصرخ "إن العالم ليس متفسخاً، بل إن أصحاب الأملاك هم المتفسخون. أول شيء فاسد في السمكة هو رأسها! يجب أن ننهض ونثير الناس ثم نهاجم الملاكين الكبار، نحرق قلاعهم، ونحرق ثيابهم الحريرية ونحرق الريش الذي يضعونه على رؤوسهم. هذا هو التحرير الصليبي الحقيقي الوحيد، الطريق الوحيد الذي نحرر فيه القبر المقدس. وما هو القبر المقدس، إنه الناس التعساء، الذين يصلبون. وبعث الناس: هذا هو المعنى الحقيقي لبعث المسيح"!

صاح جونيبر متقدماً: "الناس جياع! إنهم حتى لا يقوون على الوقوف على أرجلهم، فدعوهم أولاً يأكلون كي يستعيدوا قوتهم، إنهم يحتاجون إلى عيون ليروا كيف أنهم مضطهمن دون، فدعونا نفتح عيونهم! أخي فرانسيس لماذا لا ننسى مملكة السماء لدقيقة ونتنبه إلى مملكة الأرض هذه حيث يجب ان نبدأ!... لقد سمعتم رأيي. ينبغي ان يكون لدينا كاتب يسجل كل شيء"!

وكان بيرنارد هو التالي. فقال وعيونه الزرق مغرورقة بالدموع: "أيها الإخوة دعونا نغادر عالم البشر. كيف تتوقعون أن نتآلف مع حكام عصرنا؟ دعونا نبتعد ونلتجىء إلى البرية ونكرس أيامنا

ولياليـنا للصلاة. الصلاة هي الأقوى أيها الأخوة. إن شخصاً يصلي على قمة جبل تندفع صلاته إلى الأسفل مباشرة وتدخل المدن وتثير قلوب كل الآثمين، وفي الوقت نفسه تصعد إلى قدمي الرب وتحمل الشهادة على معاناة البشر. يا إخوتي، بالصلاة فقط، وليس بالثروة ولا بالسلاح سوف ننقذ العالم."

في تلك اللحظة نهضت لأتكلم. تلعثمت في بضع كلمات ولكنني في الحال أضحيت مشوشاً وانفجرت باكياً وأنا أخفي وجهي بين كفي. ضحك العديد من الأخوة، لكن فرانسيس عانقني وأجلسني إلى جانبه من اليمين.

نهض ونشر ذراعيه كما هي عادته.

قال: "الحب! الحب! وليس الحرب ولا القوة! حتى الصلاة، يا أخي بيرنارد ليست كافية، فعمل الخبز مطلوب أيضاً. إنه من الصعب والخطر أن تعيش بين الناس، ولكنه ضروري. أن تتراجع نحو البرية وتصلي هذا شيء سهل ومريح. إن الصلاة بطيئة في إنتاج المعجزات، أما الأعمال الفعلية فهي أسرع وأكثر يقيناً وصعوبة في الوقت نفسه. حيثما تجد الناس ستجد الغناء والمرض والخطيئة. وهذا هو مكاننا أيها الأخ: مع المجذومين والخاطئين وأولئك الذين يتضورون جوعاً. عميقاً في أحشاء كل إنسان، حتى الأكثر قداسة وزهداً، تنام اليرقانة القذرة المرعبة. إنحن فوق اليرقانة وقل لها: أحبك!" ولسوف تبرز أجنحتها وتغدو فراشة... أيها الحب، أنني أسجد وأعبد قوتك اللامتناهية. تعال وقبل إخوتنا الرهبان، تعال وأكمل معجزتك"!

خلال الوقت الذي كان فيه فرانسيس يتكلم ظل إلياس يتلوى على الصخرة التي كان جالساً عليها ويشير برأسه في قلق منقطع

الأنفاس إلى زمرته. وأخيراً بعدما لم يستطع أن يطيق الاحتمال قفز على قدميه:

"لا تستمعوا إليه أيها الإخوة، فالحب ليس كافياً، إننا بحاجة إلى الحرب! إن نظامنا يجب أن يكون عسكرياً وإن إخوتنا يجب أن يكونوا شجعاناً يحملون الصليب بيد والبلطة الحربية باليد الأخرى. وكما يقول الإنجيل، إن البلطة يجب أن توضع عند جذور الأشجار، وكل شجرة فاسدة يجب أن تقطع وترمى في النار. ثمة طريق واحد لا غير لقهر قوة هذا العالم. وهو بأن نكون أقوى منها! ألا بعداً للفاقة والفقر المدقع! أين ذلك الغرور يا أخي فرانسيس؟ ألم يترك المسيح ذاته حوارييه أحراراً في ارتداء الخفاف وأكل الطعام والحصول على الورق؟ ألم يحشُ أحد الحواريين كيسه وسعى لأن يبقيه ممتلئاً كي يطعم رفاقه؟ وأنت يا أخي فرانسيس، ألا تكون بشعاً حين ترغب في أن نتجاوز المسيح؟ إن الثروة هي سلاح الرب العظيم، لا يمكننا التخلي عنها فنبقى عزّلاً في هذا العالم الحقير السفاح! إن زعيمنا لابد ان يكون أسداً وليس حملاً، وبدل أن نحمل مرشة ماء في أيدينا لابد لنا ان نحمل سوطاً. هل تراك نسيت يا أخي فرانسيس أن المسيح أخذ سوطاً وطرد به الذين باعوا واشتروا في هيكل الله؟... لقد قلتها مرة، أيها الإخوة، وأقولها مرة أخرى: الحرب"!

ووثب حينذاك خمسة أو ستة من الرهبان على أقدامهم يصرخون فرحين ورفعوا إلياس على أكتافهم.

وصاحوا: "أنت الأسد. قف في الأمام وقدنا"!

وضع فرانسيس يده على كتفي بعد أن أحس بالشحوب والإرهاق وسحب نفسه ليقف على قدميه.

وصرخ بصوت خاشع متألم: "السلام أيها الإخوة، كيف سنجلب السلام إلى العالم إن لم يكن له أثر في قلوبنا؟ إن الحرب تلد أخرى، وبهذا لن تكون ثمة نهاية لسفك الدم البشري. السلام! السلام! هل نسيت يا أخي إلياس أن المسيح كان حملاً وأنه تحمل بنفسه خطايا العالم؟"

فرد إلياس: "كان المسيح أسداً يا أخي فرانسيس، إنه نفسه يقول: "لم آت لأجلب السلام، بل السيف"!

ثم التفت إلى الإخوة الرهبان: "هلا سمعتم؟ تلك كانت كلمات المسيح: "لم آت لأجلب السلام، بل السيف!" تلك كانت كلمات المسيح وليست كلماتي."

نهض الإخوة الرهبان بقلوب مستثارة وانقسموا إلى فريقين. القليلون منهم التفوا حول فرانسيس وبكوا، ولكن الأكثرية التفوا حول إلياس وانفجروا ضاحكين. وراح كل واحد يتكلم في الحال ويصيح باهتياج حتى وقف الأب سلفستر في الوسط. قال: "أيها الإخوة، إن الشيطان تلك المعزى السوداء، قد عاد إلينا مرة أخرى. إنني أرى عينيه الخضراوين في الهواء"!

واندفع فرانسيس من بين الإخوة الذين أحاطوه واتجه نحو إلياس ووضع يده حول خصره.

قال: "أخي إلياس، انتم جميعاً انصتوا. إن أخوتنا تمر في وضع حرج. إسمحوا للحوارات والمساجلات التي سمعتموها في هذا اللقاء أن تستقر بهدوء في دواخلكم. الحرب؟ السلام؟ صلاة في عزلة تامة؟... الزمان، دليل الله الأمين، سوف يرينا الطريق الصحيح. خلال ذلك يا أخي لا تنسوا واجبنا! إن الأب المقدس منحنا امتياز الوعظ وطرق

الأرض بأكملها ممدودة أمامنا. دعونا نقتسمها بأسلوب أخوي ونبدأ أسفارنا. إن بيتنا هنا محدود جداً. فبورتيونكولا صغيرة: إننا نعيش مرفقاً نتعثر ببعضنا البعض فنغضب ونسخط ثم يأتي المغوي. اذهبوا إلى الهواء المفتوح وانطلقوا في الطرق الكبيرة، سافروا أزواجاً كي يدعم أحدكم الآخر، وحيثما تشاهمن دون: الغذاء الأبدي. بمساعدة الرب سأسير إلى أفريقيا. سأعثر على سفينة تعبر البحر، وبمشيئة الله، سأصل الأراضي البعيدة للملحدين حيث الأرواح العديدة من البشر التي لم تسمع حتى باسم المسيح. إن شاء الله، سآخذه إليهم! إلى الأمام أيها الإخوة، باسم الله. دعونا نتوزع حتى أطراف الأرض ونعود بعد ذلك إلى بورتيونكولا، المهد الذي ولدنا فيه، كي نقص على بعضنا البعض كل ما رأيناه وما عانيناه وأنجزناه في حملتنا البابوية الأولى هذه.

إنتشروا الآن أيها الإخوة، يا أبنائي، إنتشروا نحو زوايا الأرض الأربع وليباركم الرب. إن العالم كله ميدان الرب فاحرثوه وانثروا الفاقةوالحب والسلام. إدعموا العالم الذي يترنح والذي يكاد يسقط: ادعموا أرواحكم. وارتقوا بقلوبكم فوق الغضب والطموح والكراهية. لا تقولوا: أنا! أنا! بل بدلاً من ذلك اجعلوا الذات ذاك الوحش النهم، يخضع لحب الله. إن هذه ال "أنا" لا تدخل الجنة، بل تقف خارج البوابات وتجأر. أنصتوا الآن للقصة التي سأرويها لكم قبل أن نفترق. تذكروها جيداً ولتكن لكم تذكاراً مني يا أبنائي.

"كان ثمة ناسك يجاهد طوال حياته كي يصل إلى الكمال. فوزع كل حاجياته للفقراء وانعزل في الصحراء وراح يصلي ليلاً ونهاراً. وأخيراً جاء يوم مماته. وارتقى نحو السماء وطرق البوابات.

وجاءه الصوت من الداخل "من هناك؟" وأجاب "أنا"!

فقال الصوت: "ليس ثمة مجال لإثنين هنا، هيا ابتعد!

فعاد الناسك إلى الأرض وأعاد جهاده مرة أخرى: في الفاقة والصيام والصلاة المستمرة والبكاء. وحانت ساعته مرة ثانية ومات. ومرة أخرى طرق بوابات السماء. فجاءه ذات الصوت: "من هناك؟"

"أنا "

"ليس ثمة مجال لإثنين هنا. ابتعد"!

فهبط الناسك بسرعة إلى الأرض واستأنف جهاده بأشد مما كان لينال الخلاص. وحين أصبح شيخاً طاعناً في السن، عمره يقارب المئة، مات وراح مرة أخرى يطرق بوابات السماء. وجاءه الصوت: " من هناك؟"

"أنت، يا إلهي، أنت"!

وفي الحال، فتحت أبواب السماء، ودخل.

الشمس محرقة في فصل الصيف والبحر يتلألأ. كانت الجزر اليونانية إلى يسارنا. إمتلأت السفينة بالمحاربين المدججين من المراهقين والبالغين. والشيوخ، الجميع سائرون نحو تخليص القبر المقدس. كان الصليبيون قد حاصروا دمياط لشهور، ولكن السلطان "الملك الكامل" المقاتل الشجاع والحاكم القدير لم يسمح لهم بإسقاط المدينة.

في منطقة كابي ماليا وقعنا في براثن زوبعة هائجة. آلاف الأفواه البحرية وآلاف الرؤوس تفتحت لتفترسنا. وتحول لون الشجعان الذين على ظهر السفينة إلى الأبيض ثم إلى الأخضر وتحسروا وهم يحدقون بتلهف في خط الشاطىء. آه لو تمكنوا فقط أن يقفزوا ويتشبثوا بغصن على اليابسة ويستردوا رجولتهم! وبدأت النساء القليلات اللائي معهم بالصراخ. كان فرانسيس يتحول من رجل لآخر ومن امرأة لأخرى كان يحدثهم عن الرب وهم ينصتون إليه ويهدأون. هبط الليل داكناً وكانت السماء المعلقة قريباً من البحر ملبدة بالغيوم، وبين الماء وقبة السماء كانت السفينة تتقافز وتتمايل كأنها آيلة للغرق. ذهب فرانسيس نحو المقدمة، حيث ركع بين الأشرعة المطوية وراح يصلي.

اقتربت منه ولكنه لم يرني ولم يسمعني. إمتد رأسه نحو البحر، كان ينشد بصوت متذبذب مسحوق وكأنه كان ينطق رُقية.

"(أيتها) البحر، يا ابنة الرب، أشفقي على هؤلاء الناس، إخوتك. إنهم ليسوا تجاراً ولا قراصنة. هدفهم نبيل: إنهم متجهون نحو القبر

المقدس. ألم تشاهدي الصليب الأحمر على صدورهم؟ إنهم صليبيون، جنود الله. فارأفي بهم. تذكري المسيح، الذي دعاك يوماً لأن تسكني، فأطعته وسكنت. بسم المسيح، أناديك أنا، خادمه المتواضع، وأستحلفك الآن أن تسكني"!

كنت قد سقطت منكفئاً على الأشرعة. وسمعت صوت الماء العاصف، وعويل الناس داخل السفينة، وبين الناس والبحر الهائج يتوسط فرانسيس برقة وخضوع، مناشداً المياه أن تستكين. وعند ذاك أدركت للمرة الأولى قيمة الإنسان الحقيقية: ففي قمة إلياس، في الوقت الذي كان فيه العالم يتداعى، كان فرانسيس يصلي. كنت متيقناً أن البحر كان يسمع كلمات فرانسيس، وأن الرب قد سمعها أيضاً وكذلك الموت؛ كلهم انتصبت آذانهم لينصتوا. ثم – أقسم بالروح التي سوف أسلمها إلى الرب – وحصلت المعجزة، كلا لم تكن معجزة، كانت أبسط شيء وأكثر شيء طبيعي في الوجود: فقد سكن البحر. في أول الأمر خفّض من صخبه قليلاً، ولكنه ظل غاضباً، حرن أمام النير، محاولاً تجنب الخضوع. ولكنه لان شيئاً فشيئاً، حتى صار رقيقاً، وعند الليل لم يعد يضرب السفينة بهوس، بل أحاطها بسلام متواضعاً رقراقاً. قد ينكر الملحمن دون أن الروح يمكنها أن تكلم البحر وتأمره، أما بالنسبة لي فيعود الفضل إلى فرانسيس أنني عرفت السر: إن الروح أقوى من البحر، أقوى من الموت، وقادرة على أن تنسلخ من جسد الإنسان وتدعم العالم المنهار...

زحفت نحو فرانسيس وقبلت قدميه الملطختين بالدم. غير أنه لم يكن واعياً فروحه كانت تماماً فوق المياه السوداء منتبهة ومحترسة حتى لا يرفع البحر رأسه ويتمرد ثانية.

في الـصباح التـالي كـان المـاء والـسماء يلمعـان ويـضحكان، وكذلك حـال النـاس علـى ظهـر الـسفينة. أمـا فرانـسيس فقـد كـان شاحباً منهكاً من محنته وبقـي عنـد المقدمـة جاثمـاً، مغمـض العيـون. كان قد أنجز عمله ببراعة، وها هو يسمح للنوم أن يحط عليه.

مرت الأيام والليالي. كان القمر نحيفاً حين انفصل عن " انكونا" وراح ينمـو أكبر وأكبر حتـى أمسى بـدراً مـدوراً ثـم راح يـذوب، مـرة أخرى ويختفي. أبقى الجميع عيونهم موجهة نحو الجنوب، يبحثون عن بصيص أمل من ذلك الشاطىء الإسلامي. وتدريجياً تحول الماء الذي من حولنـا إلى اللـون الأخـضر. أعلـن القبطـان ان ميـاه البحـر تخـتلط بميـاه النيـل، "إننـا نكـاد نـصل." وبالفعل في الـصباح التـالي صـار بإمكاننـا أن نرى بوضوح معـالم اليابسة في وسـط الأفـق. لقـد كـان منخفـضاً، رمليـاً وردي اللون من خلال أول أشعة للشمس.

رسونا في خليج صغير منعزل. سجد فرانسيس على الساحل وصلى ورسم الصليب على الرمـل. وانطلـق المحـاربون للالتحـاق ببقيـة الأفـواج المسيحية وتركونا وحيـدين أنـا وفرانـسيس علـى الـساحل القـاحل. في البعيد استطعنا تمييز الأبراج والمنارات. نظـر فرانـسيس بعطـف وقـال: "أخي ليو يا حمل الله، لقد دخلنا في فم الأسد. هل أنت خائف؟"

أجبت: "أجل أخشى ذلك يا أخـي فرانـسيس. ولكـنني أُخفـي ذلـك ولسوف أذهب حيثما تذهب."

ضحك: "حتى لو ذهبت إلى الفردوس يا أخي؟"

"حتى لو ذهبت إلى الفردوس يا أخي فرانسيس."

فرفع يده وأشار إلى المنارات البعيدة حسن، دعنـا نـذهب. هـذا هـو الطريق إلى الفردوس"!

وشـرع يـسير في المقدمـة. حرقـت الرمـال أقـدامنا ، لكننـا رحنـا نغني ، ولهذا نسينا الألم. من وقت لآخر كان فرانسيس يقف ويضغط على ذراعي لتشجيعي. ثم يعود سريعاً ليستأنف أغنيته. "آه لو كان الأخ "سكون" هنا مع عوده لكنا قد قمنا بعرض أمام السلطان مثل ثلاثة رهبان خدرين بحب الله كثيراً"!

قلت بعدما نفد صبري: " أنا جائع يا أخي فرانسيس."

"إصبر يا أخي ليو. انظر إلى المنارات تكبر شيئاً فشيئاً. نكاد نصل فلا تقلق حين يرانا السلطان سيعطي الأوامر بأن توضع قدور الطعام على المواقد"!

وبينما كنا نتكلم، سمعنا صرخات حادة، وقفز أمامنا اثنان من السود شاهرين سيفيهما.

صاح فرانسيس وهو يشير إلى المنارات: " السلطان! السلطان"!

جلدانا بقوة، ثم وضعانا بينهما، وبعد ذلك انفجرا بالضحك، وساقانا إلى قصر السلطان ورميانا عند قدميه. كان المساء قد حل قبل ذلك.

ضحك السلطان عندما رآنا. أزاحنا من أمامه، وتساءل (كان بارعاً في الحديث بلغتنا): "من أنتما؟ هل أنتما من الرهبان عشاق الخمرة؟ لماذا دخلتما عرين الأسد؟ ماذا تريدان؟"

رفعت عيني ورأيته. كان رجلاً جميلاً، له شعر أسود أجعد وأنف ناحل معقوف، وعينان كبيرتان سوداوان وعميقتان. ثمة عمامة خضراء واسعة على رأسه، ثبت فيها هلالاً من المرجان. كان يقف إلى جانبه رجل أسود عملاق متسلح بسيف طويل: إنه الجلاد!

وعاد السلطان ليسألنا مرة أخرى: "انهضا، من أنتما وماذا تريدان؟"

وقمنا. قال فرانسيس وهو يرسم الصليب: "إننا مسيحيان، أرسلنا الرب كي نشفق عليكم أيها السلطان الشهير. لأنه يريد أن ينقذ روحكم."

إندهش السلطان وهو يجاهد ليمنع نفسه من الضحك: "أن ينقذ روحي! وكيف تنقذ روحي أيها الراهب؟"

"بالفقر المدقع والحب الكامل والعفة الكاملة يا سيدي السلطان."

حدق فيه السلطان جاحظ العينين، وصاح به: " هل أنت في كامل وعيك؟ أي هراء هذا الذي تقوله أيها الراهب؟ هل تعني أنني يجب أن أتخلى عن ثروتي وقصوري وزوجاتي وأصبح مشرداً مثلك أطرق الأبواب وأتسول؟ هل تعني أنني يجب أن لا ألمس امرأة؟ ما معنى الحياة بعد ذلك هل تستطيع ان تخبرني؟ لماذا أعطانا الله مفتاحاً لنفك به النساء وندخل؟ هل معنى هذا أنني عليّ أن أصبح مخصياً، أهذا ما تريده؟"

"النساء إلا..." بدأ فرانسيس الكلام، لكن السلطان مد يده إليه بغضب.

"أغلق فمك، أيها الراهب ولا تقل شيئاً عن النساء وإلا قطعت لسانك! فكر بأمك، فكر بأختك لو كانت لك أخت، وفوق هذا، أنتم أيها المسيحيون، فكروا بمريم أم المسيح!" طأطأ فرانسيس رأسه ولم يجب.

"وأخبرني أرجوك، ماذا تعني بالحب الكامل." قال السلطان ذلك ودعا الجلاد لأن يقترب.

"أن تحب أعداءك يا سيدي السلطان."

واستغرب السلطان: "أن أحب أعدائي!" وانفجر ضاحكاً. وخاطب الجلاد:

"أغمد سيفك. إنهما مجنونان تعيسان. مجنونان ولن نقتلهما."

ثم التفت نحو فرانسيس. وتكلم هذه المرة بلطف أكثر، وكأنه كان يخاطب شخصاً مريضاً: "جنّتكم تلك، ماذا تشبه؟ دعونا نرى إن كانت تستحق الذهاب إليها."

"إن جنتنا مليئة بالملائكة والأرواح والقديسين ويجلس فيها الرب على القمة."

"وماذا يأكل الإنسان هناك ويشرب؟ ومع من ينام؟"

"لا تكفر. فسكان الفردوس لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون. إنهم أرواح."

وضحك السلطان مرة أخرى "أرواح؟ يعني: هواء أهذا ما تقصد؟... إن جنتنا أفضل آلاف المرات، ففيها جبال من الطعام وأنهار من الحليب والعسل وبنات جميلات عذارى أبداً. لابد لي أن أكون مجنوناً أيها الراهب كي أذهب إلى جنتكم... اتركني بسلام."

فغضب فرانسيس. ونسي في أي مكان هو، إذ بإشارة من السلطان قد يفصل رأسه عن جسده، وراح يعظ من دون خوف بآلام المسيح والبعث والحياة الأخرى والجحيم حيث سيحرق المسلمون أبداً أبداً. واندفع في وعظه في كلمة الله، حتى أنه غدا كالمخمور وراح يصفق بيديه ويرقص ويضحك ويغني ويصفر. من من دون شك كان يبدو لدقيقة وكأنه قد فقد عقله. وكان السلطان يراقبه ويضحك بصوت خافت، وراح هو أيضاً ويصفر ويصيح ليشجع الراهب المشتعل كي يستمر.

لكن فرانسيس توقف فجأة. كان العرق يتصبب منه.

قال السلطان: "بارك الله فيك. لم أضحك منذ وقت طويل. والآن إهدأ فقد جاء دوري لأكلمك. إن نبينا يحب العطور والنساء والزهور. وفي حزامه يحتفظ بمرآة صغيرة ليمشط شعره. وهو يحب النظافة والملابس الجميلة أيضاً. أما نبيكم فيسير حافياً، ولا يغتسل ولا يمشط شعره، ورداؤه مصنوع من آلاف الرقع، فقد قيل أن كل فقير يقابله يعطيه رقعه. هل هذا صحيح؟"

"صحيح، صحيح! لقد حمل بنفسه معاناة كل الفقراء في العالم أجمع." هكذا صرخ فرانسيس مندفعاً.

وربت السلطان على لحيته، وأخرج مرآته الصغيرة من حزامه وثنى شاربيه واتجه نحو غليونه ذي الطرف الكهرماني. تقدم فتى وانحنى ليشعله له. أخذ السلطان الأنفاس الدخانية ثم أغمض عينيه بهدوء.

همس لي فرانسيس وهو يلتفت نحوي: "إن هذا هو أفضل وقت نُقتل فيه يا أخي ليو. هل أنت مستعد؟ إنني أسمع أبواب السماء وهي تتفتح."

أجبت: "ولماذا نقتل بهذه السرعة؟ إنتظر قليلاً."

فتح السلطان عينيه وقال: "لم يكن محمد (ﷺ) نبياً فقط. بل كان إنساناً أيضاً. كان يحب الناس ويكره ما يكرهونه. ولهذا أنا أنحني وأعبده ولهذا أيضاً اجتهد وأقلده. أما نبيكم فمكون من الصخور والهواء ولا يهمني أمره مطلقاً."

ثم التفت إلي: "وماذا عنك أيها الراهب، ألا تتكلم؟ قل شيئاً دعنا نسمع صوتك."

فصرخت: "أنا جائع"!

ضحك السلطان. وصفق يديه وجاء الزنجيان اللذان قبضا علينا.

وأمرهما: "ارفعا القدر عن الموقد وأعطياهما طعاماً ليأكلا، وبعد ذلك أطلقوهما ليعثرا على من شاكلهما في دينهما. إن هذين التعسين مجنونان وعلينا احترامهما."

اجتاحت القوات الشرقية المدينة. وانتشرت فيها رائحة الجنود الموتى والخيول المبقورة المطروحة في الشوارع. كان الدراويش يرقصون خارج الجوامع، يجرحون وجوههم بسكاكين طويلة حتى يجري الدم على جلابيبهم البيضاء. وفي المقاهي كان الفتيان الممتلئون يغنون أغاني متراخية شرقية بمصاحبة آلات غريبة هي الدفوف. والنساء كن يسرن مغشيات من الرأس وحتى إصبع القدم، يعبق الهواء من أثرهن برائحة المسك.

سددنا أنوفنا من الرائحة الملعونة للموت، وتبعنا الزنجيين سريعاً عبر الأزقة الضيقة حتى وصلنا إلى حافة المدينة. هنا توقف مرشدانا وأشارا نحو بقعة في البعيد خلف تل رملي منخفض... "المسيحيون هناك!" زمجرا والتمعت أسنانهما البيضاء الناصعة في الشمس. ثم دفعانا في ظهورنا دلالة على التوديع وعادا في طريقهما راكضين.

وانطلقنا نسير بصمت. نظر فرانسيس إلى الأرض مطبق الشفتين واستغرق في التفكير. أما أنا فقد حدقت محملقاً بما حولي. بدا العالم كبيراً بشكل لا يصدق! هنا بعيداً آلاف الأميال عن صقلية، كانت تعيش أرواح لا عد لها في الخطيئة، لم تسمع حتى باسم المسيح. كيف كان بإمكاننا أن نعظ بكلمة الله لكل هذه الأرواح؟ الحياة قصيرة، ولن يكون لنا الوقت الكافي. في عالم بهذه السعة، من أين كنا سنبدأ؟.

امتدت الرمال أمامنا. مرت من أمامنا طيور غريبة حمراء وبطونها

بيضاء. خلفنا كانت جلبة المدينة الإسلامية، وأمامنا، خلف كثبان الرمل، أبواق وأنين لخيول. ها نحن نقترب أخيراً من الضيافة المسيحية التي مضت عليها الشهور وهي تحيط المدينة.

وتوقف فرانسيس بغتة. قال لي: "أخي ليو عندما (أو فيما إذا) نعود إلى وطننا فسوف أتوسل بكل فقير أقابله أن يعطيني رقعة كي أستخدمها في ردائي. لقد كان السلطان محقاً."

"ليس لنا إلا مهرب صغير يا أخي فرانسيس."

وكان جوابه: "لقد فقدنا فرصة في دخول الفردوس."

خلال هذا الوقت تسلقنا قمة التل وامتدت تحتنا جلبة عالية وألوان عديدة للألوف من القوات المسيحية.

* * *

أفضّل أن لا أتذكر تلك الأيام والشهور. إن ضجيجها لا يزال يصخب في عقلي ويجعلني أشعر بالدوار. ليس إلا الفحش والأغاني النحاسية واللعنة التي سمعناها حين وصلنا السهل حيث نصب الصليبيبون خيامهم. هل كان أولئك هم جنود المسيح حقاً؟ لم يكونوا يتكلمون إلا عن الغنائم التي سوف يحصلون عليها والنساء اللائي سوف يستعبمن دونهن والمسلمين الذين سوف يقتلونهم. ولم يمر اسم المسيح على شفاههم. من الصعب عليّ التذكر كم من الأسابيع بقينا معهم. في كل يوم كان فرانسيس يقف على صخرة ويعظ عن القبر المقدس ورحمة الله. كان الصليبيون يمرون من أمامنا، البعض منهم لم يبال حتى بالالتفات إلينا، بينما كان البعض الآخر يقفون ليضحكوا منا أو ليرمواً فرانسيس بقبضة رمل.

ودارت المعارك. شنها الصليبيبون وتسلقوا الأبراج واجتاحوا المدينة والساحل وبدأوا القتل! ركض فرانسيس بين جنود المسيح وتوسل إليهم بالدموع أن يكونوا رحماء، لكنهم أزاحوه جانباً وسخروا منه واستمروا في اقتحام البيوت. كيف لي ان أنسى صرخات النساء وانين الرجال الذين ذبحوهم! لقد سال الدم أنهراً، حيثما التفت كنت تتعثر برأس مقطوع. كان الهواء قد أصبح سميكاً بالأنين والعويل.

وتغطى وجه السماء بالدخان من حرائق البيوت والأجساد البشرية. وراحت راية الإمبراطور المسيحي ترفرف فوق قصر السلطان الذي فر على جواده السريع وترك كل شيء خلفه. ركع فرانسيس في ممر القصر وناشد الرب أن يحول بصره عن دمياط كي لا يرى ماذا يفعل جنوده على الأرض.

صاح والدموع تجري على خديه: "إلهي لقد أصبح الإنسان وحشاً وسط دم الحرب، حيواناً متعطشاً للدماء. لقد فقد وجهه الذي وهبته له وأضحى ذئباً، خنزيراً قذراً. فارأف به يا إلهي، أعد إليه وجه الإنسان الذي هو وجهك"!

تجمع الشيوخ والمعاقون في الجامع. وبقي فرانسيس بينهم يتقول بكلمات المواساة. كان المرض قد أعمى الكثيرين، فقد تفجر الدم والقيح من عيونهم. وكان فرانسيس يضع يديه على أجفانهم ويتوسل الله أن يشفيهم." هم أيضاً بشر وهم أولادك". هكذا تمتم "فأشفق عليهم!" كان ينفخ على عيونهم ويهمس بكلمات المواساة والحب حتى اصابه المرض هو نفسه والتهبت عيونه وراحت تحترق. وراح بصره يتضاءل، ولم ير الطريق، بوضوح، وتوجب علي أن أمسك بيده وأقوده.

قلت له يوماً: "لقد قلت لك أن المرض سيصيبك لو اقتربت منهم يا أخي فرانسيس"!

وأجابني: "أنت حكيم مذهل يا أخي ليو. إن ما تقوله معقول ولكنه خطأ فمعنى هذا أنك لن تستطيع ان تقفز، أليس كذلك؟ هل ستستمر في السير على الأرض إلى الأبد؟"

"أي قفز يا أخي فرانسيس؟"

"القفز فوق رأسك، في الهواء"!

"كلا، فأنا لا أزال غير قادر على القفز، ولا أنا قادر على ذلك في المستقبل. لقد قمت بقفزة واحدة في حياتي، وكان ذلك حين قررت ان أتبع فرانسيس. أما واحدة ثانية فهذا كثير علي... في كل وقت أفكر بهذه القفزة وأفرح لأنني قمت بها، ولكنني في الوقت نفسه أندم عليها بشدة. واحسرتاه لن أكون أبداً أنموذجاً للتقديس..."

قال لي فرانسيس في مناسبة أخرى: "إن العالم كبير بشكل مرعب يا أخي ليو. فخلف المسلمين العرب ثمة الزنوج وخلف الزنوج ثمة القبائل المتوحشة من أكلة لحم البشر وخلفهم محيط لا حدود له، محيط يمكن السير عليه لأنه متجمد. كيف يمكننا إذن أن ننجح، وكيف سيكون لنا الوقت لنعظ بالأنباء السارة في كل مكان، أنباء تشير إلى أن المسيح قد بعث إلى العالم؟"

"لا تقلق يا أخي فرانسيس: سيتكفل الزمان بذلك وسيكون لديه الوقت لكل شيء."

تمتم فرانسيس: "الزمان... الزمان... ولكننا لن نكون هنا."

"سوف تراقب ذلك من السماء، يا أخي فرانسيس، سوف تعمل وأنت ممتطياً الزمان."

تحسر فرانسيس. قال: "أخي ليو، كان ثمة ناسك توفي وصعد إلى السماء وسقط في حضن الرب فوجد الغبطة الكاملة. في يوم ما انحنى كي يرى الأرض التي تحته، وحين فعل ذلك، شاهد ورقة خضراء. فصاح. " يا إلهي دعني أرحل، دعني ألمس الورقة الخضراء مرة أخرى!"... هل فهمت يا أخي ليو؟"

كانت كلماته قد أرعبتني فلم أجبه. يا الله! لقد كان ذلك صحيحاً: فالورقة الخضراء بهذه القوة.

* * *

ذهب الصيف وجاء الخريف.

سألته: "متى سنغادر يا أخي فرانسيس؟ لقد جاء الخريف، إنني أحن إلى المهد حيث ولدنا. هذا عالم آخر، ربما ثمة إله آخر هنا... تعال ودعنا نذهب."

أجابني: "أخي ليو، حين يمتد أمامك طريقان وتريد أن تختار، فيكف ستعرف من منهما الأفضل وأي منهما يقود إلى الله؟"

"لا أدري يا أخي. أخبرني."

"إختر الأكثر صعوبة والأشد انحداراً . إن حياتنا هنا قاسية، لذلك دعنا نبقَى هنا."

وراح يعظ طوال النهار، ولم يأبه لوعظه أحد. كانت عقول وأفكار الجميع متجهة نحو نهب أورشليم.

وصاح فرانسيس يائساً: "والمسيح، الا تفكرون بالمسيح أيها الإخوة؟ لقد جئتم كي تنقذوا قبره، قبره المقدس"!.

ولكنهم ومنذ وقت طويل جعلوا منه أضحوكة. كانوا يسحبونه من

ردائه ويرمونه بالحجر، ويكامن دون يموتون من الضحك حين يظهر والجرس يرن في يده في الشوارع، وهو بدوره، مسرور جداً لأنه قد ذل من قبل الناس يضحك معهم ويبدأ الرقص والوعظ في وسط الشارع.

"أنا مهرج الرب، مهرج الناس. تعالوا واضحكوا، يا إخوتي، تعالوا لتضحكوا"!

في يوم ما وعند الظهيرة اضطجعنا في مدخل ملجأ. كانت الشمس حامية في الخارج، وكنا متعبين وسرعان ما نمنا. وفجأة بينما كنا نائمين سمعت فرانسيس يقفز ويصرخ. حين فتحت عيني صرخت أيضاً، إذ طرح اثنان من الصليبيين مومسا عارية إلى جانب فرانسيس ليمتعوا أنفسهم. في اللحظة التي رمت فيها المرأة الوقحة ذراعيها حول عنقه قفز على قدميه وهو يختض. هدل صوت الفاجرة وهي تحيطه بذراعيها تطلبه: "تعال، تعال، أنا الفردوس فادخل"!

وضع فرانسيس يديه على عينيه كي لا يراها. ولكن روحه سرعان ما أشفقت على المرأة.

قال: "أيتها المومس يا أختي، لماذا لا تريدين ان تنقذي روحك؟ ألا ترأفين بها؟ وجسدك الذي يستسلم للرجال لسنوات طويلة: ألا تشفقين عليه؟ اسمحي لي أن أضع يدي فوق راسك واصلي للرب أن يغفر لك؟"

قالت له وهي في نوبة ضحك: "حسن، ضع يدك على رأسي واشرع في تعاويذك، دع ربك يأتي وينجز معجزته."

وضع فرانسيس، كفيه على الشعر الأسود غير المضفور، ورفع عينيه نحو السماء. وهمس: "أيها المسيح: أنت يا من هبطت إلى عالم الفقراء، عالم الخاطئين والعاهرات، أعطف على هذه المرأة، هذه

المرأة العارية. إن قلبها العميق في داخلها طيب، لكنها اختارت طريق الخطيئة. مد لها يدك وقدها إلى طريق الخلاص."

أغلقت المرأة عينيها. وراح وجهها يحلو شيئاً فشيئاً: من المؤكد أنها شعرت بقدسية فرانسيس تهبط إليها من يديه إلى دماغها، ومن هناك على قلبها ثم أحشائها وحتى نهاية أطراف قدميها. وفجأة وعلى حين غرة، انفجرت باكية. أبعد فرانسيس يديه وخط إشارة الصليب على جسدها المتجرد.

قال لها: "لا تبكي، يا أختي إن الرب طيب، ويسامح. تذكري ما قاله للمومس حين كان على الأرض: لقد غفرت لك ذنوبك، لأنك أحببت كثيراً."

كان الجنديان واقفين على احد الجوانب خلال هذا الوقت وهما يقهقهان. والآن يقهقهان وراحا يصفران للمرأة ويجذبانها. ولكنا لملمت رداءها على عجل من الأرض، لفته حول جسدها، وسقطت عند أقدام فرانسيس.

وصرخت: "اغفر لي لأني أذنبت. أليست لديك دير كي ألتجىء إليها هنا أو هناك؟ خذني معك"!

"يا أختي، إن العالم بأكمله دير يمكنك أن تعيشي بعفة في داخل العالم كما لو أنك خارجه. اذهبي وأغلقي بيتك على نفسك ولا تخافي. إن الرب معك"!

* * *

حل علينا الشتاء. حمل الجيش خيامهم وغادروا نحو أورشليم. كانت ثمة غيوم متناثرة في السماء. أسراب من غربان كانت تتبع جيش الله خلال النهار وقطيع من الضباع خلال الليل، وكنا خلفه

أيضاً. كنت أقود فرانسيس من يده لأن عينيه كانتا تصغران حتى لم تعودا غير شقين ضيقين ملتهبين بشدة. كان الضباب قد لفهما وأمسى العالم معتماً.

في صباح اليوم الثالث إنهار على الأرض، يلهث ولا يتنفس إلا بصعوبة.

"إنني لا أستطيع الاستمرار يا أخي ليو. أريد أن أذهب يميناً نحو الحدود، ولكنني لا أستطيع... انظر"!

وأراني قدميه. كان الدم والقيح يجريان منهما.

وتحسر: "كأن تلك الجروح لم تكن كافية، يا أخي ليو لقد دخلت شياطين جديدة في داخلي"!

لم أجرؤ على مناقشته. ولقد كنت أعرف ما هي تلك الشياطين الجديدة ومسكت لساني.

كنا محاطين برمال لا حدود لها. واختفى الجيش. عند حافة الصحراء كانت الغيوم قد تراكمت واعتمت الشمس وكان البحر إلى يسارنا يتلألأ عن بعد. انحنيت ورفعت فرانسيس على كتفي كان قد وهنت قواه، وراح يتمايل ويتنفس لاهثاً متجهاً نحو البحر. كان ذلك في منتصف النهار حين وصلنا الشاطىء حيث رست سفينة رسم عليها صليب أسود على المقود. كانت أشرعتها الساكنة معلقة بارتخاء. وثمة اثنان أو ثلاثة من الصيادين يسحبون شباكهم نحو الساحل، هناك حيث بنيت بضعة أكواخ من براز الأبقار وغصون الأشجار والقش، وبعدها كان البحر الأزرق المخضر الذي لا حدود له.

وضعت فرانسيس على الساحل ورششته بماء البحر. رفع عينيه سألني بتلهف: "البحر؟ البحر؟"

"نعم يا أخي فرانسيس، البحر. إننا عائمن دون إلى الوطن."

لم يعترض ولم يتكلم. تركته وركضت مقترباً من السفينة وناديت القبطان. وحين جاء وقعت عند قدميه وتوسلت إليه وأنا أعانق ركبتيه:

"إن كنتم عائدين إلى وطننا خذونا معكم ليس لدينا ما ندفعه أجرة، ولكن الله سوف يدفع لكم."

"متى ؟"

"في العالم الآخر، العالم الحقيقي."

فقال القبطان ضاحكاً: "متى سيكون هذا اليوم! إن الرب مخاطرة سيئة. إنه مدين لي بالكثير سابقاً، ومازلت أنتظر منه أن يفتح لي كيسه."

وكررت: "خذونا معكم. فكر بالجحيم، فكر بالفردوس. إن الطريقين مفتوحان أمامك. فاختر"!

حك القبطان لحيته بعصبية وقال: "اسمع أيها الراهب، مضت ثلاثة أيام وأنا جالس هنا انتظر الريح التي لم تأت. أنت ورفيقك لديكما صلات وطيدة مع الرب. هل يمكنكما أن تصليا له لينفخ أشرعتي؟ لو جلبتما الريح المناسبة فسوف آخذكما على ظهر السفينة، ولا تقلقا بشان الأجرة. عد إلى رفيقك وابدآ في قراءة الرقى"!

هرعت إلى فرانسيس. إن كان ينوي أن يبلغ صلاته إلى الرب فلسوف يستمع الرب إليه.

"أخي فرانسيس، سفينة من بلادنا راسية أمامنا. يقول القبطان أنه سوف يأخذنا معه إن صلينا إلى الرب ليبعث بالريح المناسبة. فارفع ذراعيك إلى السماء وابدأ بالصلاة"!

فأجابني: "إن المعجزات الوحيدة التي أؤمن بها يا أخي ليو هي تلك التي تأتي من القلب. إنني غير قادر على إنجاز أي شيء أبعد من ذلك، لذا لا تطلب مني شيئاً."

وألححت: "تضرع باكياً إلى السماء. سوف يسمعك الرب."

فاندفع فرانسيس الذي كان على حافة القبر، اندفع بسرعة وقفز على قدميه ليمسكني من مؤخرة رقبتي. وصرخ:

"لا تغضبني يا أخي ليو. توقف عن إثارتي كل دقيقتين كي أصرخ: "أعطني! أعطني! أعطني!" هل تظن ان الرب ليس من عمل لديه سوى أن يعطي أقراص الخبز والثياب الدافئة والرياح المفضلة؟ لقد قذفنا هنا في الصحراء، وإن تكللت جهودنا بالفشل فإن هذا هو ما يريده. لقد نشر جناحاً أسود فوقي فاسودت بصيرتي: وهذا هو بالضبط ما يريده. وجلب سفينة ووضعها أمامنا مباشرة، وهو الآن يرفض ان يرسل الريح: وهذا هو بالضبط ما يشاءه أو ربما أنك تفكر أنه مدين لنا بإيضاح لأفعاله! أو تأتي حضرتك وتطلب مني أن أناديه كي يغير مشيئته! أغلق فمك يا أخي ليو، أعقد ذراعيك وتقبل الله. دعه ينزل إلينا قناعاً يرتئيه كالجوع أو الريح الناعمة أو الطاعون"!

واندهشت لسماع فرانسيس يتكلم هكذا بغضب. فانحنيت وقبلت يده ولم أقل شيئاً. وأدرك حينذاك أن كلماته قد آلمتني فأسف لنطقه إياها.

"سامحني يا أخي ليو. إن الشياطين الجديدة التي في داخلي قد سمعت قلبي ولساني."

واستمر في الكلام لكنني كنت أحدق باكياً في البحر ولم

أتـذكـر مـا الـذي قالـه لـي ورأيـت فجـأة المـاء يـستثار تـدريجياً وراح يضطرب. وهـب نـسيم دافـىء مـن الجنـوب. وازدادت التموجـات شـيئاً فـشيئاً، ثـم وبغتـة، في الدقيقـة الـتي توقـف فيهـا فرانـسيس عـن الكلام، اندفعت ريح رقيقة ورأيت أشرعة السفينة ترفرف وتنتفخ.

وجاءنا صوت القبطان السعيد: " هيا أيها الراهبان."

انحنيت وخطفت فرانسيس واضعاً يدي تحت ذراعيه. "إن ريحاً رائعة قد هبت يا أخي فرانسيس. القبطان ينادينا. دعنا نذهب""

تمتم فرانسيس: "تطلب من الله شيئاً فلا يعطيكه، وحين لا تطلب منه، يعطيكه... حسن، له الحمد على كل حال! دعنا نذهب."

وحين صعدنا إلى ظهر المركب أخيراً، وجلسنا متصالبي السيقان عند المقود ورحنا نرى الشاطىء الإفريقي يتراجع في البعد، وضع فرانسيس يده على ركبتي قال: "أخي ليو حين نصلي للرب يجب أن لا نجني من وراء ذلك شيئاً أبداً فمع مرور الوقت، بدأت أدرك أن الله لا يعبأ بالأنين والتوسل. لقد بكينا وتوسلنا أكثر مما ينبغي يا أخي ليو. إن صوتاً في داخلي سمعته اليوم يا أخي ليو؟ لا أزال غير قادر على التعرف إليه!... سوف ننتظر ونرى"!

كانت رائحة البحر طيبة، وانطلقت السفينة مطلقة الأشرعة. كان الطريق إلى الوطن جميلاً، ومرت الأيام والليالي مثل بروق تتغير سريعاً سوداء وبيضاء. جلست عند الدفة وظهري إزاء الجبال ومنحت نفسي للتفكير. نعم كان فرانسيس محقاً: كل آلامنا قد ذهبت سدى. فلم يصبح السلطان مسيحياً ولم يعبأ الصليبيون بكلمات فرانسيس الباكية. ومن يمكنه ان يتوقع أن هؤلاء المسيحيون المسلحون المتصندقون سوف ينصتون له؟ لقد ذبحوا وسَلبوا ونهبوا

بشكل مخز، ونسوا تماماً لماذا انطلقوا وأين كانوا ذاهبين. هل كانت تلك هي مشيئة الله، وإن كان الأمر كذلك، فلماذا؟

سألت نفسي هذا السؤال، سألته بيأس، ولم أحصل على جواب. ولم أجرؤ على أن أسأل فرانسيس، الذي كان إلى جانبي، لأنني تذكرت الليلة التي سمعنا فيها أغنية العندليب في ضوء القمر. توقفنا وسمعناه، حابسي الأنفاس.

قال لي فرانسيس هامساً: "إن الرب كامن في داخل حنجرة الإنسان ويغني يا أخي ليو." وحالما قال ذلك، انقلب الطائر على ظهره وسقط من الأغصان ليقع على الأرض. إنحنى فرانسيس والتقط العندليب بيده. كان منقاره مدمى تماماً. "لقد مات من كثرة الغناء" قال فرانسيس ذلك وقبله من رقبته الصغيرة التي كانت ما تزال دافئة.

ولكنني غضبت وصرخت: "لماذا كان عليه أن يموت، لماذا كان على الحنجرة الدافئة للعندليب أن تموت؟ لماذا قدر للعيون البشرية ان تتحول إلى طين؟ لماذا؟ لماذا؟"

قطب فرانسيس جبينه وصاح: "ولماذا يكون الإنسان وقحاً هكذا، ويلقي بالأسئلة؟ ربما تريد من الله أن يوجز لك الأسباب، أهذا ما تريده؟ أغلق فمك الصفيق"!...

نحن الآن على السفينة، وتذكرت كلمات فرانسيس ورغم أن عقلي قد تفجر مرة أخرى ورحت ألقي بالأسئلة، فقد قررت أن أكتمها..

وفي إحدى الصباحات، وحين لاح لنا شاطىء بلادنا اقترب مني فرانسيس وهو مضطرب "لقد حلمت يا أخي ليو بحلم سيء. أرجو من الله أن لا يتحقق"!

أجبّت: "لا تأتي كل الأحلام من الله. لا تخف يا أخي فرانسيس."

"لقد حلمت أنني دجاجة، دجاجة تحضن صغارها، تماماً كما هو الحال في الزمن الآخر. كنت قد غطيت صغاري بأجنحتي حين اندفع صقر فجأة من السماء. قفزت من خوفي وتركت فراخي مهددين. أمسك بهم الصقر بمخالبه واختفى."

ولم أنطق بكلمة. لكنني رجفت وقلت لنفسي: "إنه إلياس! الصقر هو إلياس"!

تنهد فرانسيس: "ما كان يجب أن أبتعد. من الخطأ أن أتخلى عن صغاري وأتركهم من من دون حماية... من يكون هذا الصقر حسب اعتقادك يا أخي ليو؟

"سوف نصل بورتيونكولا في بضعة أيام يا أخي فرانسيس، وهناك سوف تعرف."

* * *

اقترب الشاطىء، أخيراً. حدقنا بشوق نحو الساحل ونحن نتكىء فوق حاجز المقدمة. وظهرت المنازل، وكذلك أشجار الزيتون والتين والكروم. كانت تلك هي بداية الربيع. تحولت المراعي إلى خضراء وراحت الأرض تضوع بالروائح العطرة لابد أن نباتات الندغ والزعتر قد أزهرت.

قال فرانسيس: "لا أستطيع أن أرى وطننا بوضوح، لكنني أحسه بين ذراعي كأنه ابني."

ترجلنا على الشاطىء. أية فرحة قد غمرتنا ونحن نعود إلى وطننا خصوصاً عند وقت الربيع حينما تزهر كل الأشجار! إنحنى فرانسيس كما فعلت وقبلنا التربة. ثم وبعد ان رسمنا إشارة الصليب

هرعنا مسرعين، وتشبث فرانسيس بيدي كي لا يتعثر. كلانا كان مستغرقاً في تفكيره. كان فرانسيس يقف من وقت لآخر ويرفع يده نحو الشمال باتجاه بورتيونكولا ويرسم إشارة الصليب في الهواء. كان يبدو انه يبارك الكنيسة الصغيرة ويحاول أيضاً ان يطرد الشياطين التي سكنتها.

أيقظني في أحد الأيام عند اندلاع الفجر. كنا قد قضينا الليل في مخزن التبن. صاح بي مذعوراً: "لقد حلمت ثانية يا أخي ليو. كلا لم يكن ذلك حلماً: لقد رأيت بورتيونكولا بين الأشجار، رأيتها وعيناي مفتوحتين. هاجمها ثلاثة شياطين. أجنحتهم تشبه أجنحة الخفافيش، ولهم مخالب وقرون وذيولهم الملتوية تلف كنيستنا الصغيرة الجميلة وصوامعنا. ولكنني رسمت إشارة الصليب وصرخت ابتعدي أيتها الأرواح القذرة باسم المسيح!... فتلاشت."

فقلت له لأهدئ من روعة: "إن حلمك فأل حسن يا أخي فرانسيس كان الله منتصراً."

فانشرح صدره وقفز على قدميه وراح يرقص فوق التبن. ولكن الرعب سرعان ما ارتسم على وجهه فسقط منكفئاً، وتسارع نبضه. لابد أنه رأى رؤيا مرعبة في الظلمة.

فصرخت وقد غلبني الخوف: " ما الأمر يا أخي فرانسيس؟ هل رأيت شيئاً في الهواء؟"

فأمسك بيدي وهو لا يزال يرتعد وتمتم: "أشفق علي! يا أخي ليو، ساعدني لأخرج من الجحيم. تعال ودعنا نتسلق قمة الجبل العالي المغطى بالثلج، لنصلي. قبل أن أرى الإخوة الرهبان يجب أن اتطهر وأرى الرب."

وأرعبتني الفكرة فقلت: "ولكننا نتجمد حد الموت يا أخي فرانسيس. فلم ينته الشتاء بعد، والثلج في أعلى الجبل يصل حتى رقابنا."

فهز فرانسيس رأسه: "نعم إذا لم يكن لديك إيمان، يا أخي ليو، فسوف تتجمد من دون شك، ولكن إذا كان لديك إيمان فإن العرق سوف يتصبب منك، ولسوف يخرج البخار من شعرك... إنه النهار. ارسم إشارة الصليب ودعنا نذهب في طريقنا."

وبدأنا الصعود. كلما ارتفعنا أعلى تزداد برودة الهواء شدة ويرتجف جسدي. وسرعان ما وصلنا الثلج. وغطست ساقي العاريتين فيه، في البداية حتى الكاحلين ثم حتى القصبتين. كان الوقت مساءً حين وصلنا أخيراً القمة.

سألني فرانسيس: "هل تشعر بالبرد يا أخي ليو؟"

شفتاي كانتا زرقاوين، وكنت أتجمد ولم أستطع الكلام. فربت فرانسيس على كتفي بعطف وقال: " فكر بالرب، أيها المسكين التعس، فكر بالرب وسوف تشعر بالدفء."

وفكرت به ولكن كان ثمة احتمال ضئيل في أن أشعر بالدفء: كنت أتجمد متصلباً. والأدهى من ذلك أنني كنت أشعر بالنعاس وجائعاً. آه، قلت لنفسي، لو كان بإمكاني فقط ان اضطجع هنا على الثلج وأنام ولا أستيقظ أبدا، - ليتني أستطيع فقط الفرار من كل هذا! لقد نلت ما فيه الكفاية! لم أخلق لأكون بطلاً، ولا قديساً. كيف خدعت نفسي حين قررت أن أتبع فرانسيس ذلك البطل والقديس؟ كنت مناسباً للتسكع بخمول مع الناس العاديين، أطرق الأبواب، أقف قليلاً عند الحانات: أتبع الرب، ولكن بكسل...

كان فرانسيس قد ركع على الثلج وراح يصلي. هبط الليل، وامتلأت السماء بالنجوم. لم أر نجوماً بهذا الكبر، وبهذا القرب من الإنسان. وفجأة سمعت صوت فرانسيس:

"أين أنت يا أخي ليو؟ إنني لا أراك."

"هنا إلى جانبك يا أخي فرانسيس. في خدمتك."

يقال أن النساك المقدسين الذين يعيشون في الأعالي يخلعون كل ثيابهم ثم يخبئون أنفسهم في حفر عميقة يحفرونها في الثلج. وحين يفعلون ذلك يتصبب العرق من تحت آباطهم."

أجبت ساخطاً: "أنا لست ناسكاً. وإن كنت تنوي أن تخلع ثيابك فلا أحد يمنعك."

وخلع ثيابه وتمرغ في الثلج وهو ينشد بصوت عال بذلك النشيد الذي كان ينشده الأطفال الثلاثة في الفرن المتقد. ثم لف نفسه بردائه، وعمل مخدة من الثلج واضطجع لينام.

ثمة الكثير من الشياطين التي تعذبني يا أخي ليو. إنني أتمرغ بالثلج لأخيفهم وأطردهم."

ونويت أن أجيبه: فبأي حق عليّ أن أتجمد أنا أيضاً! ولكنني كبحت نفسي. ثم فجأة برزت عيون فرانسيس من محجريهما. وقفز على قدميه وهو يختض ومد ذراعيه ليحاول الدفاع عن نفسه وراح يترنح متراجعاً.

وهمس مرتعباً: "ها هو! لقد عاد ثانية."

نظرت نحوه. لم يكن ثمة من أحد. كان الهواء خالياً.

فصرخت: "ماذا ترى يا أخي فرانسيس؟"

"المتسول، المتسول ذو القلنسوة، ذو الثقوب في قدميه ويديه. انظر

الجرح في جبهته. الصليب: إنه ينزف... ها هو! هاهو"!

كان جسده يختض بأكمله. عانقته، وكلمته برفق ولطف محاولاً تهدئته.

وصاح ثانية: "هاهو! هاهو! إنه ينظر إلي باحتقار ويهز رأسه..."

كان يرتعش، ليس من البرد، بل من الخوف. عيناه الجاحظتان قد تسمرتا على الهواء الفارغ أمامه. وارتجف فجأة من الرأس وحتى القدم.

وصرخ وأسنانه تصطك: " أنجمن دوني. لقد أتى"!

أخذته بين ذراعي لأمنعه من السقوط. "ناد الرب يا أخي فرانسيس، ناد الرب كي يطرده." لكن فرانسيس هز رأسه وتمتم: " ولكن ماذا لو كان الرب هو الذي بعثه. ثم انحنى وحمل قبضة من الثلج ليرمي بها الشبح لكنه غير رأيه بعد ذلك. قال وخطا خطوة نحو الأمام: " قدني يا أخي!" ثم بعد أن بقي صامتاً لدقيقة، بانتظار جوابي من من دون جدوى قال: "لماذا لا تتكلم؟ من أنت؟ من أرسلك؟ لماذا تهز رأسك؟"

أصغى بانتباه. شخص ما بدا يكلمه، وصرخ بعد دقيقة: " أغرب واتركني وحدي. ألستُ حراً في مصارعة الشياطين؟ يعجبني ذلك! لستُ ملاكاً، أنا إنسان، الشيطان في داخلي وأنا أتصارع معه، والرب إلى جانبي، فأنا لست بحاجة لأحد. إبتعد! لا فائدة من أنك ترينى يديك المثقبتين، أقول لك ابتعد!" لستُ ملاكاً. إنني أود أن أنجح بقوتي وحدها."

رفع ذراعه وقذف بكرة الثلج التي كان يحملها، ثم انفجر في ضحكة هستيرية: "لقد أصبته في الوجه مباشرة. وولى محطما"!

وتـداعى علـى الأرض متـشبثا بـذراعي وسـحبني إلى جانبـه. ولم يـتكلم لـبعض الوقـت. أخـذ قبـضة مـن الـثلج ومـسح بهـا صـدغيه المـشتعلين. وتحـول أخـيراً ونظـر إلـيّ: " أخـي ليـو، أريـد أن أقـول لـك شيئاً، أريد أن أسألك عن شيء، وأتوسل إليك ان لا تخاف، لست أنا من سيتكلم الآن، إنه الشيطان الذي في داخلي."

"إنني منصت لك يا أخي فرانسيس." وكان فكاي يرتعشان.

"هل يمكن أن تقول لي لماذا خلق الله المرأة، لماذا اجتزأ ضلعاً من الرجل وخلق المرأة، لماذا يقضي الرجل حياته ليعيد الاتحاد بهذا الضلع المجزأ؟...

هـل هـذا هـو صـوت الـرب الـذي يـتكلم في داخلـي أم صـوت الشيطان؟...

ماذا تعتقد يا أخي ليو: هل الزوج والولادة، ولادة الأبناء هي من الأسرار المقدسة أم لا؟"

كانت كلماته قد جعلتني أرتعد. وكان يرتعش حين يتكلم وكنت في الحقيقة أرى العرق يتصبب من جبهته. من يصدق ان شياطين مثل هذه في داخله تعذب حقويه؟

واستمر يتكلم بصوت متألم: "تكلم يا أخي ليو، لا تبق صامتاً. هل من الممكن أننا اتخذنا طريق الإثم وخالفنا بذلك إرادة الله؟ أليس هو الرب نفسه الذي قال " ازدادوا وتكاثروا وكونوا مثل رمال البحر؟"

أجبت: "أخي فرانسيس، إنني أقع على قدميك وأطلب منك المغفرة لقولي هذا إنه الشيطان، شيطان الجسد الذي يتكلم في هذه اللحظة من فمك: الشيطان ذو النهدين الكبيرين"!

فأطلق صرخة تشق القلب وتمدد باسطاً ذراعيه وقدميه على قمة

الثلج. ثم فك الحبل الذي يشد رداءه. وطفقت أسمعه طوال الليل وهو يئن ويضرب حقويه وفخذيه بجنون. عند انبلاج الفجر قفز عارياً، جسده كان أزرق من البرد، وآثار الضرب الذي لطم به جسده. وراح يكور الثلج في كرات وكدسها في خط أمامه.

صحت به وأنا أرتعد خوفاً من أن يكون قد فقد عقله: ماذا في هذه الكرات يا أخي فرانسيس؟"

"سوف ترى بعد لحظة." أجابني بينما هو يجاهد بقدميه ويديه كي يجعل كلاً من الروابي السبع الصغيرة التي جمعها أمامه تأخذ شكلاً بشرياً.

وكرر: "سوف ترى بعد لحظة يا أخي ليو، بعد لحظة"!

وفعلاً. بعد لحظة رأيت سبعة تماثيل بشرية من الثلج اصطفت الواحدة جنب الأخرى. امرأة سمينة ذات ثديين كبيرين متدليين، وعلى يمينها صبيان وعلى يسارها فتاتان وخلفها رجل وامرأة محنيان.

نظر فرانسيس إليهم وفجأة غلبه الضحك. وصرخ: "انظر يا سيد فرانسيس، ابن بيرنارمن دون. هذه هي زوجتك، وأولئك هم أطفالك وخلفهم خادميك. العائلة كلها ذاهبة في نزهة وأنت الزوج والأب والسيد، تسير في المقدمة."

وعلى حين غرة تحولت ضحكته إلى الصرامة. ورفع يديه نحو السماء. وعند ذلك ظهرت الشمس في الحال، وبدأ الجبل يضيء؟ في الأسفل، وعلى مسافة بعيدة لاحت لنا صقلية وهي تتمايل في الهواء وكأنها مركبة من الوهم وضباب الصباح.

صاح فرانسيس بصوت يمزق القلب: "إلهي إلهي مر شمسك أن تسلط أشعتها على عائلتي وتذيبها! أريد أن أهرب!

وأخفض رأسه إلى الأرض وراح ينشج. ذهبت إليه، لففته بردائه. ثم التقطت حبل المشد الذي كان مبللاً بالدم، وشددت به وسطه.

قلت له وأنا آخذه من يده ليقوم. "تعال يا أخي فرانسيس، سوف نذهب إلى بورتيونكولا وندع الأخوة يشعلون النار لتتدفأ، لنتدفأ كلانا. لو بقينا هنا سنموت من البرد. ثم أننا، كما ترى بوضوح بنفسك، مازلنا غير مستعدين للظهور أمام الرب."

تعثر فرانسيس في مشيه وكانت ركبتاه متراخيتين ويده ترتعش في قبضتي. لم يتكلم وازدادت أشعة الشمس قوة، عانقتنا ولفتنا بعطفها، وكأنها كانت عين الله التي رأتنا وقررت أن تشفق علينا. حين حدّقت فيها نسيت نفسي للحظة وسمحت ليد فرانسيس أن تنسل من يدي. خطا خطوتين أو ثلاثاً ثم تعثر وسقط على وجهه. كانت صخرتان حادتان قد حزتا جرحاً عميقاً في جبهته على هيئة صليب. وحين رفع يده ليتفحص الجرح، إرتعش فجأة مذعوراً.

ما الأمر يا أخي فرانسيس؟ لماذا ترتعش؟"

"ما شكل العلامة في جبهتي؟"

"الصليب."

"الصليب"!

وراح جسده يرتعد بأكمله. وانفرجت شفتاه فجأة، وكاد يتكلم. إلا أنني فهمت.

صحت: "إهدأ يا أخي فرانسيس. إهدأ! لقد فهمت." وكنت أرتعش أيضاً. أخذته من يده وتابعنا هبوطنا بصمت.

يا إلهي العظيم، بينما كنا نتدلى من البرد والجوع والقنوط، أعجب كيف كنا نستطيع الهبوط من الجبل ونجتاز السهل من من

دون أن ننهار على الأرض: من أين جاءتنا القوة؟ وقفت صقلية عند مركز الأفق وراحت تكبر وتستقر بثبات. وشعرنا أنها لم تعد مركبة من الوهم والأحلام، بل من حجر وملاط، وكنا قادرين على أن نميز بين الحصن والأبراج المتنوعة والكنائس. إنني واثق من ان مشهد صقلية وهي تقترب أكثر هو الذي منحنا القوة في الاستمرار. لقد كان فرانسيس نفسه غير قادر على رؤيتها إذ آلمته عيونه وأخرجت دفقاً مستمراً. لكنني كنت أتوقف بين الحين والآخر وأصف له ما يحدث:

"إنها تقترب. وتتوضح معالم الأبراج، ويمكنني أن أرى قبة سان روفينو..."

كان فرانسيس يصغي ويتشجع لإسراع الخطى.

كان يقول في كل مرة: " إنني خائف، خائف، تذكر الحلم يا أخي ليو... في أية حالة سوف نرى الإخوة؟ كم اقتنص الصقر؟ إنني أسرع لأنني أريد أن أصل سريعاً، ولكنني في الوقت ذاته، أقول لنفسي: آه لن أصل أبداً"!

حين وصلنا بورتيونكولا كانت الشمس توشك على الغروب. وكانت قلوبنا تنبض بشدة: أحسسنا أننا كنا بعيدين لسنوات لاعد لها وأن بورتيونكولا كانت شيئاً حياً، أُمنا... تتقدم بهدوء، من من دون كلام، أزحنا الغصون بصمت، واقتربنا. كان الباب مفتوحاً، والفناء مقفراً وحينما لم نسمع أي صوت، شعرنا بالرعب. ماذا حدث للاخوة الرهبان؟ حل الظلام وكان لابد لهم ان يعودوا. دخلنا. كان المصباح مشتعلاً في الزاوية، وكان بإمكاننا أن نميز الأخ ماسيو يقرفص أمام الموقد وينفخ النار. كان الحطب الذي يستعمله رطباً

وأحس فرانسيس بالاختناق من أثر الدخان وراح يسعل. التفت ماسيو وراَه وسقط بين ذراعيه.

صرخ: "أخي فرانسيس! مرحباً، مرحباً" وراح يقبل يديه وركبتيه وكتفيه." لقد قيل لنا أنك قد مت هناك بعيداً في افريقيا. لقد تخاصم الإخوة، ملوا من العيش معاً فقرروا الانتشار. أغلبهم – الشباب منهم - ذهبوا مع إلياس، وهم الآن يمشطون القرية، يجمعون الذهب لأنهم ينوون بناء كنيسة كبيرة. بيرنارد وبيترو يعيشان في عزلة في الغابة، يصليان. أخذ الأب سلفستر الأخوة الأصلاء معه وراح يعظ في القرى المجاورة. وهم يعومن دون إلى هنا من حين لآخر، ثم يغادرون. أنا الوحيد الذي بقي. أجلس هنا أشعل النار كل ليلة بانتظارك... مرحباً بك ألف مرة، يا أخي فرانسيس"!

وغطاه مرة أخرى بالقبل والعناقات.

وجلس فرانسيس مستغرقاً أمام النار من من دون ان يتفوه بكلمة. راقب اللهب وهو يلتهم الخشب ومد كفيه ليدفئهما. من وقت لآخر كان يفرج شفتيه ويتمتم: "أختي أيتها النار، أختي أيتها النار،" ثم يعود لصمته.

تساءل ماسيو الذي كان يتوق إلى كرمه: " الا تقول شيئاً يا أخي فرانسيس؟ هل تريد مني أن أذهب لأجمع لك كل الإخوة؟ لقد تعبت من الجلوس هنا من دون أن أفعل شيئاً فمرني"!

"ماذا عساي أن أقول يا أخي ماسيو؟ وبماذا آمر؟ سأجلس ببساطة هنا أمام النار وأنتظر. هذا ما يأمرني به الصوت الذي في داخلي."

جثمت بدوري أمام النار وسخنت بعض الماء لأغسل أقدام فرانسيس. ثم أغمست قماشاً نظيفاً في ماء دافيء ونظفت عينيه التي تغطت بالافرازات.

لم يتكلم أحد منا. شعرنا أنا وماسيو بسكون عميق يلف قلبينا، وإحساس بالطمأنينة لأن فرانسيس معنا في بيتنا. في الخارج، ازداد سعير الريح. وكانت الأشجار تصطدم ببعضها البعض وتئن. وفي البيت كانت الكلاب تنبح.

وضع ماسيو القدر على النار ليطبخ لنا عشاءً مرتجلاً. كان في أثناء غيابنا يبيع السلال المصنوعة من القصب والصفصاف الذي كان يقطعه من ضفة النهر، وبهذا كان يغذي نفسه بنفسه من خلال العمل. ظل فرانسيس ماداً يديه إلى النار، وكأنه كان يصلي. وبإمكانك ان تعرف من خلال تعابير وجهه أنه كان مستغرقاً في جمال لا يعبر عنه: لقد نسي الأشياء الأرضية، وبدا لي للحظة أنه كان يطوف في الهواء فوق الموقد. (كنت دائماً أسمع أن القديسين حين يفكرون بالرب فإنهم يقهرون وزن الجسد ويعلقونه متأرجحاً في وسط الهواء.) ثم رأيته يهبط ببطء ويعود إلى موقعه، مائلاً بسكون إلى الأمام نحو اللهب... ولم يتكلم احد منا. كنا سعداء، وجلسنا صامتين بينما الليل يتقدم.

فجأة أدرنا أنا وماسيو رأسينا نحو الباب. طرق أحدهم الباب.

قال ماسيو: "لابد أنه أحد الإخوة. سوف أدخله."

نهض وكان جسده العملاق على قيد شعره من السقف القصبي. فتح الباب، وفي الحال سمعنا صرخة مدوية: "آه" وتبع ذلك "ماذا تريدين؟ لا يسمح للنساء بالدخول إلى هنا. هذه دار مقدسة أيتها السيدة."

فقمت مندهشاً. كانت ثمة امرأة تقف عند المدخل، رأسها ملفع بأكمله ولم يظهر غير عينيها. قالت بصوتها العذب: "دعني

ادخل، يا أخي، أريد أن أرى الأخ فرانسيس. من الضروري جداً بالنسبة لي أن أراه."

وأشعر صوتها فرانسيس بالقلق. فدفن وجهه بين يديه وكأنه يحاول الاختفاء. لقد عرفت الصوت أيضاً، وذهبت إليه وقلت له بلطف: "إنها كلارا يا أخي فرانسيس."

فامسك بذراعي: "لا أريد أن أراها!" زمجر مرتعباً.

"ارحمني يا أخي ليو: لا أريد أن أراها!... ذوبيها يا أختي أيتها النار"، تمتم وهو يلتفت نحو النار. "إنها مصنوعة من الثلج ذوبيها! دعيها تغدو ماءاً وتتساب، دعيها تجري في محيط الله."

لكن المرأة الشابة خطت عبر المدخل ودخلت لتجثو عند قدمي فرانسيس. أزاحت حمارها وكشفت وجهها، لكن فرانسيس مازال يخفي وجهه خلف كفيه ولم يلتفت ليراها.

قالت الفتاة بصوتها الممزوج بالعذوبة والتذمر: "أشفق عليّ يا أبي فرانسيس. أرفع رأسك وانظر إلي."

"إن كنت حقاً كلارا، البنت النبيلة للكونت سيفي، وإن كنت تحبين الله، إن كنت تخافين الله فابتعدي"!

وأخفض كفيه ليكشف عن وجهه. كان كأنه مقلوع العينين ذابلاً، مغطى ببقع الدم الذي يجري من عينيه.

قال: "انظري إلي ألم تشعري بالتقزز؟ بالنسبة لي، أنا أعمى ولا يمكنني رؤيتك، حمداً لله."

قالت الفتاة وهي تضغط وجهها إزاء قدميه: "لا تخف يا أبتي فرانسيس لن أرفع عيني للنظر إليك، ولا أريدك أن تنظر إلي. كل ما أريده منك أن تنصت إلي أرجوك"!

رسم فرانسيس إشارة الصليب: "إنني منصت باسم المسيح المصلوب" وبدأت الفتاة بصوت عميق ومتيقن: "أيها الأب فرانسيس هل تتذكر اليوم الذي واجهتك فيه بينما كنت تمشي حافياً بثياب مرقعة عبر أحد أزقة صقلية؟ مذاك وَجَدت روحي إن جسدي ضيق جداً عليها، ومقيد جداً: كانت تريد الهرب. لقد ذابت مثل شمعة. لو نظرت إلي يا أبتي، فلسوف يصيبك الرعب. ولكن لو تمكنت من رؤية روحي لسررت، لأنها أيضاً ترتدي رداءً كهنوتياً وقلنسوة وحبلاً مثل ردائك تماماً، وهي أيضاً حافية. إن حياتي مع والدي وصديقاتي لم تعد تبهجني. أريد أن أبتعد عن عالم الناس، لقد غدا ضيقاً جداً عليّ وصغيراً جداً! قص لي شعري وارمه في النار. لفني بردائك وشد الحبل حول وسطي. دعني أذهب إلى البرية كي أسكن على حافة صخرية مثل طائر السنونو. أريد الهروب وتجنب التراب"!

وراحت تزقزق مثل السنونو الحقيقي. كنا أنا وماسيو قد أطرقنا برأسينا، وكنا ننشج مستغرقين في جاذبية توق الروح لتتحد مع الرب! وكان فرانسيس، بوجهه الجامد والصلب كالحجر قد أنصت لما استمرت الفتاة في قوله وبقيت جاثمة عند قدميه، شعرها مغطى برماد الموقد، وتوقفت كثيراً وهي تنتظر رده. وانتظرت وانتظرت، لكنه بقي صامتاً، وازدادت صلابة وجهه أكثر.

صاحت: "لا تبعد وجهك يا أبتي فرانسيس، لا تغضب. ألا تمشي حافياً في الشوارع وترقص وتغني وتدعو الأرواح لتأتي إليك؟ ألم تقل" إنني الطريق الذي يقود إلى الله فاتبعوني"؟ لقد سمعت صوتك وتركت والدي وبيتي وثروتي وشبابي وجمالي والأمل في أن يكون لي أطفال وجئت إليك. أنت مسؤول عن ذلك ولذلك سوف تسمعني إن

رغبت في ذلك أم لا. اسمع: اليوم ودعت العالم. وارتديت أفضل ثيابي ومشطت شعري الأشقر للمرة الأخيرة ووضعت أقراطي وأساوري، وقلادتي ذات اللآلىء الكبيرة وذهبت إلى الكنيسة. أردت من عالم المظاهر أن يراني، ليرى جمالي وأودعه، بالنسبة لي، أردت رؤية قباحة هذا العالم للمرة الأخيرة. وبعد ذلك زرت صديقاتي للمرة الأخيرة أيضاً. طرت فرحاً، وضحكت وسألنني مندهشات: "ما الذي جعلك سعيدة هكذا يا كلارا؟ هل ستتزوجين؟ وأجبتهم: "نعم، سوف أتزوج، وإن زوجي أجمل من الشمس، أقوى من الملك." ومتى سيكون الزفاف إن شاء الله؟" فقلت ضاحكة "الليلة، الليلة." ثم عدت إلى البيت وحدقت بصمت إلى والدي ووالدتي وشقيقاتي، حدقت بهم لوقت طويل، ثم ودعتهم بصمت أيضاً. كنت أستطيع سماع العويل والندب من قبل أن ينطلقا من البيت بعد ساعات، حين أكون قد ذهبت وسوف يبحثون عني فلا يجدونني. إذ كيف سيجدونني مادمت في حضن الرب؟! حالما تكثف الظلام في الخارج تسللت من غرفتي وانطلقت بمحاذاة الطريق، وسرت عبر بساتين الزيتون ومررت بكنيسة سان داميانو، حتى وصلت معتزلكم المقدس هذا. ناديتني وجئت إليك."

"أجل يا أبتي فرانسيس، لقد كنت أنت، في الليلة الماضية، بينما كنت نائمة. أنت تعرف جيداً أننا حين ننام، ينام الجسد فقط، وتبقى الروح متيقظة. في الليلة الماضية سمعتك تناديني بإسمي. كنت أنت يا أبي فرانسيس. كنت تقف عند نافذتي مرة أخرى وتناديني. "تعالي! تعالي! تعالي!" أنت قلت لي هذا. وقد جئت."

وأطلق فرانسيس صرخة وراح ينهض جاهداً كي يهرب ولكنه

عاد ليجلس في الحال. تلمس في الظلام ووجد لوحاً ورماه في النار. ثم دفن وجهه مرة أخرى وبقي هكذا لوقت طويل من دون كلام.

انتظرت الفتاة وانتظرت، ولكن حين لم تسمع صوته غضبت. وبحركة فظة جلست على وركيها ،و جذعها منتصب، وقبضتيها مشدودتين.

قالت: "أنا قد تكلمت يا أبي فرانسيس، سكبت قلبي عند قدميك. لماذا لا تجيب؟ من واجبك ان تجيب"!

وران صمت. في الخارج قعقعت الريح المسعورة في الباب. مد فرانسيس ذراعيه، حدق حوله، واستطاع رؤيتنا.

وصاح كأنه كان في خطر ويطلب النجدة: "أخي ليو، أخي ماسيو اقتربا مني"! وملأ يديه بالرماد، وراح يدعكهما جيداً بانفعال في شعره وفي وجهه. ودخل الرماد عينيه.

وناشدته: "ألا تشعر بالأسف عليها يا أخي فرانسيس، إرأف بالبنت."

"كلا! صرخ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي ألمس فيها هذه الصلابة وهذه المرارة في صوته. سحب يده من كتفي وصرخ ثانية: " كلا! كلا"!

وقفزت كلارا على قدميها ممتعضة. وازدادت التعابير التي في وجهها قساوة. كانت قد طعنت بنسب أبيها الذي تتفاخر به في العمق.

قالت: "لن أتوسل إليك. ولن أتمدد عند قدميك. ارفع عينيك وانصت إليّ! إنني روح خالدة، كما أنت، وأنا في خطر. أنت تدور المدن والقرى وتدعي أنك ستنقذ العالم. حسن إذن أنقذني! من

الواجب عليك ان تفعل ذلك. وإن لم تفعل ذلك، إن رفضت، فإن روحي سوف تعلق نفسها حول رقبتك وتجرجرك إلى الجحيم.

أقول لك، أعطني الرداء الذي أطلبه منك، وقص شعري وارمه مثل الكثير من المواد الملتهبة في النار. ثم ضع يدك على رأسي الحليق، وباركه، وأطلق علي اسم: "الأخت كلارا"!

قفز فرانسيس وألقى نظرة نحو الباب واتجه نحوه، من الواضح انه كان يحاول الفرار. نهضنا أنا وماسيو وأغلقنا عليه الطريق. توقف. كان جسده يرتعش بأكمله، كما كان يحدث له حين يجبر على ان يقرر قراراً خطيراً ضد رغبته. فحنى رأسه، وترنح متمايلاً وعاد إلى الموقد واتكأ على عضد الباب.

كانت انعكاسات ألسنة اللهب قد تراقصت على جسده، وبدا جسده مشتعلاً. وفجأة سمعنا صوتاً ساخراً وقاسياً.

"هل بإمكانك، أنت أيها الكونتيسة الشابة، إبنة اللورد الكبير فافورينو سيفي، هل بإمكانك أن تسيري حافية؟"

فقالت الفتاة بنغمة فخورة جازمة: "بإمكاني"

"هل بإمكانك تحمل الجوع، وهل تستطيعين ان تطرقي الأبواب وتتسولي طعامك؟"

"بإمكاني."

"هل بإمكانك أن تُحممي المجذومين وتنظفيهم، وتقبلينهم من الفم؟"

"بإمكاني."

"هل بإمكانك أنت الجميلة جداً أن تمسي قبيحة؟ وحين يركض الأطفال خلفك في الشوارع يصيحون: الحدباء العجوز، العرجاء! هل

بإمكانك أن تفرحي، أنت يامن اعتدت أن تكوني جميلة، حين تصلين إلى حالة تكونين فيها عجوز حدباء مشاكسة عرجاء كل ذلك من أجل المسيح."

"بإمكاني، بإمكاني،"أجابت الفتاة ورفعت يدها وكأنها تنوي القسم.

"أنت لن تستطيعي"!

"بل أستطيع، أنا ابنة الكونت سيفي قادرة على تحمل ليس فقط قساوة الغنى، بل أيضاً قساوة الفاقة والعري والسخرية. بإمكاني أن أقوم بأي شيء يقوم به الآخرون."

"لا أثق بكن أيتها النساء. إن أفعى حواء كانت تلعق آذانكن وشفاهكن لقرون طويلة. لا تقودينني إلى المغوي. ستجتمع السيدات حولك، ولسوف تتسلقين إلى سقف الدير كي تغرين الإخوة، الذين بدورهم سوف يتسلقون ديرهم لينظروا نحو الأخوات. وبناءاً على ذلك سوف يتحرك شيطان الجسد القوي، مرة أخرى، ذلك الشيطان الذي تغذى جيداً والذي يذهب ويعود بين الديرين. كلا، انهضي وعودي إلى البيت. لا نريد نساءً"!

"النساء من مخلوقات الله أيضاً، كما الرجال، ولهن أرواح ويردن إنقاذها."

"لابد للنساء أن يتخذن طريقاً آخر إن رغبن الوصول إلى الله. لابد لهن أن يتزوجن وينجبن الأطفال، ويدعمن الفضيلة لتزدهر وتحمل الثمار ليس في صحراء منعزلة، في الوسط الحقيقي لعالم الرجال."

"من غير المجدي أن تضع الحواجز ضد الفضيلة. إنها قادرة على الازدهار وحمل الثمار أينما رغبت وأعظم مما تفعله العزلة."

"إن الذكاء عند النساء وقح! من علمك أن تجدي رداً لكل ما يقال؟"

"قلبي."

فجأة ترك فرانسيس الجدار الذي كان متكئاً عليه وراح يخطو جيئة وذهاباً متعثراً كل حين، فأسرعت لآخذ يده.

لكنه صاح: "أتركني. لا تلمسني"!

والتفت على حين غرة. وبخطوة واحدة صار أمام الموقد. انحنى، وقبض قبضة من الرماد ووضعها فوق رأس الفتاة. دعك الرماد إزاء شعرها ووجهها ورقبتها وألقمها شيئاً منه.. وكان يتمتم بشيء ما. كان بإمكاننا أن نرى شفتيه تتحركان، ولكن لا احد منا كان يميز كلمة واحدة. زمجر وخار وثغا مثل حمل، وعوى كالذئب وشيئاً فشيئاً وبعد عناء طويل، عادت لصوته نغمته البشرية وتمكنا من سماع كلمتين في ذلك الصمت القاسي، كلمتين بشريتين، كلمتين فقط:

"الأخت كلارا... الأخت كلارا..."

ارتفعت ألسنة اللهب،وتراقصت انعكاساتها على وجهي فرانسيس وكلارا اللذين تلطخا بالرماد. وراح المصباح يتضاءل ويموت، ولكن لم ينهض أحد ليضيف الزيت: لقد تحجرنا جميعاً، وحين انطفأ المصباح وبقينا وحيدين وليس ثمة من نور غير لمعان النار، سمعنا صوت فرانسيس ثانية هادئاً ومسالماً الآن، رائعاً وبشرياً تماماً:

"الأخت كلارا، مرحباً بك في رهبنتنا"!

* * *

وطارت الأخبار سريعاً من فم لفم من صقلية والقرى المحيطة بها أن فرانسيس، قد عاد من مصر، وقيل أنه عمل شارات وأعاجيب هناك. فقد تحول السلطان عن دينه وصار مسيحياً وفتح بذلك مدينته دمياط للصليبيين.

ومن بين أولئك الذين سمعوا الأخبار السعيدة الأخوة المنتشرون الذين شعروا بالخجل المميت، وعادوا للاقتراب من حظيرتهم السابقة من كل الجهات، واستقبلهم فرانسيس فاتحاً ذراعيه.

جاءوا جميعهم. وامتلأت بورتيونكولا، وازدادت الحاجة إلى فروع الأشجار وإلى ملاجىء جديدة وضعت في كل مكان حوله. وصل بيرنارد وبيترو وهما لا يزالان مستغرقين في تأملهما، عيونهما نصف مفتوحة، كان كابيلا صامتاً وحاسر الرأس، أما سكون فقد جاء بصحبة عوده المتدلي على كتفه. وآخرهم جاء إلياس، متعجرفاً، شرساً بجسده القوي، وحاجبيه الكثين، وشفته العليا الحليقة. جاء برفقة أتباعه، وكان يحمل في يده كتاباً سميكاً.

قال: "إن الله يحبك كثيراً يا أخي فرانسيس، وقد حافظ عليك وأبقاك على الأرض من أجل أن يكون لديك الوقت الكافي كي تصل هدفك السامي. إنني أتخيل قدميك وقد تسلقت مسافة متقدمة عليهم."

"إنه الوقت الذي تعلمت فيه، يا أخي إلياس، إن هدف الإنسان هو الرب وإن الطريق الوحيد الذي يمكننا أن نصل فيه إلى تلك القمة هي من خلال الموت."

فاعترض إلياس: "عفواً، ولكنني أرى أن الطريق الوحيد الذي يمكننا من الوصول إلى هدفنا هو من خلال الحياة."

تغير الهواء وصار الجو مضطرباً. وانتظر الجميع صامتين انفجار الزوبعة.

لثلاثة أيام وفرانسيس يتنقل بين الرهبان، يناقشهم، ويتحدث إليهم، ويجاهد كي يكشف أي السبل قد اتخذوا أثناء غيابه في مصر. كان العديد منهم قد ذهبوا إلى بولونا الشهيرة ليعظوا الناس. لكن اللاهوتيين المتعلمين هناك فضحوا جهلهم بسرعة، وبعد أن شعروا بالإهانة، أجبروا على الاستسلام. ولكنهم رفضوا بعناد أن يكونوا فاشلين، ولذلك، فتحوا مدرسة في المدينة المتغطرسة، مدرسة جلبت لهم العديد من الإخوة الرهبان الذين جاؤوا لدراسة الكتاب المقدس. لقد اشتروا الكثير من المجلدات وراحوا يدرسون حتى في الليل: لم يكونوا يعظون، ولم يصلوا أو يعملوا، إنهم يدرسون.

أصغى فرانسيس لهذا، هذا الذي يحرق القلب بالحزن والنقمة.

وطفق يقول لي: "لقد ضعنا يا أخي ليو، لقد ضعنا. لقد بذرنا قمحا، وانظر، حقلنا مغطى الآن بالخشخاش الوقح والقرّاص. من هم هؤلاء الدارسون، هؤلاء الذئاب الذين دخلوا في حظيرتنا؟ لا أرى أية فائدة من التعليم والمعرفة. إن الشيطان يسكن عقولنا، والله في قلوبنا. القلب أمي، لم يفتح كتاباً أبداً. ما الذي سيحدث لنا يا أخي ليو؟ إلى أي سبيل نتجه؟... نحو الجحيم"!

في اليوم التالي صادف راهباً جديداً لم يكن يعرفه. كان الراهب الجديد شاحباً على نحو غريب وذا وجنتين ذابلتين وعينين واسعتين. كان منحنياً إلى الأمام مستغرقاً تماماً في كتاب كان يحمله بين يديه. كان الله، بالنسبة إليه، غائباً والأخوة الرهبان غائبين، والناس بأجمعهم قد غابوا. لم يبق ما بين السماء والأرض غير ذلك

الشاب وكتابه. ذهب إليه فرانسيس ولمس كتفه. فجفل الشاب.

"ما اسمك؟"

"أنطونيو."

"من أي بلاد أنت؟"

"من البرتغال."

"من سمح لك بحمل الكتب؟"

"الأخ إلياس." أجاب الراهب الشاب وهو يضغط الكتاب إلى صدره.

لكن فرانسيس مد يده واخذ الكتاب. وصاح بغضب صارخاً: " أنا لا أسمح لك. رماد! رماد! رماد! ورمى الكتاب في النار.

ولكنه حين رأى الراهب الشاب يحدق في اللهب وعيناه تدمعان. شعر بالشفقة عليه. قال له: "اسمع يا ولدي، كل سنة وفي يوم عيد الفصح اعتدت أن أراقب بعث المسيح. كل المؤمنين يجتمعون حول قبره وينشجون بشكل لاعزاء له ويضربون الأرض ليفتحوها. وانظر! في وسط الندب تحطم حجر القبر إلى شظايا وظهر المسيح من الأرض وارتقى إلى السماء، مبتسماً لنا ويلوح برايته البيضاء. لم أر بعثه إلا سنة واحدة. في تلك السنة جاءنا لاهوتي ذو منزلة رفيعة، كان قد تخرج من جامعة بولونا. إعتلى منبر الوعظ في الكنيسة وراح يشرح البعث لساعات طويلة. لقد شرح ووضح حتى بدأت رؤوسنا تعوم، وفي تلك السنة لم تتحطم أحجار القبر، وأقسم لك، لم ير أحد منا البعث."

تجرأ الراهب الشاب وقال: "أنا، من ناحية أخرى، يا أخي فرانسيس، لن أرى البعث ما لم أكن صافي الذهن تماماً حول كيفية ولماذا نهض المسيح من رقاده. لا أومن إلا بعقل الإنسان."

وراح الزبد يعلو فم فرانسيس. فصرخ: "وهذا هو بالضبط ما سوف تلعن به. وهو بالضبط السبب الذي يمنعك أبداً من رؤية البعث. كيف ولماذا! أية وقاحة! اللعنة على العقل."

كان الأخ جيلز قد وقف ليستمع. وقد انشرح لكلمات فرانسيس، وتحتم عليه أن يضع يده على فمه ليخفي ضحكته. ما أن أخذت يد فرانسيس ورحت أقوده بعيداً حتى ركض جيلز خلفنا.

قال: "لقد تكلم الرب بفمك يا أخي فرانسيس. أنت تتكلم، وتتحول كلماتك في الحال في داخلي إلى فعل. في يوم أحد وحين كنت بعيداً جاء إليّ هذا الراهب الجديد نفسه برزمة ورق تحت ذراعه وطلب السماح له بالذهاب إلى كنيسة سان روفينو في صقلية ليعطي وعظه وأجبته: "سأسمح لك بكل سرور، ولكن بشرط أن ترتقي المنصة وتبدأ بالصراخ باااا! باااا! مثل الخروف هكذا ولا شيء غير ذلك ـ فقط باااا! باااا! وفكر الراهب الشاب إنني كنت أغيظه. فتورد وجهه من الغضب وأخذ الموعظة التي كان قد كتبها وأقحمها داخل ردائه. وقال لي بعجرفة: "لست خروفاً يا أخي جيلز. أنا إنسان. أنا لا أثغو، أنا أتكلم. لقد منح الرب الإنسان ميزة عظيمة، هي القدرة على الكلام."

تساءل فرانسيس وهو يرى الآخر متردداً في الاستمرار: "وكيف أجبته يا أخي جيلز؟"

"أقول لكم الحقيقة، يا أخي فرانسيس، كنت محرجاً تماماً. كل ما فعلته أنني رحت أكح. لم تكن لدي أدنى فكرة عما أقوله. ولحسن الحظ رأيت الأخ جونيبر عائداً من الغابة وهو يحمل حزمة حطب فهرعت لأساعده وبذلك هربت."

فقال فرانسيس ضاحكاً :"ثمة جواب أفضل يا أخي جيلز. ولسوف تراه في الحال! تعال يا أخي ليو."

تساءلت وأنا أرتعد خشية أن يأخذني ثانية إلى قمة جبل مغطى الثلج: "أين سنذهب هذه المرة؟

"إلى مريض الشيطان الرطب: إلى بولونا."

ظل صامتاً لدقيقة ثم قال: "إن مركبنا يبحر في الماء يا أخي ليو. وأخشى عليه من أن يغطس. آه بولونا، إنه أنت التي سوف تفترسين ديرنا بورتيونكولا"!

وسرنا، كلا، لم نسر، بل ركضنا. كان الجو دافئاً وممتعاً. كانت أشجار التفاح والكمثرى قد أزهرت، واستقام الخشخاش في الحقول؟ وتغطت الأرض بأزهار الربيع الصغيرة الصفراء والبيضاء. وهب نسيم دافئ نسيم يغري البراعم بالتفتح. وقد وصل مباشرة إلى قلبي وجعله يتفتح أيضاً. ودون أن أعرف السبب كنت أفكر خلال كل أيام الربيع تلك أفكر بالأخت كلارا، فرحاً لأن فرانسيس قد تفاهم مع المطران من أجلها وأقنعه ليمنحها كنيسة سان داميانو مأوى لها.

وصلنا في إحدى الصباحات إلى مدينة بولونا الكبيرة والمهيبة ذات الشوارع المزدحمة بالناس والأعلام الحمر الخفاقة التي تلوح أمام الحانات، ثمة فواكه وخضار تكونت في شكل ركام عال في السوق، ونساء جميلات يمتطين الخيول، وريشات ذوات ألوان متنوعة في شعورهن. انعطفنا في زقاق ضيق، ووصلنا عند ساحة مسورة بالأشجار بعيد عن مركز المدينة. حدق فرانسيس حوله، ثم تقدم نحو مدرسة اللاهوت التي كان إلياس قد أسسها مع العديد من الإخوة الجدد. طرق الباب ودخل مسرعاً حتى وجد نفسه في غرفة واسعة وفيها

طاولة كبيرة جلس إليها خمسة أو ستة من الرهبان يقرأون.

كانت الجدران مغطاة بالخرائط وثمة رفوف معبأة بالكتب.

صرخ فرانسيس: "مرتدّون! رهبان مرتدّون، ماذا تفعلون هنا بين أدوات الشيطان هذه؟ يا للعار"!

وقفز الرهبان المرتعدون على أقدامهم. تراجع فرانسيس خطوة ثم تقدم وراح يغلق الكتب التي كانوا يقرأونها وهو يصيح: " يالتعاستكم أيها الإخوة المرتدّون! لقد نسيتم كلمات المسيح: "مباركون أولئك الفقراء في الروح." لقد أمرني الرب أن أكون بسيطاً جاهلاً. لقد أخذني من يدي وقال لي: "تعال، تعال سوف أقودك إلى السماء من أقصر طريق. وأنت، بالمقابل، خذ إخوتك من أيديهم وقدهم عبر الطريق الذي أريك إياه!" لقد أخذتكم باليد ولكنكم انسللتم من قبضتي واتبعتم الطريق الواسع الذي يقود إلى الشيطان. انهضوا الآن وأزيحوا كل هذه المجلدات من الرفوف، واجمعوها في الفناء. أنت، يا أخي ليو، اركض لتجد شعلة والبقية منكم: غادروا في الحال، عودوا بأسرع ما تستطيعون إلى أمكم، بورتيونكولا. باسم الطاعة المقدسة اذهبوا"! جمع الكتب والخرائط والمخطوطات القديمة في وسط الفناء.

وركضت نحوه أحمل شعلة. قال فرانسيس: "هيا أعطني الأخت النار."

أخذ الشعلة وأنزلها في قاعدة الركام وقال راسماً إشارة الصليب: "باسم المسيح وباسم التواضع المقدس والفاقة المقدسة"!

ثم التفت إلى الإخوة الذين جاءوا إلى المدرسة للدراسة. "كم منكم موجودون هنا؟"

"سبعة."

"لا أرى إلا ستة. أين الآخر؟"

"إنه في الصومعة مريض."

"أيقظوه. وخذوه معكم على أكتافكم وارحلوا. سوف أجد المفاتيح وأغلق المدرسة."

وحين حدث كل شيء كما رغب وانطلق الستة، يحملون رفيقهم المريض ولم يبق من كل الأوراق والمخطوطات القديمة سوى ركام صغير من الرماد في وسط الفناء، انحنى فرانسيس وأخذ بعضاً من الرماد ونشره على كفيه.

"انظر يا أخي ليو. اقرأ. ماذا يقول هذا الكتاب؟"

"إنه يقول أن معرفة الإنسان ليست سوى رماد يا أخي فرانسيس: كما صاح بنا ذلك الراهب الغريب ذو الرداء الأبيض الذي قابلناه في روما."

"أهذا كل ما في الأمر؟ ألا تقول شيئاً آخر؟ انظر هنا في أسفل الصفحة الثانية. ماذا ترى؟"

انحنيت على يده وتظاهرت أنني أقرأ : " انظر الرب إلى الأسفل، رأى الأرض وصاح لابنته النار: "أيتها النار، يا ابنتي، هكذا خاطبها، إن الأرض تتفسخ، وأن رائحتها النتنة ترتفع نحو السماء، اهبطي وحوليها إلى الرماد"!

واعترض فرانسيس مرتعداً: " كلا، كلا، إنه لا يقول حوليها إلى رماد، إنه يقول "اهبطي وطهريها."

* * *

كان فرانسيس تائقاً للعودة إلى بورتيونكولا. كان قد أمسي عصبياً وقليل الكلام، من الواضح أنه جاهد كي يتخذ قراراً مهماً. وحين استيقظت في الصباح التالي، كنا قد قضينا الليل في غار ليس بعيداً عن بورتيونكولا، رأيته يثب مذعوراً.

"لقد حلمت يا أخي ليو، بحلم مرعب. انهض بسرعة."

"بماذا حلمت يا أخي فرانسيس؟"

"ثمة راع آخر الآن. والخراف تهبط نحو السهل، نحو المراعي الغنية، كل واحد منها ذو وسط ثقيل وسمين."

"لا أفهم يا أخي فرانسيس."

"الخراف تهبط، ولكننا نحن، يا أخي ليو لا نريد أن نسمن. سوف نبقى في الجبال ونرعى على الصخور."

"أرجو عفوك يا أخي، فأنا كما أخبرتك لم أفهم."

"ولسوف نرقص ونصفق أيدينا، وكذلك الرب بيننا يقضي وقته يراقبنا من الأعالي. هل توافق، يا أخي ليو؟"

وراح يمشي مسرعاً، قلقاً للوصول. وركضت خلفه وأنا ألهث.

كان الوقت قد حان لإيقاد المصباح حينما وصلنا إلى بورتيونكولا.

كان الإخوة مجتمعين ينصتون لإلياس الذي يتحدث إليهم. وقفنا خلف الأشجار حابسين أنفاسنا وأصغينا لكلماته الأخيرة.

كان يقول: "يا إخوتي، لقد أخبرتكم مرة وأقولها لكم ثانية، إن رهبنتنا لم تعد صغيرة. لقد نمت. ولم تعد تناسبها ملابس الصغار، إنها تحتاج إلى ثياب جديدة وأكبر، إنها بحاجة إلى ثياب البالغين. كانت الفاقة شيئاً مناسباً لاثنين أو ثلاثة من الإخوة لينطلقوا

ويفتحوا لنا الطريق. لقد ساروا حفاة، تكفيهم كسرة خبز يأخذونها صدقة لتقنع شهيتهم وكوخ خرب يكفي لإيوائهم. أما الآن والحمد لله، فقد أصبحنا جيشاً. وإن الفاقة تقف عقبة في طريقنا. نحن لا نريدها. وعلينا أن نبني كنائس وأديرة وان نبعث بالإرساليات حتى نهايات العالم، وعلينا أن نطعم ونلبس ونأوي آلاف الإخوة كيف لنا أن نقوم بكل هذا بالفاقة؟"

وتشبثت بيد فرانسيس. كان يرتعش. وهمس لي: "هل سمعت يا أخي ليو، هل سمعت؟ يريدون أن يطردوا الفاقة من بيتها." وامتلأت عيناه بالدموع. كان مستعداً للاندفاع بقوة إلى الأمام ويبدأ بالصراخ، ولكنني منعته.

"إهدأ يا أخي، إهدأ. دعنا نسمع البقية. اصبر"!

كان صوت إلياس يزداد قوة:

"والحب الكامل معيق أيضاً. لقد غنى الإخوة الأوائل ورقصوا في الشوارع. ولقد رجموهم بالأحجار وأغصان الليمون، وجلدهم الرجال دون رحمة، وقبلوا الأيادي التي عذبتهم. وهذا ما اصطلحوا عليه بالحب الكامل. ربما يمكن أن يجلد طفل أما الجيش فلا يمكن أبداً!

إن ترجمتنا للحب الكامل لا تحمل منديلاً لتمسح الدموع، بل تستخدم السيف ببراعة لتدافع عن العدالة وتقتل الأشرار. إن حبنا مسلح حتى السنان! إننا نعيش وسط الذئاب ولذلك لابد لنا أن نكون أسوداً لا حملاناً. المسيح نفسه كان أسداً.

وكما هو الأمر مع الحب الكامل، فإن البساطة الكاملة لا تناسبنا كذلك. إن العقل هو هبة الله العظيمة للبشر، إنه هو الذي ميز الإنسان عن الحيوان. لذلك صار من الواجب علينا أن نغني

عقولنـا ، وأن ننـشـىء المـدارس حيـث يـتعين علـى الإخـوة أن يدرسـوا ، علينا أن نكف عن أن نكـون أضحوكة المجتمع. إن القلب جميـل، وهو أيضاً هبة عظيمة من الـرب. ولكنه أخرس أخـرس أو يكـون ذا كلام مزدرى. العقل يمسك بالكلمة سلاحاً له والكلمة يا إخوتي، هـي ابنـة الله يجـب أن نكـون جنـود المـسيح لا مهرجـي المـسيح، وإن سـلاحنا الماضـي الأكيـد هـو الكلمـة. إننـا نـنحني ونقبـل يـد الأخ فرانسيس. لقـد قـام بواجبـه بـشكل مـدهش حتـى الآن. لقـد أرضـع رهبنتنـا بينمـا كانـت رضيعاً ، لكنهـا الآن قـد كـبرت: إنهـا تـنحني وتقبل يد والدها وتنطلق في رحلتها ، تاركة إياه خلفها. وداعاً يـا أخـي فرانسيس، إننا راحلون"!

كان فرانسيس يقفز ويهبط خلال الخطبة كلها ، كان يريـد أن يندفع إلى الأمام، ولكنني أمسكت بذراعه بقوة. وكنت أقول لـه: " اصبر أخـي فرانـسيس. دعـه ينهـي كلامـه لنـرى إلى أي حـد سـوف يصل."

تمتم فرانسيس: "الحلم... الحلم... آه لو يساعدنا الرب"!

وسمعنـا الرهبـان يـصفقون ويـصيحون منتشين. كـان الكـثيرون منهم يعـانقون إليـاس متيقنين من كلامـه، وآخـرون يقبلـون يـده. ولم يستطع فرانسيس في تلك اللحظة أن يمنع نفسه وبدفعة واحدة وصـل البـاب. وتبعته.

وحالما رآه الأخـوة ذعـروا وانكمـشوا بعيـداً عـن إليـاس ليتركـوه وحيداً في الوسط. كان يمسك عصا معقوفة طويلة تصل إلى مـا فـوق رأسـه. ومشى فرانسيس نحوه متعثراً.

وسـأله بصوت مرتعش: أين وجدت هـذه العصـا يا أخي إلياس؟"

لكن إلياس غيّر الموضوع وقال: " كنت أتحدث إلى الإخوة."

"سمعت، سمعت كل شيء لكنني كنت أسألك عن العصا. أين وجدتها؟"

"لا ادري. هل يمكنني أن أقول أنها كانت معجزة؟ بينما كنت أشعر بالدوار هذا الصباح أرحت راسي على حجر، جاءني راهب لم أره أبداً من قبل ولكنه كان يحمل شبهاً كبيراً منك يا أخي فرانسيس، جاءني وركز عصا الراعي هذه الأرض إلى جانبي، ثم اختفى في الحال. هل كنت بالمصادفة أنت، يا أخي فرانسيس؟"

"أجل كنت أنا، واللعنة على يدي! كنت مصاباً بالدوار مثلك تماماً." زمجر فرانسيس وهو يشد قبضته " كنت أنا يا أخي إلياس"!

ولكنه صحح لنفسه في الحال: " كلا، كلا، لم أكن أنا، كان واحداً آخر وليبارك الله في يده"!

راقب إلياس فرانسيس وهو يدمدم بعيداً وابتسم بتعاطف. وضحك أغلب الرهبان في السر وسمعت اثنين منهم:

قال أحدهم: "لقد فقد عقله."

وأجاب الآخر: اهدأ ينبغي أن تشفق على صاحبنا المسكين."

وسار بيرنارد وبيترو والأب سلفستر نحو فرانسيس، وهرع البقية من الإخوة الأصلاء لتقبيل يده. أما إلياس وفريقه فقد ثبتوا في مكانهم، بينما وقف خلفهم الإخوة الجدد صامتين يشعرون بالحرج عندما اقترب فرانسيس، الذي كان يعض شفتيه، من الواضح أنه كان يحاول أن يمنع نفسه من البكاء، اقترب منهم واحداً بعد الآخر رافعاً يده، ليباركهم، ووجهه الشاحب تغلفه المرارة. وحالما باركهم جميعاً طلب مقعداً ليجلس عليه لأنه كان متعباً ورغب أن يقول بضع

كلمات للإخوة. ركض ماسيو وعاد بمقعد. غرق فرانسيس فيه ثم انحنى وغطى وجهه بيديه، وبقي في هذا الوضع لوقت طويل دون أن يتكلم. ولأنني كنت إلى جانبه، فقد رأيت أن الأوردة في صدغيه قد بدأت تنتفخ. وأشرت إلى جونيبر الذي جلب له قدح ماء. رشف رشفتين وتمتم: "بارك الأخ ثم تنفس بعمق وبعد ذلك وبعد أن بذل أقصى قواه، نهض وفتح ذراعيه على وسعهما.

"يا أشقائي" قال بصوت لاهث نكاد لا نسمعه، "يا أشقائي، لقد منحني الرب الثقة ومنحني قبضة من البذور، وذهبت لأنثرها. رفعت يدي إلى السماء وصليت لله، ليبعث المطر إلي، وأمطرت، وصليت ليبعث الشمس إلي لينمو زرعي، وأرسل الشمس، فنما الزرع، وتغطى الحقل بالحبوب الخضراء وانحنيت لأرى أي من البذور التي عهد بها الله إلي ورأيت: قمحاً مباركاً، وأيضاً خشخاشاً متغطرساً وعميقاً. وفكرت، هكذا هي مشيئة الرب. من يدري إن حبوب الخشخاش حمراء وجميلة وفيها صليب أسود فوق قلوبها، الخشخاش! يا أخوتي الذين منكم القمح والذين منكم الخشخاش، استمعوا إلي: لدي شيء محزن لابد لي أن أخبركم به الليلة.

إنني واثق أن الأخ إلياس على حق. أجل لقد قمت بواجبي. وكان ذلك أن أبذر وقد بذرت. والآن لا أدع الآخرين يسقون ثم يجزون ويحصدون الحبوب. لم أولد كي أقطف الثمر، لأتمتع بالفوائد، بل لأحرث الأرض ولأبذر ثم أرحل. أقسم لكم أنني لم أرغب في الذهاب. إنني أحبكم جداً، يا إخوتي، وأعشق أخوتنا، وكيف لي أن أتخلى عنها؟ ولكن بدا في الليلة الماضية أن الرب قد زارني في منامي. لم أره ولكنني سمعت صوته قال: "فرانسيس، لقد قمت بما

تستطيعه، ولن تستطيع أكثر. اذهب إلى بورتيونكولا. أحد الإخوة يمسك بعصا تصل أعلى من رأسه."

وتهدج صوت فرانسيس. وانتظرنا جميعاً فاغري الأفواه. تقدم إلياس خطوة، ولكن فرانسيس رماه بنظرة قاسية فوقف.

وعاد ليستمر: "أقسم لكم أن فكرة أن يكون ذلك هو إلياس لم تخطر ببالي أبداً. اغفر لي يا إلهي لقولي هذا، ولكنه خطر: فإن مزاياه تناقض مزايا أولئك الذين أوجدت من أجلهم رهبنتنا وترسخت. وإن الفاقة المدقعة والحب الكامل والبساطة الكاملة ليست له! كان قد ولد فاتحاً، وإن تلك الميزات غير مناسبة للفاتح... وكان تفكيري ببيرنارد، عاشق العزلة، أو السيد بيترو، أو الأب سلفستر. كانوا سيقودون قطيع المسيح نحو المراعي التي تناسبه نحو الأرض القاحلة والصخور المباركة، نحو الأشجار التي تحترق دون أن تنتهي. أولئك هم الذين اخترتهم، ولكنه اختار واحداً آخر ولسوف تتحقق رغبته!... لا تقترب أيها القبطان إلياس. سوف أدعوك لأباركك ويستكين حزني ويهدأ قلبي، حين تكف اليد التي سأضعها على رأسك من الارتعاش أو تحترق من المهانة، فهل تتلطف، كما هو الحب ذاته."

عقد ذراعيه على صدره ورفع صدره. وراح الخراج الذي تفرزه عيناه يجري على خديه ثانية، وغطى شاربيه ولحيته بالدم. كان يتألم، لكنه عض شفتيه ليخفي ما يعانيه.

وتمتم: "رغم أنني لا أفهم الرب، فأنا لا أسأل الأسئلة، فمن أنا حتى أسأل الأسئلة؟ أنا لا أقاوم فمن أنا حتى أقاوم؟ إن خططك حفرة لا قعر لها. فكيف لي أن أنزل فيها لأختبرها؟ أنت تنظر عبر آلاف

السنين في المستقبل ثم تحكم. فما يبدو اليوم غير عادل لعقل الإنسان الصغير، يغدو بعد آلاف السنين، الخلاص البشري.

وإن لم يوجد اليوم ما ننعته باللاعدالة، فلربما لم تتحقق العدالة الحقة للبشر."

وصار وجه فرانسيس أكثر إشراقاً مع استمراره في الكلام. كانت هذه الفكرة قد جاءته عفو الخاطر، وكأن ذلك لم يحدث له قط من قبل، وراح قلبه يهدأ. فالتفت نحو إلياس مبتسماً، وأشار له أن يقترب. تقدم إلياس وهو يمسك بعصا الراعي التي في يده بقوة.

وقال بصوت رائع: " احن رأسك يا أخي إلياس سوف أباركك. أنظر إن يدي ساكنتان ولا ترتعشان."

وضع كلتا يديه على رأس إلياس وقال متعجباً بصوت عميق: "أخي إلياس إن الله عميق ولا يسير غوره. إنه يوزع نعمته على البشر بأية طريقة يشاء، إنه يستخدم سبيلاً للقياس ليس هو سبيلنا، إن فكرة من ذلك النوع الذي لا يمكن للإنسان أن يتوصل إليها دون أن يتحول إلى رماد. أعطني العصا"!

طأطأ إلياس رأسه مستسلماً وسلمه العصا. واستمر فرانسيس بصوته العميق الهادئ نفسه: " لقد أصدر الله أمراً يا أخي إلياس وأنا أطيعه. يا إلهي لو كنت أفسر صوتك خطأ فأومئ لي بإشارة. دعني أسمع رعداً الآن بينما السماء صافية، أو أطرق الباب وحطمه إلى شظايا، أو اقطع يدي قبل أن أضعها على رأس هذا الرجل لأباركه."

وانتظر بصمت. ولا شيء حدث. ثم مد ذراعه بحركة عنيفة وصرخ: "أخي إلياس، إنني أضع يدي على رأسك، فانحن الآن. أخي، إنني أضع قطيعي في يدك. قده حيث يريك الرب، ارعه حيثما يشير

إليك الرب. ثمة شيء واحد بقي علي أن افعله، وهو أن أباركك... وها أنا أمنحك بركاتي يا أخي إلياس. خذ العصا وتقدم إلى الأمام، وكن دليلاً للقطيع"!

جرت الدموع بغزارة من عينيه واختلطت بالدم. نظر حوله على الرهبان، واحداً بعد الآخر، وكأنه يودعهم.

قال وهو يمسح عيونه بكم ردائه: "سامحوني على البكاء يا إخوتي. لم أدرك أن الفراق محزن هكذا. وداعاً! لا تكونوا حزانى: فلن أترككم، بل سأبقى معكم دائماً، صامتاً ولا تروني. سوف ترونني في الليل فقط في أحلامكم... وأنتن، أنتن أيتها الأخوات الساحرات اللائي لا يمكن إغراقهن، القديسة النبيلة جداً السيدة الفاقة، زوجتي، ذات الرداء المرقع والحافية الجائعة: والقديسة النبيلة جداً الحب، ماريا، أنت يا من لم تحملي منديلاً لتمسحي دموعك، ولا سيفاً للقتل، بل حملت بدلاً من ذلك الرب الرضيع، الذي أرضعتيه، وأنت أيتها القديسة النبيلة جداً البساطة التي تجيبني على كل الأسئلة ب "لا أعرف، لا أعرف" تتبعينها بابتسامتك المعروفة: إنني أتوسل إليكن جميعاً أن لا تتخلين عن الإخوة، بل تبقين معهم خلال الصعوبات التي يلاقونها. درن حول القطيع مثل كلاب الحراسة المتيقظة دائماً ولا تسمحن لأي خروف أن يضل."

وصمت، ولكنه بعد أن نظر إلينا جميعاً مرة أخرى، ابتسم، فما زال قلبه لم يفرغ بعد.

"إن كان علينا أن نختار طيراً لنعده علامة لرهبنتنا، فمن سوف يكون ذلك يا أبنائي؟ ليس هو العقاب الذي هو الأخ إلياس، ولا الطاووس، الذي هو الأخ كابيلا، ولا العندليب، الذي هو الأخ

سكون، وليست الحمامة البرية تلك المحبة للعزلة الأخ بيرنارد، ولا حتى الطائر الصافر، الأخ ليو، بل هو القبرة وابتسم ثم راح يتحدث في مديح القبرة:

"أخي طائر القبرة له قلنسوة مثلنا وريشه ملون بلون ردائنا، لون التراب، وهو أيضاً بسيط وفقير. إنه يقفز من شارع لشارع ومن غصن لغصن بحثاً عن حبة قمح ليأكلها. وفي الصباح، عند كل صباح يرتقي نحو السماء دون كلل وهو يغني متلذذاً بالضوء. إنه يختفي، يحلق أبعد من الرؤية ثم يسقط إلى الأرض فجأة ليعود ثانية كتلة طينية صغيرة... لقد قال الأخ قبرة صلاته: وارتقى نحو الله ثم عاد كرة أخرى إلى التراب.

رفع إلياس يده دلالة على أنه يطلب الكلام:

"إلى من بذر، أخي فرانسيس، وهو الذي حصد في حقيقة الأمر لأنه تذوق من قبل حصاد المستقبل ومبارك أنت يا أخي فرانسيس، لأنك أنجزت حد الكمال المهمة التي عهد الله بها إليك، وتلك هي مهمة البذار. الآن وبقلب هادىء وضمير نقي تخليت عن العصا العالية ووضعتها في أيدينا. حين تظهر أمام الرب يا أخي فرانسيس، فأن ذراعيك ستمتلئان بسنابل القمح. إنني أرفع هذه العصا وأصرح لك أنني سوف أحول الطريق الذي وضعته من ممر يسع فقط لثلاثة أو أربعة أخوة إلى جادة عريضة سوف تأوي الآلاف. ولسوف أوسع الفضائل التي بنيت عليها رهبنتنا كي لا تناسب سوى ثلاثة أو أربعة من الإخوة بل الآلاف. ولسوف أغير هذه البورتيونكولا المتواضعة. أقسم لكم أنني سأحولها إلى قلعة وقصر الله."

حين قال ذلك، أمر بأن يوضع مقعدان أمام النار. وأخذ فرانسيس

من يده وأجلسه على واحد منهما بينما جلس هو على الآخر والتف الإخوة حولهما وتبعهم الرهبان الجدد، كل واحد منهم قبل يد فرانسيس ثم يد إلياس. كان وجه فرانسيس هادئاً وحزيناً، أما وجه إلياس فيشع بالانتصار، وتبرز القوة على شفاهه، وحاجبيه وفكه الأسفل المهيب.

في اليوم التالي انحنى فرانسيس وقبل عتبة بورتيونكولا ثم تلمس طريقه في الهواء، فعثر على يدي: "تعال يا أخي المسكين ليو. لقد طردنا من بيتنا."

وسرنا بينما كان هو يتعثر في خطوه خلال الممر الضيق الذي يخترق الغابة. وكان عليّ أن أشد بقبضتي على يده لأمنعه من الاصطدام بالأشجار. وحين وصلنا أخيراً إلى كوخ الأغصان الذي بناه بيده في الغابة، جلس على الأرض وأدار ببصره فيما حوله.

وصاح: "هل أظلم العالم يا أخي ليو، أم أنني أصبت بالعمى التام! إنني لا أرى شيئاً، يا أخي ليو، لا أرى شيئاً"!

أجبت: " إن الأب سلفستر يعرف الكثير من أسرار العلاج. ومن بينها أنه يشفي أمراض العيون كما سمعت. سأستدعيه."

"كلا، كلا، يا أخي ليو، دعني هكذا. أنا بخير في الظلام. صحيح أنني لا أرى العالم الذي من حولي، ولكنني قادر على أن أرى خالقه بشكل أفضل."

صمت. وازدادت حدة آلامه ومن أجل أن ينساها للحظة وجه أفكاره إلى مكان آخر. فتساءل: "كيف هي الأخت كلارا؟" وطلب مني الاقتراب منه لأنه غير قادر على أن يرفع صوته. " كيف هي؟ إنني أكاد أنساها، لقد مضى وقت طويل الآن. ولكن يا إلهي، أنا متأكد أنني لم أنسها. أخبرني ماذا حصل لها؟"

"لقد تبعت تعليماتك يا أخي فرانسيس وذهبت إلى كنيسة سان داميانو لتعيش في زهد. وحالما سمعت سيدات صقلية بالأمر حتى رحن

يتساءلن، وتردد الكثيرات منهن في العودة إلى البيت، لأن حياة كلارا بدت لهن جميلة بشكل غريب. إنهن جميعاً يبجلنها. واول واحدة هرعت لتبقى إلى جانبها كانت أختها أغنس. فهي أيضاً دخلت المعتزل، قصت شعرها وارتدت رداء الرهبنة وهنالك أيضاً ممن يتطلعن إلى العريس باستحسان: بنات عذارى وحتى اثنتان أو ثلاث من المتزوجات. إن كلارا قطرة عسل. ويأتيها النحل من كل الجهات، وزعن ممتلكاتهن على الفقراء، وألقين الوداع على العالم الصاخب وجئن إلى حيث سلام الرب في سان داميانو."

قال فرانسيس: "ليت الرب يعينها. النساء متمردات وحيوانات صعبة. وليس سوى الرب العظيم قادر على ترويضهن. وحده لا غيره"!

لك أن تستريح مطمئناً يا أخي فرانسيس، لأن كلارا تتبع خطاك: خطوة خطوة. فهي مثلك تزور المجذومين، وتنظفهم وتطعمهم، ومثلك تضع الرماد في صحنها كي لا يغدو طعامها ذو ذائقة حلوة يمتع الجسد. طوال الليل وهي تبقى ساهرة لتصلي. لقد شاخ جسدها مبكراً وذبلت وجنتاها وامتلأت عيناها بالدموع. هكذا تحضر نفسها للظهور أمام الرب. الأب سلفستر هو الوحيد من بين الإخوة الذي يذهب من وقت لآخر ليرى ماذا يحدث في معتزلها. وإن رغبت أي من الأخوات في تلقي المشاركة المقدسة، فهو يسمع اعترافها."

وترددت للحظة. ولكنني قررت أخيراً أن أستمر.

"أخي فرانسيس، إن سمحت لي سأقول شيئاً آخر لك: إن الحياة في سان داميانو أكثر قداسة من الحياة في بورتيونكولا. لماذا؟ لأن الأخت كلارا تمسك بزمام الأمور بقوة، بينما استسلمت أنت ولمن؟ لإلياس"!

احتج فرانسيس: "لست أنا، لست أنا، بل الرب. لقد سمعت صوته. لقد أمرني أن أقوم بذلك."

هززت رأسي: "أنت تعرف جيداً يا أخي فرانسيس، أن الشيطان قادر على تقليد صوت الرب ليوقع بالبشر."

وسرت رعشة في جسد فرانسيس. وصرخ: "صه! إنك تشطر قلبي. إن لم يكن ذلك صوت الرب فلقد وقعت في فخ كبير"!

وعادت الإفرازات التي تخرج من عينيه للجريان مرة أخرى، وعادت إليه الآلام الموجعة. ودفعتني الشفقة عليه لأن أقترب وأرمي ذراعي حوله.

"اغفر لي، يا أخي فرانسيس. نعم، نعم، لقد كان ذلك هو صوت الرب. فلا تبك."

فلم يقل شيئاً. كان قد غطى عينيه بكفيه وراح يئن من الألم.

لم يستطع النوم في تلك الليلة. وظل يمشي في الخارج كي لا يوقظني بأنينه. ولكن أنى لي أن أغمض عيني؟! كان قلبي يتحطم لسماعه. حالما سطع ضوء النهار ذهبت لأستدعي الأب سلفستر.

وأشار إلي: "عد وأشعل ناراً. سأعالجه بنفسي بالكي وليعني الرب"!

ووجدت فرانسيس جالساً أمام الممر ورأسه بين ركبتيه، كما هي عادته، وذراعاه وساقاه متكوران في كرة. كان نائماً. دخلت الكوخ وأنا أسير على أطراف أصابعي ثم أشعلت النار. وجلست إلى جانبه في انتظار الأب سلفستر. كان فرانسيس يتنهد من حين لآخر: لابد أنه كان يحلم. وكانت ركبتاه ترتجفان، ورأسه يهبط ويهبط، حتى كاد يلمس الأرض.

كان صوت خطى الأب سلفستر خلف الأشجار قد أزعجه فاستيقظ. وحين مد يده وجدني.

"أهذا هو أنت يا أخي ليو؟"

"أجل أخي فرانسيس. فلتسترخ. لماذا ترتجف هكذا؟"

"اركع أخي ليو، اركع وشاركني في استدعاء الأخ الموت ليأتي. فأنا لا أستطيع الاستمرار."

وبينما كان يتكلم، ظهر الأب سلفستر أمامنا وهو يحمل قطعة حديد طويلة في يده. فتساءل فرانسيس خائفاً: " من أنت؟"

"أنا، الأب سلفستر. جئت لأشفي عينيك بمساعدة الرب، سوف أبعد عنك الآلام لتتفرغ للصلاة مرة أخرى."

"إن الألم صلاة أيضاً يا أبتي سلفستر، إنه صلاة أيضاً..."

وتنهد ثم تمدد منطرحاً على الأرض.

رسم الأب سلفستر إشارة الصليب ثم رمى الحديد في النار، وتركه حتى غدا أحمر ساخناً ثم رفعه واقترب. كان فرانسيس قادراً على الإحساس بظل الكاهن فوقه، وأيضاً الحديد الأحمر الساخن الذي في يده. مد ذراعيه إلى الأمام.

قال مناشداً: " أخي أيها الحديد الساخن لا تجبرني على المعاناة كثيراً، أرجوك. لقد خلقت من لحم، ولست من الحديد مثلك، وإن احتمالي ليس كبيراً."

قال الأب سلفستر: "ادع الله أن يعطيك الشجاعة أخي فرانسيس. صرّ بأسنانك وتعلق بروحك من أجل الحياة العزيزة. إن هذا سوف يؤلمك."

وقبل أن يكون لفرانسيس الوقت ليستدعي الله كان الأب سلفستر قد وضع الحديد الأحمر الساخن على صدغي الرجل المريض. صرخ فرانسيس صرخة تشطر القلب ثم وهنت قواه. رمينا بعض الماء على وجهه ثم رفعناه، جلبناه إلى داخل الكوخ واضطجع

على بساطه. وبدأ يتلوى ويتألم بشدة، صارخاً بالأخ الموت أن يأتي ليخلصه.

بقي سلفستر إلى جانبه، يصلي، أما أنا فقد جثوت على الأرض ورحت أبكي.

عندما شفي فرانسيس من نوبة المرض رفع رأسه، فارتعشت. كان صدغاه محض جرحين عميقين، وعيناه ينبوعان من الدم. مد يده ليجد ذراعي فتشبث بها يائساً.

قال لاهثاً: "أخي ليو، أخي ليو، أخبرني أن الله رحيم بلا حدود، وإلا فأن عقلي سوف يغطس في الفوضى. أخبرني أنه رحيم بلا حدود: أعطاني القوة لأستمر"!

أجبت: "فكر بالمسيح على الصليب. فكر بالمسامير في يديه وقدميه، والدم يجري من جنبه." هز فرانسيس رأسه. "لقد كان هو الرب، أما أنا فلست إلا طينا."

جلس على البساط، وحشر رأسه بين ركبتيه كما اعتاد، ولم ينطق بكلمة أخرى طوال ذلك اليوم. قبيل المساء هرعت إلى بورتيونكولا أتسول بعض الكسر من الخبز من الإخوة. كانت أمسية مخيفة فذلك الشيء الذي يهبط إلى الأسفل خلف الأشجار لم يكن الشمس بل كانت قذيفة نارية هائلة قد أشعلت الغابة حين مرت بها وبالصخور، وفي البعيد، الحصن العالي لصقلية: كلها اضطرمت فيها النار. ركضت وبغتة تلبسني خوف غريب. الشمس ولهيب الأشجار وقلبي الذي في داخلي، كل شيء اشتعل في النار، وكنت أركض كي لا تلفني هذه النار أنا أيضاً. في اللحظة التي وقفت فيها أمام بورتيونكولا شعرت رغم ذلك بالسكينة. لقد

جعلتني رؤية مهد رهبنتنا اليتيم المحبوب أستدعي الساعات الجميلة التي لا توصف، والصلوات المقدسة والأحاديث والعشاءات المقدسة حيث كانت كسر خبز يابسة تقنع جوعنا، وكان فرانسيس يسطع في بيتنا مثل شمس عطوفة... وقفت ساكناً لبضع دقائق لأسترد أنفاسي في الداخل. سمعت الرهبان يضحكون من القلب. كان أحدهم يقلد صوت فرانسيس بينما كان الآخرون يتفجرون من جوانبهم. ولكن حالما دخلت ورأوني صمتوا. كان الإخوة الأصلاء غائبين، أما الجدد فمشغولون بتناول عشائهم الذي كان مفروشاً أمامهم على الأرض.

تساءل أحدهم: ما الذي حدث لـ "الفقير الصغير الطيب؟ ألم يعد يغني ويرقص؟"

فأجابه آخر: "نكاد نسمع صراخه إلى هنا، لقد ذهب الأب سلفستر لكي يقتلع عينيه، كما أعتقد."

ولم أجبهما. كان قلبي قد ارتفع عالياً مهدداً ثم بدأ يهسهس في داخلي مثل أفعى خبيثة، مليئة بالسم. لقد عرفت أن الإهانات واللعنات ستخرج من فمي لو فتحته، ومادمت أخشى الله، فقد تمسكت بالسلام. أخذت نتفة الخبز التي رموها إلي، وخرجت.

* * *

وبسبب مرض فرانسيس لم نعد نستطيع التفكير بالذهاب بعيداً. كان الأب سلفستر يأتي يومياً، وفي إحدى الصباحات جلب رسالة من سان داميانو.

"الأخت كلارا تقبل يدك، أيها الأب فرانسيس، وترجوك أن تزورها. إنها تقول أنك لم تصل إلى معتزلها لتبارك الإخوات، وأنهن

لم يحظين بفرصة اللقاء بك ليسمعن كلمة طيبة من شفتيك. إنهن نساء في نهاية الأمر، ورغم أنهن في أمان في حضن الرب، فهن بحاجة إلى الكلام الطيب... إن الأخت كلارا تبعث بهذه الرسالة لك عبر لساني: امنحنا بركة حضورك في سان داميانو يا أخي فرانسيس، كي نراك، ونصغي إليك لتطمئن قلوبنا."

وهز فرانسيس رأسه: "ماذا ترى، أيها الأب سلفستر هل علي أن أذهب؟"

"أجل يا أخي فرانسيس. إنهن نساء. فأشفق عليهن."

"أيها الأب سلفستر، مرة أخرى سأتكلم بالرموز. أخي ليو أنت تصغي أيضاً. آه ليت كل الرهبان كانوا هنا ليصغوا"!

"في يوم ما طُرد الأب الكبير لدير للرهبان احد الرهبان لأنه لمس يد امرأة. واحتج الراهب: "لكنها امرأة ورعة ويدها نقية." فأجابة الأب الكبير: "إن المطر نقي أيضاً، وكذلك الأرض، ولكنهما حين يجتمعان يصبحان طيناً. كذلك هو الحال حين تلمس يد الرجل يد المرأة"!

فقال الأب سلفستر: "تلك الكلمات قاسية يا أخي فرانسيس، كلمات قاسية إن سمعتها النساء."

"وهي أقسى بالنسبة للرجال. قلت ذلك، وأنا أتذكر بخوف كل الشابات اللواتي رأيتهن في حياتي: كل الأيدي التي رغبت في لمسها. آلافا منها"!

واقترح الأب سلفستر: "فكر بالعذراء المقدسة."

فأجاب فرانسيس وهو يرسم الصليب بتكرار: "لم يلمسها أحد، ولا حتى يوسف. يبدو أنكم نسيتم حواء"!

"حسن على أية حال. ماذا سأقول للأخت كلارا؟سوف تقف عند باب سان داميانو لتنتظرني. بماذا سأخبرها؟"

"أخبرها أنني سآتي حين يتغطى الطريق بين سان داميانو وبوتيونكولا بالزهور البيضاء."

"معنى هذا، أنك لن تذهب أبداً، أليس كذلك؟"

"إن "أبداً" و "دائماً" هما أيها الأب سلفستر، كلمتان لا ينطقهما سوى الرب. فمن الممكن وبينما نحن نتكلم، أن يكون الرب قد عبد الطريق بالورود البيضاء. اذهب وانظر يا أخي ليو"!

هز الأب سلفستر رأسه من الشك، ولكنني قمت وهرعت إلى الخارج، كان قلبي ينبض بشدة. سرت في الدرب عبر الغابات. كان الصباح لا يزال والجو بارد حد أنك تظن أن الأرض مغطاة بالثلج. بدت ضربات قلبي تعلو إلى حنجرتي. لقد كانت حقاً أعجوبة: لقد شممت الرائحة في الهواء: وسطع وجه فرانسيس الملطخ بالدم عندما التفت إلي وقال: "أخي ليو، اذهب وانظر! ذلك لأن الطريق قد زهر من قبل في ذهنه.

ركضت، ووصلت الطريق العام، وأطلقت صرخة في الحال: الطريق بأكلمه، الأسوار والأحجار والأوساخ، قد تغطى بالزهور البيضاء، على مدى البصر! وخارت ركبتاي. وقدمت الشكر لذلك الذي هو لا مرئي. ثم قطعت حزمة زهور، وهرعت راجعاً إلى الكوخ ودخلت وأنا أتنفس بصعوبة من السعادة والفرح.

قلت صارخاً: "أخي فرانسيس، إن الطريق مغطى بالزهور البيضاء. انظر لقد جلبت حزمة منها."

وجثم الأب سلفستر عند قدمي فرانسيس وقبلهما: "اغفر لي يا

أخي فرانسيس. لقد هززت رأسي، لم يكن لدي يقين."

أخذ فرانسيس الزهور ووضعها على عينيه الداميتين وعلى الجروح التي في صدغيه. وتمتم "أبي... أبي..." وقبّل التويجات مرة أخرى وهو ينشج.

واستدار إلينا متسائلاً: "لماذا تندهشون؟ كل شيء هو أعجوبة. فما الماء الذي نشربه، الأرض التي نسير عليها، الليل الذي يهبط علينا كل مساء بنجومه، ماهي الشمس وما هو القمر؟ أعاجيب كلها! انظروا فقط في أصغر ورقة شجر، انظروا فقط إليها في الضوء، أية أعجوبة! لقد رسم الصليب على جهة، وحين تقلب الورقة على الوجه ماذا سترى: البعث! إنها ليست ورقة، يا إخوتي، إنها قلوبنا"!

قبّل الأب سلفستر يد فرانسيس. " أخي فرانسيس لقد طلبت علامة من الرب وقد تحققت: لقد ملأ الرب الشارع بالزهور. هل أذهب وأخبر الأخت كلارا أن تتوقع مجيئك؟"

"أجل، أخبرها أنني آت. أخبرها ليس لأنني راغب ولكن لأن الرب أمرني. وقدم لها هذه الزهور التي جاءت من السماء وحينما لامست الأرض تلطخت بالدم."

بهذه الكلمات، سلم الأب سلفستر الزهور الملطخة بالدم. التي كان يحملها في يده.

* * *

بعد ذهاب الأب سلفستر جلست لأشعل النار. سخنت ماءً وغسلت وجه فرانسيس، ونظفت قدميه ويديه ونظفت شعره ومشطته بأصابعي. كان قد أرخى يديه وسلم لي نفسه مثل طفل صغير. حين

انتهيت أخذته بيدي كلتيهما ورفعته عن الأرض. لكن ركبتيه قد خارتا ولم يكن يستطيع الوقوف منتصباً.

سألته يائساً: "كيف سنذهب يا أخي فرانسيس؟ إن ركبتيك لا تقويان على حملك."

"انس ركبتي يا أخي واقلق بشأن روحي. فهي التي سوف تحملني... فلنبدأ المشي."

وبعد أن عض شفاهه مستدعياً كل قوته استطعنا مغادرة الكوخ، وسرنا بمحاذاة الممر. وقال لي ما ان ابتعدنا عن الكوخ: "أخي ليو كم من المرات قلت أن روح الإنسان شعلة إلهية، وهذا معناه أنها قوية جداً. لكننا لا نعرف ذلك، ونسحقها تحت جسدنا، تحت ترهلنا. آه لو أننا أطلقنا لها العنان"!

وتردد للحظة ثم تابع:

"أنت تعتقد أنني غير قادر على السير، أليس كذلك؟ وتعتقد أن روحي غير قادرة على أن تسند جسدي؟ لسوف ترى في الحال"!

وراح يسير في الطريق، ركبتاه مشدودتان وغير متراخيتين. وحين وصلنا الشارع العريض بحثنا عن الزهور فلم نجدها. كانت كأنها طبقة من وفر الثلج الشتائي الذي ذاب عند شروق الشمس. فرسم فرانسيس إشارة الصليب على جسده.

قال: "هذه معجزة أخرى. لقد جاءت الزهور من السماء أوصلت الرسالة ثم عادت. لم ترد أن تطأها أقدام البشر."

وصمت ثم انطلق نحو جهة سان داميانو، متقدماً بحذر شديد بمحاذاة الطريق. كانت الأخت كلارا وقد تبعتها راهبتان، قد تركت المعتزل لاستقبال فرانسيس. وحين لمحته توقفت وعقدت

ذراعيها وانتظرت بعينين مسبلتين، ولكنها حين صار بإمكانها سماع وقع خطواته رفعت رأسها وتورد وجهها حتى جذور شعرها.

قال فرانسيس محيياً: " ليكن الله معك يا أختي كلارا، ليكن الله معكن جميعاً أيتها الإخوات." ومد يده ليباركهن.

أجابت كلارا: "مرحباً بك في بيتنا أيها الأب فرانسيس. لقد كنا نتأمل مجيئك منذ آلاف السنين".

وجثت أمامه وقبلت قدميه.

ورد عليها فرانسيس: "لا تتذمري يا أختي كلارا، كنت دائماً أبعث الرسائل مع الأب سلفستر".

ثم جثت أمامه مرة أخرى، وطلبت منه أن يسمح لها بالكلام.

"إن الرسائل لا تكفينا يا أبي فرانسيس. إن الكلمات الآتية من بعيد ليست سوى ريح، هواء. تتلاشى. إننا نساء. ولكي نهدأ لابد لنا ان نرى حركة الشفاه التي تخاطبنا، لابد لنا أن نشعر باليد التي تباركنا وهي فوق رؤوسنا. إننا نساء، كما قلت لك. لو رفضت أن تأتي إلى هنا لتطيب قلوبنا بكلماتك يا أبت، فأننا ضائعات.

وسارا كلاهما في الأمام، وهما مازالا يتحدثان، بينما نحن نتبعهما! وحينما وصل فرانسيس باب المعتزل توقف ونظر إلى المشهد الذي حوله. أية حديقة صغيرة رائعة! لقد كانت الفردوس! لكم كانت رائحة الزهور عبقة!

"ما الذي زرعتموه في الفناء يا أختي كلارا؟ إنني لا أرى بوضوح؟"

"زنبق وورد يا أخي فرانسيس. وفي الخريف يكون لدينا البنفسج."

مد فرانسيس يده وبارك الفناء. "أختي أيتها الفناء، أخواتي الزنابق والورود، إنني مسرور أن أكون هنا معكن! ليت ذلك يفرح

ربنا العظيم وفي يوم الحساب يتهيأ لكن أيضاً أن تبعثن من الأرض وتدخلن الجنة مع الأخت كلارا.؟

وخطا إلى الداخل. كانت الجدران قد بيضت بالكلس، وظهر تمثال السيدة العذراء وهي تبتسم بينما تحضن وليدها بقوة نحو صدرها. وانحنت الإخوات ليقبلن قدمي فرانسيس بينما وضع يده على رؤوسهن وباركهن. كن جميعاً قد التففن بخمارات بيض مشدودة، وحين يمشين كن يشبهن اليمامات.

جلبن مقعداً إلى فرانسيس. جلست كلارا على الأرض إلى جانبه، بينما بقيت الإخوات واقفات خلفها مكتوفات الأيدي. ولم يتكلم أحد لوقت طويل. أنظار الجميع على الزائر القدسي. لكم كان ذلك الصمت عذباً، ولكم شعرنا بالطمأنينة! كنت متيقناً أن حشوداً من الملائكة قد هبطوا إلى سان داميانو وهم الآن يقفون لا مرئيين في الهواء، كما ننتظر نحن أن يتكلم فرانسيس. على أنه لم يكن في عجلة. وأنت تحس من تعابير وجهه أنه كان ملفوفاً ببهجة لا يمكن وصفها.

قال لي فيما بعد: "لكم كان الهواء عطراً ونقياً. لقد مضى وقت طويل منذ أن تمتعت فيه بعطر الثياب المغسولة تواً وبالصناديق التي تملأ الغرفة بعطر الغار والنعناع حين تفتحها"!

قالت الأخت كلارا أخيراً وهي تقبل طرف ردائه: "أشفق علينا يا أبتي، دعنا نسمع صوتك"!

رفع فرانسيس رأسه بعد أن جفل ومد ذراعيه وكأنه يتيقظ: "أنا مسرور أن أكون هنا، يا أخواتي. ما الذي تطلبنه مني لأقوله؟ حيث كنت في العالم كنت معتاداً على إقامة ولائم لأصدقائي، كنت

أرجع رأسي إلى الوراء وانحني:

آلاف التحايا، يا أصدقائي،

عشرة آلاف من التحايا لكم!

الوادي مغطى بالزهور،

والحقول مغطاة بالخضرة والندى.

والآن يا أخواتي، تضوع ذات الأغنية من قلبي: ألف وعشرة آلاف تحايا"!

كان مستثاراً تماماً. ولم أره فرحاً هكذا منذ سنوات. كان هذا هو الجو الذي يحبه: النقاء والصفاء والعطر الذي يلفه الآن وكل تلك الخمارات البيضاء!... تكلم ثانية:

"استمعن إليّ يا أخواتي وسامحنني لو أخبرتكن عن اليرقانة التي جاءت للتو إلى ذهني. هذه ليست قصة، إنها حقيقة أكثر حقيقية من الحياة نفسها... حسن، كان ثمة يرقانة زحفت وزحفت، حتى وصلت في نهاية عمرها أمام بوابة السماء. طرقت الباب وجاءها الصوت من الداخل: لا يسمح لليرقانات بالدخول إلى هنا! يبدو لي أنك متعجلة جداً جداً."

فأجابت اليرقانة: "وماذا عليّ أن افعل؟ مرني." وتكورت في كرة وكانت خائفة جداً.

"عاني أكثر، وجاهدي أكثر، وحولي نفسك إلى فراشة"!

وعادت اليرقانة إلى الأرض نتيجة ذلك، يا أخواتي، وبدأت رحلتها من جديد."...

وتوسلت كلارا: "أخبرنا يا أبانا فرانسيس من هي هذه اليرقانة؟ إننا نسوة بسيطات وغير متعلمات. أنرنا."

"اليرقانة هي أنا يا أختي كلارا وأنت، وكل الإخوات اللائي يستمعن إلي، وكل شخص يدب على الأرض. يا إلهي إن أعمالاً فذة يجب على هذه اليرقانة أن تقوم بها حتى تتحول إلى فراشه! الجهاد والمزيد من الجهاد، يا أخواتي، الصعود إلى الطريق أعلى التل، المعاناة القاسية، والطهارة والفقر والجوع والعري، والدموع كل هذه الأشياء مطلوبة! لقد وضع الشيطان شراكه في كل مكان، إنها في نتظارنا كي نقع فيها. لو انحنيتن لتشمن زهرة يا أخواتي فلسوف تجدنه هناك، لو رفعتن حجراً فلسوف يكون مختبئاً هناك وينتظر، لو رأيتن شجرة لوز مزهرة فلسوف يكون قابعاً هناك بين الغصون جاهزاً لأن يثب عليكن. إنه في الماء الذي نشربه، في الخبز الذي نأكله، في الفراش الذي ننام عليه: الشيطان يختفي في كل مكان، يا أخواتي، في كل مكان يختفي وينتظر. ماذا ينتظر؟ إنه ينتظر أن نغدو متعبين دائماً ومصابين بالدوار، في اللحظة التي نخفق فيها للوقوف كالحراس المتيقظين، وهذا ما يشجعه على أن يثب علينا ويجرجرنا نحو الجحيم. أخواتي، أنتن من أفكر بهن، ومن أشفق عليهن أكثر بكثير من الرجال، لأنكن نساء، وقلوبكن ليست من فولاذ إزاء جماليات العالم. أنتن تنظرن إليها وتعجبن بها. الزهور والأطفال والرجال والأقراط والثياب الحريرية، والريش الفاتن: يا إلهي أية شراك! كم من النسوة بإمكانهن الهرب؟

"في كل صباح ومساء وانتن، يا أخواتي، تصلين لكل النسوة اللائي على الأرض واللائي يزين أنفسهن بالجواهر والمستحضرات، ولكل النسوة اللائي يضحكن، وفي السماء، تردد العذراء المقدسة صلاتكن. ألا تسمعن صمتاً إلهياً عميقاً فوق رؤوسكن. عند الليل

وفي وسط هذا الصمت صوت من حفيف أوراق الحور: صوت الشفاه اللا مرئية وهي تصلي وتتضرع؟ إنها مريم العذراء، وهي تصلي لكل النساء في كل مكان.

"ولكن يجب أن تحترسن أيتها الأخوات. فلا تقلن لأنفسكن "لقد دخلنا المعتزل. وقد هربنا من العالم وإننا نتنزه في السماء." إن ذلك التفكير فخ، يا أخواتي، فخ وضعه الشيطان. استمعن جيداً لما سأقوله لكن. إننا جميعاً واحد. أقسم لكن. فلو أن امرأة واحدة في مكان ما في نهاية الأرض صبغت شفتيها فإن لون العار سوف ينتشر على شفاهكن أيضاً! ماهو تعريف الجنة؟ إنها السعادة التامة. ولكن يمكن للإنسان ان يكون في سعادة تامة حينما ينظر من الأعالي في السماء ويرى إخوته وأخواته يعاقبون في الجحيم؟ كيف يمكن للفردوس أن يوجد بمعية الجحيم؟ من أجل هذا أقول وليحفر هذا عميقاً في عقولكن يا أخواتي، إما أن ننقذ جميعاً أو نلعن جميعاً. لو أن شخصاً ما قتل في الجهة الأخرى من الأرض، فقد قتلنا، ولو أنقذ إنسان فقد أنقذنا."

لقد جعلت كلمات فرانسيس قلبي مثقلاً بالغرابة، لأن تلك كانت هي المرة الأولى التي سمعته فيها يعانق العالم بهذا الحب الغزير. لقد أزهر قلبه برفاهية في هذا الجو الأنثوي، كلما نظر إلى الأخوات، نشرت عاطفته الأجنحة التي تحضن العالم بأكلمه.

وقعن الراهبات على ركبهن. وزحفن ببطء إلى الأمام حتى أحطن بفرانسيس، وحدقن فيه بنشوة، ووجوههن تشع وكأنهن قد صدمن بالشمس. أحس فرانسيس بزفيرهن الدافىء يصل إليه ففتح شفتيه مرة أخرى.

"إن الإحساس بحضوركن حولي جعل قلبي يتسع، يا أخواتي، وجعله يرغب في أن يدخله الجميع: الأسرار والطيبون، وثمة فكرة متمردة تصعد من قلبي نحو شفتي: اسمح لي يا إلهي بأن أزفها إلى هؤلاء النسوة، لأنهن أخواتي، قلوبهن أنثوية ومليئة بالحب والعاطفة. ولسوف يفهمن. استمعن يا أخواتي: الآن في هذه اللحظة اغفر لي يا إلهي! إنني أشعر بالأسف حتى للشيطان. ليس ثمة مخلوق سيء الطالع، وتعيس أكثر منه، ذلك لأنه كان مرة مع الرب ولكنه الآن قد غادره، وتنكر له، وهو يحوم في الهواء، ولا عزاء له. لماذا لا عزاء له؟ لأن الله سمح له بالاحتفاظ بذاكرته. لذلك فهو يتذكر حلاوة الفردوس التي كان فيها، فكيف له ان يعزى، يجب أن نصلي للشيطان أيضاً، يا أخواتي، يجب أن نصلي طالبين من الرب العظيم أن يرأف بحاله، يغفر له، ويسمح له بالعودة ويحفظ مكانه بين الملائكة.

"الحب الذي - باركه الله! - هو الدور الذي قدر للمرأة. إن الشيطان وحش قبيح متعطش للدماء، ولكنه لو قُبل من الفم سيغدو ملاكاً مرة أخرى. ذلك هو، يا أخواتي، الحب الكامل. وبالطريقة نفسها، ندع الحب الكامل يقبل الشيطان من أجل أن يعود إليه وجهه الساطع الأصيل.

"الحب!... الحب!... صرخ فرانسيس حتى اختنق صوته بالدموع. ثم أخفض وجهه في كفيه وأرخى نفسه للنشيج.

وراحت الدموع تندفع من عيون كلارا أيضاً. والتحقن بها كل الأخريات، وتردد صدى العويل في المعتزل. حين سمع فرانسيس هذا، رفع رأسه ومد ذراعيه وقال بصوت مضطرب: "لم أزمع أن أجعلكن تبكين يا أخواتي. سامحنني. جئت لكي أكلمكن عن الجنة وليس

النار، وأردت منكن أن تحدثني عن الجنة أيضاً، حتى نريح بعضنا. إن الحياة جائرة، لو لم يوجد الأخ الموت ليفتح الباب ويدعنا نرحل، يا إلهي فأي سجن لا يطاق ستكون عليه الأرض وأي سجن ستكون عليه أبداننا! ولكن الآن (إنها متعه، وأي أمل لا يوصف كلا، ليس أملاً، بل يقيناً!) الآن لقد توجت الروح نفسها بأزهار الليمون وبدأت تتقدم فوق الصخور وجروف الأرض تصرخ آه يا زوجي الحبيب، يا زوجي الحبيب أنت يا إلهي"!

وشعرت إحدى الراهبات بالوهن. فتحت الأخت كلارا النافذة التي تطل على الفناء واقتحمت روائح الزنبق والورود المكان. ثم تجرأت، ولمست ركبة فرانسيس وقالت بصوت رقيق: " أبي فرانسيس، حين أنظر إليك أشعر أن آدم لم يخطىء أبداً."

وسمح فرانسيس ليده أن تستريح على خمارها الأبيض.

وأجابها: "وحين أنظر إليك يا أختي كلارا، أشعر أن حواء لم تخطئ أبداً."

وخيم الصمت لوقت طويل، صمت فاض مع الرقة والعاطفة، وكأن فرانسيس لم يتوقف أبداً عن البكاء. واستمرت الأخوات، دون أن يتوقفن عن النواح، يصغين للكلمات التي لم يقلها أحد. وبدا لهن أن فرانسيس مازال مستمراً في خطابه حول قدر المرأة، وحول الحب والقبلة التي تحول الشيطان إلى ملاك. إنها المرة الأولى التي نشعر فيها بالنعمة الإلهية وأيضاً بالمسؤولية في أن يكون الإنسان امرأة.

وفجأة وفي وسط هذا الصمت المقدس سمعنا ضرباً عنيفاً على الباب الخارجي. وفتح سريعاً واندفع الرهبان الذين جاءوا من بورتيونكولا. كانوا يرتعدون من الرعب.

وثبت كلارا على قدميها: "ما الخطب يا أخوتي؟ لماذا اقتحمتم بابنا؟"

مسح جونيبر العرق من جبينه وأجاب: "سامحينا أيتها الأخت كلارا، بينما كنا في بورتيونكولا رأينا لهباً يصعد نحو السماء. إن معتزلكن شب فيه الحريق"!

صرخ جميع الإخوة: "حريق! حريق! حريق يا أخت كلارا."

لكن كلارا ابتسمت: "لم تروا النيران يا إخوتي، لم يكن ثمة نار كما ترون، لقد كان ذلك هو الأب فرانسيس يتكلم."

أوشكت الشمس على الغروب. نهض فرانسيس وودع كلارا والأخوات. وباركهن مرة أخرى. ووضع يده على كل واحدة منهن.

قالت كلارا: "لقد قمت بعمل مدهش لنا يا أبت فرانسيس. لقد واسيت قلب المرأة الذي لا يمكن أن يواسى. والآن أية خدمة تطلبها منا؟"

"أنا في الحقيقة لدي شيء أود أن أطلبه منك يا أختي. خدمة جليلة."

فصاحت كل الراهبات: "مرنا، يا أبانا فرانسيس."

"أريد منكن أن تشحذن رقعة من كل فقير تقابلنه، ومن هذه الرقع تخطن لي رداءً. هذه هي الخدمة التي أطلبها منكن."

قبلت كلارا يده. " لماذا لا تسألني كي أمنحك حياتي يا أبتي فرانسيس؟ في الأحد القادم، بمشيئة الله سوف نبعث لك الرداء الذي ترغب فيه مع الأب سفلستر."

وخرجنا، فرانسيس يسير أمامنا مشدود الركب بينما البقية منا خلفه، نتحدث بابتهاج عن المعجزة. وخلفنا في البعيد وقفت كلارا

والأخوات عند الباب الخارجي للمعتزل يراقبن وكثيرة هي الدموع التي أُجبرن على مسحها من عيونهن.

* * *

لم يتكلم فرانسيس في اليوم التالي بطوله. تكور أمام الكوخ عند الفجر وبقي هناك يشمس نفسه. كان الهواء دافئاً، وثمة نسيم عذب يهب، ومن وقت لآخر كان يظهر أحد الرهبان وهو في طريقه لجلب الماء أو لقطع الخشب أو لالتقاط بعض الهندباء البرية. وطفق الشحرور يمر كل حين من فوق الرؤوس، كان يصفر مرة أو مرتين ثم يختفي. ولأن فرانسيس لم يكن يرى بوضوح، كان ينصب أذنيه ويصغي بانتباه إلى العالم الذي حوله. كانت تعابير وجهه تبين استغراقه في النشوة حتى أنني لم أجرؤ على الاقتراب منه طوال اليوم، إلا قبيل المساء، عندما خمدت النار، اقتربت منه وجلست إلى جانبه فوق العتبة.

وحين مد يده "رآني" وقال متعجباً: "أية معجزة تلك يا أخي ليو. منذ اليوم الذي تضاءل بصري فيه، فإن الأصوات التي أسمعها جميلة بشكل لا يوصف. آه يا الحفيف الأشجار، ويا الإندفاع الطيور في الهواء"!

كان هادئاً للحظة، ثم:

"منذ اليوم الذي انخفض فيه بصري يا أخي ليو صرت أستطيع رؤية اللامرئي. إن عيني الداخلية مفتوحة الآن. واليوم طوال اليوم، فإن دائرة الرؤية تكبر باستمرار. في البداية كنت قادراً على أن أرى من هنا، من هذا الممر حيث أجلس، وحتى بورتيونكولا. كنت أرى

بوضوح الإخوة هناك بينما يتجادلون بين بعضهم البعض أو يصلون، وكان بإمكاني رؤية الأب سلفستر يقف منعزلاً عن الآخرين وهو ينشج برأس منحن. وبعد ذلك، اتسعت الدائرة ورأيت صقلية بأبراجها وقبابها وبيوتها، أزقتها المزدحمة بالناس، النسوة الجالسات أمام بيوتهن وهن يتزينّ، وأمي وهي راكعة خلف النافذة والدموع تجري على خديها. وبعد ذلك اتسعت الدائرة المنورة ورأيت روما: شوارعها العريضة، ولورداتها المعطرين ونسائها المخضبات الشفاه، تفكير البابا بحال المسيحية، رأسه المبجل وهو يتكىء على كفه، وقريباً من ضفة النهر يشعل الراهب المتعجرف ذو الرداء الأبيض العيدان التي في خياله كي يحرق الهراطقة والكفار... وبعد ذلك، رأيت أيضاً ما هو أبعد: البحر الأزرق، والجزر البيضاء، وكريت الضاربة ثم مصر مع السلطان: وهو يفر بجواده بعيداً، وما زال يخب، محاولاً الفرار من الصليب الذي يتبعه... وأخيراً، أخي ليو: رأيت سطوعاً كبيراً ونجوماً هائلة وطبقات السماء السبع مع القديسين والملائكة الكبار والصغار، شيربيم وسيرافيم وفجأة أعتم نظري وأصبحت أعمى، وبدا لي أن قواي قد وهنت. من الواضح أنني قد اقتربت من الرب أكثر مما ينبغي."

لم أقل شيئاً وكنت سعيداً بأن روحه كان بإمكانها السفر عبر الأرض والسماء من خلال الرؤية وتساعده بهذه الطريقة أن ينسى آلامه. فبالرغم من أن جروحه كانت تنز طوال اليوم ويقطر الدم من لحيته حتى يحول الأرض التي تحته إلى بركة، فقد كان بعيداً عن جسده ولم يشعر بأدنى ألم.

بقي صامتاً لبضع دقائق، لكنه بعد ذلك وهو يزن كلماته

باعتناء قال: "أخي ليو، إن جسد الإنسان هو تابوت العهد القديم، وإن الرب يسافر في داخله."

بدأ الظلام يحل. وجاءت الزقزقة من كل شجرة، وبدأت الجنادب وصرار الليل، أصوات الليل الأولى، بالغناء. وخطف اثنان من الخفافيش بصمت وهما يذهبان ويعودان من أمامنا، ومرق أحدهما على بعد شعرة من رأس فرانسيس.

فسألني وهو يهز رأسه بعنف: "ما كان ذلك؟ لقد لمس جنح رأسي للتو."

"خفاش ملعون يا أخي فرانسيس. ليت الطاعون يأخذه."

"كل الكائنات الحية لها تاريخها يا أخي ليو، لا يجب أن تتكلم عنها بهذه الطريقة. ففي اللحظة التي تعرف فيها تاريخ إنسان أو حيوان بري أو طير فإن مشاعرك السيئة عنه تتحول إلى حب. هل تعرف تاريخ الخفاش؟"

"كلا، ولكنك ستخبرني به يا أخي فرانسيس."

"حسن، اسمع. كان الخفاش فأراً في البداية يعيش في أسفل الكنيسة. وفي إحدى الليالي ظهر من جحره وتسلق المذبح وراح يقضم برقاقة خبز من العشاء الرباني. وبعد أن أكل نمت له أجنحة على ظهره وصار أخانا الخفاش."

مرت الخفافيش من أمامنا مرة أخرى، تتصيد البراغيث.

قلت وأنا أرفع يدي: "عفوك يا أيها الخفاش. لم أدرك أن أجنحتك قد صنعت من رقاقة خبز من العشاء الرباني."

في تلك اللحظة، صم فرانسيس أذنيه. كان يستمع لجريان النهر تحتنا.

"اسمع يا أخي ليو اسمع النهر وهو يغني تحت في مجراه، اسمع كم هو نافد الصبر، كم هو في عجلة من أمره ليصب في البحر. إن أرواحنا لعجولة بذات الطريقة يا أخي ليو: إنها تسرع كي تصب في السماء. يا إلهي، متى يصلون؟"

"خذ وقتك، خذ وقتك يا أخي فرانسيس. فمازال الناس بحاجة إليك. ألم تر الخير الذي فعلته تجاه الأخوات في سان داميانو أمس؟ لم يستطعن أن يمنعن أنفسهن من النحيب، لقد كانت المتعة التي منحتها لهن مكثفة."

تنهد فرانسيس: "ما الذي فعلته هناك؟ كنت مخموراً! آه اغفر لي يا إلهي"!

"لماذا لأنك شعرت بالأسف على الشيطان يا أخي فرانسيس؟ لأنك تقت أن تتوسل إلى الله كي يسامحه؟"

أجاب فرانسيس وصوته مليء بالحزن: "كلا، كلا، بل لأن حضور النساء وضع قلبي في عذاب. آه يا إلهي لماذا يجب أن يكون الجسد هكذا قوياً، ولا يمكن تدميره تماماً؟ فلا فائدة من تجويعه وجلده ومنعه من النوم، لا فائدة من غمسه في الثلج ليجمد حتى الموت، لا فائدة من جعله حفنة طين. فرغم كل هذا يبقى متمرداً، ولا يستسلم إنه يستمر في رفع الراية الحمراء عالياً ويستمر في الصراخ"!

سعل فرانسيس فجأة. ثم نهض.

"انهض يا أخي ليو! باسم الطاعة المقدسة آمرك أن تعيد ما أقوله، أن تعيده بالضبط، دون أن تغير كلمة واحدة. فهل ستفعل ذلك؟"

"لقد أقسمت أن لا أعارضك يا أخي فرانسيس. فمرني."

"حسن إذن، دعنا نبدأ: سأقول، "تعيس أنت يا فرانسيس! يا من اقترفت الكثير من الذنوب في حياتك يا فرانسيس. ولا يمكن إنقاذك، لذلك ستذهب إلى أعماق الجحيم!" وستجيبني أنت "حقاً!، حقاً، لقد اقترفت الكثير من الذنوب في حياتك يا فرانسيس ولا يمكن إنقاذك، لذلك ستذهب إلى أعماق الجحيم هل أنت مستعد؟"

"مستعد، يا أخي فرانسيس."

"حسن، لماذا لا تتكلم"!

"سعيد أنت يا أخي فرانسيس. لقد قمت بالكثير من أفعال الخير في حياتك ولذلك سوف تجلس في أعلى مراتب الفردوس"!

حدق فرانسيس بي مندهشاً.

"لماذا لا تطعني يا أخي ليو؟ لقد سمعت ما قلته لك، أليس كذلك، فما هذه الكلمات التي سمعتها منك؟ إنني آمرك باسم الطاعة القدسية أن تعيد الكلمات كما أقول لك بالضبط."

"بكل سرور يا أخي فرانسيس. سوف أطيعك."

"حسن إذن، سأقول: " أيها الشرير فرانسيس هل تملك الوقاحة وتتوقع الرحمة بعد كل الذنوب التي اقترفتها في حياتك؟ كلا، كلا، أيها المذنب الملعون، سوف يرميك الله في الجحيم!"... والآن جاء دورك يا أخي ليو. أتستمع جيداً لما ستقوله لي: أجل، أجل، سيرميك الله في الجحيم!، ... تكلم"!

"كلا، كلا، ليباركك الله يا فرانسيس، إن رحمة الله غير محدودة وأكبر من ذنوبك. وكل شيء سوف يغفر لك ولسوف تدخل الفردوس."

غضب فرانسيس هذه المرة. وأمسك بي من كتفي، وهزني بعنف.

"كيف تجرؤ على أن تعاكس رغبتي؟ لماذا تصر على الجواب المعاكس لما أقوله لك؟ للمرة الأخيرة أستحلفك باسم الطاعة القدسية أن تطيعني."

"بكل سرور يا أخي فرانسيس. أقسم أنني سأعيد ما تقوله بالضبط، دون أن أغير كلمة."

وراح فرانسيس يلطم صدره. وامتلأت عيناه بالرعب. كان يعاقب نفسه، ينشج ويتكلم في الوقت نفسه.

"أيها الشرير الملعون فرانسيس. ليس ثمة من خلاص لك! ليس ثمة من رحمة لك، إن الجحيم تفتح فاها وتبتلعك."

وصرخت - فأنا أيضاً صرت أنشج الآن - " أخي فرانسيس، أيها القديس والشهيد العظيم، إن الرب لرحيم بلا حدود، وإن الفاقة والحب والعفة، هم القديسون الثلاثة الذين يقفون على العتبة الذهبية من الفردوس بانتظار قدومك؟ بينما العفة المقدسة تحمل تاجاً من الشوك في يدها."

وسقط فرانسيس على قدمي. فسقطت إلى جانبه مرعوباً.

"أخي فرانسيس لماذا تعانق ركبتي؟"

فصاح باكياً: "لماذا تعذبني هكذا يا أخي ليو؟ لماذا تعارض رغبتي باستمرار؟"

"أخي فرانسيس، إنني أقبل يديك وأتوسل إليك أن تسامحني. فليس ذلك بيدي. أقسم لك أنني في اللحظة التي أفتح فمي فيها لكي أردد ما أمرتني به، ثمة صوت في داخلي أكثر قوة من صوتك، وكل ما يقوله لي، أقوله لك. ربما يكون هذا هو صوت الرب يا أخي."

وقاطعني فرانسيس: "تقصد أنه لابد وأن يكون صوت الشيطان!

إن الشيطان يريد لروحي أن تسترخي لتنام، يريدني أن أبقى من دون حراسة كي يدخل في. ولكنني لن أدعه"!

نهض وفك حبله ذا العقد المشدود ورماه لي. "خذ هذا الحبل، يا أخي ليو، خذه واجلدني. هل تسمع: اجلدني حتى أنزف."

وحالما قال ذلك عرى الجزء الأعلى من جسده. وملأتني رؤيته بالشفقة. ماذا هناك ليجلد؟ ليست سوى عظام ملفوفة بالجلد الذي فقد لونه من الضرب المتكرر وهو مغطى بالندوب والكدمات.

صرخت: "أليست عندك رأفة لترأف بي؟ كيف يمكنني أن أرفع يدي عليك؟"

وهنا طفح الكيل بفرانسيس، فصرخ مهتاجاً: "إنني أحذرك يا أخي ليو، أحذرك ما لم تفعل ما اطلبه منك فلسوف أغادر! ولسوف نفترق يا أخي! أجل، وحق السماء التي فوقنا سوف نفترق"!

وأدار لي ظهره وقال: "وداعاً"!

كان الرعب قد أصابني، لأنني أدركت أنه قد حسم أمره ولسوف يفعلها حقاً. فأجبت وأنا أعري ظهري: "أخي فرانسيس سوف أضرب نفسي جلدتين في كل مرة أجلدك فيها. أرجو ألا تتكر علي هذه الخدمة"!

وانحنى إلى الأمام دون أن يجيبني ورحت أجلده بالحبل ذي العقد: وأجلد نفسي أيضاً. في البداية ضربته برفق، ولكن ذلك جعله يستشيط غضباً. فكان يصيح: "أقسى، أقسى، كيف لك أن تشعر بالرحمة إزاء هذا الجسد، هذا العاهر"! فرحت أجلده بشدة. جلدة لفرانسيس واثنتان لي. وكنت أتمايل، وازداد اهتياجي. كان شيئاً لا إرادياً: وقد أخذت، بالحذر الغريب لذلك، رغم أن الألم قد ازداد

شـدة، فكلمـا زادت المعانـاة، كلمـا استراح شـخص مـا في داخلـي. ورحت أردد صرخات وحشية سعيدة: وشعرت وكـأنني أنتقم أخيراً من الوحش الذي آلمني ووقع الآن بين يدي. وصار الحبل ذو العقد الآن أحمر من دم فرانسيس ودمي، ولكنني لم أكن عازماً على وضع نهاية لذلك، فاستمريت في الجلد من دون رحمة.

قال فرانسيس: "هذا كاف يا أخي ليو." كان قد هدأ تماماً.

وتظاهرت بعدم سماعه. وزاد زخم اندفاعي ورحت أضرب صدري وظهري أعنف مما كنت. وجعلني الألم أنثني وأتلوى: كنت أرقص. لقد فعلت الكثير من الذنوب في حياتي، ويبدو لي أنني الآن أحاول التخفيف عن كاهلي وأدفع الثمن... أتذكر المرأة التي طاردتها بين الصفصاف تلك التي هربت منك؟ أتذكر الخبز الذي سرقته من الفرن المعروف؟ هاك، خذ هذا! أيها الكذاب، الجبان، الشره، الزاني، السكير: خذ هذا! وهذا! ... لذلك استمريت في ضرب نفسي، مسروراً واجداً في ذلك الراحة.

وأمرني فرانسيس مرة ثانية: "كفى!" وانتزع الحبل ذا العقد من قبضتي، وشده حول وسطه "كفى، كفى، يا أخي ليو. يجب أن نحتفظ ببعض القوة كي نبدأ مرة أخرى غداً صباحاً."

قلت وأنا انهار إلى الأرض من الإنهاك: " لقد قضيت وقتاً ممتعاً يا أخي فرانسيس."

"أنت لم تقض وقتاً ممتعاً، أنت قد عانيت. والأمر سيان بالضبط."

دخلنا إلى الداخل. أوقدت ناراً وجثوت قرب الموقد، وبعد دقائق نمت. ورأيت نفسي في أحلامي أحمل لحم خنزير مشوي وأتمتع بعصيره.

* * *

جاء بيرنارد والسيد بيترو لزيارتنا في إحدى الصباحات. قبّلا يد فرانسيس، وجلسا، كل واحد منهما على أحد جانبيه. كان الجو لا يزال بارداً والنار متقدة، ووجه الثلاثة وجوههم تجاه الموقد. لم يتكلم أحد، ولكن من حين لآخر كان فرانسيس يمد يده ليلمس بيرنارد على يمينه وبيترو على يساره. وكأنه كان يريد التأكد انهما مازالا إلى جانبه. ثم يجمع يديه معاً وفي نيته الصلاة، وجهه يشع بالفرح ... وقفت في مؤخرة الزاوية لأراقبهم. كانوا يبدون ثلاثة محاربين محنكين قد تقابلوا مرة أخرى في يوم بارد بعد سنين من الفراق وقد أشعلوا ناراً ليتدفأوا. كنت قد أتلعت أذني كي أنصت إلى كلامهم ولكن لا احد منهم قد تفوه بكلمة. أنت تشعر أن الهواء الذي بينهم يتذبذب، رغم ذلك فإن ثمة خيط من الكلمات غير المنطوقة يشد أفواههم من فم لفم. ومن دون أدنى شك، فهكذا تتكلم الملائكة في السماء. كم من الوقت امتد صمتهم، كم من الساعات؟ وبدا لي أن الزمن قد توقف، وان الساعة الواحدة والقرن الواحد هما زمن واحد. وفكرت أن هكذا تكون الأبدية ثابتة وساكنة.

اقتربت النار من الانطفاء، وارتقت الشمس بارتفاع رمح عند الأفق. نهض بيرنارد وبيترو. انحنيا وقبلا ركبتي فرانسيس ثم يديه وكتفيه. وطفق فرانسيس يبكي ورافقاه في البكاء أيضاً. وتعانق الثلاثة وبقوا هكذا صامتين يطيلون عناقهم أطول وقت ممكن. ثم وببطء، ودون أن ينطقوا بكلمة واحدة انفصلوا. سار الراهبان نحو الباب وعبرا العتبة ثم اختفيا خلف الأشجار.

وحالما بقيت وحدي مع فرانسيس، جلست إلى جانبه. كان لساني يستحثني: كنت أريد الكلام تساءلت: "لماذا لم تتكلموا يا أخي

فرانسيس؟ فأنتم لم تروا بعضكم البعض منذ مدة طويلة، فمن الغريب أن لا أحد منكم لديه ما يقوله."

أجاب فرانسيس مندهشاً: "ولكننا تحدثنا يا أخي ليو. لقد تكلمنا. كنا طوال الوقت نتكلم. واخبرنا بعضنا بكل شيء، وحين لم يبق شيء نتكلم فيه، افترقنا".

"لم أسمع كلمة واحدة يا أخي فرانسيس."

ابتسم. بأي أذنين كنت تنصت؟ يجب أن لا تنصت بهاتين الأذنين الطينيتين، بل بالأذنين الناريتين، بهاتين فقط، يا أخي ليو، يجب أن نسمع ونرى ونتكلم"!

في الصباح الباكر من يوم الأحد جلب الأب سلفستر الرداء الذي خاطته أيدي الراهبات لفرانسيس من مجموع الرقع التي شحذنها من الفقراء، كل فقير أسهم بواحدة هدية منه لعريس الفاقة. عانق فرانسيس الرداء ووضعه عند صدره وقبّل الرقع الملطخة بالطين الواحدة بعد الأخرى، ثم بارك زوجته الفاقة المقدسة.

"كل من لا يتوق إلى الغنى فهو غني، كل من هو غني ولكنه يتوق إلى غنى أكثر فهو فقير. أنا والحمد لله، أغنى ملك على الأرض يا أخي ليو، ورداء الراهب هذا هو ردائي الملكي."

"تمتع به بصحة جيدة يا أخي فرانسيس. إنه هدية الزفاف أرسل إليك من زوجتك الفاقة."

ارتدى الرداء الجديد وراح يتبختر به مسروراً. كان ثمة رقع سود وزرق وخضر، رقع من كل لون حالما سار به فرانسيس انتفخ في النسيم، وصار يشبه طيراً غريباً مرقطاً قد استعار ريشه من كل إخوته الذين في مملكة الهواء.

قال لي: "أخي ليو، أتوق إلى رؤية الرهبان، أتوق أن يروني. ربما لا يزالون في الكنيسة، تعال لنذهب ونحضر الصلاة معهم."

كانت عيناه قد تحسنتا خلال الأيام القليلة الماضية، وصارت ركبتاه قويتين على نحو ما. فقادنا وهو يزيح الأغصان عن الطريق، وأنا أتبعه، بسعادة تامة. كنت أفكر أن فرانسيس يشبه الطفل ولهذا أحبه. وهو الآن ذاهب للأخوة ليريهم رداءه الجديد!

كانت السماء ترعد، وسقطت على شفتي قطرة مطر دافئة.

رفع فرانسيس رأسه، وحدق عالياً ومد يده وكأنه يتوسل إلى السماء أن تمنحه قطرة أخرى. وتساءل ملتفتاً نحوي: "ما هذا الفرح العظيم الذي أشعر به يا أخي ليو؟ يبدو أنني ارتديت فاقة العالم كلها، وكأنني قد رفعت فقراء العالم على كتفي ورحت أسير معهم. أين سأذهب؟ وأين سآخذهم؟ ليت الله يجعل ذلك إلى السماء!... أجل، إن الفاقة تناسبنا حقاً، يا أخي ليو إنها تناسبنا مثل شريط حريري أحمر في شعر فتاة حلوة صغيرة"!

وفجأة سمعنا صوت إلياس الراعد خلف الأشجار. كان يعظ بموعظة. توقف فرانسيس متردداً. وأراد العودة.

همس: "إن الأخ إلياس يتكلم. لقد انتهت الصلاة، لابد أنه يفسر في الإنجيل"!

فأجبت بحقد: "لابد أنه يفسر رسالة المسيح كي تناسب أغراضه." لم أكن أطيق هذا الأخ. وفي تفكيري سامحني يا إلهي، بدلاً من أن أناديه إلياس، ناديته يهوذا."

رمقني فرانسيس بنظرة حادة: "أخي ليو، للأرض سبع طبقات وكذلك للسماء، ورغم ذاك فالعالم صغير بالنسبة للرب. لكن قلب

الإنسان ليس صغيراً جداً فبأمكان الرب أن يدخل فيه. فاحذر، أن تجرح قلب الإنسان، يعني ذلك أنك تجرح الرب."

حالما قال ذلك، استمر سائراً باتجاه بورتيونكولا محني الرأس.

* * *

كانت الكنيسة الصغيرة تئز مثل خلية نحل. وكان إلياس يقف على مقعد في الوسط والعصا العالية في يده، كان يخاطب الإخوة الذين في كل مكان حوله. لم أعرف رجلاً عنيداً مثل هذا الإلياس، عنيفاً بشراهة، وقادراً على أن يظهر قوة كاملة من جسده بأكمله سوى السيد بيرناردون والد فرانسيس.

حين دخل فرانسيس، التفت العديد من الرهبان ولاحظوه ولكن أحداً منهم لم يتزحزح. وضحك قليل منهم حين رأوا الرداء. ورغم أن إلياس قد شاهد الزائر إلا أنه لم يحاول أن ينزل من مقعده ليرحب به. أما فرانسيس فقد تلمس طريقه بمحاذاة الجدار حتى وجد زاوية أقحم نفسه فيها. أحنى رأسه وراح يصغي. كان إلياس يتحدث عن اللائحة الجديدة التي سيتبعها الأخوة منذ الآن. وعلمت من الأب سلفستر فيما بعد أنه كان يعمل فيها ليلاً ونهاراً في الأسبوع الماضي. ذلك لأن اللائحة القديمة لم تعجبه. إذ عدها ساذجة جداً وضيقة جداً: إنها تقيده.

كان يصيح: "إن الوقت قد تغير. تغيرت الأزمنة، تغير الناس وكذلك شكل السماء والأرض. وقد أضحت الحقائق القديمة مزيفة، وإن الفضائل القديمة هي الشرائط الملفوفة التي كانت تحمي لائحتنا حين كانت مثل رضيع، أما الآن وبعد أن كبرنا فإن من الضروري أن

نفل هذه الشرائط كي يسمح لنا أن نتنفس بحرية. إن اللائحة الجديدة يا إخواني ستجلب لكم هذه الحقائق الجديدة والفضائل الجديدة."

ورفع عصا الراعي وطرد بها طائر السنونو ثم رمق فرانسيس بنظرة حادة.

صاح: "كل من لا يوافق دعه ينهض ويرحل. إن النظام هو أهم ما لدينا في فضائلنا الجديدة. ليس ثمة من مجال في أخوتنا لأكثر من رأي. لسنا غير عاديين، لكننا جنود جيش مستعد لأن يشن حرباً. إن هذه اللائحة هي قائدنا."

وحالما قال ذلك لف ورقة كبيرة مغطاة بالحروف الحمراء والسوداء.

"لقد وضحت كلاً من الأوامر الجديدة لكم وما سوف تعنيه الفاقة والحب والعفة والطاعة منذ هذه اللحظة. ارفعوا أيديكم واصرخوا: "نعم"!

رفع كل الإخوان أيديهم وصاحوا: "نعم! نعم!" جميعهم ما عدا فرانسيس وأنا، بقينا الوحيدين عاقدي الأذرع. واستأنف صوت إلياس الراعد الكلام مرة أخرى:

"سعيد هو الأخ، سعيدة هي الأخت، التي تخطو مع إيقاع الأزمنة. واحسرتاه عليه" ورمى بنظرة حادة أخرى على فرانسيس "واحسرتاه عليه ذلك إلي يتخلف إلى الوراء"!

التفت منتصراً للراهب المتواضع الذي كان يصغي بصمت جاثماً في زاويته.

"مرحباً بك يا أخي فرانسيس! لماذا تهز رأسك؟ ألا توافق؟ هل لديك أي اعتراض يهمك أن تصرح به؟"

أجـاب فرانـسيس وهـو يمـد ذراعـه إلى الأمـام: "يـا إخـوتي، ويـا أبنائي، أخي إلياس: سامحني، لدي اعـتراض واحد، اعـتراض صغير أود أن أقولـه. اليـوم ثمـة الكـثير مـن النـاس والكـثير جـداً ممـن يركضون وراء الثروة والسلطة والتعليم، أقول، مبارك هـو الإنـسان الذي يبقى فقيراً ومتواضعاً وأمياً!"

وأجـاب إليـاس بـضحكة احتقـار: "الآن جـاء دوري لأن أخـبرك بشيء، يـا أخـي فرانسيس. إن واجب الإنـسان الـذي هـو حـي حقـاً أن يتكيف مع الزمن الذي يعيش فيه."

ورد فرانسيس: "أن تعارض الزمن الذي تعيش فيه، هذا هو واجب الإنسان الحر! لقد أخذني الرب من يدي وقال لـي، "فرانـسيس سـر إلى الأمـام، قـد القطيـع الـذي عهـدت بـه إليـك، وخـذ هـذا الطريـق ولـسوف تجـدني." ... والطريـق الـذي هـو محـور الكـلام، يـا أخـي فرانسيس اسمه القتال."

ولكـن فرانـسيس هـز رأسـه بعنـف. ورفـض الاستـسلام، وخاطـب إلياس بصوت عال ويائس:

"أخـي إليـاس أخـشى أنـك تقـود الخـراف إلى طريـق الـضلالة. إن الطريق الذي تتكلم عنه ليس القتال، بل الغنى. ليس ثمة مـن طريـق واسع يقود إلى الله، ليس سوى الممرات الضيقة التي تقود إلى منزلـه، إلى الفردوس، يا أخي إلياس. إن الطريق الواسع هـو طريـق الـشيطان. إنني أرى الآن لماذا أرسلني الله إلى جمعكم هذا اليوم. إنه من أجل ان أصرخ: "قفوا! لا تبتعدوا أكثر يا إخوتي. عودوا! عودوا إلى الطريق القديم الضيق"!

وصرخ إلياس: "إن الشمس لا تعود إلى ماضيها يا أخي فرانسيس،

ولا يعـود النهـر إلى الـوراء، ولا تلتفـت الـروح، بـل تتبـع القـوة الـتي يتحكم بها الرب. لا تستمعوا إليه يا إخوتي. إننـا ننحني ونقبل يـديك يا أخي فرانسيس، ثم نتقدم إلى ما هو أبعد منك. وداعاً"!

وجـاءت الـصرخات مـن كـل مكـان: "وداعـاً يـا أخـي فرانـسيس وداعاً"!

رفع فرانسيس كمه ليمسح دموعه.

"أثمة شيء تود قوله يا أخي فرانسيس؟"

أجـاب فرانـسيس: "لا شـيء، لا شـيء." وانفجـر في نحيـب وعويـل وببطء وبصمت غاص في الأرض. وانحنيت لأساعده على أن يقف على قدميه.

وقال : "دعني يا أخي ليو. ألا ترى، لقد قضي الأمر"!

واحتشد عـدد مـن الرهبـان - سـاباتينو وجونيبر وسـكون وروفينو- حوله ليعبروا عن تعاطفهم، وكان بقية الحلفاء الأصلأء قد رحلوا مع الأب سلفستر ليتجنبوا سماع إلياس. كل أولئك الـذين بقـوا مخلـصين للائحة القديمة أصبحوا الآن متمردين.

جاء إلياس إلى فرانسيس ولف الورقـة أمـام عينيـه. ووقـف أنطونيـو الراهب الجديد الشاب، خلفه وهو يحمل الريشة والمحبرة.

قال وهو يميل نحوه: "هذا هو دستورنا الجديد. ضع إمضاءك عليـه يا أخي فرانسيس، لا تعارضنا. لقد ابتعـد مـن قبلـك عـدد مـن الإخـوة المتمردين. إن القطيعة بدأت تجـد طريقهـا في رهبنتنـا. فثبـت إمـضاءك كي نعيش جميعاً في انسجام"!

فأجابه فرانسيس بصوت لاهـث مـلأه إليـاس: "إن المـوتى لا إمـضاء لهم يا أخي إلياس."

ودفع الدستور الذي كان يلوح به إلياس أمام عينيه بعيداً. ثم قال له: "وداعاً"!

رفعته. وضعت ذراعي حول خصره، وقدته إلى الخارج وسرنا بمحاذاة الممر. ولكنه لم تعد له القوة الكافية كي يسير الآن، ورغم إسنادي له فقد ظلت ركبتاه لا تقويان على حمله فسقط. وتحتم علي أن احمله بين ذراعي. كان خفيفاً ليس غير رزمة أسمال. وحين وصلنا الكوخ وجدته في غيبوبة. وضعته على بساطه ورششته بالماء حتى أفاق أخيراً بعد وقت غير قليل. حدق بي ثم أغلق عينيه بحزن لا يمكن التعبير عنه ثم بدا لي أنه عاد إلى غيبوبته.

* * *

لأربعة أيام وليال لم يفتح فمه لا للكلام ولا للأكل. كان يتلاشى ويذوب مثل شمعة. وحين استيقظت في صباح اليوم الخامس نظرت إليه وشعرت بالرهبة. كان رأسه مثل جمجمة لا لحم يكسوها: كان خداه وشفتاه وصدغاه قد غاصوا عميقاً، ولم تعد كل من يديه سوى خمسة عظام. ناديته وأنا أضع شفتي في أذنه: "أخي فرانسيس، أخي فرانسيس!"

ولكنه لم يسمع.

فناديته ثانية: "عزيزي فرانسيس، يا أبتي"!

لكنه بقي ساكناً. حضنته بذراعي. كان رداؤه محض كيس فارغ، قدماه تخرجان من الأسفل مثل لوحين من الخشب. تركته وهرعت نحو بورتيونكولا.

صرخت: "النجدة. إن الأخ فرانسيس يحتضر. بحق حب الله عليكم: أنجدوني"!

رفع إلياس رأسه من الرق الذي كان يكتب فيه وتساءل: "تقول أنه يحتضر؟"

"إنه لم يأكل شيئاً لأربعة أيام بلياليها، ولا حتى كسرة خبز أو قدح ماء وهو اليوم لا يقوى على التنفس تعالوا جميعكم. لابد لنا أن ننقذه"!

وتساءل الياس وهو يضع الريشة: " وكيف لنا أن ننقذه؟ إن قرر الرب أن يأخذه فيجب أن لا نقف في طريقه ولا حتى نستطيع ذلك."

فصرخت يائساً: "بل تستطيعون، تستطيعون. إنه يتقدم نحو القبر بدأب، إنه يريد الموت يا أخي الياس لأنك كتبت لائحة جديدة تبتعد كثيراً عن المسلك الذي خطه هو أولاً. منذ ذلك الوقت والسكين انغرست في قلبه: إنه يريد أن يموت، وإن فعل ذلك يا أخي الياس أقولها أمامكم جميعاً - أيها الإخوة - ستكون أنت المسؤول عن ذلك."

فتساءل الياس ساخطاً: "حسن، ماذا تريد مني أن أفعل؟"

"تأخذ الدستور الذي كتبته وتذهب إلى فرانسيس وتمزقه أمام عينيه. هذا ما ينتظره، هذا ما يريده كي يعود إلى الحياة. إن لم تفعل ذلك، وأنا أقول هذا أمام جميع الإخوة أيضاً، إن لم تفعل ذلك يا أخي الياس، فأن أبانا فرانسيس سوف يموت، وستكون أنت قاتله"!

تجمع خمسة أو ستة من الإخوة حولي وشخصوا بنظرهم نحو الياس، ينتظرون. وحين شعرت أنهم إلى جانبي شجعني ذلك بأن أرفع صوتي أعلى من قبل.

صاح الياس وهو يضغط الورقة بقوة في كفه: " حسن، حسن، توقف عن الصراخ"! وارتدى خفيه وأخذ عصاه. وقال لي بنغمة اشمئزاز: "دعنا نذهب."

ثم التفت نحو الإخوة قائلاً: لا أريد لأحد أن يلمس مكتبي. احرسه يا أنطونيو."

وذهب نحو الراهب الشاب وكلمه بصوت منخفض كي لا يسمعه أحد. وكنت قادراً على سماع بعض الكلمات رغم ذلك، فقد همس له: "أخي الياس، ماذا تفعل! لن تمزق لائحتنا أليس كذلك؟" وابتسم الياس، وحدق فيه بحب.

"لا تقلق يا ولدي، إنني أعي ما أفعل."

وصلنا الكوخ. وحين انحنيا فوق البساط الذي كان فرانسيس مضطجعاً عليه ورفعنا رداءه، ارتعدنا من الخوف. إذ لم يكن بشراً ذاك الذي نراه أمامنا، بل خيط عظام تعلوه جمجمة. وقد تراجعت العينان في محجريهما. لم يبق شيء على الوجه سوى شاربيه، ولحيته وحاجبيه، مغطاة بالدم. شددت قلبي في عقدة ووضعت فمي على أذن فرانسيس وصحت: "أخي فرانسيس، لقد جاء الياس هل تسمع؟ لقد جاء ليمزق الدستور، اللائحة الجديدة. افتح عينيك، يا أخي فرانسيس افتح عينيك لترى"!

تحرك قليلاً ونطق بصرخة حادة قصيرة ولكنه أبقى عينيه مغمضتين. ثم انحنى عليه الأخ الياس.

"هذا أنا، يا أخي فرانسيس، أنا الياس. افتح عينيك. هل تسمعني؟ سوف أمزق الدستور من أجل أن أثلج قلبك"!

وأخيراً وبعد جهد كبير تمكن فرانسيس، أن يفتح عينيه. كانت أجفانه تبدو وكأنها قد خيطت لتكون مغلقة إلى الأبد. حدق في الياس دون أن يقول كلمة وانتظر.

أخرج الياس الورقة من تحت ردائه. فتحها وراح يمزقها إلى قطع

صغيرة. وتوردت وجنتا فرانسيس وشفتاه قليلاً عند ذاك.

قال: "ارم القطع في النار يا أخي ليو."

والتفت إلى الياس: "أخي الياس. أعطني يدك."

وأخذ يد الياس وامسك بها لبضع دقائق في يده. ثم انفجر باكياً.

وناداني بعد ذلك "أخي ليو، إن كان هناك أي حليب أعطني بعضاً منه لأشربه."

* * *

وعّاد فرانسيس إلى الحياة ببطء وبصعوبة كبيرة. كانت حيويته تزداد كل يوم. وبدأ بفتح فمه ليأكل وليحرك شفتيه ليتكلم، وكان يجرجر نفسه نحو عتبة الكوخ كي يشمس نفسه، وفي الجو العاصف كان يجثم قرب الموقد ويصغي بجذل لانصباب الماء وكأنه لم يسمع المطر من قبل. كأنه كان قد غدا قاحلاً تماماً، ولاح الجفاف جسده، وهو الآن يحس أن سقوط المطر جاء ليروي ليس جسده فحسب، لابل روحه أيضاً.

قال لي في أحد الأيام: " أخي ليو، إن التربة وروح الإنسان هما شيئان متشابهان تماماً. كلاهما يعطش، وكلاهما ينتظر ان تتفتح السماء لتطفىء الظمأ."

وفي يوم ما وصل الأخ المحبب لدى فرانسيس بعد أن عاد من التجول في القرى البعيدة. وقع فرانسيس بين ذراعيه وقبله مرة وأخرى. لقد أحبه بإفراط لأنه كما قال يبقي عينيه مشدودتين نحو السماء. وركع الزائر على الأرض وسرد ضاحكاً كل ما رآه وكل ما حدث له حين كان يمشي من مدينة لأخرى. كان بعض الفلاحين يعدونه مجنوناً، وكانوا يحيونه ساخرين، والبعض منهم كانوا

يحسبونه قديساً، فيجثمون عند قدميه، وكان يصرخ: "لست مجنوناً ولا قديساً، بل مذنباً. لقد دلني الأب فرانسيس على الطريق نحو الخلاص، لذلك رميت خفي وسرت حافياً."

وحكى لنا جيلز: "كنت حين أدخل كل قرية أحمل سلة مملوءة بالتين والجوز، أو على الأقل زهوراً برية إن لم أجد شيئاً. ثم أصيح بالناس " كل من يصفعني مرة سأعطيه حبة تين، وكل من يصفعني مرتين سأعطيه حبتين." وتهرع القرية بأكلمها لصفعي، أو لكمي حتى أكاد أموت. وحين تفرغ السلة كنت أذهب جاهداً كي أملأها، ثم أعيد الكرة في قرية أخرى"!

قال فرانسيس: " أخي جيلز، أحبك! لك بركاتي."

"وصادفت أيضاً القديس بونا فينتورا يا أخي فرانسيس. كان قد اتخذ طريقاً آخر: إنه يؤمن أن التعليم يساعد في الخلاص. لذلك ذهبت إليه وسألته "يا أبتي، هل يمكن أن ينقذ المتعلم والأمي؟"

فأجاب: "بالتأكيد يا أخي."

"وهل أن الأميين والمتعلمين متساوون في حب الله؟" ... ماذا تظن كان جوابه؟ اسمع يا أخي فرانسيس، إن ذلك سوف يدفىء قلبك فقد قال: "إن عجوزاً شمطاء أمية جاهلة هي أكثر قدرة على حب الله من أي لا هوتي متعلم"..... وفي هذه اللحظة التي سمعت فيها هذه الكلمات يا أخي فرانسيس رحت أجري عبر الشوارع أصرخ مثل منبه المدينة "اسمعوا ما يقوله المتعلم بونا فينتورا إن عجوزاً شمطاء أكثر قدرة على حب الله من المتعلم بونا فينتورا"!

وكرر فرانسيس مبتسماً بقناعة: " بوركت يا أخي جيلز. لو ان أي أحد فتح قلبك، فلسوف يجد اللائحة الحقيقية مكتوبة عليه

بحروف كبيرة حمراء وكلها بالحجم الكبير."

كان رفاقه القدماء يأتون لزيارته من حين لآخر بهذه الطريقة وكان بذلك يشعر بالراحة، ذلك لأن حبهم ينعشه أكثر من الخبز والحليب. في مناسبة أخرى ظهر الأخ ماسيو يحمل حزمة من القمح الجميل الناضج الذي كان يزمع أن يلفحها بالنار ويعطيها لفرانسيس ليأكلها.

وسأله فرانسيس شاعراً بالضيق: "أين وجدت سنابل القمح هذه يا أخي ماسيو؟ إنني أعرف أنك لن تقترف شيئاً سيئاً من أجل أن تفعل خيراً. إنني أتساءل لمن كان ذلك الحقل الذي قطعت منه هذه السنابل لي."

ضحك ماسيو وقال: "لا تكن نكداً يا أخي فرانسيس فأنا لم أسرقها. وأنا في طريقي إلى هنا قابلت فلاحة محملة بسنابل القمح، وسألتني: "إلى أين أنت ذاهب أيها الراهب؟ هل أنت واحد منهم؟"

وسألتها: " ماذا تقصدين؟"

"أقصد هل أنت من أتباع الفقير اللطيف الصغير؟"

"لقد ضربت المسمار على رأسه يا سيدتي. كيف عرفت؟"

"لأن رداءك فيه آلاف الثقوب وتسير حافياً ولا تكف عن الضحك، وكأن شخصاً ما يداعبك."

وأجبتها: "إن الرب يداعبني. ولهذا أضحك... لماذا لا تقتربين أنت من الله وسوف تضحكين أيضاً."

فأجابت: "لا وقت عندي. لدي زوج وأطفال، ولا يمكنني أن أسير حافية على الصخور، لذلك أرجو أن تتركني وحدي. ولكن ثمة شيء أريدك أن تقوم به من أجلي." وأنزلت حملها من ظهرها ثم سحبت حزمة سنابل وسلمتها لي.

واستمرت قائلة: "لقد سمعت أنه جائع. وأنا فقيرة، أعطه هذه القمح وبلغه تحيات الفاقة."

ضغط فرانسيس السنابل إلى صدره: "إن خبز التسول هذا هو الخبز الحقيقي للملائكة يا أخي ماسيو. لذلك أدعو الله أن يدخل الفلاحات الفردوس متوجات بسنابل القمح"!

وذهب ماسيو نحو النار يشيط السنابل، ثم يمسحها ليجمع البذور.

قال: " لدي شيء آخر أود أقوله لك أيضاً يا أخي فرانسيس. ويجب أن لا تسيء فهمه، رغم كل شيء. هل أتكلم؟"

"تكلم بحرية يا أخي ماسيو."

"لكنني أعتقد أنني فعلت شيئاً أحمق مجنوناً. ولسوف يغضبك."

"إن الجنون يا أخي هو الملح الذي يمنع فساد الخلق الطيب. لا تنس أنني أنا نفسي كنت أجوب الشوارع صارخاً "اسمعوا ! اسمعوا الجنون الجديد".

"في أي مكان أذهب إليه يا أخي فرانسيس، أجد اسمك على شفاه الجميع. الكثير من الناس يزمع السفر إلى هنا على قدميه ليتمكن من تقبيل يدك. سألني كونت متعجرف في أحد الأيام " كيف يكون هذا ممكناً؟ لقد رأيت فرانسيس الشهير هذا. إنه غير متعلم ولا يحمل سيفاً، ولا هو من سلالة عريقة. وفوق هذا فهو ضئيل الجسد، سقيم وله وجه قبيح مغطى بالشعر. فكيف يرغب الناس في رؤيته؟ إنني لا أفهم هذا"!

وتساءل فرانسيس وهو يضحك ضحكة خافتة: "وماذا كان جوابك؟"

"من هنا بدأ الجنون يا أخي فرانسيس. قلت للكونت: "أتعرف لماذا

يريد الجميع رؤيته؟ لأنه يفوح برائحة كما هي رائحة حيوانات الغابة؛ رائحة غريبة تجعلك تدوخ حين تشمها." فسألني الكونت: "وما هذه الرائحة؟"

فأجبت: "رائحة القداسة." ... هل تحدثت جيداً يا أخي فرانسيس؟"

أجاب فرانسيس صائحاً: "كلا، كلا، لا تقل ذلك مرة أخرى يا أخي ماسيو. هل تريد أن تقذفني في الجحيم؟"

"وماذا عليّ أن أقول؟ الجميع يسألونني."

"ما عليك أن تقوله هو هذا: "هل تريدون ان تعلموا لماذا يركض الجميع خلفه، ولماذا تريد عين أن تراه؟ لأن هذه العيون لم تر ولن ترى في العالم كله رجلاً بهذه القباحة، ومحملاً بهذا القدر من الخطايا ولا قيمة له. ولهذا اختاره الله، من أجل ان يشعر الذين يملكون الجمال والحكمة والسلالة النبيلة بالخجل!" هذا ما عليك أن تقوله لهم يا أخي ماسيو، إن رغبت في أن أمنحك بركتي."

حك ماسيو رأسه ونظر إلي من زاوية عينه وكأنه كان يريد أن يسأل: "هل يفترض بي أن أقولها أم لا؟"

ونصحته: "أخبرهم بما هو على طرف لسانك وتوقف عن حك رأسك."

"أوه، نعم، ثمة شيء آخر أردت أن أذكره لك يا أخي فرانسيس، شيء واحد فقط وسوف أذهب. أنا حقاً أشم رائحة من حولك، رائحة تشبه المسك، أو شذا الورد لا أعلم أيا منهما وبإمكاني أن أشمها على بعد ميل. هكذا وجدتك الآن في هذا الكوخ من خلال رائحتك.

* * *

بعد فترة طويلة كنا نستعد لمغادرة جوار بورتيونكولا. كان

فرانسيس قد تعب من مصارعه الرجال وكان يتوق إلى أن يدفن نفسه ثانية في كهف جبل حيث يتمكن من مكالمة الرب في وحدة تامة.

كان دائماً ما يقول لي: "لقد خلقت لأعيش في عزلة مثل حيوان بري. ومن أجل هذا الأمر بالضبط أمرني الرب أن آتي لأعظ البشر. يا إلهي الطيب، ماذا عساي ان أقول لهم، يعلم الله أنني لا أجيد الكلام. لقد ولدت كي أغني وأبكي."

ظهر الأب سلفستر عند باب كوخنا قبل أيام من رحيلنا ، ومعه خمسة من إخوتنا المخلصين القدماء: بيرنارد وبيترو وساباتينو وروفينو وسكون. وأهدى فلاح عجوز قد حمل حماره بالعنب وهو في طريقه إلى صقلية ليبيعه، عنقود عنب إلى فرانسيس الذي أخذه بيديه وراح ينظر فيه مندهشاً ومنتشياً وكأنه لم ير عنباً من قبل.

وقال متعجباً: "أية أعجوبة هذه يا أخي ليو! هل هذا معقول؟ أليس الناس مصابين بالعمى حتى لا يروا الأعاجيب التي أمامهم كل يوم! عنقود عنب: أي غموض عظيم هذا! أنت تأكله وتشعر بالانتعاش. تعصره فيعطيك نبيذاً. تشرب النبيذ فتفقد عقلك في الحال. أحياناً يتمدد الرب فيك فتفتح ذراعيك وتعانق البشر جميعاً وأحياناً تطير في هياج، وتسحب سكينك وتقتل"!

في تلك اللحظة ظهر الأب سلفستر والإخوة الآخرون عند المدخل. انحنوا جميعاً وقبلوا يد فرانسيس.

قال الأب سلفستر: "جئنا كي ننال بركاتك. نحن ذاهبون لنعظ بكلمة المسيح كما علمتنا إياها."

"وأين، بمشيئة الله، تفكرون في الذهاب؟"

"حيثما قادنا الطريق يا أخي فرانسيس. أينما يقودنا الرب. فالأرض كلها ميدان المسيح أليس كذلك؟ سوف نخرج لنبذر."

وضع فرانسيس يده على رأس كل واحد منهم. وقال: " اذهبوا يا إخوتي. ولتحل عليكم بركاتي. عظوا الناس باستعمال الكلمة إن استطعتم. ولكن الأهم من هذا أن تعظوا بسيرة حياتكم وأعمالكم. فما هو ذلك الشيء الذي يعلو على الكلمة؟ إنه العمل. وما هو ذلك الذي يعلو على العمل؟ إنه الصمت. ارتقوا يا إخوتي السلم الكامل الذي يقود إلى الرب. عظوا بالكلمات وبالعمل وبعد ذلك، حين تكونون وحيدين، ادخلوا الصمت المقدس الذي يغلف الرب."

وسكت وهو ينظر بحب إلى كل واحد منهم لوقت طويل. كان يبدو عليهم أنهم ذاهبون إلى الحرب ولم يعرف هو فيما إذا كان سيراهم بعد ذلك أم لا.

قال متحسراً: "إن قلوب الناس قاسية لكأنها صخور. لكن الله معكم فلا تخافوا. كل مرة تضطهدون فيها سوف تقولون: "جئنا إلى هذا العالم لكي نعاني وكي نقتل ونهزم!" فما الذي تخشونه؟ لا شيء. ومن ذا الذي تخشونه؟ لا أحد. لماذا ذلك لأن أي أحد يصف قواه مع الرب يحصل على ثلاث ميزات عظيمة: كلية القدرة من دونما قوة، الخدر من دونما نبيذ، والحياة من دونما موت."

وقف الإخوة دون حراك ونظروا إليه. كانوا يقولون له الوداع دون أن يفتحوا أفواههم.

واستمر فرانسيس: "إنني راحل أيضاً يا إخوتي. أنا ذاهب لأعظ بالخلاص للصخور، والزهور البرية والزعتر الجبلي. إن يوم الحساب لقريب يا إخوتي، وعلينا أن نتعجل. فحين يصل لابد له أن يجد كل

الناس والحيوانات والطيور والنباتات والصخور مستعدة، كل شيء ترونه حولكم - الأرض بكاملها - لابد أن تكون مستعدة، جاهزة للارتقاء إلى السماء. وماهي السماء يا إخوتي، إن لم تكن هي الأرض بكاملها، هي نفسها التي نراها من حولنا ولكنها طاهرة!

قال بيرنارد: "إذن حمداً لله أن رهبنتنا تتخذ الطريق المستقيم والضيق. طريقك يا أخي فرانسيس."

أما السيد بيترو فقد ركع ولمس ركبتي فرانسيس: "ثمة سؤال يعذبني منذ وقت طويل يا أخي فرانسيس ولا أريد أن نفترق قبل أن تجيبني مباشرة من شفتيك. كم ستستمر يا أخي فرانسيس رهبنتنا على هذا الطريق المستقيم الضيق؟"

أجاب فرانسيس: "مادام الرهبان يسيرون بأقدام عارية." ثم صمت، كما صمتنا جميعاً.

قال الأب سلفستر: "الشمس فوق الأفق بكامل امتدادها." ثم نهض ونهض الآخرون معه. "أنت على حق يا أخي فرانسيس: يجب أن نسرع... وداعا"!

فأجاب فرانسيس: "ليكن الله معكم!" ورسم إشارة الصليب في الهواء فوق رؤوسهم.

بعد أن ودع الإخوة، انحنى فرانسيس وقبل عتبه باب بورتيونكولا، ثم حدق فيما حوله ببصره الضعيف واستأذن الطيور والأشجار والأشواك والرائحة والزعتر والأعشاب البرية المنتشرة على الأرض والنباتات المتواضعة التي كانت تزهر كل سنة حول أمنا العجوز، بورتيونكولا.

قال فرانسيس وهو يرسم الصليب: "باسم الله، يا أخي ليو." وانطلقنا في رحلتنا.

تساءلت: "هل لديك أية فكرة إلى أين نحن ذاهبون؟"

"هل هذا ضروري؟ الله يعرف، وهذا كاف. ألم تر رقيب الشمس، ذلك النبات الأصفر المشع الذي يشبه الشمس؟ إنه يحدق في الأخ الشمس تماماً في عينه ويدير وجهه ليتتبع رحلته. دعنا نفعل مثله، يا أخي ليو: دعنا نثبت عيوننا على الرب."

كان الصيف يقارب على نهايته، وكانت الأرض مستلقية في راحة، مثل امرأة بعد الولادة. كانت الحقول قد حصدت، والكروم قد قطفت، أما الثمار الخضراء الداكنة التي مازالت صغيرة فقد التمعت بين أوراق أشجار البرتقال. كانت السنونوات بانتظار الكراكي لتأتي وتأخذها بعيداً على أجنحتها. وكانت طبقة خفيفة من الغيوم الرقيقة تغطي السماء. بدأ المطر يقترب من الجبال، وفاحت رائحة التربة.

تنفس فرانسيس بعمق. لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيت وجهه مسترخياً. ونحن نتسلق إلى أعلى الهضبة اتكأنا قليلاً على جدار

متداع لبرج قديم. نظرت إلى السهل الذي في الأسفل. أية سكينة كانت، وأي جمال! كنت أشعر كأن التربة قد أنجزت وظيفتها وهي تستريح الآن بقناعة تامة.

قال فرانسيس وهو يلتفت إليّ: "إنها تذكرني بأيقونة مقدسة رأيتها مرة في رافينا. جزء من الغنائم التي جلبها الصليبيون معهم من الأناضول. كانوا قد انطلقوا لإنقاذ القبر المقدس، ولكنهم حالما اكتشفوا القسطنطينية وانصعقوا بغناها وجمالها نسوا المسيح وهجموا على المدينة. لقد حرقوها، وقتلوا سكانها ونهبوا ثروتها، ثم عادوا إلى بلادهم بما سلبوه. وهذه الأيقونة المذهلة، تمثل مريم العذراء المقدسة، وقد جلبت إلى رافينا. وأية أعجوبة هذه يا أخي ليو! أم الرب وهي مستلقية على فراشها معقودة الذراعين، ووجهها بأكمله يبتسم باطمئنان وعلى رأسها خمار ارجواني ويداها العجوزان قد تخددتا من العمل المنزلي، ووجنتاها ذابلتان، وقدماها قد أتلفتهما الصخور والأشواك التي في الأرض. ورغم ذاك فبإمكانك أن تلاحظ ابتسامة الفرح الداخلي الخفية تتدفق من فمها وتصب على حنكها وصدغها وجفنيها. لقد قامت بواجبها وهي الآن في سكينتها. أي واجب؟ إنها تلك التي أنجبت منقذ العالم. والآن وأنا أحدق في هذا السهل المثمر المستكين، يا أخي ليو، أقول لنفسي: تنام الأرض العذراء بذات الطريقة في الخريف."

سافرنا لعدة أيام وأسابيع. أين كنا ذاهبين؟ حيثما قرر الرب، لأن فرانسيس رفض أن يقرر الوقت والمكان: مثل رقيب الشمس، فقد كان مطمئنا أنه يتبع وجه الرب.

وظل يقول لي: "أية سعادة هذه، أية نعمة أن لا تكون لديك أية

رغبة، ولا تقول "أنا" بل تنسى من أنت، وما هو اسمك، وأن تمنح نفسك بسلام لهبات ريح الله! تلك هي الحرية الحقة! إن سألك احد ما من هو الحر يا أخي ليو، ماذا ستجيب؟ الإنسان الذي هو عبد الرب! وكل حرية أخرى هي محض قيد."

في يوم ما توقفنا في قرية صغيرة. طرق فرانسيس الجرس وتجمع رجال ونساء القرية ليسمعوه لقد كانوا يعلمون من هو هذا الغريب الحافي، لأن أخبار معجزاته وحبه للسيدة النبيلة "الفاقة" قد وصلت إلى البعيد. وكانوا هم أيضاً فقراء، وهم أيضاً - ومن دون أن يقصدوا ذلك - من أتباعه.

وقف فرانسيس على صخرة وقال: "ليس ثمة حاجة لأن أعظكم يا إخوتي، ولا حاجة لأن أريكم الطريق الذي يقود إلى الفردوس؟ فلقد اتخذتم من قبل هذا الطريق، لأنكم فقراء ومتواضعون وأميون وتعملون بجد، كما يريدكم الله أن تكونوا."

وصمت. وتجمعت الكثير من السنونوات القلقة حوله وحطت على كل السقوف التي فوق البرج المتهدم. لابد أنهم كانوا يستعدون للرحيل وهم بانتظار الريح المناسبة. وبدأ فرانسيس يتكلم ثانية لكن السنونوات بدأت تتنقل بسرعة وهبط سرب كامل منها في لحظة واحدة عليه وغطت على صوته برفرفتها.

وصاح وهو يجاهد ليظهر صوته من بين أصوات الطيور التي تحيطه والتي فوق رأسه: "يا إخوتي إن حياتنا على الأرض حلم خادع. الحياة الحقيقية، التي هي أبدية، تنتظرنا في السماء. لا تهتموا بالتربة التي تحت أقدامكم، بل اشخصوا بأنظاركم عالياً، يا إخوتي، وافتحوا القفص التي تقذف فيه الروح نفسها، حيث تغطي منقارها بالدم وطيروا بعيداً!

كان فرانسيس قد بح صوته، ورغم ذلك لم يكن في نية السنونوات أن تتركه! بل على العكس تجمعت حوله أسراب جديدة وراحت تحيطه وتغطيه وتحدق فيه رافضة الابتعاد. حتى التفت إليها أخيراً. وصار صوته عذباً ومبتهلاً:

"إخوتي الصغار السنونوات، أرجوكم، دعوني آخذ دوري في الكلام! أنتم يا من تجلبون الربيع إلى العالم. آه يا كادحي الرب اللطفاء الصغار، اطووا أجنحتكم للحظة، وتجمعوا على حافات السقوف بهدوء وأنصتوا. إننا هنا نتكلم عن الرب خالق السنونوات والبشر، عن أبينا الشامل إن كنتم تحبونه، إن كنتم تحبونني، أنا أخوكم، فاهدأوا إذن! أرى أنكم تستعدون لرحلتكم الطويلة إلى أفريقيا ليكن الله معكم! ولكن قبل أن تبدأوا رحلتكم من المناسب أن تنصتوا إلى كلمة الرب."

وحالما سمع السنونوات كلامه طووا أجنحتهم وسكنوا بصمت حول فرانسيس. حط البعض منهم على كتفه، ووجه الجميع أبصارهم الصغيرة نحو الناطق باسم الرب وبقوا ساكنين، ما عدا أن فرحهم الغامر قد جعلهم يرفرفون بأجنحتهم من حين لآخر، وكأنهم كانوا يتوقون للاندفاع قبل ساعة من وقتهم المحدد. وعند رؤية تلك المعجزة جثم الفلاحون، من رجال ونساء، عند قدمي فرانسيس. صرخت النساء: "خذنا معك. لا فائدة نرجوها بعد الآن من بيوتنا أو أزواجنا؟ نريد مملكة السماء! سوف نرمي بخفافنا، ونرتدي رداء الرهبنة، ونتبعك حتى الموت"!

كان الرجال يقبلون أقدام فرانسيس ويلطمون صدورهم صارخين: "لم نعد بحاجة إلى زوجاتنا ولا حقولنا، نحن أيضاً نريد

مملكة السماء. خذنا يا أخانا فرانسيس، خذنا معك"!

كان فرانسيس قد صعقه الرعب. ما الذي سوف يفعله معهم وأين سيأخذهم؟ ما الذي سيحصل لسكان العالم لو أصبح الناس كلهم إما رهباناً أو راهبات؟

فصاح بهم: "انتظروا يا إخوتي لقد أسأتم فهمي، ليس ثمة طريق واحد فقط يؤدي إلى السماء. إن الراهب دون زوجة وخبز وبيت أو موقد يتخذ طريقاً، والمؤمن البسيط النقي يتخذ طريقاً آخر. إنه يتزوج ويكون له أطفال ويتكفل باستمرارية البشرية. ليس صحيحاً، وليس ذلك من مشيئة الله، أن تبقى الأرض غير محروثة ولا تنثرون فيها البذور، وأن تبقى النساء لا يلدن الأطفال. من أجلكم أنتم، أنتم يا من تعيشون في العالم، خلق الله الأحاديث العذبة والخبز والمواقد والتعايش النزيه.

أقسم لكم أنكم باستمراركم على الطريقة التي تعيشون بها الآن، ستكونون قادرين على أن تصلوا إلى أبواب السماء"!

وغضب الكثير من الفلاحين.

"في البداية أشعلت لنا النار وتحاول الآن جاهداً أن تطفئها. إما أن يكون ما قلته لنا أولاً هو الصحيح وأننا يجب أن نتخلى عن هذا العالم إن أردنا الخلاص أو لا يكون صحيحاً. وإن هذه هي الحال، يا صديقنا، فاتركنا بسلام واذهب إلى مكان آخر"!

وصرخت به النساء اللائي كان غضبهن أكثر من أزواجهن: "إن ما فعلته ليس نزيهاً. ليس نزيهاً أيها الراهب! وسواء رغبت أم لا فإننا سنأتي معك! فالنساء يدخلن السماء كما الرجال، أليس كذلك؟ إذ كيف دخلت العذراء المقدسة؟ حسن، لن تبقينا في الخارج"!

صفق فرانسيس يديه شاعراً باليأس. وتوسل إليهم: "انتظروا،

انتظـروا سـوف أعـود. أولاً وزعـوا ممتلكـاتكم علـى الفقـراء: الأزواج يتقيدون بالعفة، ولا تلعنوا أحداً، ولا تغضبوا، واركعوا ثلاث مرات في اليوم كي تصلوا معاً. ثمة استحضارات طويلة مطلوبة يا أبنائي. جهزوا أنفسكم؟ ولسوف آتي"!

واستمر يصيح وهو يبتعد عن القرية بخطى واسعة: "سوف أعود، سوف أعود." وركضت خلفه. وخلفي دزينة أو أكثر من النساء وقد بدأن من قبل بصب اللعنات:

"محتال! كاذب! متطفل! دجال"!

وبدأت تتطاير أولى الأحجار، لكننا نجحنا هذه المرة في الابتعاد عن القرية. وحين ابتعدنا عن الأنظار توقفنا لنسترد قوانا.

وتجرأت لأقول: "أظن أننا قد أخطأنا يا أخي فرانسيس، كان يجب أن تطلبَ من كل شخص ما يستطيعه. وكل شيء بعد ذلك هو إغواء."

جلس فرانسيس على صخرة. كان مستغرقاً في التفكير، ولم يجبني. كنت أعرف أنه يعصر عقله، لأنني رأيت أوردته تنتفخ عند صدغيه وعند جبهته.

فجلست أمامه وانتظرت. كانت القرية قد منحتنا بضع قطع من الخبز القديم وبعض الزيتون وعنقودين من العنب. كنت أتضور جوعاً.

ناشدته: "صل وتعال لتأكل يا أخي فرانسيس. ألست جائعاً؟"

ولكنه كان غارقاً في التأمل ولم يسمعني.

قال بعد صمت طويل: " أخي ليو، إنني أشفق على القرية التي لا يكون فيها قديس، ولكنني أشفق أيضاً على القرية التي كلها قديسون"!

كنت قد بدأت حينذاك آكل منفرداً ورحت أفكر في الوقت

نفسه بكل ما رأيته وسمعته في القرية. لأن المغوي قد دخل فيّ. لأنني سرعان ما بدأت أكلم نفسي بقلق واشمئزاز. رحت أفكر، مادمت تقول أنت بنفسك يا أخي فرانسيس أنه من الممكن أن نجد الله باتخاذ الطريق السهل المستوي، فلماذا نرهق بالتسلق وكل عذاباته؟ فالإنسان المتزوج الذي لديه أطفال وبيت وحقول وطعام وفير: هل يمكن أن يجد الله؟ أنت تقول نعم. إذن دعنا نتزوج، ونبني بيتاً كالآخرين، ونعيش كالناس. لدينا غرض واحد فقط: أن نصل إلى الله. لماذا لا نصل إليه أقوياء معافين بدلاً من الوهن والعجز؟ أخي فرانسيس، كيف سنقابل الرب في الغد وأنت في حالتك الفظيعة هذه؟ هل تتذكر ما الذي قاله لك البابا؟ "أية رائحة نتنة! من أية زريبة للخنازير أتيت؟" حسن وسيقول لك الرب كذلك!... هكذا كلمت نفسي وأنا ألتهم اللقم الكبيرة بانتظام أنهيت عنقود العنب الأول، ثم التهمت جزءاً كبيراً من الثاني. أقسم أنني لولا حضور فرانسيس - لكم كان هذا محرجاً لي! - لكنت قد عدت مباشرة إلى القرية في الحال. فقد كنت قد رأيت فتاة ألهبت خيالي. ولست بحاجة حينذاك لأقول أنني سأكون زوجاً يخشى الله وكنت سأركع لأصلي ثلاث مرات في اليوم بل ثلاثين مرة! ولكنني في الوقت نفسه كنت سأخطو نحو الرب خطوة معقولة عند وقت الفراغ، وخلفي سأجلب معي زوجتي وأطفالي كي ندخل الفردوس معاً"!

غير فرانسيس موقعه. ورفع عينيه ورأيته ينكمش. فشعرت أنني اقترفت ذنباً.

لكن فرانسيس ابتسم لي. قال: "أنت محق يا أخي ليو. إن حياة الراهب صعبة. وليس الناس قادرين عليها، وليس ذلك مفروضاً

عليهم، لأنهم إن فعلوا ذلك فلسوف يتحطم العالم! انصت كيف أن الرب قد نورني بينما كنت جالساً على هذه الصخرة المباركة. سوف ننظم نظاماً آخر إلى جانب نظامنا القاسي. وهذا النظام الجديد سيكون أكثر شفافية وفيه جاذبية حتى أن ليس ثمة من هو مسيحي مؤمن يختار العيش في العالم يمكن أن يمتنع عنه. وسيتمكن الإخوة في هذا النظام الطيع من الزواج ، وسيعملون في ميادينهم، يأكلون ويشربون باعتدال وليس عليهم أن يمشوا حفاة أو يرتدوا رداء الرهبان، ولكنهم سيكونون مطالبين ببساطة أن يعيشوا حياة فاضلة، يعاملون أعداءهم بحب، يتصدقون على الفقراء، ويرفعون أنظارهم دوماً من الأرض نحو السماء... ماذا تقول، يا أخي ليو؟هل تفكيرنا واحد؟"

كنت أريد أن أقول له لماذا لا ننظم نحن في هذا النظام، لكنني شعرت بالخجل والخوف أيضاً. وأجبت: "إنها فكرة جيدة جداً." فما عساي أن أقول بعد الخسارة.

ماذا يمكنني أن أقول؟ لقد رتبت فراشي، والآن علي أن أنام عليه. كنت أبحث عن الرب قبل أن أقابل فرانسيس، ولكن ذلك لم يبعد عني التمتع بالطعام. ولكن منذ أن رافقت فرانسيس لم أعد أقلق بشأن البحث عن الله: فأنا ببساطة أتتبع خطا فرانسيس، متيقناً أنه كان يعرف الطريق تماماً. ولكن مشكلة الطعام والنبيذ وكل الطيبات استمرت في تعذيبي أجل رغم أنني أخجل من الاعتراف بذلك فأنا فعلاً أعاني من مشكلة النساء.

سألني وهو يراني مستغرقاً في التفكير: "ماذا يدور في ذهنك يا أخي؟"

أجبته وأنا أجاهد كي أغير الموضوع: "كنت أفكر في الله."

"هل تتذكر السنوات التي كنت تبحث فيها عنه في كل الأرض؟ ولم تجده أبداً يا أخي ليو، لسبب بسيط لأنه كان في قلبك. كنت مثل ذلك الشخص الذي يبحث في كل مكان عن خاتمه الذهبي، يبحث عنه في كل مكان ليلاً ونهاراً ولم يجده لأنه يضعه في إصبعه.

* * *

في إحدى الأماسي وعند الغسق وصلنا إلى مونتفلترو الشهيرة. كانت الكثير من الأعلام الملونة ترفرف على قمم الأبراج، وتعزف الأبواق من الكوى التي في محيطه. كانت الرسوم الثمينة معلقة عند نوافذ القلعة، كان المدخل الكبير المحصن قد زين بالآس والغار. كان اللوردات النبلاء والسيدات يمرون من فوق الجسر المتحرك، ويهرع الخدم الوسيمون في مساعدة السيدات لأن يترجلن أمام الأبواب. في الخلف، بمحاذاة الطريق الشاهق والشديد الانحدار الذي يرتفع من السهل الذي تحته، ثمة سيدات يرتدين الجواهر المدهشة، وثمة أيضاً لوردات يرتدون الدروع الذهبية. خدم من الصبيان والفتيات يرتدون بزات جديدة ذات مربعات يتحركون مسرعين وهم يحملون صواني فضية محملة بالمشروبات والأطعمة الطيبة.

تنهدت وأنا أشعر بالدوار من الثراء والجمال وقلت: "لابد أن تكون الفردوس هكذا تماماً."

أجاب فرانسيس:"بل أكثر ببساطة يا أخي... لابد أنهم يقيمون احتفالاً."

واستمر في كلامه وهو يحدق باللوردات، والسيدات والأعلام: "دعنا نذهب للاحتفال معهم، فما رأيك يا أخي ليو؟"

"بكل سرور يا أخي فرانسيس. فما الذي أريده أكثر من ذلك؟"

تقدم فرانسيس فوق الجسر هادئاً ومتيقناً وكأنه كان مدعواً: أما أنا فقد شعرت بالحرج. "ولكننا لسنا مدعوين يا أخي فرانسيس ولسوف يطردوننا."

"لا تخف يا حمل الله. إن هذا الاحتفال يقام للاحتفاء بنا ألم تدرك ذلك بعد؟ لقد أقيم ليمكننا من الدخول إلى هذه القلعة العنجهية ونبدأ في صيد السمك."

فتساءلت مندهشاً: "نصطاد السمك؟ ولكنني لا أرى أية بحيرة هنا ولا نهراً أو محيطاً. ليس سوى الصخور"!

ضحك فرانسيس: "يبدو أنك نسيت أننا صيادو سمك، أليس كذلك؟ ولكننا بدل صيد السمك نصيد الأرواح. إن طرق الله كثيرة. ربما من يدري؟ ثمة روح هنا تختنق في ثيابها الحريرية وجسدها الجميل، روح تريد الفرار والخلاص. ربما من أجل تلك الروح الثمينة ألهم الله اللورد النبيل في أن يقيم هذا الاحتفال: ليغرينا في الدخول وهو الذي كما ترى، ما نقوم به فعلا"!

بهذه الكلمات سار فوق العتبة واجتاز البوابات المسورة بالموانع.

كان الفناء الكبير ممتلئاً بالخيول. وكانت النيران موقدة في المطابخ. كان اللحم يغلي في القدور الكبيرة أو يئز من القلي، ينبسط على حاملات النار والرائحة تملأ الهواء. وراح البخار يخرج من منخري، وصرت أجد القليل من الحماس للتقدم أكثر.

وحدث أن مر من جانبنا أحد الطهاة فسألته: "ما الذي يجري هنا يا أخي؟ بماذا يحتفلون؟"

أجابني: "إن ابن سيدي سيقلد الفروسية. إنهم الآن جميعاً في

المصلى، والمطران يبارك المحارب الجديد."

ونظر إليّ من الرأس وحتى القدم ورأى أنني حافٍ وأن ردائي مليء بالثقوب التي لا تبدو أنها أعجبته.

فقال مقطباً: " الآن من أجل توضيح الأمور فقط أخبرني هل أنتما مدعوان؟"

أجبت: "بالطبع، فماذا تعتقد؟"

"من قبل من؟"

"من قبل الرب."

وضحك الطاهي وقال: "استمر، فأنت جائع وجئت لتأكل، أيها الفقير التعس... ليس هذا عمل الله ثم استمر في سيره نحو المطابخ.

كان فرانسيس حينذاك ينظر بإعجاب إلى شعار النبالة الفخم الذي فوق النافذة: أسد عريض يمسك قلباً، وفوق القلب الكلمات "لا أخشى أحداً."

وأشار فرانسيس نحو الرموز وقال لي: " من الواضح أن هذا النبيل لا يخشى أحداً، ربما حتى الله، إن قلب الإنسان مدّع أبله، يا أخي ليو، لا تعبأ بما يقوله، بل سامح وامض. لو كان لنا شعار ماذا كنت ستقترح؟"

فأجبت ضاحكاً: "رمز الحمل: الحمل وهو يأكل أسداً."

"كلا يا أسد الله، المشكلة أنك جائع ومستعد حتى لالتهام أسد. على أية حال، سيأتي اليوم الذي ستعيش فيه الحملان والأسود معاً بسلام، لذلك لا تجعل نفسك ضارياً. لو سألتني لكنت اخترت طائراً صغيراً مزيناً شعار نبالتنا. طير صغير متواضع يصعد إلى السماء كل صباح وهو يغني."

قلت وأنا أتذكر الكلمات لإخوان في بورتيونكولا: "القبرة، الطائر ذو القلنسوة."

"بالضبط، بارك الله فيك يا أخي ليو... لكنني أسمع ترانيم في المصلى. تعال ودعنا نحضر الصلاة."

دخلنا المصلى الذي كان في أسفل البرج. يا إلهي كم كان جميلاً! وكله يسبح في الضوء، كان محشواً بالسيوف والدروع الحديدية والمهاميز الذهبية وفرسان نبلاء يرتدون الحديد جاءوا لتهنئة الفارس الجديد. والسيدات الرائعات بثيابهن الطويلة: أية خمارات ملونة وثمينة كن يرتدينها وأية قبعات ذوات أبراج مطعمة بالذهب، وأي ريش وأية خيوط من اللآلىء حول رقبة كل واحدة منهن وأية أساور ذهبية – ويا إلهي! أية روائح: كل العطور العربية! كلا فليقل فرانسيس ما يريد، مازلت أتخيل الفردوس بقديسيها من الذكور والإناث الذين يشبهون هؤلاء، بالضبط كهؤلاء. مثل هذه الثياب، هي ما سوف يمنحها الرب لمن يباركهم. أليسوا هم أيضاً فرساناً؟ فرسان الله؟ أليست السماء هي المائدة المستديرة حيث يجلس كل الأبطال؟ وأليس المسيح هو الملك آرثر؟

لقد كان ذلك كثيراً علي. شيء مذهل تماماً، مما اضطرني لأن أجثم خلف أحد الأعمدة وأحدق مندهشاً محملق العينين. فجأة، ماذا أقول سوى أن فرانسيس قد أزاح النبلاء عن طريقه حتى وصل الحرم، حيث كان المطران يقوم بمباركة الفارس الجديد، الشاب الأشقر الشاحب شحوب الموت. انتظر فرانسيس نهاية مراسيم التبريك، ثم انحنى أمام المطران وقال: "يا صاحب الفخامة، اسمح لي بالكلام بحق المسيح."

كان العديد من اللوردات قد عرفوه. وسمعت همساً فيما بينهم: "إنه فرانسيس الأسيزي! الناسك الجديد"!

نظر إليه المطران بازدراء وسأله: "ماذا تريد أن تقول؟"

"لا أدري أيها المطران. أي كلام يلهمني إياه الرب. ثق بذلك."

"من أنت؟"

كان مالك القلعة قد تحفز من قبل ذلك. وخاطب المطران: "تلطف واسمح له، إنه فرانسيس الأسيزي."

رفع المطران ذراعيه. وأمره:"أوجز في الكلام فالمأدبة جاهزة".

وبدأ فرانسيس وهو يتشبث بكلمات المطران: "إن المأدبة جاهزة في السماء قبل ذلك. المأدبة جاهزة يا أشقائي، وإن يوم الحساب لآتٍ. لم يبق إلا وقت قصير. وحتى الآن ثمة وقت للخلاص، وبأمكاننا صعود الجبل نحو السماء ونتخذ مكاننا عند مأدبة الرب الأبدية. ولكن بدروع حديدية ومهاميز ذهبية وخمارات من الحرير وحفلات وضحك وحياة مليئة بالطيبات لا يمكن لأحد أن يصعد نحو السماء. إن الارتقاء لشاق يا إخوتي، إنه يجعلنا ننضح العرق والجهد والدم الغزير."

وتجهمت وجوه اللوردات والسيدات. بينما هز المطران صولجانه العاجي مهتاجاً. وحين رأى فرانسيس ذلك فهم ما كان يدور في أذهانهم فاستمر في صوت أكثر رقة:

"سامحوني. إنني أخاطب فرساناً وعليه، فمن واجبي أن أتكلم بلغتهم. أنصتوا أتوسل إليكم لما سأقوله. أن يرغب فارس في الفوز بحب سيدة فأي أعمال فذة لابد له أن يقوم بها، أية مشاق عليه أن يتحملها، أية قوى خفية ومرئية، بحار ووحوش ضارية ورجال

وشياطين، لابد له أن يضرعها من أجل أن تفتح له سيدته ذراعيها! سوف ينطلق لتحرير القبر المقدس. أو سوف يمتطي حصانه فوق جسر الشعرة، أو يتسلق قمة الأبراج المهدمة أثناء الليل ويطرد الأشباح بطارف سيفه. ولن يعود جباناً. لو فتحتم قلب مالك هذه القلعة سوف ترون الكلمات المنقوشة: "لا أخشى أحداً " لماذا؟ لأنه لم تغب عن باله أبداً تلك الذراعان الجميلتان المعطرتان المفتوحتان.

"كل هذا يا أعزائي من لوردات وسيدات، تعرفونه أفضل مني. لكن ثمة شيء لم تعرفوه، أو أنكم تعرفونه ولكنكم تنسونه:هو وجود سيدة أخرى، سيدة ليست أرضية بل سماوية وتتبع نظام فروسية آخر وجهاداً آخر. من هي هذه السيدة؟ إنها مملكة السماء! وما هو الجهاد؟ هو التخلي عما هو زائل ومعانقة الفاقة والعفة والصلاة والحب الكامل التي هي خالدة. لو أننا تحدينا الخطر والخوف والموت من أجل أن نفوز بجسد عابر، فأية محاولات علينا فعلها لنفوز بالسيدة الخالدة؟"

وبدأت النقمة تزداد لدى اللوردات وراحوا يتذمرون من وقاحة الراهب الحافي التي لا حدود لها. وحين أحس فرانسيس بذلك هبط من سلم الحرم ووقف بين النبلاء المتجمعين.

قال: "لا تغضبوا أيها اللوردات المكتسون بالحديد. إنني أتكلم معكم كفارس آخر. ولا يهم إن كنتم نبلاء، إنني عبد لله فحسب، وهذا الرداء المرقع والمعاد ترقيعه هو درع الفروسية. أنا أيضاً دخلت المباراة: فأجوب جائعاً ومتجمداً وأعذب نفسي، أجاهد كل ذلك من أجل سيدتي. وإن سيدتي أفضل ألف مرة من سيداتكم. هذه هي السيدة التي أتكلم عنها: هذه هي السيدة التي يجعلني وجودها أحضكم على أن تبدأوا الجهاد مادام ثمة وقت... وأنت، أيها الفارس

الشاب، أيها الفتى الأشقر الرائع التربية: اسمع ما يأمرك به الرب من خلال فمي. إن أباك اللورد يتفاخر: "لا أخشى أحداً" بينما أنت، الابن، يجب أن تحفر في قلبك الكلمات "لا أخشى أحداً سوى الله." ربما لهذا السبب يكون الرب العظيم قد أرسلني إلى برجكم الليلة في اللحظة التي كنت فيها تضع شارة الفروسية لكي أوصل إليك الرسالة يا ولدي"!

قبل فرانسيس يد المطران، ثم أشار لي وخرجنا. هبط الليل، وامتلأت السماء بالنجوم. وقفنا في الفناء سوية مع الخيول والخادمات وترك اللوردات والسيدات المصلى وتقدموا بصمت نحو القاعة الكبرى حيث كانت الموائد بانتظارهم. كان الغلمان والخادمات قد بدأوا يجيئون ويذهبون بين القاعة والمطبخ وهم يحملون اللحم والنبيذ. وكلما يفتحون الباب نحو غرفة الوليمة كنا نسمع الضجيج والضحكات العالية وصوت الكمان.

كان فرانسيس قد جلس مستريحاً على الأرض في إحدى زوايا الفناء. كانت عيناه مغمضتين، واتكأ إلى الجدار في سكون، أما أنا فقد كنت جائعاً. وتسللت إلى المطبخ، حيث شحذت خبزاً ولحماً وإبريق نبيذ. أخذت هذه الأشياء وهرعت سعيداً إلى فرانسيس.

وصحت به: "استيقظ، استيقظ. دعنا نأكل."

قال: "تفضل أنت، كل وأطعم حمارك."

رشفت قليلاً من النبيذ وشعرت بالسعادة.

"إن حمارك بحاجة إلى الغذاء أيضاً يا أخي فرانسيس. هل تعلم ما الذي حدث للفلاح الذي حاول أن يعلم حماره الجوع؟ وما كاد المسكين يتعلم حتى مات"!

ضحك فرانسيس وقال: "اعتن بحمارك يا أخي. أعطه رشفة نبيذ أخرى كي ينهق، ولا تهتم لحمير الآخرين." وحالما قال ذلك أغمض عينيه ثانية.

وتناولت طعامي، وبينما كنت آكل وأشكر الله لأنه جعل اللحم لذيذاً جاء نحونا لورد شاب ذو ريش في قبعته. انحنى وتعرف على فرانسيس.

سألني: "هل هو نائم؟"

"كلا، إنه لا ينام أبداً. ناده باسمه."

صاح الشاب: "أبي فرانسيس! أبي فرانسيس"!

فتح فرانسيس عينيه، ورأى شخصاً يرتدي ثياباً فخمة أمامه ويبتسم.

قال: "أهلاً بك أيها اللورد الشاب. ما الذي أغراك بترك الوليمة والسيدات الجميلات وتأتي إلى هنا؟ من المؤكد أن الرب قد أرسلك."

أجاب الشاب والانفعال يغلبه: "إن كلماتك التي قلتها الآن في المصلى نفذت في قلبي يا أبي. طوال حياتي وأنا أصغي لما يقوله القس في الكنيسة لكنني لم أسمع في الحقيقة أي شيء. هذه الليلة ولأول مرة، سمعت شيئاً. ولهذا جئت لأطلب منك معروفاً يا أبي فرانسيس. أنا الكونت أولاندو دي كاتاني، لورد قلعة جوسي كاسينتينو."

تساءل فرانسيس: "أي معروف يا ولدي؟ سأفعل كل ما يمكنني لخلاص روحك."

"إنني أملك جبلاً مهجوراً في توسكاني اسمه مونت الفرنيا. إنه منعزل وهادئ ودون آثار أو خطى لبشر. سكانه الوحيدون هم الصقور والعقبان. إنني أهديه لك يا أبي فرانسيس من أجل خلاص روحي."

فاندهش فرانسيس وهو يصفق يديه فرحاً: "هذا هو بالضبط ما أبحث عنه! الآن أفهم لماذا غادرت بورتيونكولا: لأذهب إلى ذلك الجبل. فمن قمته المقفرة البرية من المؤكد أن صلواتي، رغم ما تحمله من ذنب، سوف تصل إلى قدمي الرب العظيم. أشكرك باسم المسيح، أيها اللورد الشاب وأقبل عرضك."

قال الكونت وهو يقبل يد فرانسيس: "صل من أجل خلاص روحي. سأعود الآن بعد إذنك للآخرين وأمتع نفسي بصحبة السيدات الجميلات"!

فقال له فرانسيس مباركاً: "ليكن الله معك. متع نفسك حتى تسمع صوت الأبواق."

"أية أبواق؟"

"أبواق يوم الحساب."

قال الكونت ضاحكاً: "ولن يكون ذلك إلا بعد وقت طويل طويل"! وذهب مسرعاً توّاقاً للعودة إلى المأدبة.

ولاحظ فرانسيس أنني مازلت آكل فقال: "أطعم حمارك جيداً يا أخي ليو. فأمامنا صعود جبل وعر وعنيد. لقد سألتني مراراً أين سنذهب. إلى مونت الفرنيا، يا صديقي الرياضي، إلى مونت الفرنيا. لدي حدس أن هناك، في ثلوج قمته العالية ينتظرنا الرب."

فاندهشت مرعوباً: "في البرد والمطر والثلج! لماذا لا يبعث لنا لنجده في السهل؟"

"إن الرب موجود دائماً في وسط البرودة والمطر والثلج يا أخي ليو، لذا فتوقف عن الغيظ. على السهل تكتشف اللوردات الأغنياء والسيدات المحبوبات الجميلات، والموت أيضاً الذي هو صاحب القلعة

الأرضية، وتجد أيضاً حمارك العجوز المسكين. أما الأخ ليو الحقيقي فإنه يرتقي الجبل."

لم أقل شيئاً. آه، لو كان ذلك ممكناً حقاً، كنت أفكر، لو كان ذلك فقط حقاً أن يستطيع الإنسان ترك حماره على السهل ليرعى في ربوع غنية، بينما روحه الخفيفة والتي لا تشعر بالجوع والبرد ترتقي الجبل.

* * *

وسمحوا لنا بالنوم في إحدى الإسطبلات. كان الهواء ممتلئاً برائحة السماد وعرق الخيول. رفع فرانسيس يده وبارك إخوته في الفروسية. قال: "سنقضي الليل معاً، يا إخوتي الخيول، فلا ترفسوا ولا تتأوهوا أرجوكم. إننا متعبان. دعونا ننام. تصحبون على خير."

نثرنا بعض التبن واضطجعنا. كنا متعبين حقاً، وغلبنا النوم سريعاً. ومن وقت لآخر كنت أسمع غناءاً في منامي، تصحبه قيثارات وضحكات لنساء. كأن السماء قد انشقت من فوق رأسي وبدأت الفردوس بالهبوط سوية مع الملائكة لكنني كنت دائماً أغطس في نسيان كل ذلك وتبتلع السماء الملائكة والقيثارات والضحك.

استيقظ فرانسيس ممتلئاً بالحماس. وسألني: "هل ارتديت خفيك الحديديين؟ أمامنا صعود طويل."

"آه بالطبع. هاهما"!

وأريته قدمي العاريتين، اللتين تغطيهما الجروح. وتمتمت وأنا أرسم الصليب " ليت الله يلطف بنا بعد هذا الوقت الطويل!"وبعد ذلك بدأنا الرحلة نحو جبلنا المؤمن الجديد.

* * *

كان فرانسيس يفكر صامتاً. كنا قد تركنا القلعة خلفنا. لم تتحرك ورقة في الأشجار وتدلت الأعلام بارتخاء من سواريها مثل الكثير من الأسمال المتعددة الألوان. واعتمت السماء رمادية إلى يميننا، وراحت الشمس الصلعاء تختفي خلف الغيوم، باعثة بريقا خاملاً نحو الأوراق. وحدها قطرات المطر المرتعشة قد تلألأت بلمعان عند حافاتها. ولم تزل تسمع صيحات الديكة في الهواء الرطب عند القلعة.

"سيتغير الطقس يا أخي فرانسيس. إستمع إلى الديكة. أخشى أن يسقط مطر غزير."

لكن تفكير فرانسيس كان في مكان آخر. قال لي: "أخي ليو يبدو أن الدائرة ستنغلق في النهاية، إن النهاية تقترب. حمداً لله. لقد صليت في البداية للرب العظيم وحيداً في البرية، كي أخاطبه من هناك. ولبى طلبي، لكنه بعد ذلك سرعان ما أمسك بي من مؤخرة رقبتي وقذفني بين الناس."

صاح بي:"تخل عن عزلتك. لقد مكثت مستريحاً جداً وحدك، وهذا ما يزعجني. تجول، تجول حول المدن والقرى، عظ واختر الرفاق، كون رهبنة جديدة ثم تحركوا معاً لتحرير القبر المقدس: قلب الإنسان!" وتخليت عن عزلتي وانطلقنا. أية فاقة مقدسة عشناها ممتعة في الأيام الأولى! وأي حب كان يجعلنا ننفجر في البكاء فجأة؟ كانت الأشجار والطيور والصخور والجداول والناس كلها كأنها خرجت للتو طازجة من بين يدي الله. وكان المسيح معنا، لم نره، لكننا نشعر أن نفسه المقدسة في الهواء وكفاه تستريحان على رؤوسنا. رأيناه في الليل فقط، عندما كانت أجسادنا نائمة وفتحت الروح عينيها. ولكن بعد ذلك.... بعد ذلك..."

وخانه صوته، حدق في. وتدلت دمعتان من عينيه.

قلت: "بعد ذلك دخلت الذئاب الحظيرة وتبعثرنا."

قال فرانسيس متنهداً: "لقد رموني خارجاً، لقد رموني خارجاً يا أخي... أقول لك أن الدائرة تنغلق، وأنني أعود ثانية إلى العزلة. مرة عند قمة الجبل المنعزل سوف أعوي متألما مثل حيوان بري. مازال ثمة الكثير من الشياطين في داخلي، وثمة أكوام من اللحم حول روحي. آه لو يمنحني الرب الوقت لأبعد هذا اللحم، أريد إلغاءه كي أحرر روحي وأهيؤها للفرار! للفرار يا أخي ليو، للفرار"!

فرج ذراعيه بعنف نحو السماء، وظننت للحظة أنه برزت له أجنحة وبدأ يطير بعيداً. وكم كان عظيماً فرحه المتوقع. وخشيت أن يشعر بالعزلة التامة، أمسكت بردائه وتعلقت به.

في تلك اللحظة مرق فلاح من الطريق: كان يقود حماراً صغيراً في نهاية الحبل وفوق الحمار ثمة امرأة مكشوفة الصدر وترضع طفلاً. توقف فرانسيس وحدق فيها بعيون جاحظة.

قال الفلاح وهو يضع يده على قلبه: "باركنا أيها الأب. هذه امرأتي وهذا الطفل ولدي. فباركنا."

أجاب فرانسيس:"ليكن الله معكم، رحلة سعيدة يا يوسف"!وبدأ الفلاح المندهش يضحك. ولكنه كان في عجلة من أمره ولم يكن لديه الوقت ليتريث قليلاً. قلت:"يوسف، يا أخي فرانسيس؟ كيف عرفت اسمه؟"

"ألم تفهم يا حمل الله؟ لقد كان هذا الرجل هو يوسف، وكانت زوجته هي مريم العذراء وهي ترضع الرب. وهم في طريقهم إلى مصر."

واستمر بعد لحظة: "كم مرة أقول لك يا أخي ليو بأن تستخدم بصيرتك الداخلية بالإضافة إلى الخارجية؟ عيونك الطينية تريك فلاحاً وزوجته وطفلاً. لكن الأخرى، عيون الروح. فأية أعجوبة ترى! إنها ترى الأم المقدسة للرب تمتطي حماراً، ويوسف، والمسيح وهو يرضع: كلهم مرقوا من أمامنا مرة ثانية، ولسوف يستمرون يا أخي طوال الأبدية."

وتنهدت. واحسرتاه! إن جلدي سميك، وقلبي يختنق تحت طبقات الشحوم. متى يمكنني أنا أيضاً أن أستطيع إزاحة هذا العالم جانباً وأرى العالم الآخر الذي خلفه، العالم الأبدي؟

وبدأت تسقط القطرات الأولى مطيحة بالأوراق التي لم تزل عالقة بأشجار التين إلى الأرض. كان المساء قد دنا ورأينا أمامنا حافة صخرية جلست عليها كنيسة مهجورة، تلمع جدرانها البيضاء في المطر.

قلت: "إن الله يحبنا انظر، لقد بعث لنا بكنيسة حيث يمكن أن نقضي الليل."

فتحنا الباب ودخلنا. وحين دخل ضوء المساء خلفنا. استطعنا رؤية الجدران التي كانت مغطاة من الأرض وحتى القبة باللوحات الجصية المكثفة بالناس وهي تمثل إغواء القديس أنطوني. رأينا الزاهد المقدس يجاهد يائساً ضد جيش كامل من الشياطين. البعض منهم كان يسحبه من لحيته والآخر من إبطيه، وآخرون أمسكوا بقلنسوته أو طوقه أو قدميه... وفوق ذلك، ثمة شيطانان يديران حملاً على سفود بينما يحدق الناسك فيه وهو يكاد يتهالك من الجوع، منخراه يتوهجان والشيطانان الضاحكان يدعوانه للاقتراب. على

الجدار المقابل: امرأة شقراء عارية بعينين نهمتين، تضع نهديها الكبيرين إزاء ركبتي الناسك. كان يرمقها باشتهاء، ومن فمه يمتد شريط أحمر نحو السماء وعليه كتب بحروف سوداء هذه الكلمات: " إلهي، إلهي، أنقذني"!

شعرت بالضيق التام. وفجأة شعرت بالتوق الشيطاني لأن أمد يدي والمس جسد المرأة الملعون. كان هذا التوق كبيراً حتى أنني صرت أرتعش بكامل جسّمي فالتفت فرانسيس ونظر إلى متسائلاً. استجمعت كل قواي ومددت يدي لأجرب ماذا بها. لكن يدي كانت خدرة وتؤلمني.

أخذ فرانسيس شمعة من الشمعدان، وأشعلها في المصباح المعلق أمام أيقونة المسيح وسار من رسم لرسم. لم يتكلم لكن يده كانت تهتز.

وقفت إلى جانبه ورافقته في التحديق في الرسوم من خلال ضوء الشمعة الذي كان يومض. وفجأة سمعته يتمتم: "إلهي، آه يا إلهي لماذا جعلت المغوي جميلاً هكذا؟ ألا تشفق على روح الإنسان؟ لست إلا حشرة حقيرة، ورغم ذلك أشفق عليه."

كان لا يزال لدينا البعض من الخبز واللحم الذي بقي مما شحذته في القلعة. جلست على الأرض الصخرية وفرشت طعامنا. ركع فرانسيس أمامي وانحنى ليطفيء الشمعة.

قال: " من الأفضل لنا أن لا نراها."

نفخ، لكن يده كانت ترتعش وسقطت الشمعة التي لم تزل مشتعلة على ردائه وأحرقته. اندفعت لأطفيء النار، لكن فرانسيس رفض.

وصرخ بي: "لا تطفئها، لا تطفئها."

ولكنني، حين لم أستطع تبين العالم اللامرئي من خلف المرئي، رأيت النار قد أحرقت جلده، وفي الحال رميت حافة ردائي فوق النار، فانطفأت.

وتذمر: "ما كان يجب أن تفعل ذلك، كلا، ما كان يجب عليك أن تقتل الأخت النار. فماذا كانت تريد؟ لتأكل وتلتهم لحمي. لكن هذا هو بالضبط ما كنتُ أريده، يا أخي ليو! أن أتحرر"!

ودون أن يأكل لقمة، انبطح على الأرض وأغمض عينيه. أما أنا فقد أكلت بينهم ثم شعرت بالتخمة والنعاس فتمددت إلى جانبه ورحت أغط بالنوم. عند منتصف الليل، أيقظني صوت فرانسيس وهو يصرخ، فتحت عيني وتمكنت، من خلال ضوء الحرم، أن أراه يلوح بذراعيه في الهواء وكأنه يصارع شيئاً ما. ناديته: "أخي فرانسيس! أخي فرانسيس"!

لكنه كان من الصعب أن يسمعني. لابد أنه كان في وسط كابوس مرعب، لأنه كان يضرب الأرض بيديه وقدميه ويجأر.

انحنيت فوقه، ولمست جبهته كان العرق يتصبب من جبهته، وكان شعره مشبعاً بالماء ويقطر. أمسكت بكتفه وهززته. ففتح عينيه.

قلت، وأنا أهدىء يديه المرتعشتين: "لا تخف يا أخي فرانسيس لا تخف، إنه ليس إلا حلماً فليذهب إلى الطاعون"!

جلس وحاول أن يتحدث ، ولكنه لم يستطع سوى أن يتلعثم بكلام غامض.

"هدىء نفسك يا أخي فرانسيس. سرعان ما يأتي الصباح. سيأتي النهار ويطرد أشباح الليل."

"لم تكن أشباحاً يا أخي ليو، لم تكن أشباحاً. كل تلك الرسوم هي شخصيات حية! حالما رأوني أغمضت عيني، هبطوا من الجدران وخرجت في الوقت نفسه الشياطين التي في داخلي، وبدأوا جميعاً بمهاجمتي. آه، يا إلهي، كان شيئاً لا يطاق"!

مسح الدم النازف من عينيه بطارف كمه. كان يلهث، وأسنانه تصطك. في الخارج، كان ثمة ريح عاتية تصفر في أشجار الصنوبر التي تحيط بالكنيسة الصغيرة. بين وقت وآخر كانت ومضات برق تدخل عبر النافذة الصغيرة للحرم وتسقط مثل طعنات سيف على ملامح فرانسيس الشاحبة والملطخة بالدم. وكان يسرع في تغطية وجهه بكم ردائه في كل مرة. أتذكر أنه أخبرني مرة أن ضربات الرعد هي نظرات الرب العظيم، وهو الآن خجل من أن يراه الرب لأن الإغواءات لا تزال تتصاعد من جسده.

انتظرنا مجيء الفجر بقلق، ولم ينطق أحد منا بكلمة. وبدأت أيضاً أشعر بالخوف. وبدت لي الكنيسة الصغير مسكونة أيضاً ومليئة بالأرواح اللا مرئية الشريرية، وحين أضاء البرق الجدران المزينة بالرسوم لففت وجهي بردائي كي لا أرى الرسوم ولا تراني فتقفز علي. ولأنني كنت إلى جانب فرانسيس انتبهت إلى أن عقلينا بدأ يتداعيان أو ربما كانت تلك هي عيوني الداخلية قد انفتحت ومكنتني من أن أرى اللا مرئي؟

استعاد فرانسيس رباطة جأشه شيئاً فشيئاً وسرعان ما وضع يده في يدي. كان من الواضح أنه يرغب في أن يريحني.

"لا تكن مكتئباً يا أخي ليو. فحتى الخوف يساعد على الخلاص. إنه مقدس أيضاً، وهو أيضاً صديق الإنسان."

صارت أصوات الرعود أقرب الآن. وفجأة انفجرت الزوبعة. وسمعنا المطر يطرق على سقف الكنيسة بضحكات سعيدة صاخبة. قلت لنفسي هذا شيء حسن، كان فرانسيس مرهقاً من صراعه في الليلة الماضية مع الشياطين. لذلك استلقى قليلاً ليسترد قوته.

ودخل أول ضياء واهن موحل من خلال النافذة الصغيرة. على الجدران بدأت تلمع لحي بيضاء طويلة ووجوه نساك شاحبة، وكذلك قرون، وذيول وأفواه فاغرة حولهم. ها قد جاء النهار. وجاء ضياء الرب، ولم أعد خائفاً. وسمعنا طيراً يغرد. كانت الأرض ولم تستيقظ وسط الطين والمطر. كان فرانسيس قد أغمض عينيه ثانية وهو يصغي بجذل إلى صوت المياه الهادرة وهي تسقط من السماء.

"أخي ليو، ألا تشعر بالفرح العظيم، كما تفعل الأرض، كلما فتحت بوابات الفيضان السمائية! لكن الروح ليست مصنوعة من الأرض، ولسوف تفيض بقوة على الجسد وتمنعه من الذوبان."

"لماذا تمسك به هكذا يا أخي فرانسيس؟ حري بالروح أن تدعه يذوي، كما تريد أنت، ويحصل على خلاصه"!

هز فرانسيس رأسه: " إنها تحاول الذهاب إلى مكان آخر يا أخي ليو، أجل، بدون شك إنها تحاول الذهاب إلى مكان آخر ولا تملك حماراً آخر ليحملها. لذلك فإنها تغذيه وتسقيه حتى يصل إلى قدره المحتوم، ثم تترجل بسعادة، تركل الحيوان وتتركه للأرض ليعود ثانية إلى التراب."

اثنان أو ثلاثة من الطيور بدأوا يزقزقون الآن. وصار المطر أكثر رقة.

قال فرانسيس: "دعنا نذهب. لقد توقف المطر... بسم الله"!

حاول أن يقوم، لكن قواه خارت فسقط على الأرض.

"إن حمارك مرهق يا أخي فرانسيس، دع المسكين يستريح قليلاً ليحملك إلى مسافة أبعد."

"يجب ألا نسمح لحميرنا أن يفعلوا ما يشاءون يا أخي ليو. لو أنني أصغيت إلى حماري لكنت قد بقيت إلى الآن في منزل السيد بيرناردون، ولكنت قد بقيت إلى الآن أغني السرينادا تحت النوافذ. تعال وساعدني. دعنا ننقذ الحيوان."

أمسكت به من تحت ذراعه، وسحبته ليقف على قدميه ثم تبعته وهو يتقدم نحو الباب بخطوات متعثرة.

* * *

كان العالم في الخارج موحلاً. الصخور تلمع، وتحول التراب إلى طين، أما السماء فكانت منسوجة بالسواد الحالك. كانت أشجار الصنوبر قد صدمت بالسيول وقد أخرجت بلسماً سائلاً يشبه العسل.

"سوف تمطر مرة أخرى يا أخي فرانسيس."

"دعها تمطر. لا تزال الروح متمسكة بجسدها ولن تسمح له بالذوبان في الوقت الحاضر، لذلك لا تخف يا أخي ليو وتعال"!

وبدأنا سيرنا، نخوض في الطين الذي علا ركبنا. وثقلت أقدامنا وصرنا بالكاد نستطيع رفعها.

مرت ساعة وساعتان في هذا الطريق. وفجأة رأيت فرانسيس يغطس حتى رأسه إلى الأرض ووجهه يحفر في الوحل. وفي سرعة يائسة اندفعت لأرفعه قبل أن يختنق. وضعته على كتفي، ورحت أعدو، شعرت بالرغبة في أن ألعن عناده وكذلك رغبتي المجنونة في أن أفعل أشياء معاكسة لطبيعتي. كان المطر قد عاد. واستمريت في السير والحمل على ظهري لنصف ساعة ثم رأيت بعض المنازل بين

أشجار الصنوبر، مما منحني القوة رغم أنني كنت أكاد أسقط، ووصلت في الأخير، مغطى من الرأس وحتى القدم بالطين. كان فرانسيس مازال مغمياً عليه. وحين رأيت أحد الأبواب الخارجية مفتوحاً دخلت. فاندفع شيخ إلى الفناء تتبعه زوجته، النحيلة التي كانت ذابلة كأنها حبة زبيب.

قلت: "أنتم مسيحيون طيبون، إن رفيقي قد أغمي عليه من التعب، فبحق المسيح دعوني أضجعه بعض الوقت في كوخكم. حتى يسترد وعيه."

عبس الرجل، ولكن يبدو أنه لم ينزعج. لكن العجوز أشفقت علينا. فأمسكت بقدمي فرانسيس بينما رفعته أنا من ذراعيه وساعدتني بأن ندخله إلى الداخل. وضعناه في الفراش ثم جاءت بخل وردي ووضعته على صدغيه. ووضعت أيضاً القليل منه تحت أنفه ليشمه ففتح فرانسيس عينيه.

قال للفلاحين اللذين كانا ينحنيان فوقه: "السلام على هذا البيت يا إخوتي."

أمسك بي الرجل من ذراعي وسألني: "من هذا الراهب؟ لقد رأيته من قبل."

"أنه الأب فرانسيس، فرانسيس الأسيزي."

"القديس؟"

"أجل القديس."

وتشبث الرجل برأس فرانسيس. "إن تكن حقاً فرانسيس الأسيزي والقديس الذي يتكلم الناس عنه، لدي كلمة، أقولها لك لتستفيد منها: تأكد من أن تعيش مثلما هو معروف عنك بالنزاهة

والطيبة، لأن الكثيرين قد آمنوا بأنك نزيه وطيب وقد وضعوا أنفسهم بين يديك."

واغرورقت عينا فرانسيس بالدموع.

"لن أنسى ما قلته لي يا أخي. ولسوف أجاهد بكل ما أستطيع لأن أكون نزيهاً وطيباً، كي تثق بي أرواح الناس ولن أخيب آمالهم في. بارك الله فيك يا أخي لأنك قد نبهتني." وحين كان يتكلم حاول أن يقبل يد الرجل، لكن الآخر سبقه وقبل الطين الذي كان على قدمي فرانسيس.

حين لاحظت تقوى الرجل العجوز تشجعت لأن أقول له: " مازالت أمامنا رحلة طويلة يا أخي. إننا ذاهبان إلى مونت الفرنيا ورفيقي غير قادر على المشي... فبحق حب المسيح هلا تعيرنا حمارك ليمتطيه الأب فرانسيس؟"

التفت إلى المرأة العجوز. "اذبحي دجاجة يا زوجتي واجلبي بعض الحساء الراهب المريض ولابد له من أن يتمكن من أن يرفع رأسه. سوف نأكل أولاً ثم نبدأ رحلتنا. سوف أذهب معك أيها الراهب."

كنت فرحاً، لأنني كنت دائماً من عشاق الدجاج. وبعد قليل حين رشفت المرق الساخن ذا النكهة الطيبة ومددت يدي وأخذت قطعة كبيرة من اللحم الأبيض اللدن والكبد الصغير للطير: آه كيف لي أن أصف ذلك؟ اغفر لي يا إلهي، فحتى حين أتذكر الآن وجبة الطعام تلك فإن فمي يمتلىء باللعاب. ليت الله يجعل كلام فرانسيس صحيحاً ويكون الدجاج مقبولاً في الفردوس. فإن كان الأمر كذلك سوف نذبح واحدة في كل يوم أحد من أجل أن نشكر الله كثيراً.

رفعنا فرانسيس ووضعناه على ظهر الحمار وانطلقنا في طريقنا.

سألت دليلنا: "هل الفرنيا بعيدة؟"

"أبعد من أم الشيطان! أي عمل لمثلكما على ذلك الجبل اللعين؟ إنني مسرور لأنني سأكون بعيداً عنكما! يقولون أن الكابتن الذئب، رئيس العصابة، له مخبأه في قمته. ألا تخافان؟"

"لماذا نخاف يا أخي؟ نحن لا نملك شيئاً. إننا ننتمي إلى نظام رهبنة الفاقة المقدسة."

"أيها الشيطانان المسكينان، انتميتما للطريق الخاطئ! إن اعتقدتما أنكما قد جعتما لحد الآن فانتظرا ما سيأتي فالأسوأ قادم." وقال ضاحكاً: "بالنسبة لي أنا أنتمي لنظام الحياة المرفهة."

"نعم، ولكننا، لأننا جياع وحفاة، فلدينا الفرصة للدخول إلى مملكة السماء."

"يمكن ذلك أيها الراهب، ولم أقل غير ذلك. لكنني لدي الفرصة في الدخول إلى مملكة السماء مثلك تماماً لو أنني كنت محظوظاً بما فيه الكفاية لأنال السر المقدس في اللحظة الأخيرة. وما دام كلانا ينهل من هذه الفرصة التي هي عزاؤنا طوال حياتنا، أليست هي من أمتع الأشياء عند الإنسان أن يأكل ويشرب ويقبّل ليتأكد أنه لم يفقد حياته الأرضية (بالإضافة إلى) الحياة الأخرى؟ لماذا تنظر إلي هكذا؟ إن لم أدخل الفردوس فأنا بذلك قد خسرت حياة واحدة. أما قداستك فقد خسر اثنتين"!

رحت أكح. لم يكن ثمة شيء أقوله. لأنني غالباً، آه، كم من المرات قمت بالحسابات لنفسي. أيها المسكين الأخ ليو، ماذا تفعل؟ على فرانسيس أن يقودك وأنت تتبعه!

نفسها أيها المسكين الأخ ليو، ماذا تفعل؟ على فرانسيس أن يقودك وأنت تتبعه!

سرنا بمحاذاة الطريق تلو الطريق حتى حل المساء، فدخلنا كهفاً. كان دليلنا قد جمع حفنة عشب بري وأطعمها للحمار، ثم فتح جرابه وأكلنا ما بقي من الدجاج. كان قد جلب معه إبريق نبيذ، فألقى رأسه إلى الخلف وشرب، ثم أعطاني الإبريق. وكنت أسمع الشراب يقوقي مثل طائر الحجل على شفتي.

قال: "عليكما أن تعذراني أيها الراهبان، فقد اخترت طريق الحياة المرفهة هل تذكر؟"

وحين ذكرنا بذلك، رفع الدورق إلى شفتيه مرة أخرى وأفرغه في جوفه. وفي الحال وضع حجراً تحت رأسه وسادة وصلى بسرعة مدهشة وغط في النوم.

في الصباح التالي كان الطقس إلهياً: سماء صافية تماماً، وأشجار وصخور تتلألأ وتزينت الشمس بشعرها الطويل الأشقر. وضعنا فرانسيس على الحمار ورحلنا.

وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى قرية كبيرة نسيت اسمها. أراد فرانسيس أن يتوقف ويعظ، لكنه كان في عجلة من أمره.

"إن بدأت في الوعظ وتتوقع أن تقنع هؤلاء البلهاء بأنهم لابد أن يعرفوا الرب ويطيعوا أمره وتتوقع بأن توقظ بعض الإحساس في أدمغتهم السميكة، فلن نصل الفرنيا هذه السنة ولا حتى السنة التالية. عليكما أن تعذراني، لأنني في عجلة من أمري وعلي أن أعود إلى قريتي. على العكس منكما لدي عمل لابد أن أنجزه. إنني أجاهد كي ألقم التراب بعض الإحساس لينمي بعض القمح ويمكنني من أن أنتج الخبز، وأجاهد لألقم الكروم إحساساً يكفي لتنتج العنب لي لأسحقه وأحوله إلى نبيذ، فنشربه ونشعر بالسعادة، ثم بعد ذلك نحمد الرب العظيم."

وتوسل إليه فرانسيس لبضع دقائق فقط... وقت كافٍ فقط لقول كلمتين، كلمتين فقط..."

"الكلمات عن الرب ليست لها نهاية. لا تظن أنك تستطيع استغفالي! سوف تتكلم وتتكلم، وتسكر من بلاغتك، ثم تفتح الإنجيل، فلا أحد يوقفك"!

رفع عصاه وضرب الحمار بشدة على مؤخرته. فانطلق الحمار، ثم حنى رأسه وأسرع، حتى أوشك أن يقذف براكبه إلى الأرض. ونظر الفلاح إليّ.

وسألني والضحك مستتر خلف شاربيه الكثين الرماديين: "حسن، ماذا تعتقد، ألستُ على حق؟ سامحني لقولي هذا، ولكن إن استمريتما على نهجكما هذا بأن تطلبا من هذا أن يخلص نفسه ثم ذاك، فلن تجدا الوقت الكافي لخلاص أنفسكما... لدي جارة في القرية: كارولاين، بارك الله فيها! إنها ذات جسد جميل وأرداف ممتلئة وكومة أطفال. هل تعرف ماذا قالت في أحد الأيام؟ تعال وانحن لأهمس في أذنك حتى لا يسمعنا القديس."

لقد أحببت ذلك الشيخ البدين الريان، لقد أحببته لأنه كان مرتاحاً ومتورداً، فمازالت الحيوية تجري في عروقه.

سألته وأنا انحني فوقه: "ماذا كانت تقول؟ تكلم برقة."

"كانت تقول، مارين آه نسيت أن أقول لك أن أسمي مارينو، إن جلبت المتعة لهذا مرة وذاك مرة، فلن يكون لدي الوقت لأنجب أطفالاً من زوجي."

وانفجر في ضحك صاخب.

واستنتج: "وسيحصل لكما الشيء نفسه أيها الشيطانان المسكينان."

وأمضينا الوقت في تبادل الحديث. والحمد لله أنها لم تمطر. وكانت أشجار الصنوبر تضوع بالرائحة، وبردت الشمس ومازال في جراب الشيخ بعض الطعام. فأنهيناه في الحال.

قال وهو يقلب الجراب: " هذه نهاية مؤونتنا الطيبة أيها الراهب. بالمناسبة، ما اسمك فقط من أجل أن تتوضح الأمور."

"الأخ ليو."

"أجل، إنها مؤونتنا الطيبة أيها الفقير العجوز ليو. بعد مسافة قصيرة سأترككما عند قد الجبل ثم تعود للالتحاق برهبنة الفاقة. أنت تسميها " المقدسة " إن لم أكن مخطئاً"

"أجل الفاقة المقدسة "

"عليها اللعنة! لا تذكر هذه الكلمة أمامي: إنها تجعل شعري ينتصب."

كانت الشمس توشك على الغروب. في عطفة الطريق ظهر فجأة جبل كبير ومحظور.

قال العجوز مارينو وهو يشير باتجاه الجبل: "هذا هو الفرنيا. أتمنى أن تتمتعا فيه!" رسم فرانسيس إشارة الصليب، ثم رفع رأسه وبارك الجبل. قال "أخي الفرنيا، أنا مسرور لرؤيتك. إنني أحيي الأحجار والحيوانات البرية التي تسكنك، أحيي الطيور والملائكة التي في الهواء الذي يحيطك! انظري يا روحي إنه الأخ الفرنيا فلا تخافي."

لم أتنفس بكلمة، حدقت مرتعباً بالجبل المقفر القاسي. كان صخرة جرداء سوى بعض الأجمات من أشجار الصنوبر هنا وهناك،

وبعض السنديان. كان ثمة صقران جاثمان عند إحدى الحافات عادا وحلقا عالياً وبدأا يحومان فوق رؤوسنا.

قال الشيخ: "من الخير لنا أننا لم نكن دجاجات، وإلا لأكلانا، وبعد ذلك وداعاً لمملكة السماء"!

وفجأة مرق من أمامنا فلاح، صفر له مارينو فوقف. ذهب دليلنا إلى الرجل وتحدثا بصوت منخفض لوقت طويل وهما يقفان عند منتصف الطريق. حين عاد إلينا مارينو أضحى له وجه طويل.

"هذا أبعد ما يمكنني الوصول إليه ولن أخطو خطوة أخرى."

"ما الأمر يا مارينو؟ هنا في بداية الصعود نحتاج إلى مساعدتك أكثر من قبل. إنه يتضور جوعاً."

رفع فرانسيس عن الحمار وأجلسه على صخرة تحت شجرة صنوبر.

قال: "وداعاً يا قديس الله. ليس لديك ممتلكات، ولا أطفال ولا تخشى اللصوص. والأمر يختلف معي."

استدار وغمز لي. وهمس في أذني وهو يشير إلى طريق العودة بإبهامه: "حسن، ماذا تقول؟"

ألقيت نظرة على فرانسيس.

"كلا، مارينو، لن أتخلى عن دعامتي. اذهب أنت، وليكن الله معك"!

هز كتفيه غير مبال، وامتطى حماره قافزاً وذهب.

* * *

جلست إلى جانب فرانسيس. لم يكن الجو بارداً، لكنني كنت أرتعش. وبينما أنا جالس هناك، سمعت بغتة زقزقة وجلبة لأجنحة.

رفعت عيني ورأيت أسراباً من الطيور من كل الأنواع. عصافير وقبرات وطيور صافرة ومغردة وشحارير وطائر حجل واحد، جميعها كانت تحوم حول رأسينا كأنها كانت ترحب بنا في مخبأها. ثم تجرأت أكثر واقتربت أكثر وأكثر حتى تجمعت بفخر حول سيقان فرانسيس.

تمتم فرانسيس منفعلاً: "أخواتي أيتها الطيور، أخواتي أيتها الطيور، نعم، نعم، إنه أنا أخوكم، عائد من إقامته المؤقتة في الجزر البعيدة والغريبة. لقد جئت، والآن، على هذا الجبل المقدس، سنعيش معاً في الأخير، وإن أردتم أي شيء فلا بد لكم أن تخبروني وسوف أوصل ذلك إلى الرب، أبينا، وأكون إلى جانبكم."

حدق طائر الحجل من مكانه بلطف في قدمي فرانسيس ثم أصغى ورأسه مائل مثل البشر. وبينما كنا مأخوذين بالأعجوبة تقدم نحونا اثنان من الفلاحين وهما يصرخان " لماذا تجلسان هنا أيها الأحمقان المسكينان؟ إن الذئب قادم "!

"من أي طريق؟"

"من هناك، من هناك."

وثبت على قدمي، وقلبي في فمي.

"دعنا نهرب يا أخي فرانسيس، دعنا نهرب"!

"ابق هنا أيها الرجل القليل الإيمان، بينما أنا ذاهب لأجد الكابتن ذئب. لا تخافوا: إن الرب كلي القدرة، وهو قادر على أن يحول الذئب إلى حمل."

قام وانطلق في الاتجاه الذي أشار إليه الفلاحان الإثنان. أخفيت رأسي خلف كم ردائي وانتظرت، وحيداً، وحيداً تماماً. كنت

أعرف أن الله كلي القدرة، ورغم ذاك لم أكن واثقاً. كم من المرات سمح لمؤمنيه أن يؤكلوا من قبل الحيوانات المتوحشة أو أن يقتلوا من قبل الكفرة! أفضل شيء كان لنا هو أن نهرب. كما قال المثل: بارك الله بأولئك الذين يباركون أنفسهم." لكن قدحاً من الحليب أعطاني إياه راعٍ كان يمر بالقرب مني كانت كافية لأن تعيد قلبي إلى مكانه. كنت في الحقيقة أشعر بالعار، فقررت الذهاب والبحث عن فرانسيس كي لا أتركه يقع في الشدة. وما أن نويت النهوض حتى غيرت رأيي رغم ذاك. قلت لنفسي، إنها أكثر أماناً هنا.

وأصغيت لأي فرصة يمكن أن أسمع فيها فرانسيس يناديني. ولكن كل شيء كان صامتاً وساكناً. وراحت الظلمة تصعد من السهل، تغطي بساتين الزيتون والعنب. صعدت دون تأجيل متجهاً نحو الجبل، كان العالم يعتم طبقة بعد طبقة.

فجأة تردد صوت هائل وقاس من خلف الصخرة التي كانت فوقي وازداد قوة بثبات: وهو يقترب. لكنني بعد ذلك استطعت تمييزه. لم يكن صوتاً واحداً، بل صوتين: الأول منهما أجش ومتوحش والأخر رقيق وواهن وحين عرفت غناء فرانسيس، قفزت على قدمي.

وحالما اقتربت الأصوات استطعت أن أفهم كلمات الأغنية. كانت ترنيمة " المسيح يبعث من الموت، يسحق الموت بالموت." قلت لنفسي لقد التقيا، لقد التقيا وأصبحا صديقين والآن يعودان كلاهما إلى حظيرة الرب. وحقاً، حدقت في الظلام ورأيت ضوءاً يقترب يحمله رجل قاسي القسمات، ذو لحية وشاربين كثين وشعر رأس أشعث. كانا يتحدثان يداً بيد ويشيران إليّ.

صاح فرانسيس بفرح: "هذا هو الكابتن الشهير بذئب. لم يعد ذئباً. إنه الآن حمل."

وتذمر رئيس اللصوص: "حمل، يا أخي، ولكنه الذي يأكل الذئاب. يجب أن لا أنسى مهنتي."

"أجل، هذا في البداية. ولكن فيما بعد سوف تقترب من الرب، حينها ستتوقف عن أكل الذئاب."

وصمت فرانسيس بغتة. فقد عثر على تميمة فضية على صدر الكابتن ذئب الواسع. وثمة بضع كلمات منقوشة على التميمة، ولكنه لم يستطع قراءتها ببصره الضعيف.

"ماذا لديك هنا يا أخي؟ ما هذه الكلمات التي تحملها؟"

تورد رئيس اللصوص خجلاً. وخلع التميمة من رقبته: وقال: " ذنوب قديمة. لا تقرأها!"وأوشك أن يرميها بين الأشجار.

"كلا، كلا، أريدها يا أخي الحمل. كل ذنوبك القديمة قد غفر لك بها. الذئب مات وليعش الحمل"!

قرب التميمة إلى عينيه وقرأ: "عدو الله والإنسان."

أخذها الكابتن ذئب من يدي فرانسيس وسحقها، ثم رماها بعيداً. وقال مندهشاً: " صديق الله والإنسان! سأطلب ثانية أن يكتب عليها: " صديق الله والإنسان." والآن، حتى الغد! اصعدا الجبل الذي أعطاكه الكونت. سآتيكما عند الصباح وسأبني لكما كوخين من الغصون والطين ثم سأعود إلى الأسفل لأواصل المراقبة وليلعن الله كل من يحاول المرور دون إذن."

وفكر للحظة.

"انتظرا - من الأفضل أن أرافقكما. سأدلكما. ليس ثمة أية آثار بشر على الجبل وقد تضلا الطريق."

أمسك بفرانسيس بذراعيه الضخمين ورفعه مثل رضيع.

قال: "فلنذهب. لستما بحاجة لحمار يا أبي فرانسيس.

بعد ساعة وصلنا بقعة منبسطة. وتتوج المكان شجرة سنديان مهيبة مغطاة بكثافة بالأوراق. وخاطب فرانسيس دليلنا: " أخي الحمل هذا ما سأدعوك به منذ الآن. أخي الحمل، حين تبني كوخي غداً، ابنه أرجوك تحت تلك السنديانة، وضع الأخ ليو بعيداً قليلاً عني، بعيداً بما يكفي أن لا نرى بعضنا البعض وإن ناديته فلا يسمعني. لابد لي أن أكون وحيداً تماماً على هذا الجبل يا أخي."

"بكل سرور يا أبتي. وغداً سأجلب لك الخبز والزيتون وكل شيء أعثر عليه. لا أريد لأي منكما أن يموت جوعاً، لأنني لم أسمع أبداً أحداً يدعي أن الموتى يتمكنون من الصلاة. لذلك بين كل حين وآخر سأجلب لكما كل ما تحتاجانه كي لا تموتا. سوف أسرق الأغنياء لأطعم الفقراء. ولم لا؟ أليست تلك هي العدالة؟ لماذا تهز رأسك يا أبتي فرانسيس؟ بدون شك ليس هو الله الذي وزع ممتلكات هذا العالم. بل هو الشيطان. وهذا ما يفسر لماذا يكون التوزيع غير شرعي. أنا ببساطة سأعمل على وضع الأمور في نصابها."

قال ذلك وقبل يد فرانسيس وتلاشى في الليل.

أتذكر تلك الأيام التي عشناها على مونت الفرنيا بالرعب والفرح الذين لا يوصفان. أيام وشهور، هل كانت سنوات؟ كان الوقت يحوم من فوقنا مثل عقاب ويخفق بأجنحته سريعاً حتى أنه بدا وكأنه لا يتحرك مطلقاً. كان القمر يظهر ويختفي، أحياناً كأنه منجل وأحياناً كأنه قرص فضي. في أوقات كان الثلج يذوب ويجري ماء من منحدرات الفرنيا، كما يحدث لصلوات فرانسيس، ليثمر السهل، وفي أوقات أخرى يسقط ويتراكم، بلون وردي في الصباح، وبياض ناصع في منتصف النهار، ومزرق عند المساء. لقد كان يأتي دون ضوضاء ويهز كوخينا بعنف. في كل صباح كان فرانسيس يخطو فوق البساط الأبيض وينثر بقايا الخبز الذي كان يجلبه الأخ الحمل (بارك الله فيه) بانتظام ليمنعنا من الموت جوعاً. وكانت الطيور تأتي لتنال نصيبها المضمون. كانت تحيط بكوخ فرانسيس عند اندلاع الفجر، مستحثة إياه بالظهور. وتجرأ الباشق وراح في كل صباح يدور حول الكوخ ويصرخ بصوت عالٍ من أجل أن يوقظه.

كان البرد مخيفاً. ومضى زمن طويل منذ أن أصبحت ثيابنا مهترئة وتعبث فيها الريح، حتى تحول جلد كل منا أزرق. لقد كان من العجيب حقاً أن نبقى أحياء رغم تلك المحنة دون مصاحبة الملائكة اللا مرئيين! ربما كان فرانسيس على حق حين قال كل من يفكر في الله يدفأ في الشتاء ويبرد في الصيف. لابد لي أن أقول أنني كنت أفكر في الله بشكل غير اعتيادي على ذلك الجبل اللا بشري، ولكنني من الناحية الأخرى أيضاً فكرت كثيراً بقدر يغلي على نار لاهية ونبيذ ساخن مع ملعقة مملوءة بالتوابل لتتدفأ العظام

والمائدة مفروشة والعالم كله يضوع برائحة لحم الخنزير المشوي. فمن يعبأ بعد ذلك إن تكدس الثلج على رأسه في الخارج؟ سيكون الباب مقفلاً ولن يتمكن الثلج ولا البرد ولا الجوع من النفاذ إلى الداخل. الطمأنينة، الطمأنينة! ولن ينسى الرب أيضاً، لأنك بعد ان تكون قد أكلت وشربت حتى الشبع سوف ترفع ذراعيك إلى السقف، بأمان في منزلك، وتشكر الرب العظيم لأنه خلق النار والخنازير والأبواب...

وإن تساءل أحد عن وضع فرانسيس، فليس ثمة من خطر من أن يعاني إما من البرد أو الجوع لأن الرب، تلك النار التي لا تنطفىء، تشتعل في داخله ليلاً ونهاراً، ولأن خبز الملائكة يقف دوماً عند شفتيه، دافئاً، وأبيض وذا نكهة طيبة. ورغم ذلك، فإن صلتي به قد عذبتني وجعلتني أخرج من ملجأي لأرى ما الذي يحصل له. واعتدت أن أراه يذهب عند الصباح ومنتصف النهار والمساء نحو الكهف الأسود الذي كان مكانه المعتاد للصلاة. وأية معجزة رأيت! حين كان يذهب ليكلم الله كانت قامته وطريقة مشيه تختلفان تماماً عما هما عليه حين يعود إلى كوخه بعد أن ينهي صلاته. فحين يذهب يكون مضمحلاً محني الظهر مرهقاً ويتعثر في الرمل، يجر نفسه ويكاد يسقط. ولكنه حين يعود بعد إكمال صلاته: فأي حضور يكون لديه! أي عملاق يكون قد ظهر من الكهف الأسود! جسده منتصب كالبرج، ويسير بأقدام في الثلج، وفوق رأسه عمود ناري من الهواء يعادل عشرة أضعاف طوله.

اغفر لي يا إلهي إن شعرت أنني أحسده حين كنت أراه هكذا. من أية مادة خلق؟ الفولاذ النقي؟ الروح النقية؟ ليستطيع أن لا يجوع

أبداً أو أن لا يشعر بالبرد ولن يقول " كفى "؟ أما أنا فقد كنت أرتجف ليلاً ونهاراً، كنت أتضور جوعاً، ولم أكن لأميل ولا أملك القوة على تأدية الصلاة. وليست لي حتى الجرأة، لأنني حتى لو رفعت عيوني وذراعي نحو السماء، فإن أفكاري كانت ستبقى في الأسفل على الأرض، في الأسفل البعيد، والأكيد وإن الكلمات التي كنت سأقولها للرب لن تكون سوى فقاعات ملونة مليئة بالهواء ليس إلا.

كانت قد مرت ثلاثة أو أربعة أيام منذ أن رفعت يدي آخر مرة نحو السماء. كان الأخ حمل قد جاء كالعادة ليضع الصدقات من الخبز والزيتون وجبن الماعز وأي شيء آخر يجده.

سألني: " هل تريد مني أن أوقد النار؟"

فأجبته متنهداً: " كلا، إن الأخ فرانسيس لا يسمح بالنار."

"لماذا؟"

"لأنه يقول أن الجو بارد في الخارج."

"ولكن هذا هو بالضبط السبب الذي يدعو لإشعال النار أيها الأبلهان."

"بل هذا هو السبب الذي يدعونا إلى عدم إشعال النار."

"حسن ما الذي تستخدمه لتتدفأ؟"

"الرب."

هز الكابتن كتفيه لا مبالياً.

"اقلبا كل شيء رأساً على عقب إن شئتما، فذلك شأنكما. أما أنا فسأعود إلى كهفي حيث حصلت على كومة من الألواح السميكة وهي تتقد في الموقد. القدر على النار يا أخي ليو. يوم أمس اصطدت حجلين وهما الآن يغليان. هل ستأتي لتنال شيئاً منهما لتزيت

أحشاءك وتدفىء عظامك، أيها الشيطان المسكين؟"

امتلأ فمي باللعاب.

"آه بكل سرور يا أخي، لولا أنني أخشى الأخ فرانسيس؟"

"ليس من الضروري أن تطلعه على الأمر."

لكن من واجبي أن أخبره."

"افرض أنك فعلت ذلك. ما الذي سيفعله لك؟"

"لا شيء سوى أنه سوف يتنهد فقط وحينذاك ستخترق السكين قلبي."

"كما تحب يا أخي ليو. على أية حال، ضع الحجلين في بالك، حجلين مع بيلاف رز وتوابل يتصاعد منه البخار ونبيذ وفير ونار متقدة، رددها مرة وأخرى لنفسك مثل تعويذة وربما ستأتي. حتى ذلك الحين..."

فرك يديه ببعضهما البعض وضرب قدميه بالأرض لكي يدفئهما.

سألته: " ألا تخشى الله يا أخي؟"

"إنني لا أخشى الناس فكيف تتوقع مني أن أخشى الله؟"

وراح يهبط ويردد الجبل صدى ضحكته.

بقيت وحيداً. لم يبد مطلقاً أن البرية وعزلتي الكاملة يمكن أن لا يطاقا بهذا الشكل. حجلان، وبيلاف يتصاعد منه البخار ونبيذ وقبر ونار متقدة... نهضت وسرت إلى الباب حيث وقفت "عار عليك وخزي يا ليو! كيف ستتحمل تنهيدة الأخ فرانسيس حين يكتشف الأمر؟ ابق في كوخك. إن الخبز اليابس جيد أيضاً، وكذلك هو حال الخبز البارد. للآخرين الحق في أن يأكلوا ما يشاءون ويدفئون أنفسهم، أما أنت فلا! إذ لديك حقوق أخرى، أعظم من هذه."

"ذلك محال..." هل أنت بحاجة للسؤال؟ فمن خلال حياتك ستبين للناس طريق الخلاص. " ولكن ماذا لو مت؟" " ذلك هو الأفضل. في تلك الحال سوف تبين للناس طريق الخلاص من خلال موتك. لقد ارتديت الرداء الكهنوتي الملائكي. لم تعد إنساناً أبداً ولكنك لم تصبح ملاكاً أيضاً. أنت تقف – أنت تتقدم نحو الملائكية – تتقدم شيئاً فشيئاً مع أعمالك الخيرة." " أنا لم أزل إنساناً، بل أنا في الحقيقة أغدو أكثر إنسانية. اسمح لي هذه المرة فقط، وفيما بعد سأصبح ملاكاً، ملاكاً حقيقياً، أقسم لك!" " افعل ما يحلو لك. فأنت حر، ارحل إلى الجحيم إن رغبت لن أقف في طريقك. أتمنى لك سفرة ممتعة"!

كان رأسي قد أصيب بالدوار، عدت إلى داخل الكوخ وتمددت على الأرض. كنت على وشك أن أنفجر باكياً. وبغتة شعرت رغم ذلك بأن الاهتياج قد تملكني. ملاك. قال، ملاك! من السهل تماماً أن تكون ملاكاً حين لا تكون لديك معدة، ولكن حاول فقط حين تكون لك معدة! حاول فقط! أريد أن أرى إن كنت تستطيع أن تمنع فمك من أن يترطب حين ترى أمامك حجلين يغليان تماماً تحت أنفك. إن من لم يجرب يحب أن يعظ! إنا إنسان، وقد دعاني الكابتن ذئب للوليمة وأنا ذاهب!

اندفعت إلى الخارج. كان الثلج قد توقف والغيوم تتحطم، والتمعت السماء من بينها مثل قطع نحاسية فقدت بريقها. ثبت ناظري على خطى الكابتن ذئب الكبيرة والعميقة ووضعت فيها قدمي وتتبعت أثرها. لم أكن أمشي، بل كنت أطير. ذهبت بأسرع ما أستطيع ونتيجة لذلك سقطت مرتين أو ثلاثاً وتغطت لحيتي بالثلج. حتى وصلت أخيراً أمام ملجأ مؤمننا الجديد، انحنيت وأنا ألهث.

كانت النار تلتهب، ورائحة الحجل المشوي تعطر الهواء. كنت أرى الكابتن ذئب راكعاً أمام الفحم، ويحرك في محتويات القدر.

ناديت من المدخل: "مرحباً"!

التفت وقال ضاحكاً: " مرحباً أيها بالراهب! تفضل بالدخول العشاء معد، رخ حزامك"!

دخلت، أرخيت الحبل ذا العقد وجثمت قريباً من النار. آه يا إلهي العظيم، أية متعة! لم أشعر أبداً في حياتي بالامتنان للرب وبالحب له وبالرغبة السعيدة في الصلاة ومخاطبته بأبي مثل تلك اللحظات! حقاً. فمن يكون الأب سواه: إنه هو من يقذف بأطفاله إلى الخارج دون أن يمنحهم لقمة طعام أو ثوباً يغطوا به عوراتهم، أو هو الذي يشعل ناراً لهم ويضع القدر حتى يغلي ويقسم لهم الطعام ليأكلوا!

غسلنا أيدينا بالثلج وفرشنا جلد خروف على الأرض أمام الموقد ووضعنا الإناء في الوسط ثم اجتزأنا قطعاً كبيرة من الخبز، وجلسنا متقابلين متصالبي السيقان: رئيس اللصوص التائب ومن يسمى بأسد الله. مددنا مخالبنا. أخذ الكابتن ذئب أحد الحجلين وأخذت أنا الآخر، ولوقت غير قليل كنت لا تسمع في الكهف سوى عمل الفكوك وقرقرة أباريق النبيذ الخشبية.

أية بركة وأي نعيم! فليغفر لي ربي، فهكذا أتصور الجنة، دع فرانسيس يقول ما يشاء، نعم كان السلطان على حق....

بدأ النهار يعتم أمامي رأيت الوجه ذا العظم الطويل لحبيبنا رئيس اللصوص يشع أحمر في ضوء النار. لقد سكبت في جوفي أكثر مما ينبغي من النبيذ في لحظات. سامحني يا إلهي، رأيت قرنين على جبهته، رأيت قرنين لامعين معقوفين ينطحان الهواء. ولدقيقة دخلت

هـذه الفكـرة رأسـي، وجعلـتني أرتعـد، لربمـا ارتـدى المغـوي جسد الكابتن ذئب ويكون الذي أمامي الشيطان، ولربما أغراني بالحجل وها أنا ـ قد اصطادني في شبكته!... حين أنهينا على الطيرين أفرغنا الإبريـق الإلهـي ورمينـا ألواحـاً جديـدة في النـار. كنـت في السماء السابعة، ورحت أشدو بترنيمة: "المسيح قد بعث" بينما فسح الكابتن ذئب المجال لي وراح يصفق بيديه. وبين الحين والآخر كان يصرخ هو أيضاً بصوت متوحش ومدوٍ يتردد صداه في الكهف.

وصاح وهو يعانقني في حب غـامر: "أخـي، أخـي. سـأقول لـك شيئاً ولكنني لا أريدك أن تسئ فهمي. إنني أقسم بالحجل الـذي أكلته الآن أن الخمـرة قـادرة على أن تؤلـف بين قلوب النـاس وتجعلـهم إخـوة أكثر من الإنجيل. سامحني لتفكيري هذا. ولكن أنظـر هـا أنـا قد شربت رشفة خمر وانفتحت عيناي وأرى ـ أرى أنك قد أصبحت أخي."

وتبع ذلك غزارة في العناقات والقبل.

"أريـد يـا أخـي ذئـب أن تكـون قـادراً علـى الرؤيـة دون مـساعدة الخمـرة، وأن تـؤمن أن كـل النـاس إخوتـك. لأنـك حالمـاً تـصحو مـن الخمر، ويصبح الجميع أعداءك يتلاشى لديك شعور الأخوة."

قال الكابتن مندهشاً بعد أن امتص آخر قطرة في القـارورة: "هـذا يعني أن من الأفضل أن نبقى ثملين طوال حياتنا"!

"موافق يا أخي الـذئب! آه لـو كانـت لـي القـوة لكنـت قد أنجـزت معجزتي، كنت قد أسست لائحة تقـول على الأخـوة أن يشربوا كل صباح قارورة كبيرة مـن الخمـر وينطلقـوا بانـدفاع نحـو القـرى والمدن ليعظوا النـاس: وتخيل كيف يعانقون ويقبلـون النـاس الـذين يقـابلونهم وكيف سيجتازون كل خطر، كيف يغنون ويرقصون في مديح الله!

إن ارتقاءهم سيكون سهلاً ولسوف يسرون لهذه الصفقة. فمن خلال دفء المشاعر التي تثيرها الخمرة سوف يتقدمون على أولئك الذين يسيرون مندفعين من الرب، ومن هناك إلى حيث النعمة السماوية"!

قال الكابتن ذئب ضاحكاً: " ضمني إلى رهبنتك يا أخي ليو." ودعاه حماسه إلى أن ضربني بلكمة مترنحة على ظهري.

"ما رأيك، سنأخذ كمية كبيرة من المقانق وقارورة خمر ونذهب إلى فرانسيس نخبره باللائحة الجديدة."

وشعرت بغتة بالخوف. التفت ونظرت نحو مدخل الكهف. وبدا لي أن طيف فرانسيس يطوف حول المكان وأنني سمعت تنهيدة عميقة في الهواء فنهضت.

"حان الوقت لأذهب. ماذا لو زارني فرانسيس فلم يجدني."

"أخبره أنك كنت تصلي يا أخي ليو، وحقاً تبعاً للمبدأ الجديد فما الذي قلناه. أليست كل هذه الحجلان والبيلاف، والدفء سوى صلاة تقدم إلى الرب؟ قل الحقيقة: هل كنت أبداً قريباً من الله هكذا كما أنت هذه الليلة؟ هذا هو معنى الصلاة"!

"كيف لي أن أجلس وأوضح للص أن الصلاة شيء آخر، مادمت أنا نفسي لا أعرف ما هي؟"

رافقني الكابتن ذئب لمسافة غير قصيرة من الطريق. كان في مزاج رائق لم يتوقف عن الكلام.

"مرة حين كنت قاطع طريق (ومازلت، ولكن لا تخبر فرانسيس فقد يزعجه ذلك ـ ولأنه كما تعرف ساذج نوعا ما)، كما قلت، مرة حين كنت قاطع طريق، أراد قس شيطاني مسكين أن أعترف له. فسألني: "هل تصلي؟" فأخبرته: "بالطبع ولكن بطريقتي، أقصد...

بالسطو." "وليست لديك الرغبة بالندم أيها التعس البائس؟" " ثمة الكثير من الوقت. لم يزد عمري على الخامسة والثلاثين. حين أصبح شيخاً عاجزاً عن الوقوف على ساقي سوف أندم. كل شيء في وقته المناسب يا صديقي. حين تكون شاباً: اسرق. وحين تشيخ: اندم." وأصاب القس الاهتياج. فقلت له: "هون عليك أيها الشيخ. ألا تفهم أنني أقرب إلى المسيح من قداستك." "أنت؟" "نعم أنا، أنا اللص الذي صلب إلى جانب المسيح، في الجانب الأيمن منه."

"تلك يا أخي العزيز ليو، هي كل الخدعة فلا تنسها. في اللحظة الأخيرة، حين يقترب الموت، عليك أن تجد الطريق إلى الجانب الأيمن من المسيح وليس اليسار. على الجانب الأيمن يا أخي التعس المسكين ليو أو تخفق"!

كنت في عجلة من أمري لأفر سريعاً على قدر ما أستطيع من رئيس اللصوص هذا. فثمة شيطان في داخلي قد أعجب بكل ما قاله: الرب، الشيطان، فرانسيس، حياة المتعة. كل هذه الأشياء كانت تطوف في داخلي. آه، متى يمكنني أن أنفرد وحيداً لكي أعيد كل شيء إلى مكانه!"

"وداعاً يا أخي، وليت الله يكافئك على ما قمت به من خير تجاهي وليغفر لك عن كل شيء سيء."

صافحني بالضغط على يدي وكاد يحطمها. وناداني: "لا تنس أن تكتب اللائحة. لا تنس الآن وتذكر أنها من أجلك أنت"!

* * *

رحت أتحدث وأومىء لنفسي طوال طريق العودة. كان الوقت ليلاً حين وصلت كوخي. لكنني وجدته بارداً في الداخل، يا إلهي، وأية

عزلة! لقد هربت من السماء وعدت إلى الجحيم. لففت نفسي بردائي، واضطجعت. كانت الريح تصفر عبر الأشجار وفي الخارج. وعن بعد كانت الذئاب تعوي. ووجدت أن من المستحيل عليّ أن أغمض عيني، ولم أشعر حتى بالنقاء الكافي الذي يسمح لي بالصلاة. وأخيراً وقبيل الفجر غمرني النوم المليء بالكوابيس. وما أن امتلأ بصري بالعتمة، حتى حلمت أنني كنت في مصر، وفي طيبة، حيث يقطن النساك العظام. وكنت أيضاً ناسكاً واسمي أرسينيوس، وبينما كنت أركع للصلاة وأفكر بأبي نيلوس - الزاهد الذي تجاوز عمره المائة وصومعته على بعد خمسة أميال - جاءني راهب وصاح: " أسرع، يا أخي أرسينيوس، فإن أباك يسأل عنك. إنه يحتضر ويصر على أن يراك ليباركك. "فقفزت وأسرعت بكل قوتي وأنا أبكي. كانت الشمس مخيفة. كانت تمر قافلة جمال وتسير على الطريق العام على بعد مسافة مني، وكان بإمكاني سماع الأغنية الحزينة ذات النغمة الوحيدة للسائرين في القافلة. وأخيراً عند الظهيرة وصلت إلى مأوى والدي. رأيته مسجى على الرمل يحيطه خمسة أو ستة من الرهبان الذين كانوا يخلعون ثيابه ويغسلون جسده بينما ينشدون باستمرار. والتفت إليّ احدهم وقال: "لقد سلم روحه إلى الرب قبل دقيقة. لم يتوقف عن ذكر اسمك ومناداتك." لكنك أتيت متأخراً جداً" قال الآخر. وبينما كانا يتكلمان كان المتوفى يسمع لأنه كان قد تحرك. ففر الراهبان مذعورين. وتحركت شفاه أبي، فتح عينيه وحدق في وتمتم: "انحن قليلاً يا بني، هل يمكن لأحد ان يسمعنا؟" كانت عيناه ممتلئتين بالخوف، وكانت لحيته وأذناه وشفاهه وشعره كلها مغطاة بالرمل.

"لا أحد يسمعنا يا أبي. إننا وحدنا."

"انحن لدي سر خطير أود كشفه لك. انحن أكثر." ففعلت ووضع فمه إزاء أذني. كان صوته واهناً ومتلعثماً وكأنه كان يأتي من مكان بعيدٍ أو يصعد من بئر فارغه عميقة: "ارسينيوس يا بني، لقد خدعنا. لقد خدعنا، وقد فات الأوان! فليس ثمة جنة ولا حتى نار"!

"ماذا هناك إذن؟ فوضى؟"

"كلا، ولا حتى فوضى."

"ماذا إذن؟"

"لا شيء."

"رفع نفسه، وأمسك بعنقي وأوشك أن يخنقني. ثم تدحرج على الرمل بغتة...

نطقت بصرخة مدوية واستيقظت، ويداي تحيطان برأسي بقوة خشية أن لا ينشطر. كانت شفاه الزاهد مازالت في أذني ومازالت كلماته تقفز، من عضو لعضو: من قلبي إلى كليتي ومن كليتي إلى رئتي ومن رئتي إلى حنجرتي تختفي. "لقد خدعنا..." إن لم يكن ذلك حقيقياً فما هو إذن؟

صرخت: "أخي فرانسيس، أخي فرانسيس، النجدة، النجدة"!

نهضت، واتجهت نحو الباب ووقفت هناك أحدق في الخارج. كان الثلج في كل مكان. وبدأ الفجر بالصعود من الأفق، لقد تلمس طريقه عبر الثلج، كان يختفي في بعض الأحيان ويسقط مثل رجل، لكنه كان يرفع نفسه ثانية، كان يمسك ضوء النهار في مشكاة معتمة ويجاهد ليضيء العالم. لم أستطع الرؤية، إنها تجعلني مريضاً في قلبي. فوقعت على الأرض، وتكورت في كرة مرتجفة ورحت

أضرب رأسي بالأرض الصخرية. وجرى الدم على وجهي، ولكنني بدلاً من المعاناة شعرت براحة ما. فنهضت. ستظهر لي علامة، قلت لنفسي، علامة تجعلني أفهم، بعض علامة من الرب: طائر، ضربة رعد، صوت. من يدري؟ كان صوت الرب غنياً ومتنوعاً. كان سيتكلم إليّ ويوضح لي شيئاً مما أعاني من أجله.

لقد مضت عدة أيام منذ رأيت فيها فرانسيس لآخر مرة. لذلك ذهبت نحو ملجأه وبدأت أتسلق غاطساً في الثلج بقدمي الغاريتين. وكان عليّ أن أستخدم كل طاقتي كي أمنع نفسي من السباب. فهل تسمى هذه حياة؟ صرخت فحتى الحيوانات البرية لديها شيء، لديها فراء ترتديه. بينما نحن لسنا سوى رئتين، حلزونيتين دون صدفتيهما. تذمرت بهذه الطريقة حتى وصلت أخيراً إلى خط التقاطع الذي يمكن أن يرى منه كوخ فرانسيس. حدقت في كل اتجاه. وبغتة رأيت فرانسيس على قمة حافة عالية وذراعاه ممدودتان إلى الجهتين لذلك بدا، وسط كل الثلج، كأن صليباً أسود قد ثبت إلى صخرة. وخشيت أن يتجمد حتى الموت هناك، فاندفعت بأسرع ما يمكنني لأتسلق الصخرة، وأخذته بين ذراعي وعدت به إلى كوخه ثم ـ إن وافقه ذلك أم لا ـ أشعلت ناراً وأعدت له الحياة. لكنني قبل أن أتسلق حتى منتصف الصخرة، كنت قد أطلقت صرخة عالية. فقد كان فرانسيس معلقاً على امتداد ذراع يلوح على الحافة ويرفرف بهدوء ورقة في الهواء، ذراعاه ممدودتان بثبات ليشكلا صليباً. وأصابني الرعب من فكرة أنه قد يحلق بعيداً، فاستدعيت كل قواي، وتسلقت إلى القمة، واستطعت الإمساك به من طرف ردائه لكنه بهدوء ورقة، كما في السابق، هبط وجلس على الصخرة.

نظر إليّ كأنه لم يكن يعرف من أنا، وكأنه كان مندهشاً من رؤية إنسان. أخذته بذراعي وهبطت الحافة. أسقط وأجرجر نفسي ثانية حتى أرهقت تماماً. لكنني استطعت أن أصل إلى ملجأه. أشعلت النار. وقربت فرانسيس منها، وبدأت في تدليكه وبقوة من أجل أن أدفئ دمه. شيئاً بعد شيء عاد إلى الحياة وتعرّف عليّ:

تمتم: "لماذا هبطت بي إلى هنا يا أخي، كان من الأفضل لي أن أبقى هناك."

"سامحني يا أخي فرانسيس فقد كنت سأموت لو بقيت هناك."

"ولكن ألم تر كيف كنت سأطير في الهواء؟ لقد بدأت أموت. لماذا هبطت بي؟" ونظر إلى كفيه، وقدميه المدميتين والمنتفختين.

تمتم منقطع النفس وهو يمسك بي بذراعيه: "إنها تؤلمني يا أخي! أشعر كأن أحداً ما قد دق مسامير في يدي وقدمي. في الليل لا أستطيع ان أغمض عيني إنها تؤلمني كثيراً."

وصمت لدقيقة ثم قال:

"سامحني، يا حماري الأمين. لم تنته عذاباتك بعد. فلم نصل بعد، ولكننا نقترب فاتبعني، ولا تفقد القلب"!

وضع يده على رأسي.

" بارك الله فيك، يا أسد الله الصغير. اذهب الآن إلى كوخك. أريد أن أنفرد بنفسي."

* * *

عدت إلى ملجأي لا أعرف بماذا كنت أفكر. تساءلت، هل يمكن أن تكون هذه هي العلامة التي كنت أبحث عنها من الرب. علامة تحليق فرانسيس في الهواء؟ أجل، فإن لسان الرب غني بلا

حدود، وقد أجابني في تلك الرؤيا. عند الليل أرسل الرب الحلم ليريحني، وفي اليوم التالي أرسل الرؤيا ليوطد عزمي ثانية. إنه يلعب معنا كما يلعب الأب مع أبنائه الصغار حينما يرغب في أن يعلمهم العناء والحب والتحمل. حين دخلت الكوخ الثلجي المنعزل. أخيراً راح عقلي يهدأ.

ذنب واحد، على أية حال، لا يزال يئن في قلبي: الحجلان والدفء والبيلاف. صليت وقررت الذهاب إلى فرانسيس في الصباح لأعترف وأزيح عن كاهلي هذا الثقل وأصعد نحو شجرة الربيع الجديد ويكون قلبي نقياً ومليئاً بالعصافير.

في اليوم التالي وجدت نفسي عند قدمي فرانسيس. واعترفت له بإثمي، ثم أحنيت جبهتي إلى الأرض أمام قدميه وانتظرت. لكن فرانسيس لم يتكلم. ولم يتهد. كنت لا أعي شيئاً عدا الارتعاش الذي في إصبعي الكبير من كل قدم. انتظرت وانتظرت. وفي الأخير لم أعد أطيق هذا الصمت.

سألته: " حسن يا أخي فرانسيس. بأية كفارة ستعاقبني؟"

"إن إثمك لمحزن بشدة يابني. وعليه فلن أضع الخبز ولا الماء في فمي لمدة ثلاثة أيام بلياليها."

فصرخت: "ولكنك لم تكن الآثم. بل أنا، أنا من يجب أن يعاقب"!

"وأي فرق في ذلك يا أخي ليو؟ ألسنا واحداً؟ لقد أذنبت معك، فقد صمت معي وعشنا معاً لوقت طويل: كيف لم تفهم هذا؟ اذهب الآن مع بركات الله"!

وانحنى ليساعدني على النهوض. قبلت يده، وفجأة غلبتني الدموع.

وصرخت باكياً: "لن أفعلها أبداً. أقسم لك يا أخي لن أفعلها ثانية."

"لقد أخبرتك من قبل أن كلمتي "أبداً" و"دائماً" تعودان إلى الرب وحده. وحده لا غيره ينطقهما ... فاذهب. ولكن انتبه يا حمل الله: كنت على قيد شعره من شرك الذئب"!

* * *

بدأ الثلج يذوب. وأضحت السماء صافية، وتحت الثلج بدأت السيول بالجريان على الأرض هابطة نحو السهل. ورفعت الأجمات هاماتها واندفعت نحو الضوء، في كل مرة يهب النسيم فيها تذوب رقائق الثلج التي مازالت عالقة على أوراق الأشجار وتسقط على الأرض بخفة. وسمعت أول الديكة وهو يصيح في الغابة طارداً الشتاء بصيحاته. وسمع قلب الإنسان أخاه الديك وأجاب بجذل من أعماقه السحيقة. كان من الواضح أنهما كليهما ينتميان إلى نظام واحد هو الربيع.

السماء والأرض كلتاهما قد أصبحتا أيضاً رقيقتين، ولم تعودا توجعان البشر بقسوة شديدة، وأحياناً حينما أذهب لجلب حصة فرانسيس اليومية من الخبز خارج ملجأه كنت أرى ابتسامة ثانية على شفتيه الذابلتين.

طفق يقول لي بفرح: " إن الربيع آت يا أخي ليو. الربيع سيدة الأرض المليئة بالجمال. انظر حيثما وضعت قدمها ذاب الثلج."

وأجبته في أحد الأيام: " إن أشجار اللوز تتهيأ للازدهار على السهل."

"إن أردت بركاتي يا أخي ليو فلا تفكر بأشجار اللوز المزهرة، لأن المغوي يقبع في غصونها ويشير إلينا. وعوضاً عن ذلك وجّه نظرك إلى الداخل وحدق في شجرة اللوز التي في داخلك في روحك. وهي تزهر."

اعتدت أن أجلس لساعات في مدخل كوخي وأراقب الربيع وهو يأتي، وكنت أشعر أن هذا الفعل هو صلاة صامتة، صلاة مليئة بالعرفان الموجه إلى الله. مع تحول المناخ بدأت أهبط إلى قدم الجبل لأقطع القصب والصفصاف لأصنع بعض السلال أثناء النهار. وخلال عملي كنت أجد أفكاري تتجه نحو الله. بسرعة أكثر، سرعة أكيدة، أكثر مما لو ركعت للصلاة. وسررت لأنني كنت قادراً بهذه الطريقة على أن أجمع بين العمل اليدوي والصلاة.

في أحد الأيام وبينما كنت جالساً خارج كوخي أنسج سلالي، سمعت أحداً يخطو فوق الصخور ويتنفس بصعوبة. وعرفت إنه ليس الأخ ذئب، لأنه لا يلهث أبداً ويقترب بخطوات صامتة. نهضت وركضت نحو الصوت ولم أر إلا الأب سلفستر!

فصرخت: "مرحباً! مرحباً"!

وقف قلبي من الفرح لأن أرى أحد الإخوة الرهبان بعد شهور طويلة. عانقته وأجلسته إلى جانبي.

"لا أملك شيئاً أقدمه لك سوى الخبز والماء."

لكن عقل الأب سلفستر لم يكن في الطعام. وسألني بصوت متألم: "كيف حال الأخ فرانسيس."

"إنه حي ويعاني، لن تعرفه، إنه يضمحل في الصيام والصلاة. في كل صباح قبل الفجر، في الساعة التي ينام فيها لبضع دقائق يأتي صقر ويوقظه. وتظن أن الرب قد أمر حتى الطيور بأن تعذبه."

"إن أباه على فراش الموت يا أخي ليو، وبعث لي لأخبر فرانسيس ليأتي ويراه قبل أن يفوت الأوان. يبدو أنه نادم على كل ما فعله. ربما يريد أن يطلب من ابنه أن يسامحه."

وفكرت في تلك الأيام الأولى ذات الروحية العالية حين نفضنا عنا تراب العالم من أقدامنا وسرنا على نيران الرب. كم من السنوات قد مرت يا إلهي، كم من القرون مرت منذ ذلك الحين؟

"أين ملجأه يا أخي؟"

قلت: "سآتي معك. إنه هناك بين الصخور. آمل أن لا نجده يصلي، وإلا فلن يكون قادراً على أن يكلمنا."

تسلقت إلى الكوخ فوجدته خالياً.

قلت: "لابد أنه يصلي في الكهف. دعنا نذهب إلى هناك، ولكن بهدوء يجب أن لا نزعجه."

توقفنا عند مدخل الكهف. في البداية لم نر شيئاً بسبب الظلام، ولكننا كنا نسمع تنهيداً وصوتاً يتوسل: "آه يا أملي المسكين المصلوب، حبي المسكين المصلوب، أيها المسيح"! وبعد صمت استأنف الصوت الكلام بيأس أشد وخضوع أكثر: " آه يا أملي المسكين المصلوب، يا حبي المسكين المصلوب آه أيها المسيح"!

ودخل الأب سلفستر، ولمحت رداء فرانسيس. وهمست في إذن الأب سلفستر: "لا تقترب منه بحق الله. لقد أمرني بشدة أن لا أناديه أو ألمسه حين يصلي. قال " إن تلمسني فلسوف أتحطم إلى آلاف القطع الصغيرة."

وبقينا خارج الكهف، أحدنا على يمين المدخل والآخر على يساره، ننتظر الفرصة كي نكلمه. كانت الشمس قد وصلت إلى كبد السماء، ثم مالت، وكادت تغرب، إلا أن فرانسيس مازال راكعاً دون حراك وذراعاه ممدودتان على وسعهما، وهو مستمر في تضرعه، مكرراً ذات الكلمات مرة بعد أخرى. وأخيراً وعند

الغسق، سمعنا تنهيدة عميقة يائسة، ونهض فرانسيس من مكانه وخرج إلينا وهو يترنح وكأنه ثمل، عيناه محمرتان من الدموع التي تجري منهما. مددنا أذرعنا إليه، لكنه لم يرنا كان بؤبؤا عينيه قد انقلبا إلى الداخل. كانا ينظران إلى أحشائه. تقدم بضع خطوات، متعثراً لأنه لم يستطع الرؤية. ثم توقف، وكان يبدو أنه يجاهد ليتذكر في أي اتجاه يسير ليجد كوخه. رفع يديه إلى صدغيه: وشعر بالدوار. ولكنه سرعان ما استدار دورة كاملة وعاد ليمشي.

تبعناه على أطراف أصابعنا كي لا نفزعه. وحين اقترينا أخيراً من ملجئه سمع صوت الرمل الذي تحرك تحت أقدامنا فالتفت. لم يعرفنا في البداية، ولكن حالما اقترينا منه راح يشع، وارتجفت شفتاه ثم ابتسم. ورفع ذراعيه: وحضن بهما الأب سلفستر.

"أخي فرانسيس، أخي فرانسيس، لقد افتقدناك كثيراً تسرني رؤيتك"!

لم يقل فرانسيس شيئاً. وبدأ يتأرجح، فأمسكت به من تحت إبطيه وأدخلناه إلى المأوى وأجلسناه على جلد الخروف الذي جاءه به الأخ ذئب.

التفت إلى الأب سلفستر وسأله بقلق: "ما الذي حدث للإخوة؟"

أطرق الأب سلفستر برأسه ولم يقل شيئاً.

فكرر فرانسيس كلامه بألم وهو يتشبث بيد الكاهن: "ما الذي حدث للأخوة؟ لا تأخذك الشفقة عليّ أيها الأب. أريد الحقيقة"!

"لقد غيروا مسلكهم يا أخي فرانسيس. لقد هبطوا إلى السهل لكي يرعوا قطيعك في مراعي غنية."

"وماذا عن الفاقة المقدسة؟"

"إنهم يريدون أن يلبسوها ويطعموها ، أو يسمنوها ، ويلبسوها خفين في قدميها. وتبدو بورتيونكولا مدقعة بالنسبة لهم وحقيرة حتى يتنازلوا للعيش فيها. فساروا في كل المدن والقرى ليجمعوا الذهب، وقد أرسى الأخ الياس للتو أساس كنيسة كبيرة ذات ثلاثة طوابق، وأرسل للحرفيين المشهورين والرسامين ليزينوها. لقد قال أن الفاقة المطلقة يجب أن تسكن في قصر، وهذا هو بالضبط ما يعملون لأجله.

"والحب المقدس؟"

"لقد تبعثر الإخوة، البعض من هنا والبعض الآخر من هناك. رفض إخوتنا القدماء الأصلاء إطاعة الرعاة الجدد، وحين يقابلهم الجدد يضحكون من أرديتهم الممزقة وأقدامهم العارية وبدلاً من أن يخاطبوهم بالإخوان ينادونهم ب "الحفاة."

"والبساطة المقدسة؟"

"وهذه ماتت أيضاً يا أخي فرانسيس. فقد فتحوا المدارس. وهرع البعض منهم إلى بولونا والآخرون إلى باريس وهم يدرسون حتى أصبحوا أذكياء بشكل خطير حتى أن بإمكانهم أن يُلبسوا البرغوث حذاءً. إنهم يجمعون المجلدات السميكة ويعتلون المنابر ليلقوا الخطب، يشقون ويكدحون ليبرهنوا أن المسيح إله وقد كان مصلوباً ولسوف يبعث حياً في اليوم الثالث من بين الموتى. إنهم يخلطون الكثير حتى ينقلب دماغك من الأعلى إلى الأسفل ويتحول قلبك إلى جليد. في اليوم الذي بدأ فيه الحكماء بالكلام كان آخر يوم يبعث فيه المسيح."

وفجأة قبل أن نلحق في منعه. سقط فرانسيس إلى الأرض على

وجهه. وبقي هكذا لوقت طويل دون أن يتكلم، عدا أننا نسمع بين كل لحظة وأخرى إيلاماً: "إلهي. آه يا إلهي، لماذا؟ لماذا؟ إنها غلطتي"! ثم يسقط في الصمت ويبدأ في لطم جبهته إزاء الأرض. ورفعناه عنوة. فنظر حوله.

"أخي ليو"!

"أنا هنا يا أخي فرانسيس، تحت أمرك."

"افتح الإنجيل، وضع إصبعك على آية، وأقراها."

أخذت الإنجيل وفتحته، ثم وضعت إصبعي في وسط الصفحة. ثم ذهبت إلى المدخل حيث الضياء أكثر.

"إقرأ؟"

انحنيت وقرأت: "إن الساعة آتية، إنها آتية بالتأكيد، حين تتبعثرون، وكل واحد منكم يذهب إلى بيته فتتركوني وحيداً.".

وأمرني فرانسيس بصوت متألم: "المزيد! وماذا يقول أيضاً؟"

"لكنني لست وحيداً، لأن الأب معي."

"كفى"!

وأخذ بيد الأب سلفستر.

"لقد سمعت صوت المسيح يا أخي. رغم أن الإخوة الرهبان قد تبعثروا، فيجب ان لا تشعر بالحزن. أنا نفسي شعرت بالألم يغمرني للحظة، ولكن، كما ترى، لسنا وحدنا. إن الأب معنا، لذا، لماذا نخاف؟ سوف يعود بالغنم نحو الطريق ولسوف يربي قطيعه على الجوع مرة أخرى."

وتبع ذلك صمت طويل. وانغمس فرانسيس في اليأس، وفي الأمل أيضاً. كنا نحس أنه بعيد عنا تماماً، بعيد في الطبيعة. بين الحين

والآخر نسمع اصواتاً غريبة تخرج من فمه ثم يغط في صمت مطبق، أصوات مثل النباح الآني من زاوية بعيدة من الأرض. كان كأنه كلب الراعي الذي ينبح على الأغنام ليجعلها تجتمع وتعود إلى الحظيرة. وغلبه النوم للحظة، ولكنه سرعان ما فتح عينيه ونظر إلينا مبتسماً.

"لقد حلمت الآن حلماً شاذاً يا إخوتي. اسمعوا: كان الإخوة الرهبان مجتمعين في بورتيوتكولا وكان إلياس يقسم العالم فيما بينهم. ومرق راهب حافي القدمين ويرتدي ثوباً من الأسمال حين رآهم توقف وهز رأسه. فغضب منه أحد الإخوان وصاح به "ماذا تفعل هنا، تحدق فينا هكذا وتهز رأسك؟ لماذا تتجول حافياً برداء مليء بالثقوب، شعرك طويل ولم تستحم ملطخاً بالطين؟ ألم تعرف أن قائدنا الجديد قد طرد الفاقة من الرهبنة؟ إذهب إلى ديرك واستحم والبس خفاً ونظف رداءك كي لا تضعنا في وضع مخجل." أنا أرفض! " أنت ترفض. أليس كذلك؟" صرخ إلياس وهو يقفز على قدميه. "سوف أجلدك أربعين جلدة!" "هيا" "ما اسمك؟" " اضربني أولا أربعين جلدة."... وحين ضرب الياس الراهب ذو الأسمال وجرى الدم منه، كرر: "والآن أخبرنا عن اسمك" فأجاب الآخر:"فرانسيس، فرانسيس الأسيزي." ونظر إلينا بعد أن اختفت الابتسامة عن وجهه.

وتمتم: "لقد جلدوني وطردوني حتى في منامي." ثم قال: "الحمد لله." أغمض عينيه، وأدركنا أنه قد شرد بذهنه وكان بعيداً بعيداً عنا.

نظر الأب سلفستر نحوي كأنه كان يأمل أن أمنحه الشجاعة ليتكلم مع فرانسيس.

قلت: "أخي فرانسيس، عد من حيث أنت، وأنصت. لقد جلب لك

الأب سلفستر رسالة تحمل خبراً حزيناً لك. فاسمح له بالكلام."

انتصبت آذان فرانسيس، كان يجاهد كي يسمعني.

"ماذا كنت تقول يا أخي ليو؟ رسالة؟ أية رسالة؟"

"اسأل الأب سلفستر، هو الذي سينقلها إليك."

قال وهو يتشبث بيد الكاهن: "سلفستر، يا أخي، إن قلبي يمكنه أن يتحمل أية رسالة تحملها. ما هذه الرسالة؟ من بعثها؟"

"إنها من أبيك، يا أخي فرانسيس، من السيد بيرناردون."

عقد فرانسيس يديه وأطرق برأسه ولم يقل شيئاً.

كرر الأب سلفستر: "إنها من أبيك. لقد بعثني لأقول لك أنه يريد ان يراك ويتكلم معك قبل أن يسلم الروح إلى الله."

بقي فرانسيس دون حراك.

"والعزاء لأمك. إنها تجثم على وسادته تبكي وتندب. إنها بانتظارك، بانتظارك فقط، يا أخي فرانسيس، إنها تنتظرك لتأتي وتراك فترتاح ... فتعال"!

لم يتكلم فرانسيس ولم يتحرك.

"ألم تسمع؟ بماذا سأجيبهم؟"

ونهض فرانسيس بغتة، مد ذراعه نحو صقلية، ورسم الصليب في الهواء.

وهمس: "وداعاً يا أبي، إغفر لي"!

وعاد إلى سلفستر. "إن وصلت إليه في الوقت المناسب فأخبره يا أخي أنني لا أستطيع ان أترك الجبل. أنت تعلم حين يصطاد الأسد غزالاً فإنه يظل يداعبه ويضربه بالأرض. ولقد اصطادني الرب بهذه الطريقة. فلا مهرب لدي، إنني أتلوى بين مخالبه ولا أستطيع الهرب...

قل لأبي: "حتى نلتقي ثانية"!

"وماذا عن أمك؟"

"الكلمات نفسها: حتى نلتقي ثانية"!

وسأله الأب سلفستر بتردد: "ألا تشفق عليهما؟ إنهما والداك! اطلب الإذن من الرب. إن طيبته لا حدود لها، ولسوف يوافق على طلبك."

"لقد سألته مرة."

"وماذا كان جوابه؟"

"أنا أبوك وأمك، هكذا كان جوابه."

إنحنى الأب سلفستر وقبل يد الأخ فرانسيس.

"الوداع يا أخي فرانسيس. أطع أوامر الرب."

وأجابه فرانسيس: "حتى نلتقي ثانية يا أخي." وأغمض عينيه.

كان قد رغب في أن ينفرد بنفسه، فتركناه وذهبنا إلى كوخي حيث توقف الأب سلفستر للحظة لينظر فيما حوله. صخور وأحجار كبيرة وبعض أشجار العليق الضعيفة، هذا هو كل ما رآه على الأرض، وفي السماء ثمة صقران يحومان.

تمتم: "إن الرب يرتدي تعابير مختلفة في الأسفل عند السهل. إن (يهوه) يسكن القمة، ويعيش المسيح تحت ويتنزه في الحقول. كيف تطيق العيش هنا يا أخي ليو؟ وأجبته "أنا لا أطيقها" ولكن فرانسيس يطيقها عن كلينا. ثم ذهبت إلى كوخي لأجلب له بعض الخبز.

"هذا من أجل الرحلة. ستجوع."

تعانقنا.

وعاتبني عند الرحيل. "اعتن بفرانسيس جيداً، إن الرب يمزقه إلى إرب وسوف يأكله. ليست سوى عينيه المجروحتين مازالتا تنبضان

بالحياة لا شيء غير ذلك. ولو انطفتا أيضاً يا أخي فلسوف ينطفىء الضياء من العالم."

* * *

مرة أخرى طلع القمر وغاب. جاء الربيع أولاً ثم الصيف جاء وذهب. من مرتفعنا راقبنا التغير في وجه الأرض. فتحولت الحبوب الخضر إلى صفر ثم حصدت، كانت الكروم مجرد عقب سوداء أورقت وتبرعمت. ثم تعلقت الأعناب، وقطفت. خلال كل هذا الوقت بقي الجبل كما كان، مجدباً من دون أزهار ومقفراً. وجاء أيلول، الخريف: واقترب يوم العيد المفضل لدى فرانسيس. لم يعد يأكل الآن سوى لقمة خبز، ولا يشرب سوى رشفة ماء. إنه يمسك عن الطعام والشراب من أجل الصليب الحبيب. كانت هذه العبادة قد بدأت منذ وقت مبكر منذ سنوات، وكان قد كتب في اللائحة، بخط يده: "إننا نعبدك، يا إلهي، وننشد مدائحك، لأنك بصليبك المقدس تلطفت وعالجت ذنوب العالمين. والآن بينما يقترب الرابع عشر من أيلول، تاريخ عيد تمجيد الصليب، كان فرانسيس يشبه شمعة سريعة الذوبان أمام الصليب. لم يعد قادراً على النوم. كان يبقي عينيه مثبتتين على السماء ليلاً ونهاراً، كأنه كان يتوقع من رمز الثالوث المقدس أن يظهر أمامه من بين التماعات البرق والأم الملائكية. أخذني مرة من يدي وأشار إلى السماء.

"انظر أنت أيضاً يا أخي ليو. ربما ستراه. يقول الكتاب المقدس أن الصليب سيلوح للعيان في السماوات حين يقرر الرب موعد يوم الحساب. أخي ليو، لدي حدس أن الرب قد قرر أن الموعد سيكون الآن"!

وحدق في يديه وقدميه.

"إن جسد الإنسان صليب يا أخي ليو. انشر ذراعيك وسترى. وفوق ذلك الصليب المسيح."

ورفع ذراعيه باتجاه السماء.

تمتم: "أيها المسيح يا حبيبي، اطلب منك معروفاً واحداً، معروفاً واحداً قبل أن أموت. دعني أشعر بمعاناتك وآلامك القدسية في جسدي وروحي، دعني أشعر بها بأشد ما يمكن لجسد فان آثم ... معاناتك وآلامك القدسية يا إلهي..." واستمر يكرر ذلك مرة بعد مرة، كأنه يهذي.

ولف يديه وقدميه بردائه.

وهمس: "إنها تؤلمني! اذهب يا أخي ليو. اتركني وحدي مع آلامي. عليك تحل بركتي."

تركته وأنا أشعر بضيق شديد. إلهي، كيف ستخمد ناره من دون ان يتحول إلى رماد! كلما اقترب عيد الصليب كنت أفكر بالإفراط في الذوبان اليومي الذي يأخذ بفرانسيس بسبب الفرح والألم والأوجاع. كان يحاول أن يخفي عذاباته، لكنني أحسست أن الآلام التي في يديه وأقدامه لا يمكن احتمالها. كان يقاتل بجسده المنهك الواهن كي يعيش آلام المسيح مرة أخرى ليتحمل معاناتها فوق البشرية. هل بإمكان اللحم البشري أن يتحمل مثل هذا البلاء؟

وجعلني قلقي أزحف سراً كل يوم إلى مكان خلف صخرة تقف مقابل ملجأه. بإمكاني من هناك أن أراقبه من دون أن يراني. لم يعد يذهب إلى ملجأه أبداً. وبدلاً من ذلك تسلق الحافة التي خارج الكوخ، وبقي هناك طوال النهار ويداه مرفوعتان في صلاة، صامتاً

لا يتحرك، كان قد تحجر. قبيل المساء راح ألقٌ يلعق تعابيره واشتعل شعر رأسه.

في عشية عيد تمجيد الصليب لم أستطع النوم. فانحنيت قليلاً لأصلي قبل منتصف الليل لكنني لم أستطع أن أبعد فرانسيس عن عقلي. كان هواء المنطقة المجاورة يشير إلى حريق، وشعرت أن رعداً مريعاً قد سقط على رأس فرانسيس. نهضت وخرجت. كانت السماء فوقي مشتعلة. والنجوم تتقافز منها الشظايا وتتوجه نحو الأرض. كان الدرب الحليبي يشع بلمعان، وكان الليل شفافاً والصخور مضيئة. وطارت طيور الضوع من شجرة لشجرة مطلقة صرخات حادة، وهب نسيم رقيق، نسيم الربيع، النسيم الذي يغري البراعم بالتفتح. فوقفت من دون حراك ونظرت حولي لأدرك مصدر هذه العذوبة والهدوء الرائق. كانت السماء مليئة بالسيوف، بينما الأرض في الأسفل كانت مليئة بالطيبة والطاعة، مثل زوجة متذمرة.

كلما اقتربت من كوخ فرانسيس كلما ازداد ارتجاف قلبي: في مثل هذه الليالي، حيث تهتاج السماء وتخضع الأرض، وحينما يهب نسيم كهذا في وقت الربيع في مثل هذه الليالي، تحدث المعجزات. كنت قد تحصنت خلف صخرة ونظرت. كان فرانسيس راكعاً أمام كوخه يصلي ورأيت قرصاً مشتعلاً من النار يرتعش يلعق وجهه ويديه. كنت أرى بوضوح يديه وقدميه تلمع في وهج أشعة البرق كلا، لم تكن تلمع، بل تشتعل!

راقبته لوقت طويل وأنا أقبع من دون حراك خلف صخرتي. كان النسيم قد خمد، ولم تتحرك ورقة. كانت أكبر النجوم مازالت تومض وترقص في السماء. وزقزق أول طائر غريد في شجرة هناك.

كان الليل يلم نجومه وظلمته ليستعد للرحيل، حتى ظهر شعاع أحمر شديد التوهج في السماء. رفعت نظري. وحطت زرافة لها ستة أجنحة نارية. وفي وسط النيران، رأيت المسيح مصلوباً وملفوفاً بالريش. جناحان عانقا جذعه والإثنان الأخيران واحد على كل جهة، قد لفا ذراعيه. كان الفرن قد أحيط بدائرة من اللهب التي كان شعاعها يهبط وينير السهل الذي في الأسفل. كان اللهب المجنح للصليب قد اندفع فوق فرانسيس بهسيس ولامسه بلمعان البرق فأطلق فرانسيس صرخة تمزق القلب كأن مسامير قد نفذت في جسده، فنشر ذراعيه ووقف مصلوباً في الهواء. ثم سمعت الزرافة ذات الأجنحة الستة تنطق بضع كلمات، سريعاً وبلحن كأنها كانت طيراً. لم أستطع أن أدرك كنه تلك الكلمات، لكنني استطعت تمييز كلمات فرانسيس وهو يصيح: "المزيد! المزيد! أريد المزيد!" وبعد ذلك أجاب الصوت الإلهي: "لا تطمع في الولوج أكثر من ذلك. هنا عند الصليب يتوقف ارتقاء الإنسان. ثم صرخ فرانسيس مرة أخرى يائساً: "أريد المزيد، المزيد، البعث"! وأجاب صوت المسيح من وسط أجنحة الزرافة "حبيبي فرانسيس، افتح عينيك وانظر! إن الصليب والبعث متطابقان." وصرخ فرانسيس: "والفردوس؟" فقال الصوت "إن الصليب والبعث والفردوس شيء واحد." وعند هذه الكلمات الأخيرة سمعت خفقة رعد في السماء كأن صوتاً آخر كان يأمر الرؤيا أن تعود إلى صدر الرب، وبغتة ارتفع الحريق ذو الستة أجنحة مثل وميض برق أحمر وأخضر وصعد بهسيس نحو السماء.

بقي فرانسيس ممدداً على الأرض منكفىء الوجه يتلوى بعنف. فانطلقت من خلف صخرتي وهرعت نحوه. كانت يداه وقدماه تنزفان

بغزارة. رفعته وفتحت رداءه ورأيت الدم ينزف أيضاً من جرح عميق في خاصرته، جرح كان يبدو أنه نتيجة ضربة رمح.

تمتمت وأنا أرشه بالماء ليسترد وعيه " أبتي فرانسيس العزيز. أبتي فرانسيس." لم أعد قادراً على مخاطبته ب "أخي" لم أجرؤ، لأنه يقف الآن أعلى كثيراً فوق رؤوس الأخوة فوق رؤوس كل البشر.

لم يكن يسمعني لأنه كان غاطاً تماماً في الإغماء التام. ولم يتحرك منه إلا وجهه، كان يتجمد ويتغير من الرعب.

غسلت جراحه، لكنها سرعان ما عادت لتنزف من جديد. ورحت أنشج. سوف يجف جسده هكذا. فكرت، سيفقد كل دمه وسيموت. لقد انهال الرب عليه بثقل كبير. لقد كان اللطف الإلهي أكثر مما يجب. سيموت...

وفجأة فتح عينيه وعرفني.

وسألني لاهثاً: "هل رأيت أي شيء يا أخي ليو؟"

"أجل يا أبتي."

"هل سمعت أي شيء؟"

"أجل."

"لا تكشف السر يا أخي. اقسم"!

"أقسم لك.... كيف تشعر يا أبتي فرانسيس؟"

"خائف"!

"ألم تغلبك السعادة؟"

"كلا، كنت خائفاً"!

ولمس كتفي. "استعد للمغادرة الآن يا أخي ليو. لقد انتهت الرحلة هنا، سوف نعود إلى بورتيونكولا. سأموت حيث ولدت."

"لا تتحدث عن الموت يا أبتي."

"وعن أي شيء آخر يتحدث البشر، عن الحياة؟، اهدأ ولا تبك. سنفترق للحظة يا أخي، ولكننا سنرجع لنتحد إلى الأبد. بارك الله بالأخ الموت"!

طرحته على الأرض وضمدت جراحه بقطع مزقتها من ردائي. وبعد أن سجدت بين يديه وقدميه، تركت الملجأ وأنا أنشج. كان الفجر يقارب على الاندلاع.

جلست أمام كوخي ودموعي تجري. لقد انتهت الرحلة، تمتمت مع نفسي، لقد انتهت الرحلة. ووصل فرانسيس إلى أعلى قمة يمكن أن يصلها إنسان لقد وصل إلى الصليب. ولايمكن للإنسان أن يعلو فوق ذلك. أما أنا، ما الذي سيحدث لي؟ أين سأذهب؟ سأضيع!

وجاء الكابتن ذئب بعطائنا اليومي. واندهش لرؤيتي وأنا أبكي.

سألني: "ما الأمر؟"

"يريد فرانسيس أن يعود إلى مسقط رأسه. أخشى أنه ذاهب إلى هناك كي يموت يا أخي."

وصار وجه الكابتن ذئب داكناً: "فأل سيء، فأل سيء. أعرف نوعاً من الخراف تقطع حبالها في اللحظة التي تشعر فيها باقتراب الموت، تقفز من حظيرتها وتعود إلى مسقط رأسها... مسكين الأخ فرانسيس!

"لا تحزن يا أخي. إن فرانسيس لا يخشى الموت. إنه يقول أنها ليست النهاية بل البداية، وان حياة الإنسان الحقة تبدأ فقط بعد الموت."

ربما تكون هذه هي البداية له، ولكن بالنسبة لك ولي هي النهاية. لقد أصبحت معتاداً على المجيء إلى مخبأيكما لأجلب لكما كسر

الخبز. كان هذا يجعلني سعيداً: لقد شعرت أنني كنت أقوم بعمل الخير، أما الآن..."

مسح عينيه.

وقال وهو يبتلع لعابه بصعوبة: "حسن. سأذهب لأجد له حماراً يركبه، وبطانية يفرشها على ظهر الحمار كي لا يرض عظامه. دعه يستعد، وسوف أعود"!

التف وراح يهبط الجبل. ومر وقت طويل وأنا أسمع صوت الأحجار وهي تتكسر تحت قدميه.

بعد ساعة كان الحمار يقف أمام كوخ فرانسيس. كان ثمة بطانية حمراء سميكة تغطي ظهر الحمار. كان فرانسيس يعاني من ألم مبرح فرفعناه بروية على قدر ما نستطيع. وعاد دمه ينضح من جديد من خلال الضمادات.

قال وهو يضع يده التي تنضح دماً على الرأس العنيد: "أخي حمل، ليت الله، يتلطف في أحد الأيام وتدخل أنت وهذا الحمار والبطانية الحمراء التي جلبتها لتحميني من الرضوض التي قد يسببها ظهر الحمار لي، الفردوس معاً."

ورحنا نهبط، ونتقدم ببطء شديد جداً. وحين وصلنا منتصف الطريق، أشار فرانسيس إلى الكابتن ذئب بالتوقف. ثم التفت ولوح بيده مودعاً مونت الفرنيا.

"أيها الجبل الحبيب، أيها الجبل الذي وطأه الرب، أشكرك على فعل الخير الذي فعلته من أجلي، أشكرك على الجروح التي شرفتني بها، على ليالي السهاد، على الرعب والدم! لقد قيل أن المسيح حين صلب، أنت وحدك، من دون الجبال، اهتززت وانشطر قلبك إلى

اثنين. وبناتك طيور الحجل قطعن ريشهن وأطلقن العويل ينشدن أغنية الموت، وعيونهن متجهة نحو أورشليم. إن قلبي هو طائر حجل آخر، وهو أيضاً بدأ يندب ويطلق العويل. إن المسيح الذي صلب في الهواء الذي فوق صخورك، قد جلب لي رسالة سرية، وأنا ذاهب. إنني ذاهب عزيزي الفرنيا. وداعاً. وداعاً يا حبيبي. لن نلتقي ثانية. وداعاً إلى الأبد"!

واستأنفنا الهبوط بصمت. حتى عيون الكابتن ذئب قد امتلأت بالدموع وراح يتعثر كثيراً في خطوه.

في القرى المحيطة، عند ذلك الوقت، قفز الفلاحون من أسرتهم فزعين من الوهج الكثيف الذي لا حظوه عند الفجر. وبدأت الأجراس تدق. لقد رأى الجميع شعلة الفرنيا. وكانوا يصيحون: " لقد جعل الله فرانسيس قديساً، لقد جعل الله فرانسيس قديساً!" وانطلقوا رجالاً ونساءً وأطفالاً للبحث عنه، واخذوا المرضى معهم والمعاقين ليشفيهم القديس الجديد بلمسة منه.

وفي الدقيقة التي لمحونا فيها نقترب منه، اندفعوا جميعاً للمس يد فرانسيس وقدميه وركبتيه. لكنه لف يديه وقدميه في ردائه بقوة، وأخفاها كي لا يرى الناس جراحه.

وناداه المرضى مستغيثين: "المسنا أيها الأب المقدس، انظر نحونا، مد يدك واشفنا."

ونسي فرانسيس نفسه للحظة فمد يده من تحت ردائه ليبارك الحشد وحين رأى الناس جرحه جأروا بجنون. واندفعت النسوة إلى الأمام بعباءات مبسوطة ليتلقفن القطرات: وتزاحم الرجال بأيديهم ودهنوا وجوههم بالدم. وتحولت تعابير القرويين إلى الهمجية، وكذلك

أضحت أرواحهم. فقد تاقوا لتمزيق القديس عضوا عضواً ليحصل كل واحد منهم على لقمة من لحمه، لأنهم كانوا يريدونه لهم، يدخل فيهم فيتحدون مع قديس ويكونون بذلك مقدسين. وسيطر عليهم الهياج الأعمى، لقد صارت عيونهم رصاصية وأزبدت أفواهم. فأحسست بالخطر وخطوات إلى الأمام وصحت: " بحق الله، يا أتباع المسيح. دعونا نمر. إن القديس في عجلة من أمره كي يعود إلى أرضه الأم. إن أردتم بركاته أفسحوا له الطريق"!

وصاحت أصوات غاضبة من كل جانب: "لن يمر، لن ندعه يمر! هنا سيترك عظامه هنا، كي يقدس قريتنا."

"وسوف نبني له كنيسة، وسيحج الناس إليه من كافة أنحاء العالم"!

"أمسكه! لا تدعه يمر! إنه لنا! لنا! لنا!"

التفتُ إلى الكابتن ذئب.

"إنني خائف يا أخي. إنهم يريدون أن يأخذوه منا. ساعدني."

أخفى فرانسيس يده المدماة تحت ردائه. كان ينتظر مطرق الرأس ويتصبب العرق من حاجبيه وعادت عيناه لتصبحا جرحين ينزفان.

صرخت: " أشفقوا عليه. ألا ترونه إنه ينزف"!

لكن رؤية المزيد من الدم قد أثارت الحشد من جديد.

"إنه لنا! لنا! لنا!"

"ليس لدينا قديس في قريتنا من قبل. والآن قد أرسل لنا الرب قديساً فهل ندعه يفر؟"

"اجلبوا قطعة حبل! اربطوه"!

وهنا طفح الكيل بالكابتن ذئب. فأمسك بعصا غليظة أخذها

من احد الشيوخ وتقدم إلى الأمام متشبثاً بمقود الحمار.

وجــأر: "أفــسحوا الطّريــق، أفــسحوا الطريــق وإلا فتحــت جماجمكم! لا تنسوا أنني الكابتن ذئب! قفوا جانباً"!

خانت الناس الشجاعة وتراجعوا عن طريقه، لكن النساء قفزن على فرانسيس وغلبهن الهياج فبدأن يجرجرنه من ردائه الذي تمزق وتعرى من أثر ذلك جسده المرضوض الذي يشبه هيكلاً عظمياً.

تمتم فرانسيس وهو ينشج: "يا أبنائي، يا أبنائي."

مد الحمار الصغير ساقيه الأماميتين المرتعشتين وركع. ولما كاد يسقط ضربه الكابتن ذئب بقوة جعلته يقف على ساقيه مرة أخرى. وزاحمه الحشد، لكنه لوح بالعصا: كان ثمة صوت لجمجمة تتكسر.

صرخ بهم وهو يفسح طريقه عنوة ملوحاً بالعصا عالياً ودانياً: "ارجعوا ارجعوا أيها المدنسون اللصوص"!

"كيف تأتي لك أن تتخلى عنا يا قديس الله؟ أليست لديك رحمة؟ أنت تصرخ " الحب، الحب" فأين هذا الحب؟ المسنا، اشفنا"!

وبقي فرانسيس ملتفتاً نحوهم، كان يحدق فيهم، بينما يجري الدم والدموع من عينيه. "إلهي... إلهي..." ظل يتمتم غير قادر على أن ينطق بأي شيء.

وأخيراً شاء الرب أن نهرب منهم. وصلنا السهل وعدنا نتنفس بحرية. قال الكابتن ذئب ضاحكاً: "لقد أرادوا التهامك حياً يا أخي فرانسيس. لكنهم لم يستطيعوا، الشكر لهذه الهراوة المقدسة. بارك الله فيها. سآخذها بإذنك معي مع الأشياء الأخرى حين أصعد إلى السماء."

وصلنا في نهاية الأمر إلى قرية حيث توقفنا لنستريح. كان من

الضروري بالنسبة لي أن أغسل جراح فرانسيس واجد بعض الضمادات النظيفة لاضمد جراحه. كان ثمة ينبوع في مركز القرية. بقيت هناك إلى جانب فرانسيس بينما ذهب الكابتن ذئب ليتسول. وعاد إلينا سريعاً بقطعة قماش. مزقتها وشددت الجراح التي في يدي فرانسيس وقدميه.

"هل تشعر بألم يا أبتي؟"

ونظر نحوي مندهشاً. وتساءل: " ألم؟ من يشعر بالألم؟ وأي ألم؟ لا أفهم ماذا تقصد أخي ليو."

وحقاً لاحظت للمرة الأولى أن وجهه قد تغير تماماً. كان مشعاً بالهدوء والجمال وثمة هالة تتوج شعره بينما التمعت يداه وقدماه.

جلست عند حافة الينبوع وراقبت فرانسيس، راقبته وهو يبتعد، يرحل من دون أن يلتفت حتى للنظر إليّ. الرب، الرب وحده ما يشغل قلبه الآن. لقد انتهت رحلتي أنا أيضاً. انتهت! وبقيت في منتصف الطريق. ولن أرحل مرة أخرى إلى جانبه.

تنهدت. التفت فرانسيس ونظر إليّ لوقت طويل، كانت ثمة ابتسامة مريرة قد ارتسمت على شفتيه المرتعشتين.

قال أخيراً: "أخي ليو هل يمكن أن تجد قصاصة ورق وريشة؟"

فركضت إلى كاهن القرية وعدت بالريشة والورقة:

"لقد جلبتها يا أبتي فرانسيس."

"اكتب."

انحنيت على الورقة وانتظرت، والريشة بيدي.

"هل أنت جاهز يا أخي؟"

"جاهز."

"اكتب!

أنت مقدس يا إلهي. أنت إله الآلهة، يا من
خلقت وحدك المعجزات.
أنت قوي وأنت عظيم، أنت الأعلى!
أنت طيب، طيب جداً، أنت الأطيب.
أنت الحب والحكمة والتواضع والصبر.
أنت الجمال، والثقة والسلام والفرح.
أنت أملنا، وأنت العدالة، وأنت كل ثروتنا.
أنت حامينا، أنت الحارس والمدافع.
أنت الحب العظيم الذي في قلوبنا!

وبينما كان يملي عليّ ازداد حماسة شيئاً فشيئاً. وراح أولاً ينقر بيديه وقدميه، ثم وعلى حين غرة حاول الوقوف والرقص. لكن ساقيه لم يحملاه فعاد لينهار على الأرض.

وقال مذهولاً: " أي فرح هذا وأية سعادة! لقد هبطت السماء إلى الأرض. كل الكائنات التي حولي ليست بشراً بل نجوماً ... هل كتبت كل شيء يا أخي ليو؟ كل شيء؟"

أجبت: "أجل يا أبتي كل شيء." وحالما قلت ذلك شعرت بأفعى تعض قلبي. كانت روحي تشعر بالغيظ، لأنني لم أشاركه السعادة التي يتحدث عنها. نظرت حولي فلم أر أحداً. حتى فرانسيس تركني ورحل بعيداً بعيداً وإلى الأبد.

"اكتب إضافة يا أخي ليو. اكتب تحتها بحروف كبيرة: إن الرب يدير ملامحه نحوك كيف يتنظف وجهك ويشع يا أخي ليو. إن الرب يضع يده على قلبك ويمنحك الطمأنينة.

"هل كتبت ذلك؟"

أجبته: "أجل يا أبتي فرانسيس." وامتلأت عيناي بالدموع.
أعطني الورقة والريشة. أريد أن أضيف شيئاً بنفسي."
حاول أن يمسك الريشة لكنه لم يكن قادراً على أن يطبق يده. واستطاع بعد جهد كبير أن يخط جمجمة في أسفل الورقة ورسم صليباً فوق الجمجمة ورسم في أعلاها نجمة.
"خذ هذه الورقة واحتفظ بها معك دائماً. كلما غلبك الحزن، أخرجها من تحت ردائك وانظر إليها فتذكرني وتتذكر كم أحببتك."

كلما تذكرت تلك الأيام التي رحنا فيها عائدين إلى تربة الوطن، كلما تأكدت أن جيلز كان على حق: فالقديس يضوع برائحة تنتشر نحو بيوت الناس. إنها تجتاز الجبال والغابات، وتدهش كل إنسان، وتغلفه بالخوف والقلق. وتقيد كل ذنوبه في عقله في كل لحظة خور أو نذالة أو وهن في الروح كان يظن أنه قد نسيها، وظن أن الزمن قد محاها، فجأة تتفتح فكوك الجحيم على وسعها تحت قدميها، وهو المضطرب القلب، يزفر الهواء، ويحول وجهه نحو الرائحة وينطلق بخطى متعثرة ليجد مصدرها.

هرع الأخوة الرهبان. كل الذين بقوا مخلصين. هرعوا نحو بورتيونكولا. كان فرانسيس قد فقد أغلب دمه. وضعناه في كوخه على الأرض وتجمع حوله الإخوان يقبلونه بتكرار ويتوسلون إليه أن يصف لهم دون إبطاء كيف جرح كيف كان رمز المسيح المتوهج مسمراً على الأجنحة، وما هي تلك الكلمات السرية التي أسرها إليه إبن الله. كان فرانسيس وهو يخفي يديه وقدميه قد أصابته نوبات من الضحك والبكاء. كم كان فرحه كبيراً. لقد دحر الألم: لقد شعر أن شخصاً آخر يتألم، شخصاً غيره قد غادر هذا العالم من قبل، وهو ينظر إلينا بعطف.

وراح الحجاج من المدن الكبيرة والقرى البعيدة يفدون بإستمرار وكان دليلهم إلى كوخنا عطر القداسة. البعض منهم كانوا مصابين بعاهات في الروح وآخرين في الجسد. وكانوا يأتون ليلمسوا فرانسيس ويقبلوا أقدامه. كان يتكلم كلمات بسيطة، لكنهم نسوها. كلمات مثل: الحب والانسجام والتواضع والأمل والفاقة.

وحين كان ينطق هذه الكلمات بلسانه يكون لها وقعها العميق المليء بالغموض والثقة. وكان الناس مسرورين. كانوا قد اندهشوا من إكتشاف كم هو الجمال سهل، وكم هو قريب منهم، وعاد الكثيرون إلى بيوتهم متغيرين، جميلين، حتى صعب على ذويهم التعرف عليهم. لذلك أسرع بأقصى ما تستطيع أن تشرب قطرة من الماء الخالد الذي ينسكب من فم القديس.

في أحد الأيام أغمض فرانسيس عينيه: كان متعباً. وكان الجو حاراً. بشدة فجلست إلى جواره متصالب الساقين أبرده بمروحة من أوراق الجميز. حتى أقتربت سيدة عجوز ترتدي ثياباً ارستقراطية وهي تمشي على أطراف أصابعها كي لا تزعجه. ركعت إلى جانبه من دون ان تتكلم، إنحنت لتقبل يديه وقدميه: ثم مسحت بحنان شعره الذي كان مبتلاً بالعرق. كم كان رقيقاً لطفها حتى أنني نويت أن أعرف هوية تلك المرأة العظيمة التي كانت تشد خمارها الأسود بقوة. حدقت في فرانسيس، ولم ترفع ناظريها عنه. وتحركت شفتاها بغتة:

"يا ولدي ..." ثم انفجرت بالبكاء.

فوثبت على قدمي. لقد فهمت.

همست: " السيدة بيكا، السيدة النبيلة بيكا."

أزاحت خمارها قليلاً. كان وجهها قد ازدادت تجاعيده، وصار شاحباً حد الموت. هزت رأسها.

"آه يا أخي ليو، لقد تركت ولدي تحت رعايتك، والآن أنظر كيف تعيده إلي"!

"لست أنا من فعل ذلك يا سيدة بيكا. بل هو الله..." ثم ثبتت عينيها الدامعتين مرة أخرى على ولدها.

حقاً فلقد أصبح، هذا الإبن، هذا الإبن العزيز، ليس أكثر من خرقة: جرح واحد كبير يرقد على الأرض في بركة دم.

همست: "هل هذا هو ولدي، هل هذا هو فرانسيس؟" حدقت فيه عبر دموعها وهي تجاهد لتتعرف عليه.

سمع فرانسيس الهمس. فتح عينيه ورأى أمه فعرفها في الحال.

"أماه، أماه، ها قد أتيت!" ومد لها يده.

"ولدي.. ابني. لا أعرف بماذا أناديك. إنني أقبل الجروح الخمسة التي وسمك بها الرب. جئت لأطلب منك معروفاً. تذكر الحليب الذي شربته من صدري، ولا ترفضني"!

"بالتأكيد، بالتأكيد يا أمي، أتذكر كل شيء وسآخذ معي كل الذكريات وأسلمها إلى الرب كي يقدسها. أي معروف تطلبينه؟"

"أن تقص لي شعري وتناديني بالأخت بيكا، دعني أذهب إلى سان داميانو."

كنت مندهشاً تماماً. ماذا عساي أن أقول، كل من يحب الله لا يحب شيئاً آخر، ولا يعطف على أي شيء في العالم، وإن روحه تشتعل، وحتى أمه وأبيه وأخوته وأخواته ينطوون في لهبه ويستهلكون، كما الفرح والمعاناة والثروة وكل شيء؟

وقلت: "إنني أتذكر الوقت في صقلية حين بدأ الحارس يصيح "حريق"! كان ذلك عند منتصف الليل. وقرعت الأجراس، واندفع السكان إلى الشارع نصف عراة، ولكنه لم يكن حريقاً، بل كانت روحك، روحك يا أبتي فرانسيس، إذ احترقت فيها كل الخليقة. أنظر: كيف تلاشت أمك للتو وتحولت إلى رماد."

لم يقل شيئاً. كان شاحباً حد الموت، وطفق ينظر إلى يديه وقدميه ويعض شفاهه.

"هل تشعر بألم يا أبتي؟"

واستعان بكل قوته ليرفع نفسه.

"دعه يعاني، دعه يتأوه في النار. بالنسبة لنا، سوف نرفع رؤوسنا عالياً! نذكر الأغنية التي كان يغنيها الأطفال الثلاثة: حنانيا وميشيل وأزاريا في الموقد المشتعل حيث رُموا من قبل الملك البابلي؟ إستعد يا أسد الله الصغير. دعنا نصفق أيدينا ونغني أيضاً. آه لو كنت أستطيع الوقوف على قدمي لأرقص! سوف أبدأ، أحفظ الإيقاع."

وصفق يديه واستهل يغني بصوت قوي وجذل:

أنت يا كل أفعال الرب، باركي الرب: مجديه وأحمديه أبداً.

آه، أنت يا كل المياه التي فوق السموات، وأنت يا كل قوى الرب، باركي الرب: مجديه وأحمديه أبداً.

أنت أيتها الشمس والقمر والنجوم التي في السماء، باركي الرب، مجديه وأحمديه أبداً.

أنت أيها الضوء وأنت أيتها الظلمة، أنت أيتها الليالي والنهارات باركي الرب مجديه وأحمديه أبداً.

أنت أيتها الأمطار الغزيرة والندى، ويا كل أرواح الله، باركي الرب، مجديه واحمديه أبداً.

أنت أيتها النار والحرارة، وأنت أيتها البرودة والدفء، باركي الرب: مجديه وأحمديه أبداً.

أنت أيها الصقيع والثلج وأنت أيتها البروق والغيوم، باركي الرب: مجديه واحمديه أبداً.

الأرض تبارك الرب: دعيها تمجده وتحمده أبداً.

آه أنت أيتها الجبال والتلال، وكل الأشياء التي تزدهر في الأرض، باركي الرب: مجديه وأحمديه أبداً.

آه أنت أيتها الينابيع ويا أيها البحار والأنهار والحيتان وكل ما يتحرك في المياه، باركي الرب: مجديه وأحمديه أبداً.

صفق يديه: وتأرجحت قدماه تروحان وتجيئان طواعية من دون تحكم منه. كان يريد أن يرقص ولكنه لم يستطع. لم أر فرانسيس هكذا بهذه السعادة. كان اللهب الذي لعق والتهم وجهه تحول إلى ضياء. كان قد شعر أنه تخلص من أثقاله منذ أن جاءه المسيح السماوي، منذ ذاك وقلبه يطفح بالطمأنينة.

وبقيت إلى جانبه ثابتاً ليلاً نهاراً. في أحد الصباحات وبينما فتحت عيني عند الفجر رأيته يتكيء على وسادته الصخرية مبتسماً.

"إن وجهك متوهج يا أبتي فرانسيس. هل حلمت بحلم جميل؟"

"كيف تتوقع أن تجعلني الأحلام أبتسم يا أخي ليو، حينما ترى الدم يجري مني هكذا؟ لقد بكيت ولطمت صدري واعترفت بذنوبي إلى الله. لكنني الآن أدرك: أن الله يحمل اسفنجة تزيل كل الذنوب، يا أخي ليو، كل المذنبين سوف ينقذون حتى الشيطان نفسه، يا أخي ليو سوف ينقذ، إذا ليست الجحيم سوى غرفة مؤدية إلى الفردوس."

وبدأت "ولكن بعد ذاك ..."

غير أن فرانسيس مد يده وغطى فمي.

قال "إهدأ. لا تصغر من عظمة الله."

* * *

واستمرت عجلة الأرض بالدوران. وهطلت الأمطار، وأغمض فرانسيس عينيه ليصغي إلى مياه السماء وهي تهبط إلى الأرض. كان وجهه متألقاً مثل حجر غسله المطر، وطلب مني أن أحمله إلى مدخل الكوخ ليمد يديه ويشعر بالقطرات وهي تلمسها.

قال وهو يراقب كفيه وهما مليئتان بالماء. "هذه هي آخر الصدقات التي سأشحذها."

ثم أنحنى إلى الأمام وشرب سعيداً متشكراً.

في خضم حالة الفرح هذه إستمر جسده بالذبول، في كل يوم يغطس نصف منه الأرض بينما يرتقي النصف الآخر إلى السماء. وبإمكانك أن ترى بكل وضوح أن العنصرين الذين يكونانه قد بدأا بالتفكك.

ناديته في الصباح: "لا تتركنا الآن يا أبي فرانسيس. إن دورتك لم تكتمل بعد. أنت دوماً تتوق إلى العبادة عند القبر المقدس ولم تذهب إلى هناك بعد."

فابتسم فرانسيس: "أجل يا أخي ليو، لم يقدر لي أن أستحق الذهاب إلى هناك إلى القبر المقدس. ولكن لا يهم لأن القبر المقدس سوف يأتي إليّ، رغم أنني آثم وتعس."

وكان الأخوة القدماء المقربون يصلون باستمرار من كل البقاع ليودعوا معلمهم ويجلبوا له الأخبار عن البقاع التي ذهبوا إليها. ليعظوا بالحب والفاقة. الكثير من الأخوة والرهبان قد تعذبوا وأستشهدوا في الغابات الوحشية في ألمانيا. وحسبوهم في فرنسا هراطقة فجلدوهم بلا رحمة. وفي هنغاريا أطلق الرعاة كلابهم نحوهم ووخزوهم القرويون بالمهاميز. وفي مكان آخر عراهم الناس وتركوهم يرتعشون في الثلج.

سمع فرانسيس كل هذا بوجه مشرق. كان يبارك بشكل أخص أولئك الأخوة الذين عرفوا سعادة الإضطهاد والإحتقار من البشر.

كان يسأل ويجيب: "ما أجمل الطرق المؤدية إلى الفردوس؟ إحتقار الإنسان. وأي الطرق هو الأقصر؟ الموت."

جاء بيرنارد، وكذلك الأب سلفستر وماسيو وجونيبر والسيد بيترو وروفينو وأنجيلو وسكون وبعثت له الأخت كلارا رسالة: "أبتي فرانسيس لقد حلت عليك كل نعم الرب. إسمح لي بالمجيء أعبد تلك العلامات التي تركتها بركات الرب على جسدك." وأجابها فرانسيس "أختي كلارا لست بحاجة لأن تبصري أو تلمسي لتؤمني. أغمضي عينيك فحسب يا أختي ولسوف ترينني. وسألته: "لماذا لا تدعها تأتي. الا ترأف بحالها؟ إن ذلك سيقدم لها خدمة جليلة.

إنني أعطف عليها، وهذا هو بالضبط ما جعلني أرفض. عليها أن تعتاد على رؤيتي دون أن ترى جسدي، يا أخي ليو، وكذلك أنت وكل من يحبني."

وأشحت ببصري كي لا يلاحظ دموعي. إن الحضور اللامرئي ليس كافياً بالنسبة لي: فحالما أتوقف عن رؤيته أكون قد ضعت.

أظن أنه قد حدس أفكاري. فبدأ بفتح فمه وراح يحاول أن يرفه عني، ولكن في تلك اللحظة ظهر إلياس، آخر من جاءوا، ليودع فرانسيس، كان قد أنهى للتو جولة طويلة جمع فيها كميات من الذهب. وكانت الأسس قد وضعت من قبل ذلك لإنشاء دير كبير يتألف من كنيسة مهيبة مزينة بالرسوم والمصابيح الفضية ومقاعد نحتت بإتقان، وعدد من الصوامع ومكتبة كبيرة حيث يمكن للأخوة الدراسة فيها وإقامة النقاشات وإلقاء المحاضرات.

وضع فرانسيس يده على رأس الأخ القادم.

"سامحني يا أخي لقولي هذا، ولكن يبدو أنك قد ضللت طريق إخوتنا. لقد طردت الفاقة التي هي كنزنا العظيم، وعددت الفضائل الأخرى التي هي حجر الأساس في رهبتنا على أنها خطر. لقد كانت صارمة ونقية، لم تتآلف مع الراحة والغنى. والآن، إسمع، إنك تجمع التبرعات لبناء دير، وقد زينت أقدام الأخوة بالخفاف، ولم يعودوا يسيرون حفاة على الأرض العارية. لقد دخل الذئب إلى حضيرتنا بينما أنا أجلس خارج بورتيونكولا مثل كلب مقيد وانبح. إلى أين تقودنا يا أخي إلياس؟"

"حيثما يدفعني الرب. أنت تعرف كما أعرف أنا أن كل شيء يحدث حسب مشيئة الله. لقد تغير الزمن، وكذلك قلب الإنسان، وتغيرت كل الفضائل. ولكنك حين تعرف أنني أقود نظام الرهبنة نحو الهيمنة الروحية على العالم سوف تستريحّ. ثق بي. وقد جرى قبل ذلك دم الأخوان إنه يروي البذور التي بذرناها."

"إنني أؤمن بالله، ولست بحاجة إلى مواساة أخرى. أنا بليد يا أخي إلياس وغير متعلم، ولم أعرف في حياتي شيئاً غير البكاء والرقص وغناء المدائح لله. والآن لا أستطيع حتى فعل ذلك. لست الآن سوى كلب ينبح ومقيد خارج رهبنتنا. ليت الرب يتدخل ويعيد الأمور إلى نصابها! أشعر بالراحة ولست خائفاً منك، أخي إلياس، لأنني متيقن أن هذا هو بالضبط ما سيفعله الرب."

قبّل إلياس يد فرانسيس على عجل وغادر نحو صقلية من أجل الإشراف على البنائين الذين يبنون الدير الجديد. وحين ذهب، حضر سكون الذي كان قد سمع كل شيء واقترب من فرانسيس قائلاً

له: "أبتي فرانسيس، إن قلوبنا واسعة جداً، والكلمات محدودة جداً لتستوعب مشاعرنا الإنسانية. فما الفائدة من الكلام إذن؟ إسمح لي أن أعزف لك بالعود، لأن هذا هو فمك الحقيقي يا أبتي: حَرّي بك أن تستخدم العود في حديثك مع الناس. أنت لا تجيد العزف أليس كذلك؟ حسن، دعني أعلمك العزف."

وأنحنى ليريه الأوتار. لعبت أصابعه عالياً ودانياً لتخرج أصواتاً عالية ومنخفضة وانحنى فرانسيس إلى الأمام، يصغي بانتباه لمعلمه.

"تعال كل يوم لتعطيني درساً في العزف يا أخي سكون. آه لو أنني فقط أستطيع أن أتلو صلاتي الأخيرة بالعود! والآن غنّ أغنية فرحة لتبهجني."

إنحنى سكون على عوده وراح يعزف ويغني. كان في السابق يؤلف الأغاني في إطراء جمال حبيبته، أما الآن فيطري جمال مريم العذراء المبجلة.

كان اللحن واحداً، وكلمات الإطراء نفسها، لم تتغير شيء سوى السيدة. أصغى فرانسيس ودندن بدوره برقة مع اللحن. كانت هالة النور حول وجهه قد أزداد سطوعها، وأمتلأ جوفا صدغيه وخديه باللهب.

ومرت الأيام كان سكون يأتي كل مساء، ويصغي إليه فرانسيس مثل تلميذ صغير ويدرب أصابعه على الأوتار. كان مسروراً أن يجد نفسه يتقدم. وسرعان ما صار قادراً على أن يكلم الرب والناس بالعود.

في أحد الأيام اندفع أرنب مسرعاً ووجد له مأوى تحت ردائه. وعرفنا أن حياة الحيوان المذعور مهددة لأننا سمعنا صرخة حادة أطلقها ثعلب عن بعد.

ربت فرانسيس على الأرنب وتحدث إليه بلطف إندهشت أن يكون بهذه الدرجة. فهو لم يتكلم بمثل هذا اللطف إلى البشر.

"ضع يدك على قلبه الصغير، يا أخي ليو، لترى أن المسكين يرتعش. كان جسده يهتز بأكمله. أنا آسف، أخي الثعلب، لن أدعك تأكل هذا الأرنب. لقد بعثه الله إليّ، ولذلك فلسوف أنقذه."

بقي الأرنب إلى جانبه منذ تلك اللحظة، وحينما كان فرانسيس يلفظ أنفاسه الأخيرة، رقد عند قدميه، يرتعش ويرفض الطعام.

لقد أحبته الطيور والحيوانات حباً جارفاً، لأنها كانت تشعر بحبه لها. في أحد الأيام قابل طائر التدرج الذي لم يتعب من أطراء جماله.

كان عادة ما يقول له: "إرفع رأسك يا أخي طائر التدرج، أشكر الله لأنه خلقك بهذا الجمال"، إذ كان التدرج يطوي جناحيه ويبدأ بالتبختر في الشمس مثل رجل نبيل وعظيم. وفي مناسبة أخرى لو لم أر هذا بنفسي لما صدقته أبداً. فقد قفز أمامنا ذئب غاضب بينما كنا تحت أشجار السنديان في الفرنيا. كان وقت شتاء وكان الذئب يتضور جوعاً. فذهب نحو فرانسيس الذي تحدث إليه بهدوء وبعذوبة وكأنه بشر وصديق عزيز.

"أخي الذئب، يا حاكم الغابة العظيم، إسمح لنا أن نسير قليلاً تحت أشجارك. هذا رفيقي الذي يرتعش خوفاً منك لأنه لا يعرفك، وأنا فرانسيس الأسيزي، وكنا نتحدث عن الرب، الذي هو أبونا أيضاً، أخي الذئب. نرجو منك أن لا تعكر صفو حديثنا القدسي. وحين سمع الذئب صوت أخيه الهادىء، سكن ووقف جانباً وسمح لنا بالمرور. ثم أستأنفنا حديثنا القدسي."

لقد أحب فرانسيس الضوء والنار والماء أكثر من كل الأشياء الأخرى. كان غالباً ما يقول لي: "كم هي عظيمة طيبة الرب يا أخي ليو، وأية أشياء عجيبة من حولنا! حين تشرق الشمس في الصباح وتجلب لنا النهار، هل لاحظت كم هي سعيدة الطيور وتغني، وكيف تقفز قلوبنا في داخل صدورنا وكيف تضحك الصخور بفرح مع المياه؟ وحين يهبط الليل، كم تغدو الأخت النار كريمة. إنها تتسلق في بعض الأحيان إلى مصباحنا وتنير غرفتنا، وتجلس أحياناً في الموقد وتطبخ طعامنا وتدفئنا في الشتاء. والماء: أية أعجوبة هو أيضاً يا أخي! كيف يجري ويتدفق، كيف يشكل الجداول والأنهار ثم يصب في المحيط مغنياً! كيف يغسل ويشطف وينظف كل شيء! وحين نكون ظمأى، كم هو منعش حين ينزل في دواخلنا ويسقيها! لكم هو موثق مع العالم جسم الإنسان، وروح الإنسان مع الرب! حين أفكر بكل هذه الأعاجيب، لا أريد أن أتكلم أو أمشي أبداً، أريد أن أنحني وأرقص."

ومن بين كل الأعياد كان يفضل عيد الميلاد. وفي إحدى السنوات صادف أن جاءت العطلة في يوم الجمعة، ولم يوافق أحد الأخوة الجدد، وكان أسمه موريكو، أن يأكل لحماً. فدعاه فرانسيس لأن يجلس إلى جانبه على المائدة.

قال له: "حين يكون عيد الميلاد يا أخي موريكو فليس هناك يوم إسمه يوم الجمعة. ولو كانت الجدران تأكل لحماً لأعطيتها في مثل هذا اليوم من أجل أن تحتفل هي أيضاً بمولد المسيح. ولكن ما دامت لا تستطيع أكل اللحم، فلسوف أستعمله لأدهنها به"!

وحين قال ذلك، أخذ قطعة لحم وراح يمسح جدران بورتيونكولا بدهانها. ثم عاد وجلس بهدوء في مقعده.

قال: "لو كان الملك صديقاً لي، لكنت قد سألته أن يصدر أمراً يفرض على كل شخص في عيد الميلاد أن يأخذ بعض القمح وينثره في فناء بيته وفي الشوارع لتأكل أخواتنا الطيور، لأن الوقت شتاء، والأرض مغطاة بالثلج، ولا يمكنها ان تجد شيئاً تأكله. وأيضاً كل من لديه ثيران وحمير أو أي حيوانات عليه أن يغسلها بالماء الدافئ في هذا اليوم ويمنحها نسبة مضاعفة من الحب من أجل المسيح، الذي ولد في أسطبل. وأيضاً على الأغنياء أن يفتحوا دورهم خلال هذا الفصل ويدعوا الفقراء لتناول الطعام، لأن في هذا اليوم قد ولد المسيح والفرح والرقص والخلاص!"

* * *

بدأ كانون الأول وعيد الميلاد يقترب. كان فرانسيس يعد الأيام والساعات وينتظر بقلق هذا اليوم الذي يعيدون فيه تمثيل عيد الميلاد ليتمكن رؤية المسيح مرة أخرى وهو رضيع.

قال لي: "هذا هو آخر عيد ميلاد لي. هذه هي المرة الأخيرة التي سأرى فيها المسيح الصغير وهو يحرك قدميه الصغيرتين في المعلف. لذلك، يجب أن أحتفل بعيد الميلاد هذا بتقوى عظيمة - لابد لي ان أودعها إلى الأبد."

كان لديه صديق حميم في المدينة، رجل تقي إسمه بيليتا. فبعث إليه وجاء بيليتا بنشاط وقبل اليد المقدسة الجريحة.

قال له فرانسيس: "أخي، يسعدني كثيراً لو أننا احتفلنا بأمسية عيد الميلاد المقدس في هذه السنة. استمع، لذلك لما في ذهني. ستجد في الغابة المجاورة كهفاً. هلا تلطفت ووضعت ثوراً وجحشاً فيه ليلة عيد الميلاد، كما كان ذلك في بيت لحم؟ سيكون هذا هو آخر عيد الميلاد أحضره

وأريد أن أرى كيف كان المسيح قد ولد متواضعاً في اسطبل، ولد لكي ينقذ البشرية: ولكي ينقذني أنا الآثم."

أجاب الصديق: "أنا طوع أمرك يا أبتي فرانسيس. كل شيء سوف يتم كما تشاء قبل يد فرانسيس ومضى.

قال لي مبتهجاً: "سأرى ميلاد المسيح، ثم سأرى الصلب والبعث وبعد ذلك سأموت الحمد لله لأنه أعطاني القوة لأتمتع بالدورة الكاملة: الميلاد والصلب والبعث."

ومنذ ذلك الحين نسي آلامه وباقي همومه، وكرس كل وقته للتحضيرات لعيد الميلاد.

قال لي: "أخي ليو، يجب أن تساعدني للتحضير لآخر عيد ميلاد للمسيح أحضره مبتهجاً وبشعور عميق وتقي."

ودعا جيلز.

"أخي جيلز، سوف تكون يوسف. ضع قطعة تحت ذقنك على أنها لحية بيضاء وخذ معك عصا لتتكئ عليها."

وبعث جونيبر إلى الجبل ليجلب له راعيين. وجاءا فعلاً، أحدهما عجوز غليظ وقصير القامة قد لوحته الشمس، والآخر شاب يملأ الزغب الأشقر خديه.

قال لهما: "يا أخوي، في ليلة عيد الميلاد سوف تأتيان إلى الكهف الذي سوف يرشدكما إليه السيد بيليتا ولسوف تجلبان معكما أغنامكما. لا تخشيا شيئاً: ليس عليكما أن تفعلا أي شيء. سوف تقفان ببساطة عند فم الكهف على عصاتيكما وتراقبان ما يحدث في الداخل. هذا كل ما في الأمر. سوف تمثلان الرعاة الذين رأوا المسيح الوليد."

وأرسل أيضاً رسالة إلى كلارا: "أطلبي من أختك أغنس أن تأتي إليّ. لدي شيء لأخبرها به."

وقال لي: "ستكون هي مريم العذراء. لقد أخترتها لأن اسمها أغنس."

وبعثني إلى بورتيونكولا لآتي ببعض الرهبان الجدد ليمثلوا الملائكة. عليهم أن يحملوا ثياباً وأقمطة وعليهم أن ينشدوا: " المجد لله الذي في الأعالي وعلى الأرض السلام والخير يعم البشر." سيكون الأخ سكون معهم ليعزف بالعود، وسيقوم الأب سلفستر بالصلاة.

وحين حلت أمسية عيد الميلاد بعث السيد بيليتا إلينا بأن كل شيء على ما نريد وأن علينا أن نحضر. فأنطلقنا في منتصف الليل يرافقنا بعض الأخوة الرهبان بيرنارد والسيد بيترو والأب سلفستر. وكان سكون يسير إلى جانب فرانسيس حاملاً عوده.

كانت السماء صافية تماماً، والهواء شديد البرودة وكانت ليلة هادئة، ذات نجوم خفيضة حتى أنها تكاد تلمس الأرض. كل واحد منا له نجمة فوق رأسه. مشى فرانسيس بخطوات راقصة وألتفت فجأة:

"أي فرح هذا يا إخواني! أية سعادة قد منحت للبشر! هل تدركون ماذا سنرى؟ سنرى الرب حين كان رضيعاً ! ومريم العذراء وهي ترضع الربّ والملائكة وهم يهبطون على الأرض وينشدون الحمد لله!... أخي سكون، لو أردت بركتي، أرفع العود عن كتفك وغني: "الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام والخير يعم البشر."

ومال إلى أذني وهمس قائلاً: "أخي ليو، لا أستطيع كتم فرحي. أنظر كيف أمشي: لم تعد قدماي تؤلمانني أبداً. حلمت في الليلة الماضية أن الأم العذراء قد وضعت طفلها بين ذراعي."

جاء الفلاحون من القرى المحيطة حاملين المشاعل، فاستضاءت الغابة بكاملها بشكل مدهش. حين وصلنا الكهف، الذي كان مزدحماً بالناس من قبل أن نصل إليه، أحنى فرانسيس رأسه ودخل وتبعه الأخوة. كان المعلف في النهاية البعيدة وقد مليء بالتبن. ويقف جانباً ثور وجحش هادئين، كانا قد شبعا وهما الآن يجتران. ووضع الأب سلفستر نفسه أمام المعلف وراح يرتل الصلاة كأنه أمام مذبح. كان فرانسيس حينذاك، قد أحاط بالمعلف (المهد) من جوانبه الأربعة وراح يثغو كالحمل. وحين أقترب الأب سلفستر في الإنجيل إلى حيث يقول: "وأنجبت إبنها الأول ولفته في القماط ووضعته في المعلف..." إنتشر شعاع أزرق فوق الجدار ورأى الجميع فرانسيس ينحني إلى الأسفل ثم ينتصب وهو يحمل وليداً بين ذراعيه. وصاح الفلاحون ولوحوا بمشاعلهم بإهتياج، بينما ركعنا جميعاً على الأرض، غير قادرين على تحمل المعجزة. رفعت رأسي للحظة ورأيت رضيعاً يمد يديه الصغيرتين ليداعب لحية فرانسيس وخديه، ثم أبتسم له، وهو يحرك قدميه الصغيرتين. رفع فرانسيس الطفل فوق رأسه وحمله أمام المشاعل وصرخ: "أيها الأخوة، أنظروا إلى منقذ العالم"!

ولم يستطع الفلاحون أن يمنعوا أنفسهم، فاندفعوا إلى الأمام ليلمسوا الرضيع المقدس، لكن الشعاع الأزرق أختفى فجأة، والتفت العتمة حول المعلف ولم يتمكن أحد من رؤية فرانسيس عند ذلك. لقد فر بعد ان أخذ الرضيع معه.

وهرع الفلاحون إلى الخارج بمشاعلهم وانتشروا في الغابة. لقد بحثوا وبحثوا، لكنهم لم يعثروا عليه في أي مكان. كانت السموات

قد بدأت بالتوهج بالنور الأبيض المزرق، وكان نجم الصباح، وحيداً في السماء الشرقية، يلمع ويرقص. وأطل النهار. وعثرت على فرانسيس خارج كوخه راكعاً، وجهه متجه نحو بيت لحم.

* * *

حين رأيته في اليوم التالي كنت مذعوراً. فما أراه لم يعد جسداً بشرياً، كان كومة عظام مغطاة بخرقة ثوب. كانت شفاهه زرقاء وباردة.

قلت له وأنا أقبل يده: "أبتي فرانسيس، دعني أجمع بعض الحطب وأوقد نار كي تتدفأ."

فأجاب: "إذهب يا أخي ليو، إذهب نحو العالم، وإن وجدت النار في كل كوخ، في كل مأوى للفقراء، تعال وأشعل ناراً في موقدي. لو أن إنساناً واحداً يرتجف لابد لي أن أرتجف معه."

مع مرور الوقت إزدادت آلام جروحه حدة. كنت غالباً ما أراه متكوراً لاوياً فمه جاهداً في أن يوقف ألمه المضني. وقد إعتاد على أن يرفع رأسه ويحدق في، ويرتسم على وجهه تعبير الغبطة ذاته.

كان يقول لي: "إنه يعاني، أنه يعاني...."

"من؟"

"هو!" وكان يشير إلى صدره ويديه وقدميه.

في ليلة تسلل الفأر عبر الباب المتهرئ للكوخ وراح يلعق قدمي فرانسيس المدميتين ثم عضهما، فاستيقظ فزعاً. يقول برقة متناهية، وكأنه كان يتحدث إلى الطفل:

"أخي الفأر، إنني أعاني! بحق الله عليك، إبتعد عني! إنني أعاني. وفي صباح آخر وجدته يرتجف على بساطه، كان عارياً تماماً

صرخت: "الجو بارد جداً يا أبتي لماذا تعريت؟"

فقال وأسنانه تصطك: " لقد فكرت بأخوتي الذين يرتجفون في البقاع الأخرى من العالم. لست قادراً على تدفئتهم، ولهذا قررت التضامن معهم فارتجف أنا أيضاً من البرد."

في اليوم التالي قال لي: "إنني أتساءل ما الذي حصل للأخوة الذين ذهبوا لوعظ الناس. إنهم يشغلون فكري ليلاً ونهاراً. في الليلة الماضية جاءني الفأر، الذي هو أحد أخوتنا الكثيرين الذين يعيشون في الغابة، وحرف أفكاري لدقيقة، ولكنه كان فأراً طيباً، فحين طلبت منه الإبتعاد لبى الطلب. والآن أنا أجلس وانتظر. أنتظر ماذا؟ أنتظر أحداً ما يأتيني بالأخبار."

ما كادت الكلمات تخرج من فمه حتى جاء جونيبر عند العتبة حافياً، مرضوض العظام، ولكنه جذل. كان أكثر الإخوة بساطة وأكثرهم وداً. وخلال السنوات البطولية الأولى كان غالباً ما يضحكنا بنكاته. مرة، ظل أحد الإخوة يهذي بعد أن مرض وراح يقول: "آه ليتني أحصل على قدم خنزير. وحين سمع الأخ جونيبر كلامه هرع إلى الغابة وعثر على خنزير يتغذى على بلوطة فقطع قدمه، ثم عاد إلى بورتيونكولا، وشوى القدم وقدمها إلى الأخ المريض ليأكلها. وعلم فرانسيس بذلك فوبخه: "ألا تعلم أنك غير مسموح لك بأخذ أشياء تخص الآخرين؟ لماذا فعلت ذلك؟"

لأن قدم الخنزير هذه قد أعانت أخانا. وما كنت لأشعر بأي ذنب لو قطعت أقدام مائة خنزير."

"لكن مربي الخنازير يبكي وينتحب الآن. إنه يجوب الغابة بحثاً عن المجرم."

"في هذه الحالة، سأذهب إليه طوعاً ولك أن تتأكد أننا سنكون أصدقاء في الحال."

وأسرع نحو الغابة ووجد الرجل وعانقه. قال له: "أنا من أمسك بخنزيرك وقطع قدمه يا أخي. وقبل أن تغضب، استمع إلي. لقد خلق الله الخنازير كي يأكلها الإنسان. احد من أصدقائي وقع مريضاً وظل يصرخ أنه لن يشفى حتى يتمكن من أكل قدم خنزير. فشعرت بالأسف عليه، ولهذا أسرعت وأتيته بالقدم وشويته. وحالما أكله تحسنت صحته وهو الآن يصلي من أجل صاحب الخنزير ويدعو الله أن يغفر له ذنوبه فلا تغضب ودعنا نتعانق: فكلنا إخوة وكلنا أطفال الرب. لقد فعلت خيراً ولن يضيع أجر ذلك عند الله. إنني أهنئك! ولقد ساعدتك أنا على فعل الخير. فتعال وقبلني! وكان الفلاح الذي سخن وأبيض من الغضب، وجد أن غضبه هذا قد بدأ يتلاشى تدريجياً، وإقترب من جونيبر وقبله. وقال له: " إنني أسامحك. ولكن بحق الله لا تفعلها ثانية"!

وحين سمع فرانسيس جونيبر وهو يروي حديثه مع مربي الخنازير ضحك من أعماق قلبه. وقال متعجباً: "يا للأسف، إننا لا نملك غابة كاملة من جونيبر هذا..."!

مسح جونيبر فمه يظاهر يده. لابد انه كان يحمل رسالة مهمة، لأن عينيه الصغيرتين كانتا تتلألئان. وحين ثبتهما علينا بدأ بالكلام:

"لقد أتيت للتو من ريمني يا أبتي فرانسيس. وما رأيته وتحملته في طريقي شيء لا يمكن وصفه. كان من الواضح ان القرويين قد أختلط عليهم الأمر. بيني وبينك ذلك لأنهم ركضوا رجالاً ونساء وتجمعوا حولي، وتزاحموا الواحد فوق الآخر ليقبلوا يدي. كانوا قد

جلبوا لي المرضى لأشفيهم. ولكن كيف لي أن أفعل ذلك؟ وضعت يدي على رؤوسهم كما تفعل أنت، ولكن أفكاري كانت في مكان آخر: وهي كيف أهرب من هذا الجمهور الذي يجأر "فليعش القديس!" واندفعوا جميعاً حولي، ليحاولوا تقبيل قدمي؟ في أحد الأيام خطرت لي فكرت مدهشة، هل تعرفون ماذا كانت؟ بينما كنت أقترب من إحدى القرى خارج ريمني علمت أن حشداً من الناس انطلقوا لاستقبالي. لذلك ماذا فعلت؟ كان ثمة طفلان يلعبان على نواسة، كل واحد منهما على طرف اللوح الخشبي الذي وضعاه متقاطعاً على لوح خشبي آخر. أسرعت نحوهما في الحال وقلت لهما: " أيها الأطفال أريد أن ألعب معكما أيضاً. هيا لتجلسا كلاكما على ذلك الطرف وسوف أجلس أنا على هذا الطرف ونتأرجح للأعلى والأسفل، ورحنا نتأرجح ثلاثتنا باستمرار لا نهاية له ونكاد ننفجر من الضحك. في تلك اللحظة وصل الحجاج يقودهم القس وهو يحمل معه مرشة الماء المقدسة في يد والأناجيل المغلفة بغلاف فضي في اليد الأخرى. وحين رأوني ألعب وأضحك، تغيرت تعابير وجوههم. وأنتظروا صابرين حتى أنتهي من اللعب وآتي لأباركهم وأشفي العديد من مرضى القرية الذين جلبوهم معهم. انتظروا وانتظروا، ولكن هل تظنون أنني توقفت عن التأرجح. لا وحقكم! وتذمروا في غضب "إن هذا الرجل ليس قديساً، إنه مجنون. تعالوا دعونا نذهب." وهكذا ذهبوا، وهذا ما كنت أريده وعندها نهضت من النواسة في الحال واستمررت في طريقي نحو ريمني."

ضحك فرانسيس وقال: "عليك بركتي يا أخي جونيبر إنني أتخيل أن لديك الكثير لتقوله."

"أجل الكثير، الكثير، يا أخي. أعجوبة متألقة! ما كنت لأصدقها لولا أنني رأيتها بعيني هاتين. أنتم تتذكرون الراهب الشاب الشاحب الوجه الذي كان معنا مرة في بورتيونكولا الذي كان اسمه أنطونيو أليس كذلك؟لقد أصبح ذلك الراهب قديساً، ، فليسامحني الرب على قولي هذا، أجل، أجل، قديساً! ويقوم بالمعجزات! هل تتذكر كيف قمت بوعظ الطيور يا أبتي فرانسيس؟ إذ قام في ريمني بالطريقة نفسها بوعظ الأسماك. لا تضحكوا. لقد رأيت ذلك بعيني. جلس أنطونيو في المكان حيث يصب النهر في البحر. وما كنتما لتعرفانه. كان قد بات أكثر طولا وأنحف من ذي قبل، خداه قد أمسيا مجوفين وعيناه كانتا تجويفين أسودين، وقد يخطيء الناس ويظنونه أعمى. وفي يديه! يا إلهي العظيم، لم أر في حياتي أصابع طويلة نحيفة وسريعة الحركة مثلها. كان يحمل عصا في ذلك الوقت وتلتف عليها أصابعه مرتين!... وقف، كما قلت، حيث يصب النهر في البحر، وخلفه إحتشد جمع غفير من الهراطقة لأن أنطونيو قد تحدث إلى الغالبية منهم ولكن من دون جدوى، فرأيته يقول لهم، " إتبعوني إلى الشاطيء وسوف ترون الرب الذي أدعوكم لعبادته هو الإله الوحيد الحقيقي. وسوف ترون بأعينكم ولسوف تؤمنون."

"في هذا اليوم تبعوه، وذهبت أنا معهم. إنحنى أنطونيو وبلل يديه بماء البحر ورسم إشارة الصليب. ثم خاض في الماء حتى ركبتيه وبعدها صاح بأعلى صوته: "أيها الأخوة يا اسماك النهر والبحر، إنني أناشدكم باسم أبينا السماوي أن تأتوا وتسمعوا كلمة الرب الحقيقي"!

"وفي اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات، إضطرب البحر، وانتفخ النهر وراحت الأسماك تقترب. البعض منها جاءت من مكان بعيد وأخريات صعدن من الأعماق: كل أنواع الأسماك: الفرخ النهري والقاروس البحري، والدنتكس والبوري الأحمر، والعقرب البحري والإبراميس البحري والسمك الأسود، وسمك موسى والقرش والسمك الطائر وأبو سيف والبوري البني والرأس الذهبي والسمك المحلي وسمك الشاطىء والسمك المفترس. كيف لي أن أتذكر ذلك الكم الهائل! توقف النهر عن الجريان وسكن البحر من دون حراك واصطفت الأسماك، الصغار في الأمام، والوسطى خلفها والكبيرة بعيداً في عمق المياه، كلها رافعة رأسها فوق سطح الماء لكي تستمع. وحين صار كل شيء في مكانه، مد أنطونيو ذراعيه وباركها، وبدأ في الحال في وعظها بصوت عال: إخوتي الأسماك دعوتكم لنمجد معاً أبانا السماوي. أية سعادة قد منحكم إياها، وأية مزايا وأية ثروة! إن الماء عنصر مبارك لثلاث مرات، للبرودة والنظافة والصفاء. حين تشرق الشمس ويكون البحر هادئاً ترتفعون إلى السطح وتمرحون في الرذاذ. وحين تنفجر العاصفة، تهبطون إلى القاع حيث السكون والهدوء وتكونون سعداء. أية لدونة، وأية ألوان وأي جمال قد حباكم الله به يا إخوتي الأسماك! حين حدث الطوفان وغرقت كل الحيوانات على اليابسة، أنتم وحدكم سبحتم بهدوء وطمأنينة في المياه الهائجة. وحين سقط النبي يونس في البحر، وفرتم له المأوى وبعد ثلاثة أيام أعدتموه إلى اليابسة. أنتم أكثر حلي البحر لمعاناً. إن الرب يحبكم حباً جماً ولم يرغب في أن تنقرضوا. فبالآلاف والآف من البيوض التي تضعونها، تبقون خالدين. إرفعوا رؤوسكم وأشكروا

الرب. إنني أبارككم.. أذهبوا الآن وليكن الله معكم."

فتحت الأسماك أفواهها وحركت شفاهها. ربما كانت تنشد مزموراً، لكنني لم أكن قادراً على التمييز. رفعت ذيولها في الهواء وابتعدت جميعاً. ومخضت البحر والنهر حتى أصبحا أبيضين من الرذاذ. فسجد الناس المذعورون عند قدمي أنطونيو. وصاحوا: "إغفر لنا يا أخانا أنطونيو. أنت على حق. لقد أصغى كل السمك لصوتك، فكيف لنا، نحن البشر، إلاّ نصغي إليه؟ سر أمامنا وقدنا!" وسار أنطونيو في الأمام، وقادنا بفرح إلى ريمني، حيث دخلنا الكاتدراتية وبدأنا نصلي لله."

وأدى هذا الكلام بجونيبر إلى أن يعرق بشدة. لمع جسده بأكمله وراح يومض مثل السمكة التي أخرجت تواً من البحر.

رفع فرانسيس يده وكان مستثاراً تماماً.

المجد لاسم الله. أنا أحتضر، وثمة آخر يولد. أن بذور الرب خالدة. أنا منهك ولا فائدة ترجى مني، بصري قد ضعف، أنا الشمس الغاربة. وهو شاب، مليء بالقوة. الفرح والنار، وهو الشمس المشرقة. لابد لكم أن تحيوه."

ولوح بيده نحو ريمني.

"مرحباً بك يا أخي أنطونيو. إنني أباركك وأتمنى لك إرتقاء العوالي التي عجزت عن إرتقائها."

بقينا صامتين. أغمضت عيني ورأيت شمساً تغرب وأخرى تشرق. وفاض قلبي بخليط من الحزن والبركة. فتحت عيني ثانية وحدقت في فرانسيس برقة لا يمكن وصفها. كان مستغرقاً في نشوة، ورأسه بين ركبتيه، ولم ير أو يسمع أي شيء يحدث حوله. كان قد غادرنا.

وغمز جونيبر لي.

وقال هامساً في أذني: "سأذهب لأجلب بعض الخشب وأوقد النار."

"إنه لا يريد أي نار يا أخي جونيبر. إنه لا يرغب في أن يكون جسده دافئاً هذه الأيام. إن أوقدت ناراً سوف يوبخنا."

"دعه، عند ذلك يكون قد دفأ عظامه."

وحالما انتهى من كلامه اندفع إلى الخارج وعاد بعد قليل بحزمة خشب وضعها في الموقد وأشعلها. كان فرانسيس قد بقي مستغرقاً في غبطة عميقة، لا يسمع ولا يرى أي شيء. وراحت ألسنة النار تتراقص، وتوهج الكوخ بإشعاعاتها. أقتربت من الموقد بتوق وأدرت لها ظهري أولاً ثم بطني. وبعد ذلك مددت لها يدي وقدمي حتى تدفأ جسدي بأكمله وتغطيت بالسخام حتى العظم. وبعدي إقترب جونيبر وجلست أنا أمام النار وضحكت بشكل خرافي. كنا مقتنعين تماماً. ولكننا لم ننسَ أن نلقي نظرة على فرانسيس بين الحين والآخر ونرى فيما إذا كانت هناك أية فرصة يشعر فيها بالدفء ويقوم لتوبيخنا.

ونصحني جونيبر: " لابد لك بشيء من الإرغام يا أخي ليو، أرغمه على الأكل. تظاهر أنك لم تعلم وأشعلت النار عندما كان نائماً. أصلح رداءه حينما تراه لا ينظر إليك. لا تدعه يموت. ألم يحدث لك أبداً أننا لم نستطع أن نجد لنا غيره، دليلاً يمكن أن يقودنا مباشرة إلى السماء؟"

"لا أستطيع، يا أخي جونيبر. إنه لن يسمح بذلك. إنني أتجمد وأموت جوعاً معه."

"إنني معجب بك لأنك قاسمته حياة صعبة كهذه يا أخي ليو. إنها أبعد من قوة البشر فكيف استطعت؟"

"لا أستطيع يا أخي جونيبر. إنني أقوم بشيء فوق قدراتي. لكن ذلك شيء بعيد عن الفخر. ليست التقوى ولا الفخر، إنني أشعر بالخجل وأنا أتحدث عن ذلك."

"الخجل ممن؟"

"الجميع: الرب وفرانسيس والناس الذين من حولي ونفسي أيضاً."

"ألا تحب أن تتناول وجبة طيبة بين الحين والآخر؟ في أيام العطل مثلاً، أو تحب أن ترشف القليل من النبيذ، أو تنام على فراش ناعم؟ إن الله، كما تعلم، خلق كل تلك الأشياء للإنسان، ومن الخطأ أن لا نتقبلها. بالنسبة لي لماذا لا نتكلم بصراحة؟. إنني أعيش حياة رغيدة بما فيها الكفاية، الحمد لله، ولهذا في كل مرة أصلي فيها لأشكر الله العظيم تظهر صلاتي من أعماق قلبي، وأيضاً من معدتي ويدي الدافئتين وقدمي، جسدي بأكمله. هذا هو السر بأكمله، يا أخي ليو: أن تجمع ما هو خير مع ما هو أفضل لمنافعك."

إبتسمت.

"الويل لنا لو كنت أنت قائدنا يا أخي جونيبر. لكنا قد انتهينا. كنا قد تغذّينا جيداً. ولكنك ستسقطنا في الجحيم"!

كان جونيبر يريد أن يفتح فمه ليجيب، ولكن في تلك الأثناء سمعنا فرانسيس يغير موضعه حبسنا أنفاسنا وازداد نبضنا. التفت فرانسيس.

وصرخ حين شاهد النار: "ما هذا؟ من أشعل النار؟ أجلبوا ماء وأطفئوها."

قال جونيبر وهو يعانق ركبتي فرانسيس: "أبتي فرانسيس يا حواري الحب. إن النار هي أختنا: لماذا تريد قتلها؟ ألا تشعر بالشفقة عليها، أنت الذي يشعر بالشفقة على الأرض التي يسير عليها؟ إنها

إبنة الرب أيضاً ، وهي تريد مساعدتنا. ولهذا جاءت وأجلست نفسها في الموقد. اسمع كيف تصرخ. ألا تسمع؟ "إنها تقول "أخي فرانسيس، أنا أيضاً إحدى مخلوقات الله فلا تقتلني"!

بقي فرانسيس صامتاً. لقد نفذت كلمات جونيبر إلى قلبه.

فقال أخيراً وهو يضحك: " أخي جونيبر، أيها المخادع، لقد جئت لتقلبنا رأساً على عقب بألاعيبك التقية."

والتفت نحو الموقد.

"سامحيني أيتها الأخت النار. لن أطردك من كوخي، بل بدلاً من ذلك أطلب منك العودة. حين قال ذلك، ذهب نحو المدخل، أبعد ما يمكنه من النار، وجلس.

* * *

في الصباح الباكر من اليوم التالي لكزني فرانسيس بقدمه.

"انهض يا أخي ليو. أن هذا الكوخ دافئ أكثر مما ينبغي. إننا هنا نبالغ في الراحة. تعال، دعنا نذهب إلى كنيسة سان داميانو. خارج المعتزل ثمة مأوى بني من الغصون، هناك أريد ان أمكث. وماذا عنك؟ هل ستطيق ذلك؟ استدع كل ما ادخرته من قوة يا أخي ليو. وبإمكانك أن تغادر متى شئت، وبإمكانك الهرب. سامحني، يا أسد الله الصغير لأنني عذبتك إلى حد كبير."

أجل، لقد عذبني حقاً، ولكنه فعل ذلك لأن حبه لي كان كبيراً.

فصرخت وأنا أثب على قدمي: " سأذهب حيثما تذهب يا أبتي. لقد أحرقت الجسور التي خلفي، ولا أستطيع العودة بعد الآن."

"حسن إذن، دعنا نغادر يا أخي. فقد أحرقت جسوري أنا أيضاً

وليس ثمة من عودة! ضع يدك حول خصري كي لا أسقط فما زال الضوء غير كاف في الخارج."

كان البرد قارساً، والسماء معتمة الزرقة، وقد غطس الحشد الكبير من النجوم في ضياء الصباح الرقيق. ليس سوى فينوس، وحدها التي لا تقهر، ما زالت تنظر إلى الشمس بسعادة لتذوب في أشعتها. لم تكن الطيور قد بدأت بالغناء بعد، لكننا في البعيد سمعنا صياح الديك.

قلت: "لابد أن الطيور تجوع في الشتاء. ولهذا فهي لا تغني. هل يمكن أن يكون الناس كذلك يا أخي فرانسيس؟ هي يمكن أن نكون مضطرين على الحصول على طعام فنأكله فنحوله إلى صلاة وغناء؟"

ابتسم فرانسيس: "إن عقلك منشغل بالطعام يا أخي ليو. كل شيء تقوله صحيح بالنسبة لأولئك الذين لا يؤمنون بالله. ولكن بالنسبة للذين يؤمنون، فالأمر بالعكس: الصلاة لهم، تتحول إلى طعام، فتمتلىء بطونهم."

كان الضوء يزداد كلما مشينا، وصارت السماء الشرقية وردية، وفي اللحظة التي خطونا فيها تحت شجرة صنوبر مليئة بالأشواك أحس طائر مغن بومضة تسقط على جفنيه المغمضين، إستيقظ وراح يغرد.

فصاح فرانسيس: " صباح الخير أيتها الأخت القبرة. إننا في طريقنا إلى سان داميانو، هل تأتين لمرافقتنا"!

طارت القبرة بين الأغصان ونفضت جناحيها لتزيل عنها الخدر ثم حلقت فجأة في السماء وهي تغني بجذل.

قال فرانسيس: "إن السماء بالنسبة لها هي سان داميانو. وداعاً

وحتى نلتقي! حين وصلنا المعتزل وجدنا الراهبات مازلن مستغرقات في صلاة الصبح. كانت المصابيح التي في داخل الكنيسة ما زالت متوهجة. وتقدمنا بصمت على أطراف أصابعنا نحو النافذة الصغيرة للحرم ووقفنا في الخارج لنستمع إلى الأصوات الأنثوية العالية وهي تشدو إلى الله.

قال فرانسيس والدموع قد ملأت عينيه: " أية بهجة هذه يا أخي ليو! الشمس والقبرة وصلاة الصبح وعرائس المسيح استيقظن قبل الجميع وهن يمجدن الحبيب. أية بهجة!... يمكنني سماع صوت الأخت كلارا أعلى من بقية الأصوات."

اكتمل القداس، وانصرفت الراهبات نحو المعتزل، وهن ملتفات بخماراتهن البيضاء. وفي اللحظة التي رأين فيها فرانسيس أطلقن صرخة حادة سعيدة، مثل حمامات جائعات سررن لرؤية القمح. وتقدمت الأخت كلارا أولاً. أخذت يد فرانسيس المدماة وغطتها بدموعها.

تمتمت متهدجة الصوت من الأنفعال: "أبتي فرانسيس.. أبتي فرانسيس."

"أختي كلارا أريد أن أبقى بالقرب منك والأخوات الأخريات بضعة أيام. إنني أحييكن وأودعكن: إنني راحل. لقد سمحت لي الأم المقدسة أن أمكث في مأوى من الأغصان خارج معتزلكن."

حدقت الأخت كلارا في فرانسيس وفاضت عيونها الكبيرة بالدموع.

"أبتي فرانسيس، أنا المأوى والمعتزل وكل الأخوات هن في خدمتك. فمرنا."

وظهرت أم فرانسيس العجوز. لقد أضحت نحيفة جداً وشاحبة إلى حد الموت من أثر الصلوات الليلية والصوم، ولكن وجهها قد إلتمع من السعادة. إنحنت بدورها لتقبل يد ابنها ووضع هو يده على رأسها الأشيب وباركها.

وهمس: "أماه، أماه، ... الأخت بيكا..."

وأرادت إثنتان من الأخوات أن تسرعا لترتيب الكوخ، لكن كلارا أوقفتهن جانباً وقالت: "سأرتبه بنفسي. أجلبا لي مكنسة، ودلو ماء، وآنية الزهور التي في صومعتي، ومصباحاً وقفص طائر الحسون الذي أهداه لنا المطران في ذلك اليوم."

كان فرانسيس مرهقاً. غطس إلى الأرض تحت النافذة الصغيرة للمذبح وأنتظر. راقبته أمه وقلبها يغمره الألم والفخر من زاوية الفناء حيث تراجعت. لقد أصطبغت شفاهه وقدماه ويداه باللون الأزرق من البرد. كانت الأخوات الراهبات قد جلبن بطانية من الصوف لتغطيته، ولكنه قذف بها جانباً وحاول الوقوف، ليعرف فقط أنه لم يعد يمتلك القوة. فهرعت اثنتان من الراهبات نحوه. حملناه من ذراعيه، وجلبتاه ببطء خطوة بعد خطوة إلى الكوخ. كانت كلارا قد وضعت بساطاً تحته وفوق البساط فراشاً من القش، وأيضاً وسادة ناعمة. وضعنه الأخوات الراهبات على الفراش، وخرجن وتركننا وحدنا مرة أخرى. إنحنيت على أذنه: " هل تريد شيئاً يا أبتي فرانسيس؟"

"ماذا عساني أريد يا أخي ليو؟ أي شيء أكثر من هذا؟ فلدي كل شيء."

أغمض عينيه وأشار إلي برأسه وكأنه يودعني.

لم ينم في تلك الليلة، بل ظل يهذي باهتياج، بينما كانت جبهته ويداه وجسده بأكمله يطلق اللهب. فتح عينيه بعد ظهر اليوم التالي.

"أخي ليو، أخبر الأخوات أن لا يأتين لرؤيتي بعد الآن. أخبرهن أنني أريد أن أنفرد بنفسي. ولست بحاجة لأي شيء. كل ما أريده هو الهدوء. لا شيء آخر. لا نار ولا طعام. لا شيء سوى الهدوء."

أمسك بالوسادة ورماها بعيداً عنه.

"خذ هذه وأبعدها عني إلى الخارج يا أخي ليو. إن الشيطان في داخلها، ولم يسمح لي بالنوم طوال الليل. آتني بحجر أضعه وسادة."

ووضع يده المشتعلة في كفي.

"أخي ليو، يا رفيق سفري، ورفيق العناء: سامحني.."

وأغمض عينيه بعد ذلك.

خرجت وجلست أمام المأوى وبكيت بهدوء، بنشيج مرتعش، كي لا يسمعني. وجاءت الأخت كلارا:

"ماذا بمقدونا أن نفعل يا أخي ليو؟ كيف نبقيه حياً؟"

"إنه لا يريد البقاء حياً يا أخت كلارا. إنه يقول أن الإرتقاء قد انتهى. ذروته الصلب وقد صلب. وهو الآن ينتظر شيئاً واحداً بنفاذ صبر: البعث."

"وهذا يعني الموت، أليس كذلك يا أخي ليو؟"

"أجل، يعني الموت."

تنهدت الأخت كلارا وحنت رأسها. ثم قالت بعد دقيقة:

"ربما كان طائر الحسون سيبقيه حياً لفترة أطول. ألم يغن طوال يوم أمس."

"كلا يا أخت كلارا. إنني أتخيل إنه كان خائفاً."

"حالما يتجاوز خوفه ويشرع في الغناء، لربما يتوقف الأب فرانسيس عن طلب الموت بهذه السرعة."

لم أقل شيئاً، لكنني كنت أعرف تماماً أن فرانسيس كان قادراً على ان يسمع صوتاً آخر، أغنية أكثر عذوبة، شدوا سرمدياً جاء من البعيد أبعد من الغيوم وأبعد من النجوم، ذلك الصوت هوالذي كان يناديه. كأن روحه قد فتحت قفصها من قبل ذلك كي تسافر لتنضم إلى الجوقة السماوية.

في اليوم الثالث إرتفعت حرارته إلى أقصاها واحمرت وجنتاه، وصارت شفاهه يابسة. كان يفز من نومه باستمرار لأنه يرى في هذيانه أشياء لا مرئية. وناداني بغتة. كان الفجر يقارب الطلوع.

"أخي ليو، أين كنت؟ أنني لا أراك."

"هنا إلى جانبك يا أبتي. مرني"

"هل تحمل معك الريشة والحبر؟"

"دائماً يا أبتي! مرني."

"أكتب"!

ثبت ناظريه على الهواء وكان يرتعش من رغبته في أن يمليني ما يريد قوله قبل أن تذهب الرؤيا.

"إنني مصغ يا أبتي."

"أكتب : أنا قصبة تنحني في ريح الرب. أنتظر الموت، مغني التوربادور العظيم، ليأتي ويحصدني ويفتح ثقباً في جسدي ويحيلني إلى ناي. لذلك سوف أتجول، وأنا مضغوط بين شفتيه، وأغني في مضجع الرب القصبي الخالد."

وانبطح على الفراش وبقي صامتاً، وجهه إلى الأعلى مغمض

العينين، ولكنه عاد وجلس بينما نهضت لأطفىء المصباح لكيلا يؤذي عينيه.

"أخي ليو!" ناداني بأعلى ما يمكنه كأنه يطلب النجدة:

"أخي ليو، أكتب:

" لقد أخذني كبير الملائكة الأسود من يدي. سألته" إلى أين نحن ذاهبان؟"

فقال لي: " أننا نترك الأرض خلفنا" ووضع إصبعه على شفيته: " إغمض عينيك كي لا تراها وتذرف عليها الدموع."

واستمر فرانسيس دون توقف: " لقد أطلقت شراعي، الأرض الخضراء خلفي، وأمامي البحر الأسود اللا متناهي، بينما في الأعالي، في السموات، أسرع نجم الشمال نحو الأمام مثل شهاب. يا إلهي، لقد نلت قلبي في قبضتك، لقد مهدت له الطريق وها هو يسرع قدما. وها هو أول طير يظهر في الفردوس."

كانت عيناه تشتعلان، وجسده بكامله ينبض. إنتظرت، وأنا أحمل الريشة في الهواء.

"أكتب، أين أنت يا أخي ليو؟ أكتب:

"حين طرد كبير الملائكة آدم وحواء من الفردوس، جلس والدانا على التراب الأرضي ولم يتكلما. غربت الشمس. ونهض الليل من أعماق مليئة بالخوف، لقد هبط من السماء ممتلئاً بالذعر، وهبت ريح قارسة، فالتصقت حواء بصدر زوجها لتنال بعض الدفء. وحينما شعرت بتحسن قليل أطبقت قبضتها الصغيرة الفتية وقالت: " إن مشيئتك لن تتحقق أيها الشيخ المرعب"!

ضحك فرانسيس. من المؤكد أنه كان يرى المخلوقين الأولين

أمامـه في الهـواء، وحـواء بقبـضتها الفتيـة المتوعـدة. لكنـه في قمـة ضحكه غلبته الدموع.

"أما زلت هنا يا أخي ليو؟ ... أكتب:

"كان الوقت ربيعاً حين جاء كبير الملائكة جبرائيل إلى الأرض. وقـد أصـابه الـذعر ممـا رأى. إن الأرض جميلـة بـإفراط، يـا لهـذه الفاخرة! قال لنفسه، حري بي أن أمكث هنا طويلاً!... وخرج نجار من دكانه. قال: "هذه هي الناصرة، طفلتي." " عماذا تبحث؟" "بيت مريم." وراح النجار يرتعش. "ولماذا تحمل في يدك ذلك الصليب وتلك المسامير والدم؟" " إن هذا ليس صليباً، إنه زنبقة." " من بعثك؟" " اللّه." وانغرزت سكين الدم في قلب النجار. وانتهى كل شيء! كل شيء! قال لنفسه وهو يفتح الباب، ليظهر فناء صغير وبئر، وبعض الحبق في زهرية وإلى جانب البئر، ثمة فتاة تخيط رداء صغيراً لرضيع. تردد كبير الملائكة لدقيقة على العتبة وفاضت عيناه بالدموع."

وفاضت عينـا فرانسيس بالـدموع أيضاً، كمـا هـو حـال كبير الملائكة. وتنهد، لقد أنشطر قلبه إلى نصفين.

تمتم: "أيتها المسكينة يا مريم، أيتها الأم المسكينة الجميلة يا من التف طفلها الحبيب بالموت.. إلهي لو أن كل الدموع التي ذرفها البشر في سنة واحدة تتسكب في وقت واحد، لكانت قد شقت نهراً قد يغمر بيتك. لكنك عالم بكل شيء، ولهذا جعلتها تتسكب واحداً بعد الأخر."

وأخافته هـذه الكلمـات، وحالما نطقهـا توسـل إلـي أن لا أكتبهـا. قال "لقد كانت كلمات الشيطان.. لو كنت قد كتبتها يا أخـي ليو فأرجوك أن تشطبها"!

وبعد توقف، استمر: " ما زالت لدي أغنية في قلبي يا أخي ليو. لا أريد أن أخذها معي إلى القبر، فارفع ريشتك وأكتب:

"حين أنهى الرب في الأخير خلقه للعالم وغسل يديه من الطين جلس تحت إحدى أشجار الفردوس وأغمض عينيه. وتمتم: " إنني متعب. لماذا لا أستريح لدقيقة أو دقيقتين؟ وأمر النوم أن يزوره، ولكن في تلك اللحظة جاء طائر الحسون ذو المخالب وحط فوقه وراح يصرخ: "ليس ثمة راحة، ولا سلام، فلا تنم!... سأجلس فوقك ليلاً ونهاراً وأصرخ، ليس ثمة من راحة ولا سلام، فلا تنم!... لن أسمح لك بالنوم لأنني أنا قلب الإنسان."

وسقط فرانسيس على ظهره، وهو يلهث.

وتمتم: " هل أحببت ذلك يا أخي ليو."

كنت مذهولاً. ماذا سأقول؟ كيف يمكن لقلب الإنسان أن يتحدث هكذا بوقاحة مع الرب؟

وحدس فرانسيس ما كنت أفكر به، وأبتسم.

لا تخف، يا أسد الله الصغير. إن غطرسة الإنسان لا حدود لها، ولكن هكذا خلق الله قلوبنا، وهذا هو بالضبط ما أراد منها أن تفعل. أن تقف وتقاوم"!

خلال تلك الأيام في سان داميانو عانى جسده أكثر من أي وقت مضى، لكن روحه لم تنغمس أبداً في مثل هذه الغبطة العميقة. ورغم أن جروحه الخمسة لم تعد تنزف، فقد بدأت الآلام تنتشر في داخله بشكل غادر. لكن الدم كان يجري من عيونه، فامتزج الدم بالدموع.

قضيت الليالي عند قدميه، اضطجع متيقظاً معه، أحاول يائساً أن أمنعه من مغادرة هذه الدنيا ولو لوقت قصير. وفي أحد الأيام توقفت أذناه عن الأزيز فسمع طائر الحسون. إستمع إليه لوقت طويل، وفمه مفتوح، وعيناه مشدودتان إلى القفص. وأكتسى وجهه بعلامات الفرح الكبير سألني: "أي طير أسمع، ما هذه الموسيقى السماوية؟ هل وصلنا السماء مبكرين؟"

وأتلع بإذنه مرة أخرى وأصغى بانتباه، كان وجهه قد غطاه النعيم.

وتعجب بابتهاج: " آه ليتك كنت تعرف ماذا يقول يا أخي ليو! أية معجزة كانت تختبىء في هذا الصدر الممتلىء بالريش!"

كان طائر الحسون قد اعتاد علينا الآن، في كل يوم كان يشدو عند أول بزوغ لفجر. كان ينفخ حنجرته ويثبت عينيه الصغيرتين على الضوء في الخارج، كان منقاره ينزف، ولكنه إستمر رغم ذلك يغني بتهور. وبدا من المحتم أنه قد سكر بالأغنية. كان يتوقف بغتة في بعض الأحيان وينقر في قضبان سجنه، بعد أن تاق إلى الفرار: لقد رأى للتو عصفوراً يجلس في كامل حريته على غصن في الخارج، وود لو ينضم إليه. لكنه كان يعود من تفكيره ذلك سريعاً ويحط على

القصبة التي وضعت في وسط القفص، ويستأنف أغنيته.

كانت السيدة بيكا قد إعتادت أن تأتي سراً لترى إبنها من خلال الفتحات التي في جدار الأغصان المنسوجة. كانت تحدق فيه لوقت طويل، وكفها على فمها ثم تعود بصمت إلى صومعتها.

وأمضت الأخت كلارا الكثير من ليالي السهر عند عتبة المأوى، دون أن تجرؤ على الدخول. كانت روحه جذلى، تماماً مثل طائر الحسون، وأغاني التوربادور التي كان قد غناها تحت النوافذ المغلقة في شبابه. أيام كان يقضي الليالي يطوف المدينة مع أصدقائه، قد عادت إلى شفتيه مرة ثانية.

قال مرة أخرى: " آه لو كان سكون هنا ليعزف لي بالعود. لقد كان محقاً حين قال أن العود هو فم الإنسان الملائكي، لأنه بالتأكيد حين تتكلم الملائكة لابد لهم ان يطيروا في الهواء ويتحدثوا بالغناء."

في أحد الصباحات جلس في فراشه وصفق يديه بابتهاج. قال لي صائحاً: "أتعرف ماذا كنت أفكر طوال الليل يا أخي ليو؟ كنت أفكر بأن كل قطعة خشب هي عود أو كمان: يطلق صوتاً ويصلي لله... لو أردت بركاتي يا أخي ليو، آتني بقطعتي خشب."

وجلبتهما له. وضع الأولى على كتفه وطرح الأخرى فوقها بشكل منزلق وحركها. إنها القوس. جلس على شرشفه، وعزف وغنى دون إنتهاء بفرح. كانت عيناه مغمضتين، ورأسه إلى الوراء: كان في نشوة.

وسألني: " هل تسمع قطعتي الخشب، هل تسمعهما تغنيان؟ أنصت"!

لم أسمع في البداية أي شيء، لكن العصاتين كانتا تحتكان وتصران. ولكن تدريجياً تدوزنت أذني، واستيقظت روحي، وبدأت

أسمع لحناً لا حدود لعذوبته أتٍ من غصنين جافين. لقد أضحى الخشب الأخرس في يدي فرانسيس كماناً.

"هل تسمع يا أخي ليو؟ هل تسمع؟ أبعد عقلك جانباً وأترك لقلبك الحرية في الإنصات. حين يؤمن إنسان بالله فليس ثمة شيء مثل قطعة خرساء من الخشب، أو ألم لا يصاحبه الفرح أو حتى حياة عادية من دون معجزات"!

في أحد الأيام وبينما كان يعزف بالكمان صار وجهه داكناً فجأة كأن ظلاً كثيفاً قد سقط عليه. حدق عبر الباب المفتوح بعينين جاحظتين وأطلق صرخة. لا أدري إن كانت صرخة سعيدة أم حزينة لأن في الصرخة قد كمنت كل أفراح وأحزان البشر. إلتفت لأعرف إلى من كان ينظر، من ذا الذي سبب تلك الصرخة العالية. ولكن ليس ثمة من أحد في الخارج. في حديقة المعتزل المقفرة كانت آخر الأوراق تسقط على الأرض بعد أن أزاحتها الريح من غصونها. كانت الراهبات قد تجمعن لحضور الصلاة. كان تجمعهن يشبه تجمع الطيور، وسمعنا أصواتهن الرقيقة وهي تنشد مدائح الرب. ولكن في البعيد، في كل بيت من بيوت القرية، كانت الكلاب المذعورة تنبح.

سألته: "ما الذي رأيته يا أبي فرانسيس؟ من ذا الذي رأيته؟ لماذا صرخت عالياً؟"

مضى بعض الوقت من دون ان يجيبني. كان قد تخلى عن قطعتي الخشب على الفراش، مازال يحدق في الخارج مفتوح العينين.

فسألته ثانية: "من هو؟ من ذا الذي تراه؟"

كانت شفاهه تتحرك. " آه يا أخي الموت ... أخي الموت ..." تمتم مرة

أخرى، ناشراً ذراعيه على وسعهما وكأنه كان يريد معانقة الطيف.

لم أقل شيئاً. فقد فهمت: لقد رأى الملاك الكبير الأسود. ورأته الكلاب أيضاً، من أجل ذلك كانت خائفة. فهرعت إلى الخارج لأخفي دموعي، ورحت أدور حول الكوخ فلم أر أحداً.

كانت الشمس المختبئة قد حررت نفسها من الغيوم في ذلك الصباح وطردت الصقيع الذي كان يغطي السهل، جاعلة الشتاء يضحك كالربيع. ظهرت الأخوات من المصلى، تبعثرن في المعتزل وتجمعن ثانية في غرف الطعام لتناول الفطور: قطعة خبز وكأس ماء. حالما رأتني الأخت كلارا، إقتربت وسألتني بصوت قلق:

"لماذا تبكي يا أخي ليو؟ الأب فرانسيس ....".

"لقد رأى الأب فرانسيس الملاك الكبير الأسود، لقد صرخ، ثم فتح ذراعيه يعانقه .."

وعضت الأخت كلارا طارف خمارها لتمنع دموعها.

"ماذا كان يقول؟ هل كان سعيداً؟"

"لا أعلم يا أختي كلارا. كان يتمتم " آه يا أخي الموت، آه يا أخي الموت.." هكذا فقط.

قالت مخفضة صوتها: "اسمع يا أخي ليو. ثمة شيء لا زلت أخشى منه. لابد أن ننتبه، لأن في الأيام الأخيرة ثمة بعض الفضوليين المتسللين الذي يتجولون حول المعتزل. رجال متوحشون! وقد عرفتهم إحدى الراهبات: تقول أنهم قطاع طرق من نيروجيا. لابد أن الناس هناك قد علموا أن الأب فرانسيس قد أصابه المرض العضال وقد قرروا أن يبعثوا قطاع الطرق هؤلاء ليخطفوه بعيداً عنا. ولا حاجة بي لأن أخبرك ماذا يعني أن يكون لمدينة ما قديس من ناحية الثروة. لذلك كن منتبهاً يا أخي"!

أخفت وجهها، وتركتني على عجل ودخلت الكنيسة.

قلت لنفسي أنني سأبعث بكلمة للمطران. سأقول له أن يبعث لنا جنوداً من صقلية يحرسون فرانسيس.

حين دخلت الكوخ وجدت فرانسيس جالساً على الشرشف، ظهره إزاء الجدار. وبدا وجهه مستكيناً وراضياً.

قال لي وقد فرح لمجيئي: "هات ريشتك يا أخي ليو. أريد أن أسجل آخر تعاليمي، رسالة رعوية يقرأها كل الأخوة والأخوات حيثما كانوا. وحين تنتهي، سوف أختم الرسالة بتوقيعي: الصليب."

أخذت ريشتي وركعت إلى جانبه. وراح يمليني بهدوء وبطء بعد أن يوزن كل كلمة:

"أخواتي وإخوتي: في هذا اليوم بعث الله ملاكه الكبير الأسود ليجلب لي الدعوة الكبرى. وإنني راحل. على أية حال، لا أطيق فكرة الإبتعاد عنكم دون أن أترك لكم آخر تعاليمي: أبنائي. أتمنى أن تكون الفاقة والحب والعفة والطاعة بنات الرب الأربع العظيمات معكم الآن وأبدا! يجب أن لا تنسوا، حتى ولو للحظة، أن الملاك الكبير الأسود واقف إلى جانبكم، إنه يقف بجانبكم منذ أول يوم ولدتم فيه. ينتظر في كل لحظة عليكم أن تقولوا! هذه هي اللحظة الأخيرة، دعني أذن أكن مستعداً.. وأحذروا ولا تؤمنوا بالإنسان أبداً، بل بالله فحسب. يمرض الجسد فيقترب الموت. وينحني الأقرباء والأصدقاء عليه ويقولون له: "نظم بيتك وزع ثروتك لأنك تحتضر: ويجتمع حول المسكين زوجته وأطفاله وأصدقاؤه وجيرانه ويتظاهرون بالبكاء، وهو، المضلل بنحيبهم وعويلهم يستدعي كل قواه ويقول: "أجل، لقد وضعت نفسي وجسدي وروحي بين أيديكم

الأمينة مع كل ممتلكاتي." ومن دون أن يضيعوا أية لحظة يستدعي الأصدقاء والأقرباء الكاهن ليأتي ويمنحه السر المقدس. " هل ترغب في أن تعيد كل ما ملكته في حياتك بشكل لا شرعي؟" "كلا، لا أستطيع أن افعل ذلك." "لماذا؟" لأنني قد أعطيته كله لعائلتي وأصدقائي وبهذا يكون قد فقد القدرة على الكلام، ويموت دون أن يلحق في أن يكفر عن ذنوبه. ثم يأتي الشيطان الذي كان يطوف خلال ذلك الوقت فوق وسادة الإنسان، يضحك بصخب، ويمسك بروحه ويقذفه إلى الأسفل في الجحيم، وتذهب معه كل ممتلكاته وكل قوته وثروته وجماله وحكمته التي كان يفخر بها، كلها تذهب هباء لتغطس معه في الجحيم. وخلال ذلك الوقت تكون عائلته وأصدقاؤه قد تقاسموا ما ملك بعد أن يلعنوه قائلين "فلتشو عظامه في القار والحجر الناري! كان عليه أن يترك لنا أكثر من ذلك." ومن هنا يكون قد طرد من الأرض والسماء. فماذا بقي له؟ الجحيم: هناك يعاقب على مدى الأبدية في الفوران والقبر الذي يغلي.

"إنني، أخوكم فرانسيس، خادمكم الصغير والآثم الكبير، يصلي ويدعو لكم، يا أخواتي وإخوتي، باسم الحب، الذي هو الرب نفسه، أقبل أقدامكم، وألتمس منكم أن تتقبلوا كلمات المسيح بالتواضع والحب. وكل أولئك الذين يتقبلون هذه الكلمات المقدسة ويحولونها إلى فعل ويكونون نماذج للآخرين فيباركهم الله إلى الأبد!

"ولك أنت، يا أخي ليو، يا رفيق سفري، تحيات من أخيك فرانسيس. إن ترغب في أن أباركك، يا أخي فلا تنس الأشياء التي قلناها حين كنا مسافرين معاً. حاول على قدر ما تستطيع وفي الطريقة التي تناسبك في أن تجعل المسيح مسروراً وتتبع خطاه؟ وتتبع

أيضاً السيدة النبيلة الفاقة، وأيضاً الطاعة المقدسة لله. وكل ما ترغب أن تسألني فيه، أسأله الآن، بحرية بينما لا تزال لي شفتان وما زلت قادراً على الكلام. وداعاً يا إخوتي وأخواتي ويا أبنائي. وداعاً يا أخي ليو، يا رفيق سفري، ويا رفيق عنائي"!

سألته: "هل تتألم يا أخي فرانسيس؟"

فتح عينيه في الحال. "ثمة شيء واحد فقط أنا متأكد منه، يا أخي ليو، هو أنني سعيد في غاية الانشراح! إنه النصر! إنه النصر! لقد فزنا يا أخي! منذ يوم ميلادي كان ثمة شخص في داخلي يكره الرب، والآن كيف لي ان أتجنب السعادة بعد أن تلاشى؟"

"من هو يا أبتي؟"

أجاب: "الجسد" وأغمض عينيه من الإجهاد.

كان يهذي طوال الليل. وظل يرى الملاك الكبير يتحدث إليه لائماً إياه لأنه قد أخر مجيئه كثيراً كثيراً جداً، حيث كان ينتظره لسنوات. لماذا أبقاه هكذا في المنفى؟ ألم يكن يعلم أن الأرض لها الجاذبية المغرية للناس، وأن ورقة عشب واحدة، أو طائر حسون، أو مصباحاً مضيئاً، أو رائحة طيبة كافية لأن تجعلنا نرفض التخلي عن هذا العالم الطيني؟ ... ظل فرانسيس يهذي بهذه الطريقة اللائمة، وكان على الموت أن يجيبه، لأنه بدأ يهدأ تدريجياً وتوقف عن التذمر وراح يضحك.

في الصباح التالي إتقد صدغاه. كان غاطساً في الخدر وغير قادر على أن يرفع جفنيه وتصلب جسده. وهرعت مذعوراً لأبحث عن الأخت كلارا.

كانت في المطبخ. قالت لي: "لقد أهدانا أحد المسيحيين الخيرين

دجاجة. علم بمرض فرانسيس وأهداها له. أعددت الحساء، ولسوف يمنحه بعض القوة."

"بدأ الصوم الكبير يا أختي كلارا. لن يلطخ شفتيه باللحم."

"إن لم يقرر الرب أن يأخذه الآن يا أخي ليو فلسوف يشرب هذا الحساء ليبقى معنا وقتاً أطول. إنتظر لحظة لتأخذه له وليساعدنا الله"!

حطت إناء الحساء وأضافت له الأخت كلارا صفار البيض. وأخذت الحساء إليه مع الدجاجة. وجدت فرانسيس راقداً على ظهره يتنفس بصعوبة.

فاتجهت نحوه قائلاً: " أبي فرانسيس، إن الأخت كلارا تركع عند قدميك وترجوك بإسم الحب المقدس أن تشرب هذا الحساء ولا تتخلى عن جسدك منذ الآن ... إن كنت تحبني يا أبي، أفتح فمك."

وهمس " بإسم الحب المقدس ... بإسم الحب المقدس ..."

فتح فمه، ولا تزال عيناه مفتوحتين. رشف رشفة، فوجد الحساء لذيذاً ففتح فمه ثانية وشرب رشفة أخرى، حتى أنهى الحساء كله. ثم بدأت أطعمه القليل من اللحم. لابد أن عقله كان في مكان آخر: لم يكن واعياً لما كان يأكله، فابتلع من دون مقاومة.

لكنني بينما كنت أطعمه، مر بنا عابر سبيل غريب ودخل الكوخ لاهثاً. نظر إلينا كأنه أضاع شيئاً ما كان يبحث عنه.

صحت به غاضباً: "أنت أيها الأبله، ماذا تريد؟ أين تنظر؟ هذا مريض هنا."

فأجاب: " عفواً أيها الراهب، أهذه هي أورشليم؟ لقد شممت عطراً مقدساً وقلت لنفسي لابد ان هذه هي أورشليم، فدعني أدخل

وأصلي... ولكن أين هي؟ إنني لا أراها."

سمعه فرانسيس ففتح عينيه.

قال مبتسماً: " لابد أنك مجنون يا أخي."

فرد عابر السبيل الغريب: "لا أحد مجنون سواك. لا أحد مجنون سواك يا من ترغبّ في دخول الفردوس وأنت تأكل الدجاج في الصيام الكبير."

أطلق فرانسيس صرخة وغاب عن الوعي. نهضت لأطرد الزائر الوقح، لكنه كان قد تلاشى. في اليوم التالي ألقى علي فرانسيس نظرة لوم.

"لقد خدعتني يا أخي. لقد جعلتني أقترف ذنباً كبيراً.

"لقد حملته أنا عنك يا أبتي. فليعاقبني الرب وليس أنت."

"لا يمكنك أن تحسب ذنوب الآخرين عليك. لا يفعل ذلك سوى الله. أما نحن البشر فمسؤولون عن ذنوبنا."

وأجبت متذكراً قولاً كان قد قاله لي: "إن طيبة الحب عند الرب لكبيرة يا أبتي. إن طيبة الحب عند الرب لأكبر من عدالته. لذلك لابد لنا أن نضع آمالنا في ذلك."

قال فرانسيس: " أجل أنت على حق. لابد أن نضع آمالنا في طيبة الحب عند الله. فالويل لنا لو كان عادلاً فقط"!

* * *

مرت الأيام وفرانسيس معلق بين الموت والحياة. كان الأخوة يأتون لزيارته غالباً، ومن وقت لأخر يبعث له المطران شماسه للاستئسار عن صحة فرانسيس وأيضاً ليرسل له رسالة يطالبه فيها بأن يأتي إلى صقلية. كتب المطران: "تعال يا بني، تعال لتبقى في بيتي. إن جسد

الإنسان هدية مقدسة من الرب، وأنت تقتله بما تفعل. نعم أنك تقترف القتل يا بني. إنك تتخطى أمر الرب العظيم: لا تقتل"!

كان فرانسيس يصغي دائماً إلى رسائل المطران من دون أن يجيب. ولكنه في أحد الأيام حين جاء الشماس ليدعوه مرة أخرى، إلتفت إلي وقال: "أجل، المطران على حق. إنها جريمة قتل. سوف أحتفل بعيد الفصح في سان داميانو وبعد ذلك سوف أمكث في قصر المطران. أريد أن أرى صقلية مرة أخرى، لألقي عليها الوداع."

وجاء الأسبوع المقدس، وكرس فرانسيس وقته لذكرى آلام المسيح، كان يجلسني في كل يوم إلى جانبه لأقرأ له في الإنجيل. كان قد تتبع خطى المسيح. سار خلفه تماماً، وقد خدع وأدين وجلد وصلب معه. وفي يوم الجمعة المقدسة، تفتحت جروحه الخمسة، تلك التي أندملت منذ زمن طويل، وعاد الدم القليل المتبقي لينزف من جديد. وشفي في صباح يوم السبت المقدس. قال لي متشبثاً بيدي: "أخي ليو، لو قدر لي، أنا التعس الآثم، واستحققت أن أكون أحد كتاب الإنجيل، فما كنت لأصطحب معي أسداً ولا ثوراً ولا صقراً ولا حتى ملاكاً. بل سيكون رفيقي حملاً ذا شريط أحمر حول رقبته وعلى الشريط كتبت الأسطورة: "متى يأتي عيد الفصح يا إلهي لكي تذبحني؟"

وفي عيد الفصح، بعد البعث، وصلت الأخوات الراهبات يحملن الشموع وقدمن ليقبلن يده. جلس وباركهن بأن وضع يده على رؤوسهن.

همس مكثراً من الحركة: "أخواتي، إخوتي، أمهاتي، العذراى الحكيمات، وعرائس المسيح...."

وبكى وبكت معه الأخت كلارا والأخت بيكا وكل الراهبات وأمتلأ الكوخ الساطع بالعويل. قالت له الأخت كلارا "الآن ننتظر يوم بعث(ك) يا أبتي فرانسيس!" ولكنه كان ينشج بصوت عال فلم يسمعها.

كانت الهدايا والحمد لله تأتي من صقلية بغزارة. وصرت أكل جيداً، فشعرت ان المسيح قد بعث فعلاً في هذا اليوم. فانسحبت مبكراً ونمت في الحال.

وأمرني فرانسيس: "لا تطفيء المصباح في هذه الليلة. دعه متوهجاً طوال الليل فهو أيضاً يتمتع ببعث المسيح."

نمت راضياً تماماً، وفي منامي استمريت في تجريب البعث عميقاً في داخلي. وشعرت أن كل روح في العالم لابد أن تتبع خطى المسيح بأقصى ما تستطيع، مقاسمة أياه عذابه وصلبه وأخيراً بعثه، لأنني أدركت، كلما طال الوقت بي مع فرانسيس كلما تعمقت في إدراك ذلك لأنني أدركت إن فاكهة الموت الأخيرة هي الخلود.

كنت لا أزال نائماً حين أعاد الرب الضياء إلى العالم. وكان طائر الحسون قد أستيقظ قبلي وراح يغني، لكنني لم أفتح عيني لأنني كنت مستسلماً تماماً لمتعة النعاس. وقفزت من مكاني وأكتشفت أنه جالس في الفراش ومعه قطعتا الخشب اللتان كان يعزف بهما على أنهما كمان. ولن أنسى الأشعار، وأكثر جمالاً من الأشعار، ذلك اللحن الشجي المنتصر. لذلك مرت الكثير من السنوات، ورغم ذلك أتذكر تلك الأشعار تماماً، ويبدو كأنني أسمعها في هذه اللحظة وأجلس الآن، عجوزاً متهالكاً، في هذا الدير الأمين واكتبها:

يا إلهي الطيب الكلي القدرة والشامخ.
إليك تعود المدائح والمجد والعفة وكل الخير.
إنها تليق بك أيها الشامخ، أنت وحدك،
لا يستحق بشر أن يبوح بإسمك.
لك الحمد، يا إلهي، مع كل خليقتك،
خصوصاً السيد الأخ الشمس،
ذلك الذي يأتينا بالنهار فتمنحنا من خلاله الضياء،
وهو جميل ومشع بألق عظيم،
إنه رمزك إلينا، يا ذا الشامخ!
لك الحمد يا إلهي للأخت القمر والنجوم،
لقد خلقتها لامعة، ونفيسة ومتألقة في السماء.
لك الحمد، يا إلهي للأخ الريح
والهواء والغيوم والسكون وكل المناخ الذي أكرمتنا إياه.
لك الحمد يا إلهي، للأخت الماء،
تلك المتواضعة والعزيزة والنقية.
لك الحمد، يا إلهي، للأخ النار،
ذلك الذي أضأت به الليل،
هو الجميل القوي المرح
لك الحمد، يا إلهي، للأخت الأم الأرض،
تلك التي تدعمنا وتحملنا على صدرها
وتنتج الثمار الغزيرة والزهور والأشجار.
لك الحمد والخير يا إلهي، أشكروه
وأعبدوه بتواضع جليل

زحفت إليه بتؤدة، إذ كنت أخشى ان يسمعني فتضطرب أغنيته، وأصغيت إليه ذراعاي تحوطان ساقيه. وتوقف طائر الحسون، الذي كان فوقنا عن زقزقته وأصغى أيضاً. الشمس والقمر والنار والماء دخلوا الملجأ المتواضع وأحاطوا فرانسيس، وأنصتوا، ويبدو لي أن الموت قد دخل معهم أيضاً، في الأخير، وأنصت ساكناً. لكن فرانسيس لم ير شيئاً. كان يغني ملقياً برأسه إلى الوراء وتلاشت قضبان السجن واستعدت روحه للفرار.

وأغدق الله إلى العالم بالنور مرة أخرى. كان النهار المتألق قد وجد فرانسيس يتكىء على الجدار وإبتسامة مرسومة على شفتيه. كان مجهداً: ويبدو واضحاً أن الأغنية كانت هي دمه، وكأنه قد جف.

قبيل إنتصاف النهار دعاني وقال لي: "أخي ليو، إنني أتوق إلي رؤية صقلية مرة أخرى. إستدع اثنين من الإخوة الأصلاء يحملاني بين أذرعهما. إن ساقي واهنتان: في المرة السابقة سرت لآخر مرة.

خرجت وبعثت في طلب جونيبر وماسيو في بورتيونكولا. وأرسلت أيضاً بعض الرجال لإعلام المطران أن فرانسيس قادم، وعليه أن يرسل فصيلاً مسلحاً لحمايتنا لأن المنطقة مليئة بقطاع الطرق من بيروجيا، وثمة رجال متوحشون ينتظرون الفرصة لاختطاف فرانسيس.

حين عدت إلى الكوخ، وجدت فرانسيس يعزف الكمان مرة أخرى ويغني بانتشاء مديح الليلة الماضية. وحالما أنتهى صرخ: "آه، لقد نسيت أن أشكر الله للأخت السقم."

وضع قطعتي الخشب على الأرض ورفع يديه نحو السماء:

لك الحمد، يا إلهي، للأخت السقم.
إنها طيبة، إنها تعطف على الإنسان
وتعين الروح كي تفر من الجسد.

أصغيت إليه، مجبراً على كبح دموعي. آه يا روحي، رحت أكرر لنفسي مرة أخرى، قولي له وداعاً، وداعاً وإلى الأبد. فلن ترينه بعد ذلك أبداً... وداعاً... إلى الأبد... كان الوقت مساء حين وصل جونيبر وماسيو. جلسا صامتين عند قدمي فرانسيس. وجاءت الأخت كلارا وركعت مقبلة يديه وقدميه ثم جلست إلى يمينه صامتة أيضاً. ودخلت بعدها الأخت بيكا، وهي توشك على الانهيار. كان شعرها الأبيض قد ظهر من خمارها فجمعته ثم سجدت أمام ولدها وبعد ذلك جلست على يساره بصمت. كان فرانسيس قد غمرته النشوة فلم ير ويسمع أي شيء. كان مستلقياً على قفاه، ذراعاه معقودتان على صدره، ووجهه يشع بالسعادة.

وفجأة حطم نشيج واهن السكون، لكن الأخت بيكا عضت شفاهها فتلاشى النشيج.

قال جونيبر بهدوء: "إنه نائم. من الأفضل أن نوقظه ونذهب. بدأ الظلام يحل."

ولم يجب أحد.

هب نسيم ربيعي عبر المدخل. كانت الزهور قد تفتحت في الفناء، وانتشر عطرها في الكوخ الصغير. وظهر حمل عند العتبة وثغا نادباً، ثم فر. لا بد أنه كان يبحث عن أمه. لم يتحرك أحد منا أو يتكلم، كانت أبصارنا جميعها مثبتة على فرانسيس. وبان لي بغتة مثل رمز للمسيح المصلوب فبدا كأننا قد أنزلناه من صلبه وطرحناه على

الأرض التي كانت مغطاة بزهور الربيع وطفقنا نبكي على جسده الذي فارق الحياة.

وحالما أعتمت الدنيا في الخارج نهضت الأخت كلارا وقالت: "هيا نذهب يا أخت بيكا، لقد ودعناه. وسيأخذه الأخوان الآن. هذا وقت مناسب الآن. الليل قد أقترب ولن يكون الرجال المتوحشون من بيروجيا على الطريق بانتظار أن يختطفوه منا."

نهضت الأخت بيكا وهي تمسح دموعها.

قالت باكية: "ولدي...."

لكن الأخت كلارا وضعت ذراعها حول وسط الأم وعبرتا معاً العتبة بخطى متعثرة. وعلى حين غرة سمعت عويلاً في الفناء: لقد أطلقت المرأتان العنان لعويلهما هناك.

فتح فرانسيس عينيه وابتسم حين رأى الأخوين.

تساءل: "هل وصلنا؟"

وأجابه جونيبر: "نحن لم نبدأ السير بعد يا أبي."

فتنهد فرانسيس وقال: " وها أنا الآن في صقلية. كنت في كنيسة سان روفينو أنظر بإعجاب إلى ذلك الزجاج الملون في النوافذ، كأنني كنت أرى قصة المسيح مسجلة عليه. لقد حطم منقذنا قبره وهو يرتقي إلى السماء ويمسك في يده شريطاً أبيض كتبت عليه بحروف لا زوردية كلمات السلام...."!

نهضت وقلت: "دعونا نذهب. بسم الله"!

شد ماسيو بيد جونيبر ليكونا مقعداً وضعنا فرانسيس عليه. ووضع هو كل ذراع منه حول رقبة كل منهما. وخرجنا.

تساءل: "أهو المساء؟"

"أجل يا أبتي. وقد ظهرت النجوم."

"كم هي مدهشة رائحة الهواء! أين نحن؟"

أجابه ماسيو: "في فناء سان داميانو يا أبي والوقت ربيع. ألا ترغب في توديع الأخوات.

"الفراق مر يا أخي ماسيو، شديد المرارة. من الأفضل لنا أن نتسلل كاللصوص."

ورحنا نصعد إلى صقلية. وقفت إمرأتان خارج المعتزل تحت شجرة. وحالما رأتانا، أندفعت إحداهما بذراعين ممدوتين، لكن الأخرى سحبتها وسمعت صرخة حادة تحت الشجرة ثم هدأ كل شيء. تقدمنا. ورحت أرمي نظرات قلقة في كل الإتجاهات، لأرى فيما إذا أستطعت أن ألمح المرتزقة من بيروجيا في الظلام. وفي منعطف الطريق لاحظت خمسة أو ستة أشباح تقفز أمامنا والسلاح يتلألأ في ضوء النجوم. لقد ضعنا! تلك أول فكرة طرأت في بالي.

فأسرعت إلى الأمام لأتحقق، ووجدت، حمداً لله، أنهم الجنود الذين بعثهم المطران. ركضوا نحو فرانسيس وقبلوا يده.

تساءل متعجباً: "لماذا هذه الأسلحة الملعونة"!

وأجابه قائدهم:"كنا نخشى أن يمسك بك قطاع الطرق من بيروجيا يا أبي.."

"يمسكون بي؟ وماذا سيفعلون بي؟"

أجاب القائد بضحكة خافتة: " ألم تعلم؟ أن القديس لكنز ثمين. فكر فقط بالإحتفالات والشموع والبخور وآلاف الحجاج"!

فصاح فرانسيس وكأنه يطلب النجدة: "أخي ليو، أين أنت؟ هل سمعت ما قاله هل هذا صحيح؟"

أجبته: "إن الناس مستعدون لأي شيء. فمن الممكن أن ينقذ الواحد نفسه من الشيطان ولكنه لن يستطيع أن ينقذ نفسه (أبداً) من الإنسان.

فصرخ فرانسيس يائساً: "آه يا إلهي خذني إليك!" ولم يفتح فمه ثانية حتى وصلنا صقلية.

* * *

كان المطران واقفاً في مدخل القصر الأسقفي، ينتظر. وساعدنا في أن ننزل فرانسيس من المقعد، ثم أنحنى وقبله على جبهته.

قال: "مرحباً بك يا بني. ضع آمالك في الله. فساعتك لم تحن بعد."

أجاب فرانسيس: " بالتأكيد أضع آمالي في الله. وقد حانت ساعتي."

كانت الغرفة التي رقد فيها فرانسيس لها نافذة كبيرة تطل على سقوف صقلية. ويمكنه رؤية المدينة بكاملها من هناك، إضافة إلى بستان الزيتون والسهل الأليف واللطيف الذي تحته، بمزارع العنب والنهر البطيء الذي يزحف كالأفعى عبر المراعي. وبالحدس يمكنك أن تلاحظ موقع سان داميانو في منتصف الطريق إلى الأسفل، وفي الأسفل البعيد، موقع بورتيونكولا.

حين جلس فرانسيس في فراشه في الصباح التالي، ورأى هذا المشهد الذي عشقه بإعتزاز منذ أن كان شاباً، إنفجر باكياً.

وتمتم: "أمي... صقلية أمي... عزيزتي أومبريا...."

وطلب مني أن أضع بساطي في الزاوية في الغرفة نفسها: نمنا وأستيقظنا معاً. كان عصفوران قد بنيا عشهما تحت الطف، خارج النافذة في كل صباح عند الفجر. كان الذكر يبدأ بالطيران

والشدو. من المؤكد أن الأنثى كانت تحتضن بيوضها الجديدة. إلتفت فرانسيس إلي وسألني بإنفعال شديد: "هل حقاً إن الإنسان لا يمكنه أن يرفع عينيه ويتلع أذنيه من دون أن يملأهما بالمعجزات؟ ترفع حجراً وترى تحته حياة عامرة تمكث في العتمة الرطبة وتعبد الرب: يرقانة صغيرة متواضعة تستعد لإبراز جنحيها فتصبح فراشة وتطير في الشمس. ما الذي سنفعله على الأرض نحن البشر إن لم يكن الشيء ذاته؟"

وبينما كان يتكلم، سمعنا صياحاً مستهجناً ولعنات في الشارع أمام القصر الأسقفي. لقد تجمع حشد كبير من الناس: وثمة ضجيج عال صاحبه طرق ثقيل على الباب. من الواضح أن أحداً ما قد أعتلى الرصيف وراح يلقي خطبة على الحشد. ودخل شماس المطران غرفتنا.

قال: " لا تقلق يا أبي فرانسيس. إن عمدة صقلية في خلاف حاد مع المطران، وفي كل يوم يجمع الناس ويقودهم إلى هنا، ثم يبدأ بتهديده. كان قد منعهم من أن يخطو خطوة في الكنيسة.

واضطرب فرانسيس إلى حد بعيد وصاح: "إن هذا لمخجل! مخجل! لابد لنا أن نرسي السلام"!

وعندما خرج الشماس التفت إلي وقال: "إن ترنيمتي إلى الله لم تنته بعد. خذ ريشتك، أرجوك، وأكتب:

وعثرت على الريشة وبدأ يملي علي:

لك الحمد، يا إلهي، لكل أولئك الذين يسامحون

أعداءهم من خلال حبهم لك.

مباركون هم أولئك الذين يتحملون الظلم والإضطهاد بسلام

من أجل حبهم الكبير.

مباركون هم صانعو السلام، لأنهم سوف يتوجون بك يا إلهي.

ورسم إشارة الصليب. "تعال، يا أخي ليو ساعدني لأنهض. أسندني، أريد أن أخرج إلى الباب وأتحدث إلى الناس... كلا لن أتحدث إليهم، سيقف كلانا إلى جانب الآخر ونبدأ الغناء بهذه الكلمات التي ظهرت تواً في قلبينا."

وضعت ذراعي حوله وعبرنا الفناء. فتحت الباب. واندفع الغوغاء المتعجلون في محاولة الدخول، ولكنهم توقفوا عند اللحظة التي رأوا فيها فرانسيس.

قال فرانسيس وهو يبارك الجميع: " يا أبنائي، يا أبنائي، لقد أمرني الله أن أقول لكم شيئاً، بعض الكلمات الطيبة. وبحق حب المسيح، إسمحوا لي بالكلام."

وأشار إلي. واتكأنا كلانا على الباب الخارجي وشبكنا يدينا ورحنا نغني بصوت عالٍ:

لك الحمد، يا إلهي، لكل أولئك الذين يسامحون

أعداءهم من خلال حبهم لك.

مباركون هم أولئك الذين يتحملون الظلم والإضطهاد بسلام

من أجل حبهم الكبير.

مباركون هم صانعو السلام، لأنهم يتوجون بك يا إلهي.

كان المطران قد ظهر في تلك اللحظة عند العتبة. كان شيخاً جليلاً نظر إلى الناس بعين العطف وسرعان ما راح يغني مضيفاً صوته إلينا. وعند ذلك حدثت المعجزة. اندفع العمدة من بين الناس وتقدم إلى الأمام وركع أمام المطران.

قال: "بحق حب المسيح، ومن أجل عبده فرانسيس، إنني هنا أنسى

أعدائي أيها المطران، واقف مستعداً للإلتزام بما تأمرني به."

وإستثار المطران بعمق. إنحنى ليرفع خصمه وعانقه مغطياً إياه بالقبل.

قال: "إن موقعي يجبرني لأن أكون متواضعاً وطيباً وأميل للسلام ولكن، وأحسرتاه، فمن طبيعتي أن أكون سريع الغضب. فأرجو أن تسامحني."

ركع الناس وشكروا الرب: ثم هرع الجميع لتقبيل فرانسيس، ليقبلوا يدي وقدمي صانع السلام. حين دخلنا إلى المدخل، كان فرانسيس سعيداً متألقاً. وكان فرحه الكبير قد جعله ينسى آلامه، وأستطاع السير من دون أنين.

" هل تعرف حكاية الأمير والساحرة يا أخي ليو؟ حدث مرة أن كان هناك أمير وسيم قد رمته الساحرة باللعنة، فتحول إلى وحش مرعب يأكل لحم البشر. كرهه الناس وتسلحوا ليطاردوه حتى يقتلوه. ولكنه أزداد ضراوة. وفي أحد الأيام ذهبت إليه فتاة شابة حنونة وقبلته من فمه. وعلى حين غرة ذاب الوجه المرعب وعاد الأمير الشاب الوسيم ليظهر من جديد من خلف الحيوان الوحشي... إن الناس يا أخي ليو يشبهون الأمير المسحور تماماً.

كان هذا العمل الفذ قد أتعب فرانسيس، فقد أستنفذ طاقته في لحظة وخلق معجزة. وهذا ما جعله يتهالك على فراشه حين وصل غرفته وقد فقد الوعي. فاستدعيت الشماس الذي جلب بعض الخل الوردي وأعدنا فرانسيس إلى وعيه. ثم جاء المطران.

قال: "سأستدعي الطبيب ليهتم بك يا ولدي. أنت في بيتي وأنا المسؤول عنك."

لكن فرانسيس هز رأسه رافضاً.

وأصر المطران: "لابد لك من أن تحترم الحياة يا أخي فرانسيس لا حياة الآخرين من البشر ومن الحشرات فحسب بل حياتك أيضاً. إن الحياة هي تنفس الرب: وليس لك الحق في أن تخنقه. فباسم الطاعة المقدسة أطع"!

عقد فرانسيس ذراعيه ولم يتكلم. وجاء الطبيب. شيخ هادىء مصاب باليرقان وله عينان مشتعلتان. عرى المريض وقلبه، وقلبه ثانية، وأنصت جيداً لنبضات قلبه."

قال: "قد يتحسن بمساعدة الله."

وهز فرانسيس رأسه: "وبدون مساعدة الله؟"

"باعتقادي أنك سوف تعيش حتى الخريف يا أبتي. بعد ذلك سيكون مستقبلك بين يدي الرب."

بقي فرانسيس صامتاً لدقيقة، لكنه بعد ذلك رفع ذراعيه نحو السماء. "في هذه الحال. سأكون مستعداً للترحيب بك يا أخي الموت، مع أول أمطار الخريف"!

إلتفت إلي وقال متبسماً: "أليس ذلك صحيحاً يا أخي ليو، إننا لابد أن نشكر الرب على الأخ الموت؟ أنت توافق، أليس كذلك؟ فأخرج ريشتك إذن، إرفعها مرة أخرى، يا رفيقي واكتب:

لك الحمد، يا إلهي، للأخ الموت،

ذلك الذي لن يهرب منه إنسان حي.

تعساء أولئك الميتون بذنب زائل.

مباركون أولئك يا إلهي، من يحافظون على وصاياك العشر.

إنهم لا يخشون الموت، لا. بل يعشقونه.

وكتبت التسابيح بكاملها في نسخة جميلة على قطعة ورق

وسلمتها إلى فرانسيس كي يختمها بختمة، الصليب. أخذ الورقة ونظر إليها ثم هز رأسه.

وتمتم: " آه، يا إلهي، لا يزال لدي الكثير لأقوله، الكثير من المدائح إليك. ولكنك تعرف قلبي وحقوي. لك الحمد، إذن، على كل شيء."

أخذ الريشة وكتب: "لك الحمد، يا إلهي، على كل شيء!" ثم رسم صليباً في الهامش الأسفل للورقة.

وقال مستغرباً: "لقد انتهيت! شكراً لله لأنه منحني الوقت الكافي... والآن يا حمل الله الصغير، إبعث رجلاً إلى بورتيونكولا ليخبر الأخ سكون بأن يأتي إلي مع عوده. إنني أقترب من الرب منهكاً، وثمة شيء واحد فقط أريد أن أفعله الآن، وهو أن أغني."

وأرسلت الرجل. وقبيل المساء وصل سكون مع عوده. فرحب به فرانسيس ناشراً ذراعيه. "مرحباً بتوربادور الرب، مرحباً بفم الرب الحقيقي! أزح العود عن كتفك. هاك هذه القصاصة من الورق وغن التسابيح المكتوبة فيها. سأغني أنا أيضاً وكذلك أسد الله الصغير هذا الذي إلى جانبي، وكذلك الجدران الأربعة لصومعتنا: الأحجار والسمنت والرسوم. كل الأشياء سوف تسبح منشدة"!

ولم يمض وقت حتى ترددت في الصومعة أصداء أغنية صاخبة وفرحة. كانت النافذة مفتوحة، والشمس توشك على الغروب، وكان النور يقطر من أوراق الأشجار. وبدأ سان روفينو يقرع لصلاة المساء، كان صوتها يفيض بحلاوة لا حدود لها في الهواء. وراح صوت فرانسيس يعلو ويعلو. كان قد بدأ بالتصفيق، وكان جسده الجريح المنهك الذي تحت الرداء يرقص.

وفي أوج هذا، فتح الباب ودخل المطران، كان العبوس واضحاً على وجهه الطيب.

"إن أردت بركة المسيح يا ولدي فلا تغن. الناس يمرون من هنا، ويتوقفون عند سماع أصواتكم، ويعودون للشتم. سيخبرون الجميع أن المطران مخمور لأنه قد دحر العمدة. وها هو يقيم إحتفالاً صاخباً."

لكن فرانسيس كان لا يزال مأخوذاً بعذوبة الأغنية. وأجاب: "أيها المطران إن كان حضوري في بيتك يجعلني ثقيلاً عليك، فلسوف أغادر. إنني أغني لأن هذا هو كل ما أستطيعه الآن. إنني أقترب من الرب. فكيف تتوقع مني أن لا أتمتع وأغني بينما أنا ذاهب للقائه؟"

فأجاب المطران: " أنت محق يا بني. ولكن الآخرين ليسوا ذاهبين إلى الرب، ولن يفهموا ذلك. بالنسبة لهم يبدو الأمر فضيحة. فغن إذن ولكن أغضض من صوتك فلا يسمعون."

وخرج بعد أن قال هذه الكلمات.

قال فرانسيس: "كل شخص محق من وجهة نظره. إن المطران محق، ونحن كذلك. فدعنا إذن نغني بصوت منخفض حتى لا نفضح أحداً.

"أعطني العود أيها المعلم. أريد أن أعزف أيضاً."

أخذ العود بين ذراعيه وراح يعزف ببطء، بأصابع متألمة، واستأنفنا تمجيدنا للرب كاتمين أصواتنا. وحين أشبعنا حاجتنا أعاد فرانسيس العود إلى سكون وأغمض عينيه. كان الغناء قد أرهقه. وتوجه سكون نحو الباب وهو يسير على أطراف أصابعه.

قلت له: "لا تبتعد عن صقلية. فقد يطلبك فرانسيس في الغد أيضاً. لقد دخل مملكة الغناء.

ولكن في اليوم التالي إنغمس فرانسيس في موضوع آخر.

قال لي في الصباح الباكر: "يجب أن لا نضيع الوقت. فقبل أن أموت أريد ان أكتب عهدي للأخوة والأخوات، أريد ان أكشف لهم عن حياتي وأعترف لهم بذنوبي. ربما تسمع الروح ما عانيته وكم كافحت، وقد يؤدي بها ذلك إلى أن تتشجع وتسير على الطريق العالي... إبر ريشتك لذلك يا أخي ليو، وأكتب."

كنت أستمع طوال اليوم إلى فرانسيس وأكتب. كنت متأثراً جداً. في بعض الأحيان يتحتم علي أن أتوقف من أجل أن أمسح دموعي، وفي أوقات أخرى كان فرانسيس هو الذي يتوقف: كان يجد الكلمات عاجزة في التعبير عن مشاعره، فيمنح نفسه للبكاء.

في البداية حكى عن شبابه كيف كان يقضي لياليه مرتدياً ملابس الحرير والمخمل وريشة حمراء في قبعته ويتجول من حفلة لأخرى مع أصدقائه، وكيف كان يقف تحت النافذة من بعد النافذة ليغني لعشيقاته. وتحدث أيضاً عن الإستعلاء الذي يتلبسه، وكيف أنطلق نحو الحروب كي يفوز بالمجد بقتل الأعداء، ثم عاد منتصراً إلى صقلية فارساً. ثم كيف سمع بغتة صوت الرب وذعر. وأملى علي "لقد تلطف الرب لينقذني، أنا فرانسيس الآثم الأسيزي بالطريقة التالية: بينما كنت لا أزال غارقاً في الإثم، إذ كنت أشعر بالتقزز من المجذومين. صرخ الرب وقذفني بينهم، وأمرني أن أعانقهم وأقبلهم، أن أخلع ثيابهم وأنظف جروحهم، وحين عانقتهم وقبلتهم ونظفت جروحهم بدا العالم وكأنه قد تغير. فما بدا لي في البداية غاية في المرارة تغير وصار حلوا كالعسل. ولم يمر وقت طويل حتى تركت العالم، تركت هذا العالم العقيم وكل أشيائه لأهب نفسي قلباً وروحاً إلى الله. ومنحني الله أخوة وكان يلهمني من خلال

الإنجيل المقدس المبدأ الذي لابد لي من أن أبني عليه حياتي وحياتهم. من وافق على المجيء معي وجب عليه، قبل أي شيء آخر، أن يوزع ممتلكاته للفقراء. إننا لا نملك شيئاً سوى رداء واحد مرقع من الداخل والخارج وحبل ذي عقد: ونسير حفاة. كنا بسطاء وغير متعلمين، كل واحد منا يطيع الآخر. وقد اشتغلتُ في العمل اليدوي، وما زالت لدي الرغبة الشديدة في أن يعمل الأخوة بالتجارة النزيهة، لا يكسبون مالاً بل ليرسوا دعائم أنموذج للآخرين وأيضاً ليتمردوا على البطالة. وعندما لا نتمكن من كسب قوتنا من خلال العمل، عند ذلك فقط نضطر للذهاب من باب لآخر للتسول. وقد ألهمني الرب هذه النتيجة: "علينا أن نقول دائماً: السلام عليكم."

طوال ذلك اليوم والذي بعده جلس فرانسيس مغمض العينين وهو يروي حياته كاملة: كان ذلك الإرتقاء الرهيب والشاهق الذي إرتقاه بإقدام ملطخة بالدم وهو يلهث. تحدث عن والده، الذي مات ولا عزاء له، وأمه النبيلة، التي أصبحت راهبة، تحدث عن الأخت كلارا وكل الأخوة، واحداً بعد الأخر، وعن دومنيك، المبعوث الإسباني المشتعل الذي قابله في روما، وأخيراً عن (الأخ) جاكوبه. كما سمى المرأة النبيلة تلك التي وقعت عند قدميه في المدينة الخالدة التي وضعت رداء فرانسيس تحت ثيابها، على جلدها مباشرة. وتذكر أيضاً الحمل الصغير في روما. إذ كان الجزار يحمله على كتفه ليأخذه إلى حيث يذبح. كان فرانسيس يسير خلفه وحدق الحيوان المذعور فيه وثغا طالباً النجدة. فنزف قلب فرانسيس على الحيوان. وركض نحو الجزار وعانقه صائحاً: "بإسم المسيح يا أخي، وبإسم الحب، أتوسل إليك أن لا تذبح هذا الحمل!" فضحك الجزار الشرس

بصخب. وسأله: "ماذا تريد مني أن أفعل به؟" أعطني إياه يا أخي وسوف يسجل لك الرب فعل الخير هذا في دفتره ولسوف يهديك قطيعاً خالداً في العالم الآخر." "ها، ها" قال الجزار متعجباً وهو يتنهد "ألست أنت فرانسيس الذي يتحدثون عنه؟ ذلك الرجل من صقلية، صانع المعجزات؟" "أنا الآثم فرانسيس الأسيزي، ولكن من أنا حتى أصنع المعجزات؟ لست إلا المخطىء الذي يبكي. أنا أبكي يا أخي أتوسل إليك أن لا تذبح هذا الحمل!" فرد الجزار الخائف: "خذ الحيوان، أنني أعطيكه مجاناً وكما ترى، فها أنت تقوم بمعجزة أخرى!" وانزل الحمل من كتفه. حمله فرانسيس بين ذراعيه وجلبه هدية إلى الأخ جاكوبه، ويقال إن الحيوان لم يفارقها منذ ذلك الحين. فكان يرافقهما عند ذهابها للكنيسة ويركع أمام الأيقونات كالآخرين.........

مرت حياة فرانسيس كاملة من أمام عينيه المغمضتين. وحين أنتصب الفرينا، ذلك الجبل المقدس الوحشي، أمامه مرة أخرى في خياله وتخيل أن يسوع المصلوب قد سقط فوقه ثانية في شكل الصاعقة ذات النتوءات الخمسة، صرخ بصوت يمزق القلب "إلهي، إلهي، أنا لص، لص مصلوب، خذني إلى جانبك"!

قبيل المساء أكمل عهده وفتح عينيه. قال وهو ينظر إلي برفق: "أخي ليو، لقد عذبتك كثيراً يا بني. لقد جعلتك مرهقاً جداً. ومن الحق أن أضيف الكلمات التالية للترنيمة التي ألفناها في مديح الرب:

لك الحمد، يا إلهي، لحمل الله الصغير،

أسد الله الصغير الأخ ليو.

إنه مطيع وصبور، لقد تسلق الإرتقاء نحوك يا إلهي مرافقاً لي.

ولكنه أكثر قيمة مني، إلهي لأنه لم يكن بحاجة إلى أن يقاتل طبيعته ويدحرها!

انبطحت أمامه وقبلت قدميه. وأردت أن أتكلم، لكن صوتي قد أختنق بالدموع. قال فرانسيس: "لقد عشت لتوي حياتي مرة أخرى. وعانيت الآلام مرة ثانية، يا أخي ليو، وأنا قلق إلى حد بعيد . ناد على الأخ سكون. دعنا نغني ثلاثتنا معاً لتتخفض أحمال قلبي."

قلت: "سيوبخنا المطران مرة أخرى."

"إنه على حق حين يوبخنا، ونحن على حق حين نغني. إذهب وناد على سكون."

وصل مغني التروبادور الراهب.

صاح فرانسيس بسعادة: "هل أنت مستعد يا عندليب الرب. هيا معاً"!

عزف على العود بهدوء أول الأمر وأنشد بصوت خفيض كي لا يسمعه المارّون. ولكن شيئاً فشيئاً ازدادت سخونتنا، ونسينا المارين والمطران، وغنينا ترنيمة فرانسيس بأصوات جذلى ومرحة. أية متعة كانت تلك! فبينما كان الموت واقفاً خلف الباب، كنا سعداء وغير خائفين ورؤوسنا مستلقية إلى الوراء وكأننا طيوراً شادية، قد حولنا الحياة والزائل فيها إلى أغنية خالدة.

في تلك اللحظة وجدنا أنفسنا ثلاثتنا في السماء السابعة. وظهر إلياس عند العتبة. كان على وجهه تعبير عكر وقاس. كان قد عاد للتو من جولة مربحة حول القرى وبينما كان ذاهباً إلى صقلية لدفع أجور العمال الذين يبنون الدير الكبير والجديد، سار بالقرب من قصر المطران، حيث سمع الغناء، وميز من بين الأصوات صوت فرانسيس. توقف الكثير من الناس المارين في وسط الشارع

ليستمعوا. ضحك البعض منهم بينما غضب الآخرون.

قال أحدهم لألياس: "صرنا لا نسمع مؤخراً من قصر المطران سوى الغناء. كأنك تعتقد أنه حانة."

دخل إلياس حانقاً. رآه فرانسيس، وعلى حين غرة قطع أغنيته.

قال إلياس كاتماً غيظه: " أخي فرانسيس، سامحني لقولي هذا فلن يناسب سمعتك أنت القديس في أن تعزف العود وتغني ويسمعك كل من مر من هنا. ماذا سيقول الناس؟ ماذا يقولون عنك وعن الرهبنة؟ أهذا هو الإلتزام والحياة القدسية التي ندعو إليها؟ ابهذا الأرواح نذهب إلى الفردوس؟"

وتساءل فرانسيس ممتعضاً مثل طفل وبخه معلمه: "وما هو السبيل الآخر يا أخي إلياس؟"

فقال إلياس: "الغناء؟ أخشى ان يكون مغني التروبادور هذا هو المسؤول"! وأشار إلى سكون الذي راح يخفي العود وراءه ولكن من دون جدوى.

ولكن الدم ارتفع إلى وجه فرانسيس.

"أنا المسؤول! أنا المسؤول عن الذي يفعله أخي سكون! وأنا المسؤول عن الأخ ليو أيضاً. والمسؤول عنك يا أخي إلياس، أنا المسؤول عن نظام رهبنتنا كله! أنا من سوف يقدم التقرير إلى الرب عنكم جميعاً. وإن غنيت فقد أمرني الرب بذلك. قال لي: "فرانسيس لم تعد ترجى منك أية فائدة. لقد إغتصب إلياس السلطة منك ورماك خارج نظام الإخوة. لذلك خذ العود وتقاعد في عزلة وغن"!

فرد إلياس: " لقد أمرك الرب أن تغني في عزلة قلت ذلك بنفسك! إي عزلة وأنت هنا في وسط الشارع. أنا آسف يا أخي فرانسيس أنا

القائد الآن ولدي مسؤولياتي."

نشر فرانسيس ذراعيه ثم أعادهما إلى جانبه. كان يريد أن يجيبه، لكن ضغط الكلمات كان يخنقه. فالتفت إلي أخيراً:

"أخي ليو، إننا نطرد حتى من هنا... حتى من هنا. أين سنذهب؟ ما الذي سيحدث لنا؟.... تعال أنهض، سوف نغادر."

"إلى أين يا أبتي؟ الليل حالك في الخارج."

"لقد طردنا من هنا... حتى من هنا...."

ظل يتمتم ناشراً ومطبقاً يديه يائساً.

قال إلياس: "امكث هنا حتى الصباح يا أخي فرانسيس. لم يجبرك أحد على المغادرة، كل ما عليك أن تفعله هو أن تكف عن الغناء. وفي صباح الغد تصرف كما يلهمك الرب."

انحنى، وقبل يد فرانسيس وخرج.

كان سكون الذي أصابه الهلع قد تسلل أثناء ذلك. وبقينا نحن الإثنين وحدنا.

"ماذا كنت تقول يا أخي ليو؟"

"لا شيء يا أبتي. لم أتكلم."

لا بل قلت. أن كل من يسكن بين الذئاب لابد له أن يكون ذئباً وليس حملاً. هذا ما قلته يا أخي، وهذا ما يقوله الناس من العقلاء. لقد أهداني الرب جنوناً جديداً، وأنا أقول أن كل من يعيش بين الذئاب يجب أن يكون حملاً وليس عليه أن يخاف مثقال ذرة من أن يؤكل! ... ما أسم ذلك الجزء الخالد منا يا أخي ليو؟"

"الروح."

"تماماً - وهذا مالا يستطيع أحد أن يأكله"!

في الصباح التالي، استيقظ فرانسيس عند الفجر في مزاج منشرح. قال: "إسمع يا أخي ليو، لم أعد بحاجة إلى سكون أو عوده، ولم أعد بحاجة إلى الخشبتين اللتين جلبتهما لي. في الليلة الماضية، وللمرة الأولى، أدركت المعنى الحقيقي للموسيقى والغناء. كنت تغط في نوم عميق، لكن ذلك الكائن المتداعي الذي يسمّونه الناس فرانسيس، ظل متيقظاً بسبب آلامه. كان دم المسكين قد بدأ يشكل بقعاً على شرشفه مرة أخرى، وهو يعاني حقاً. لقد سمعت آخر الناس وهو يمر ماشياً في الشارع، وسمعت الكلاب تنبح، وسمعت الأبواب والشبابيك وهي تغلق، ثم بعد ذلك حل السكون والهدوء. والفرح والصمت! وفجأة سمعت شخصاً يعزف القيثار تحت نافذتي. ولم تنته موسيقاه إلا بعد وقت طويل. كانت في بعض الأحيان قريبة مني، وأحياناً بعيدة بعيدة، وكان عازف القيثار يمشي جيئة وذهاباً من طرف المدينة إلى الطرف الآخر. لم أشعر في حياتي بأعظم من هذه المتعة: بل الغبطة. وأكثر من الغبطة! بدا لي أنني كنت مدفوناً في حضن الرب، الذي منحت له نفسي كلياً."توقف فرانسيس للحظة، ثم قال:

"لو أن الموسيقى قد طال أمدها أكثر من ذلك لكنت قد مِتُ من السعادة."

ثم، بعد توقف آخر، إبتسم وأضاف:

"لم يرد إلياس أن أعزف العود وأغني. والآن أرسل الرب ملاكاً ليغني السرينادا تحت نافذتي ليدحر فتوى إلياس!"

حاول أن يقوم لكنه لم يستطع إذ لم تكن لديه القوة الكافية. قال: "تعال، ساعدني يا أخي ليو، دعنا نغادر، إلى حيث نكون

أحراراً في أن نغني. إلى كوخنا الصغير قرب بورتيونكولا."

استدعيت سكون. وحملنا فرانسيس على أذرعنا وأخذناه إلى الباب الخارجي. كان المطران في مكان بعيد، إذ خرج ليقوم بجولة في القرى.

وأنتشرت الأخبار بأن القديس عائد إلى بورتيونكولا مثل البرق من فم لفم حتى عرفت المدينة كلها، وبينما كنا نسير عبر الأزقة الضيقة، كان الرجال يظهرون من بيوتهم ودكاكينهم، وتهرع النسوة ليلتحقن بهم مع الأطفال، كانوا يلوحون له بغصون الغار والآس، ثم أندفعوا أمامه ليقودوا المسيرة.

سرنا عبر البوابة المحصنة، وإجترنا بستان الزيتون، ثم رحنا نهبط. كان ذلك في شهر آب والجو ساخن. كانت أشجار التين محملة بالثمار، وتعلقت عناقيد العنب من الأشجار، كانت الحقول محصودة، وتفوح رائحة العشب وأوراق التين التي أصفرت بالشمس من السهل.

ناشدنا فرانسيس: "ألا سيروا ببطء ولا تتعجلوا. سترون أنتم هذه التربة الحبيبة مرة أخرى، أما أنا فلا. إن أردتم بركتي، سيروا ببطء."

كان يصارع عينيه المضببتين ليرى صقلية، وبستان الزيتون والكروم وكل شيء وأن يأخذها معه إلى الفردوس. وما كادت المدينة الحبيبة تختفي من خلفنا، حتى صرخ فرانسيس: "توقفوا، دعوني أراها للمرة الأخيرة لأودعها."

توقفنا، وأدرنا وجهه نحو المدينة. وتوقف الناس الذين يسيرون خلفنا بدورهم صامتين ينتظرون. حدق فرانسيس وحدق دون نهاية نحو المنازل والكنائس والحصن نصف المهدم الذي يتوجها. عند ذاك

بدأت الأجراس تقرع رنين ركعة الموت.

تساءل: " لماذا تقرع الأجراس؟"

أجبناه جميعاً: "لا نعلم... نحن لا نعلم..."

لكن الجميع يعرفون أنها كانت تودع فرانسيس السائر نحو الموت. كان وهو يمسح عينيه اللتين راح بصرهما يضمحلّ على نحو سريع، يجاهد بأن لا تغيب صقلية عن بصره. ومن خلفها، منحدرات جبل ساباميو المُغطاة بالزيتون والكهوف التي التجأ إليها في البداية كي يزور الرب. رفع يده ببطء ورسم صليباً فوق المدينة العزيزة.

تمتم: "وداعاً يا أمي صقلية. لك الحمد يا إلهي، لهذه المدينة الرائعة ببيوتها وناسها وعرائشها ومزهريات الريحان والمارجورام تحت نوافذها والسيد بيترو بيرناردون والسيدة بيكا، وأيضاً إبنهما الفقير الصغير فرانسيس. آه صقلية، لو أنني أستطيع حملك عالياً بيدي وأعرضك هناك عند قدمي الرب!

لكنني لا أستطيع، ولا أستطيع يا حبيبتي ولذا: فوداعاً!

سقطت الدموع من عينيه، وحنى رأسه على صدره مجهداً.

وهمس مرة أخرى: "وداعاً... وداعاً..."

خلفنا، كان الناس الذين ينشجون قد بدأوا يرتلون لحناً جنائزياً.

وانطلقنا معاً جميعاً، نسير مسرعين نروم الوصول. وحين وصلنا الكوخ طرحنا فرانسيس برفق على الأرض: ومن دون أن ندرك، كانت قواه قد وهنت بينما كان محمولاً على أذرعنا، وفقد الوعي. انصرف الحشد، وأسرع الأخوة الذين في بورتيونكولا - جونيبر وماسيو وروفينو وجيلز وبيرنارد - ليقبلوه، لكنه لم يحس بشفاههم على يده.

مـر أسـبوع وإثنـان وثلاثـة. قطـف العنـب وانتهـى وراحـت أوراق العنـب تحمر، وتحـول الـتين إلى عـصير، وتلألا الزيتـون. ومـرت مـن فوقنـا أوائـل طيور الكراكي متجهة نحو الجنوب واستعدت السنونوات مرة أخرى للرحيل.

حينما يفتح عينيه في بعض الأحيان يبقى ساكناً ويده في يدي، وفي أوقات اخرى أساعده في أن يجلس ويحدثنا عن الفاقة والسلام والحب، السيدات الخالدات، بينما حدق برفق بكل من الإخوة الخمسة أو الستة الذين يجلسون حوله ويجتهدون في أن لا تفوتهم كلمة واحدة. وكانت هذه هي تعاليمه الأخيرة، هكذا قلنا لأنفسنا، وهي ليست لنا فقط بل لكل الأخوة والراهبات الغائبات، وكل الأخوة والأخوات الذين سيولدون. وكان من واجبنا، لذلك، أن نحفرها عميقاً في عقولنا كي لا تضيع.

تساءل: "ما هو الحب يا أخوتي؟" وفتح ذراعيه. كان راغباً في معانقتنا." ما هو الحب؟ إنه ليس عاطفة فقط، ولا حنين. في العاطفة ثمة إثنان: من يعاني ومن يشعر بالعاطفة. وفي الحنين ثمة إثنان أيضاً: من يعطي ومن يأخذ. أما في الحب فليس هناك غير واحد: يتحد الإثنان: يمتزجان، يغدوان غير منفصلين. الـ "أنا" والـ "أنت" يتلاشيان. فإن تحب معنى هذا أن يضيع العاشق في المعشوق. في أحد الأيام أستيقظ من غيبوبته ووضع يده في يدي:

"أخي ليو بودي لو أرى الأخ جاكوبه قبل أن أموت لأقول لها الوداع. أسد لي هذا المعروف، أرجوك: خذ ورقة وأكتب: " من الأخ فرانسيس، فقير الله الصغير إلى جاكوبه: لدي شيء أود أخبارك به أيتها العزيزة جاكوبه، ولأن نهاية حياتي تقترب فلا تضيعي الوقت

إن رغبت في رؤيتي ثانية على هذه الأرض. أسرعي حالما تصلك رسالتي هذه إلى بورتيونكولا. لو تأخرت قليلاً فقد لا تجدينني حياً. إجلبي لي معك كفناً خشناً ليلتف حول جسدي، وأيضاً الشموع للجنازة."

إلتفت إلى الأخ الذي كان راكعاً إلى جانبه ورأى أنه جونيبر.

"أخي جونيبر هذا هو آخر معروف أطلبه منك. خذ هذه الرسالة و.."

وصمت فجأة. ثم رفع رأسه، وكأنه يصغي لشيء ما. وانتشرت على وجهه إبتسامة عذبة.

"لا حاجة بك لأن تذهب إلى روما الآن يا أخي جونيبر، المجد لله! أشكرك على أية حال."

حين قال ذلك التفت نحو المدخل. وسمرنا عيوننا جميعاً نحو الباب كأننا كنا نتوقع شخصاً ما.

عند ذلك سمعنا خطوات في الخارج. وأسرعت لأرى من القادم، ولكنني قبل أن أصل الباب أطلقت صرخة: "كانت الأخ جاكوبه تقف أمامي! دخلت المرأة النبيلة ووقعت عند قدمي فرانسيس وراحت تقبل جراحه.

همست باكية وهي تداعب يديه: "أبتي فرانسيس... أبتي فرانسيس."

وضع فرانسيس كفه على رأسها: "مرحباً، مرحباً بالأخ جاكوبه. أنا مسرور بمجيئك. مسرور جداً... من جلب لك الرسالة؟"

قالت: "لقد زارتني العذراء المباركة في منامي، وقالت لي أن فرانسيس يحتضر، أسرعي إليه وخذي معك الكفن الذي نسجته،

وأيضاً الشموع للجنازة."

ووضعت الكفن عند قدمي فرانسيس.

"لقد نسجته بيدي من صوف الحمل الذي أهديته لي."

جلس ونظر إلى قدميه ويديه، وتلمس صدره الفائر الملطخ بالدم .. وتنهد. قال: "سامحني يا أخي الحمار، سامحني يا جسدي العجوز المتداعي لأنني عذبتك كثيراً."

وابتسم بمرارة.

"وأنت أيتها الأم، الأرض المبجلة: لا بد لك من أن تسامحيني أيضاً. لقد منحتني جسداً رائعاً ومتوهجاً، وها أنت تنظرين كيف أعيده إليك طيناً وقذارة"!

وجحظت عيناه بينما كان يتكلم، فمد ذراعه وأشار نحو الباب.

"أنظر، ها هو"!

"من ؟"

"المتسول! المتسول يا أخي ليو. إنه عند الباب، رفع يده المثقوبة وحياني. وها هو يزيل قلنسوة من رأسه .. آه لا! لا!"

"أبتي فرانسيس، أبتي فرانسيس، توقف عن الإرتعاش"!

"إنه أنا، أنا، أنا! ..ها هو وجهي، الصليب على جبهتي والندوب من الحديد الساخن على صدغي... لقد دخل، إنه يقترب..."

أخفى فرانسيس عينيه خلف كم ردائه.

تمتم مرتعشاً: "لقد جاء... لقد جاء... انظر إنه يبتسم بسعادة ويمد ذراعه إلي"!

ووضع الكم الآخر فوق عينيه الآن، ولكنه استمر يرى.

صرخ: "إنه هنا، هنا، إنه يتمدد إلى جانبي على بساطي. ها هو!...

النجدة، يا أخي ليو، النجدة"!

وصحا من الغيبوبة، وعانقني. ثم مد يده وبحث ناظراً نحو اليمين ثم نحو اليسار، وخلف رأسي.

تمتم:"لا أحد، لا أحد"!

ولكن بعد دقيقة قال مفكراً:

"لقد أتحدنا، لقد غدونا واحداً. إنتهت الرحلة."

كانت النهاية تدنو. وظل الإخوة الرهبان يفدون من كل الجهات لتوديع فرانسيس. كان إلياس يجري من قرية لأخرى جامعاً السكان ليعلن لهم أن القديس يحتضر وأن على كل شخص أن يهيء شمعة متقدة من أجل الجنازة.

وعمل على أن يتأكد من أن المطران قد أعطى تعليماته للقندلفت لقرع أجراس النعي ليلاً ونهاراً.

وفي سان داميانو ركعت الأخوات أمام الصليب يناشدن الرب تأجيل موت فرانسيس. وهبط الكابتن ذئب من الجبل، مسافراً نحو بورتيونكولا، واقترب من فرانسيس على أطراف أصابعه وقد جلب معه سلة تين وعنب هدية لفرانسيس الذي فتح عينيه وتعرف عليه.

"أخي الحمل! مرحباً بك! لا بد أن الصقور البرية لالفرنيا قد نقلت لك رسالة بأني أحتضر. وداعاً يا أخي."

أجاب المتوحش: "لست انت مَنْ يحتضر، يا أبتي، لست أنت، بل نحن. أغفر لي كل شيء فعلته."

"الله سيغفر لك يا أخي حمل، لا أنا، لو أُنقذت، فلسوف ينقذ كل شيء معك، حتى الحملان التي أكلتها حين كنت ذئباً."

أخذ الأخ ذئب السلة التي جلبها معه ووضعها بيد الرجل الذي يحتضر.

"هذه بعض الثمار من العنب والتين لتودعها يا أبتي. بإمكانك أن تأكلها بضمير مطمئن فلم أسرقها"!

وضع فرانسيس كفه على الثمر الناضج، متمتعاً بالطزاجة الباردة. ثم أقتطف حبة عنب من العنقود ووضعها في فمه. ثم أخذ ثمرة تين وامتصها من العسل الذي يسيل منها.

"وداعاً أيها التين والعنب، يا أخوتي. وداعاً للمرة الأخيرة، فلن أراكما ثانية."

* * *

ها قد انتهى شهر أيلول. وفي باكر يوم من شهر تشرين الأول صارت السماء داكنة وبدأ تساقط أول رذاذ خريفي. وانتشر ضباب شفيف فوق أشجار الزيتون والصنوبر: لقد فاضت عذوبة على العالم لا يمكن التعبير عنها، واستلقت الأرض خصبة وراضية في الهواء الرطب. فتح فرانسيس عينيه. كان في الكوخ بعض الأخوة الذي جاءوا من كل الجهات، وصلوا في الصباح الباكر الكثير منهم جثموا على الأرض، وبقي الآخرون واقفين. كانوا جميعاً ينظرون إليه صامتين من دون أن يجرؤ أحد منهم على كسر الصمت المقدس، ومن وقت لآخر كانوا يكفكفون دموعهم ويخطون جانباً ليتنفسوا قليلاً. مد فرانسيس ذراعه ليحييهم.

قال بيرنارد وهو راكع يقبل يده: "ها أنت تغادر يا أبتي فرانسيس، ها أنت تغادر، وسترتقي السماء. إفتح فمك لآخر مرة وتحدث إلينا."

هز فرانسيس رأسه.

"أبنائي، أخواتي، آبائي: كل ما أريد قوله قد قلته لكم سابقاً. كل دم ملكته في قلبي قد منحته لكم من قبل. الآن لم تعد لدي كلمات أخرى أقولها لكم أو دم أمنحه لكم. لو كان عندي مثل هذه الأشياء لكان الرب قد أبقاني وقتاً أطول على الأرض."

فصرخ جيلز من الزاوية التي كان يقف فيها وينشج: "أليس لديك أي شيء، أي شيء لتقوله لنا؟"

"الفاقة والسلام والحب ولا شيء آخر، يا إخوتي... الفاقة والسلام والحب."

حاول أن يجلس ولكنه لم يستطع.

"أخلعوا ثوبي عني يا إخوتي. إطرحوني عارياً على الأرض كي ألمسها وتلمسني."

عريناه ونحن ننتحب. طرحناه على الأرض وركعنا حوله. وأحسسنا جميعاً بحضور الملاك الكبير فوق جسده.

جاءت الأخت كلارا، من دون أن يلاحظها أحد، كانت تصغي عند المدخل. وسمعنا فجأة نحيباً. إلتفتنا فرأيناها جاثمة عند العتبة تبكي، كان وجهها قد التفّ بخمارها بقوة. وعلى حين غرة، انتشر العويل والندب بين الجميع.

تساءل فرانسيس مندهشاً: "لماذا تبكون يا إخوتي؟"

"هل تصدقون حقاً أن هذه الحياة جميلة إلى هذه الدرجة؟ أين إيمانكم بالحياة الأبدية يا إخوتي؟ أهو هزيل إلى هذه الدرجة؟.. أخي الموت، أنت يا من تنتظر خلف الباب: سامح البشر. إنهم لا يعلمون برسالتك النبيلة، ولهذا فهم يخشونك."

وحدق في من حوله.

"أينك يا سكون؟ إعزف بعودك، ودعنا جميعاً نغني ترنيمة المديح:
لك الحمد، يا إلهي، بكل مخلوقاتك، لاسيما الأخ السيد الشمس...

ورافقت الآخرين في الغناء، غير أن ذهني كان يتجول في مكان آخر.

تلاشى الكوخ وكذلك بورتيونكولا، وصقلية وكل شيء. ووجدت نفسي في أرض منبسطة مجهولة كانت أرضاً خضراء لامعة ولا حدود لها. يضطجع فرانسيس في الوسط ووجهه متجه نحو السماء يتنفس أنفاسه الأخيرة بينما كان ينزل من السماء رذاذ رقيق ومسالم، وعن بعد كنت أرى قمم الجبال يلفها الضباب. ثمة رائحة عبقة كانت تنبعث من التربة المحروثة تواً. وفي مكان بعيد كان المحيط يتنهد. كان فرانسيس وحده، ولم يكن ثمة أحد قربه، ولكن بعد ذلك تجمد الهواء بغتة وظهر الإخوة الأصلاء الأثنا عشر حوله في دائرة وجثموا واضعين رؤوسهم في قلنسواتهم. لم يسمع صوت سوى الأنين والنواح. وكنت بينهم، حالما رفعت عيني ونظرت إلى الأثنى عشر، رأيت مئات الآلاف من الرهبان الحليقين، رؤوسهم منخفضة، وينشدون قداس المتوفى. ثم ركعت على ركبتي، ونظرت إلى البعيد، فرأيت ثيراناً وخيولاً وكلاباً وقطعان شياه كلها تتجه نحونا، وهي تندب بصخب. وقفت خلف الرهبان حانية رؤوسها. ثم جاءت الحيوانات البرية: من ذئاب ودببة وثعالب وبنات آوى، ظهرت من عمق الغابة واصطفت خلف إخوتها من الحيوانات الأليفة وراحت أيضاً تندب وتعول. وبغتة سمعت من فوق آلاف المخلوقات المجنحة. رفعت عيني وشاهدت مجاميع من الطيور من كل صنف وهي تهبط بصرخات

حادة وتحط حول فرانسيس، ورأيت حجلاً ينتف ريشه وكان أول طير يطلق ترنيمة جنائزية.

تمتمت: "حبيبي فرانسيس، حبيبي فرانسيس، لقد جاءت إليك كل الطيور والحيوانات وهي تبكي، لقد حضرت جميعها في تشييعك، كل الإخوة..."

وفجأة تغطت السموات بالبروق الزرق والخضر والذهبية والأرجوانية. رفعت رأسي. كان الهواء قد أزدحم بالأجنحة. آلاف وآلاف الملائكة جاءوا وجلسوا حول الرجل المحتضر، ثم طووا أجنحتهم وأنتظروا بوجوه مبتسمة، وأستعدوا لنقل روحه ...

وعلى حين غرة تلاشى حلم اليقظة بصرخات تفلع القلب. ثلاث نساء أستلقين على فرانسيس في محاولة لمنعه من الرحيل. كانت الأخت بيكا تحتضن رأسه، والأخت كلارا تقبل قدميه وتعانقهما، بينما الأخ جاكوبه تشبثت بيده وألصقتها بصدرها. غابت الشمس، وأستمر المطر بالهطول، مالئاً وشاقاً الأرض. في تلك اللحظة رأينا جميعاً جناحين أسودين يرفرفان فوق فرانسيس.

كان وجهه متألقاً، وعيناه مفتوحان على وسعهما وشاخصتان في الريح. وتحرك فجأة مستحثاً كل قواه، ثم التفت محدقاً ببطء في كل واحد منا. وتحركت شفاهه، كان يبدو أنه لديه آخر الكلمات التي يود قولها لنا، فاقتربت منه.

"الفاقة والسلام والحب....."

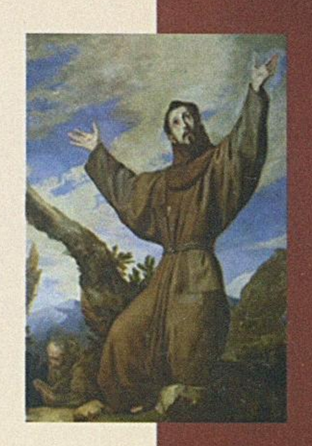
وخرس صوته متلاشياً تماماً، كأنه كان يأتي من مكان بعيد بعيد من الشاطيء الآخر. وحبست نفسي محاولاً سماع المزيد. ولكن لم يبق شيء.....

ثم أنحنينا كلنا على جسده نقبله وننشد ترنيمة الموت.

في اللحظة المقدسة التي كنت فيها أحفر هذه الكلمات الأخيرة، وأنا جاثم في صومعتي وقد غلبتني الدموع في ذكرى أبي الحبيب. حبط عصفور صغير على نافذتي وراح ينقر في خشب النافذة. كان ناقعاً ويرتجف من البرد. نهضت ودعوته أن يدخل.

كان ذلك هو أنت يا أبتي فرانسيس، كنت أنت، وقد تخفيت في عصفور صغير.





فقير الله
القديس فرانسيس الأسيزي

حين كنت أكتب هذه الأسطورة، التي هي أصدق من الحقيقة نفسها، كنت مغموراً بالحب والتبجيل لفرانسيس، البطل والشهيد العظيم كثيراً ما كانت الدموع تبلل المخطوطة، وغالباً ما كانت ثمة يد ترفرف فوق رأسي في الهواء، يد ذات جرح أبدي، كان يبدو أن شخصاً ما قد سمرها بمسمار وإلى الأبد.

في أي مكان حولي، وحيثما كنت أكتب، كنت أحس بحضور القديس اللامرئي، لان القديس فرانسيس بالنسبة لي هو أنموذج الإنسان المطيع، الإنسان الذي ينجح، من خلال النضال الذي لا يعرف الكلل، والقاسي الذي لا يمكن وصفه، في تحقيق واجبنا السامي الأعلى من الأخلاقية أو الحقيقة أو الجمال: واجب تحويل المادة التي وثق اللّه بنا وسلمنا إياها إلى روح.

نيكوس كازنتزاكيس

التكوين